Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر والشام

في عصر الأيوبيين والمماليك

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعتي القاهرة وبيروت العربية

١٩٧٢

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩



مصر والشام

في عصر الأيوبيين والمماليك



مصر والشام

في عصر الأيوبيين والمماليك

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعتي القاهرة وبيروت العربية

١٩٧٢

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩



بسم الله الرحمن الرحيم



الباب الأول

الدولة الأيوبية

الفصل الاول

مولد الدولة

إذا كنا قد أفضنا بعض الشيء في الكلام عن عظمة الدولة الفاطمية ومدى ما أصابته مصر من تقدم حضاري على أيام الفاطميين ، فإن هناك حقيقة يجب ألا تغيب عن أبصارنا ، هي أن منطقة الشرق الأدنى شهدت أواخر العصر الفاطمي تحولا خطيراً نتيجة لنجاح الصليبيين في الاستقرار في قلب تلك المنطقة . وقد سبق أن أشرنا إلى أن الدولة الفاطمية كانت في خريف عمرها عندما ظهر الخطر الصليبي ، وكيف أنها عجزت عن فهم طبيعة ذلك الخطر في الوقت المناسب ، بل فشلت في صد هذا الخطر وفي حماية نفسها منه .

ومعنى هذا كله أنه صار عليها أن تتنحى ، وتفسح المجال لقوة أخرى فتية تحل محلها ، وتستطيع أن تنهض بأمانة الجهاد .

وزاد الموقف سوءاً بالنسبة للمسلمين في الشرق الأدنى في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلاد) تفكك دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢م) ، وهي الدولة التي سبق أن نفخت في العالم الإسلامي في الشرق الأدنى روحا جديدة مكنت المسلمين من الصمود في وجه الروم ، بل مهاجمتهم في عقر دارهم . وكان أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة — وخاصة في بلاد الشام والعراق — ظهور عدد

كبير من البيوت الحاكمة ، لاتجمعها رابطة إلا الانتساب إلى البيت السلجوقى الكبير ، ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها اسم اتابكيات ، وعلى أصحابها اسم أتابكة ، وبعض هذه الوحدات صغيرة جداً لا تتعدى حدودها أسوار مدينة أو قلعة واحدة[1] .

ومن أبرز تلك الأتابكيات أتابكية دمشق — ومؤسسها ظهير الدين طغتكين - وقد استمرت من سنة ٤٩٨ حتى ٥٤٩ هـ (١١٠٤ — ١١٥٤)[2] أما أتابكية الموصل فؤسسها عماد الدين زنكى ، وقد استمرت من سنة ٥٢١ حتى سنة ٦٦١ هـ (١١٢٧ — ١٢٦٢م) .

وإلى زنكى هذا ترجع البذور الأولى للجبهة الإسلامية المتحدة فى الشرق الأدنى ، لأنه كان يحمل تقليداً من سلطان السلاجقة بحكم حلب فضلا عن الموصل ، ومعنى ذلك أن نفوذه امتد من شمال العراق إلى شمال الشام . وكان زنكى يتطلع إلى إتمام الجبهة الإسلامية عن طريق ضم الإمارات الإسلامية المجاورة — وبخاصة أتابكية دمشق — لولا قتله المفاجىء سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م) بعد سنتين من استيلائه على الرها من الصليبيين[3] .

ولكن نور الدين محمود — ابن عماد الدين زنكى — حمل الأمانة ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) ومن ثم أخذ يتطلع إلى مصر لتمتد الجبهة الإسلامية المتحدة من الفرات إلى النيل[4] .

ولم تلبث أن غدت مصر — كما سنرى بالتفصيل بعد أسطر قليلة —

---

(١) أتابك لفظ تركى معناه « مربى الملك » ، فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب امعانا فى تكريمه .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١١٦ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٧ ؛ الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

ميدانا لصراع طويل بين قوات نور الدين محمود وقوات الصليبيين ، فى الوقت الذى كانت الخلافة الفاطمية نفسها لا تقوى على مجرد الحركة . وهذا يتطلب منا إلقاء نظرة سريعة على موقف الصليبيين — الذين استقروا فى بلاد الشام — من مصر وأرض النيل .

مصر والحروب الصليبية:

ترتب على الحركة الصليبية التى بدأت فى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلاد) نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الشرق والغرب جميعاً ، ويهمنا من هذه النتائج فى دراستنا هذه ما يرتبط بالجانب السياسى . ذلك أن الأوضاع السياسية فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى تعرضت لتغييرات وتطورات سريعة منذ وصول الصليبيين إلى الشام ؛ وهـذه التغييرات والتطورات إنما جاءت إلى حد كبير وليدة الخطر الصليبى . فالصليبيون أنفسهم قضوا على كثير من الأتابكيات والإمارات الصغرى التى كانت قائمة فى بلاد الشام عند وصولهم إلى تلك البلاد .

على أن انتصار الصليبيين على المسلمين فى الحملة الصليبية الأولى، ونجاحهم فى تأسيس إمارات فى الرها وأنطاكية وطرابلس ، فضلا عن مملكة بيت المقدس ، كان له أثره السيء ورد فعله العنيف فى العالم الإسلامى ، الأمر الذى استثار بعض الزعماء المخلصين فى المشرق الإسلامى ودفعهم إلى القيام بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين . ولم تلبث أن أدت حركة الجهاد فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلاد) إلى بروز عماد الدين زنكى ثم ابنه نور الدين محمود على مسرح التاريخ فى الشرق الأدنى . وسرعان ما اتضح أن نجاح حركة الجهاد الإسلامية لا يتحقق إلا فى ظل جبهة إسلامية متحدة، توحد بين القوى الإسلامية المبعثرة بين النيل والفرات ، وتجعل من هذه القوى بنياناً مرصوصاً يستطيع الصمود فى وجه الخطر الصليبى . وكانت هذه الفكرة — فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة — هى المحـرك الأول الذى جعل

نور الدين محمود يتجه ببصره شطر مصر بعد أن تم له الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) وأصبح يسيطر على المدن الكبرى فى الشام مثل حلب ودمشق[١]. وسنتكلم فيما بعد عن تدخل نور الدين محمود فى شئون مصر، لنوضح كيف انتهى ذلك التدخل بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية. ولكن الذى نحب أن نؤكده الآن هو أن التطورات السياسية التى انتهت بقيام الدولة الأيوبية، إنما جاءت نتيجة مباشرة من نتائج الحركة الصليبية.

والواقع إن الصليبين لم يقلوا طمعاً فى ملك مصر عن نور الدين؛ بل إن الصليبيين سعوا لإمتلاك مصر منذ الوقت الذى استقرت لهم الأمور فى فى بيت المقدس. من ذلك إن جودفرى دى بوايون — أول حكام دولة الصليبيين فى بيت المقدس — وضع مشروعاً للاستيلاء على مصر ولكنه توفى سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠م) قبل أن يبدأ فى تنفيذ مشروعه. وعندما خلفه أخوه بلدوين الأول، خرج هذا الملك الجديد سنة ٥١٠هـ(١١١٦ م) للقيام بحملة استطلاعية، فوصل إلى أيله على شاطىء البحر الأحمر، ثم اتجه إلى دير القديسة كاترينا فى شبه جزيرة سينا؛ فرفض رهبان الدير أن يستضيفوه فى ديرهم خوفاً من السلطات الفاطمية فى القاهرة، وعندئذ عاد واتجه نحو الفرما واستولى عليها ونهبها، ثم تقدم إلى تنيس على شاطىء بحيرة المنزلة حيث مرض وتوفى بالعريش وهو فى طريق عودته سنة ٥١٢ (١١١٨ م)[٢].

ومنذ ذلك الوقت لم يتخل الصليبيون عن فكرة الإستيلاء على مصر، حتى كان منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر للميلاد) عندما رأى نور الدين محمود أن الجبهة الإسلامية المتحدة لاتستدير حلقتها وتكتمل

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢ ص ٦٦٦.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركه الصليبية، ج ١ ص ٣٢٨ — ٣٢٩.

إلا بالاستيلاء على مصر بالذات، الأمر الذى جعل من مصر ميداناً رئيسياً فى الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين .

وفى أوائل سنة ٥٥٧ ﻫ (١١٦٢م) توج عمورى الأول ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقات بين الصليبيين ومصر . ذلك أن عمورى الأول اتصف بالشجاعة والجرأة والدهاء ، وهى صفات أجمع على وصفه بها المؤرخون المعاصرون من المسلمين والمسيحيين سواء[١]. وقد أدرك عمورى أن سيطرة نور الدين محمود على حلب وحماه وحمص ودمشق قد حالت دون توسع الصليبيين فى شمال الشام ، وأن الطريق الطبيعى الذى بقى مفتوحاً أمام الصليبيين هو طريق مصر .

وكانت الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت تقاسى آلام الموت البطىء ، بعد أن انحلت الخلافة وفقدت هيبتها واختلت أحوال مصر الداخلية . ولا أدل على انحلال الدولة الفاطمية عندئذ من نهاية كثير من الخلفاء بالقتل فضلا عن تحكم الوزراء العظام فى شئون الدولة والخلافة جميعاً . وقد حدث أن مات الخليفة الظافر مقتولا سنة ٥٤٩ ﻫ (١١٥٤ م) ، فاستبد بالأمور فى مصر الوزير طلائع بن رزيك — الأرمنى الأصل . وكان الخليفة الفائز — ابن الظافر — طفــــلا صغيراً لا يمتلك من الخلافة إلا لقبها . وعندما توفى الفائز وهو فى الحادية عشر من عمره سنة ٥٥٥ ﻫ (١١٦٠ م) أقام طلائع فى الخلافة الخليفة العاضد الذى كان هو الآخر صغيراً فى السن ، مما مكن الوزير من اللهو بالخلافة واستعراض المرشحين لها « استعراض الغنم » على حد قوله[٢] . ولم يلبث أن أحس الخليفة العاضد بثقل ذلك

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٦٤ ﻫ .
Grousset: Hist. des Croisades, II, pp. 438-442.

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٥٦ ﻫ .

الكابوس ، فدبر مؤامرة مع الأمراء لقتل بن رزيك ونجحت المؤامرة سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، فخلف ابن رزيك في منصب الوزارة ابنه العادل ، حتى قتله شاور حاكم الصعيد وتولى الوزارة بدله سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) . ثم كان أن استبد شاور وساءت سيرته ، فخرج عليه ضرغام واشتد التنافس بين الرجلين ، في الوقت الذى أخذ عمورى الأول ملك بيت المقدس يتطلع لغزو مصر .

وقد قام عمورى بغزو مصر سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣ م) فوصل إلى بلبيس وحاصرها ، ولكن ضرغام أرغمه على الانسحاب ، في الوقت الذى كان شاور قد لجأ إلى نور الدين محمود بالشام ، وأطمعه في الديار المصرية[1] . وكانت غزوة عمورى لمصر قد أفزعت نور الدين لأنها كشفت عن نيات الصليبيين في امتلاك وادي النيل ، ولذلك رأى نور الدين أن يسرع بإرسال جيوشه إلى مصر لحمايتها من السقوط في أيدى الصليبيين .

وقد أرسل نور الدين حملته الأولى إلى مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبته شاور وصلاح الدين — ابن أخى شيركوه — وكان في السابعة والعشرين من عمره . وهنا استنجد ضرغام بالصليبيين ، وتعهد لعمورى الأول — مقابل مساعدته — أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين[2] . ولكن مهارة شيركوه وسرعته في قطع الصحراء رغم تقدم سنه جعلته يسبق الصليبيين في الوصول إلى الدلتا ، فانتصر على جيش أرسله ضرغام ، ونجح في الوصول إلى القاهرة في بداية مايو سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) ولم يلبث أن تخلى عن ضرغام جميع الأعوان والناس والجيش والخليفة ، فقتل أثناء محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة[3] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٦ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٨٣ .

(٣) أبو شامه : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين سنة ٥٥٩ هـ .

على أن شاور لم يرع العهود التى قطعها على نفسه لنور الدين ، فلم يكد يتولى الوزارة حتى تنكر لأسد الدين شيركوه وطلب منه الخروج من مصر . وقد رد شيركوه على تصرفات شاور غير الودية باحتلال بلبيس والشرقية ، مما جعل شاور يحاكى سلفه ضرغام، فاستنجد بالصليبيين ووعد عمورى الأول بإعطائه مبلغاً كبيراً من المال مقابل مساعدته . وسرعان ما حضر عمورى الأول على رأس جيش صليبي كبير إلى الدلتا ، وعندئذ أخذ شيركوه يقوى مركزه فى بلبيس بعد أن تلقى مساعدات من عرب كنانة بالشرقية . وعندما أخذت جيوش عمورى وشاور تحاصر شيركوه فى بلبيس ، تم الاتفاق على أن يغادر شيركوه وعمورى مصر . وتم ذلك فعلا فى أواخر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤م) . وربما كان عمورى الأول أكثر تلهفاً على العودة إلى الشام بعد أن انتهز نور الدين محمود فرصة غيابه وشدد هجماته على الصليبيين .

عودة شيركوه إلى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧م) :

ولكن إذا كانت جيوش نور الدين والصليبيين قد أنسحبت جميعها من مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤م) إلا أن الطرفين خرجا من تلك التجربة بفكرة واضحة عن ثروة مصر وغناها مع ضعفها الشديد. وتتفق المراجع العربية فى أن شيركوه لم يغادر مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) إلا مكرها وأنه ما فتىء يذكر مصر عقب عودته إلى بلاد الشام ويرجو أن يعود إليها مرة ثانية[1]. ولكن نور الدين محمود كان حريصاً دائماً على عدم تشتيت قواته ، فى الوقت الذى كثرت الاشتباكات بينه وبين الصليبيين بالشام .

ولا يخفى علينا أن هناك سبب قوى ربما حرك عند نور الدين الرغبة فى غزو مصر ، وأعنى بذلك العامل المذهبى . ذلك أن الخلافة الفاطمية فى

---

(١) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٣٤٨

مصر كانت مصدراً من مصادر الفرقة فى العالم الإسلامى، لأنها جعلت ولاء المسلمين فى الشرق الأدنى تتقاسمه خلافتان ومذهبان، إحداهما الخلافة العباسية السنية فى بغداد والأخرى الخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة. لذلك كان من الطبيعى أن يتجه نور الدين — وهو الحاكم السنى الحريص على تدعيم الجبهة الإسلامية المتحدة وجعلها تمتد من النيل إلى الفرات — إلى التفكير فى القضاء على الخلافة الفاطمية فى القاهرة.

وكان أن أتيحت الفرصة مرة أخرى لنور الدين محمود عندما أرسل إليه الخليفة العاضد الفاطمى يشكو من استبداد شاور وظلمه. ولم يكن نور الدين فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد شاور، إذا كان فى قلبه منه «حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه، واستنجد عليه بالفرنج»[1] لذلك بادر نور الدين بإرسال حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧م)، وكان بصحبة شيركوه فى تلك المرة أيضاً ابن أخيه صلاح الدين. ويبدو أن شيركوه عمل حسابا لاستنجاد شاور بالصليبيين، فلم يشأ أن يغامر بقواته فى القيام بهجوم على القاهرة، واختار أن يعبر النيل إلى الجيزة حيث عسكر فى مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل، وعندئذ أخذ الخليفة الفاطمى يدرك أن خطر قوات نور الدين عليه وعلى خلافته لا يقل عن خطر شاور والصليبيين. وقد صح ما توقعه شيركوه، إذ استنجد شاور بعمورى الأول ملك بيت المقدس الذى أسرع فى نهاية سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة. وعندما علم شاور بوصول حلفائه خف لاستقبالهم عند بلبيس واتجه معهم حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل، فى حين كان شيركوه لا يزال معسكراً على الضفة الغربية. وفى هذه المرة أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور تضمن لهم أجرهم

---

(١) أبو المحاسن: النجوم ج ٥ ص ٣٤٨.

قبل أن يساعدوه فى محاربة شيركوه ، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار فى حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر ، على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدماً[1] . ومن الواضح أن هذه الاتفاقية جعلت من الصليبيين حماة مصر والخلافة الفاطمية . ولذلك رحب بها الصليبيون ، وحرص عمورى الأول على إعطائها صفة رسمية . فأرسل سفارة إلى الخليفة الفاطمى زارته فى قصره حيث تم اعتماد الاتفاق .

ولم تلبث أن أخذت قوات عمورى وشاور تستعد لعبور النيل لمهاجمة شيركوه ، بل أنهم عبروا فعلا إلى جزيرة الروضة ، وعندئذ أدرك شيركوه حرج موقفه فاتجه إلى الصعيد حيث لحق به عمورى الأول وشاور . وكان أن دارت معركة بين الطرفين قرب الأشمونين فى المنيا ، وهى معركة البابين ٥٦٢ هـ (مارس ١١٦٧ م) التى اشترك فيها صلاح الدين ، والتى انتهت بانتصار شيركوه وارتداد عمورى حيث عسكر على الضفة الشرقية للنيل قرب الفسطاط[2] . وكان من المحتمل أن ينجح شيركوه فى امتلاك القاهرة لو اقتفى أثر عمورى فى الحال ، ولكنه تباطىء وآثر أن يسير على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية التى « تلقاه أهلها طائعين» ورحبوا به معبرين عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين[3] .

ويبدو أن شيركوه خاف أن يحصره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل الاسكندرية ، فترك صلاح الدين فى الاسكندرية ترافقه قوة صغيرة ، فى حين اتجه شيركوه نفسه إلى الصعيد وسيطر عليه . وقد حدث ما توقعه شيركوه إذ خرج عمورى لحصار صلاح الدين بالاسكندرية ، فساءت حالة المدينة

---

(١) Schlumberger: Campagnes du Roi AmouryI, p. 116.

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية Rec. Hist. Cr. II, pp. 231-239.

(٣) أبو شامة : الروضتين ص ١٤٥ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٣٤٩ .

وقل الطعام بها حتى تحرج موقف صلاح الدين الذى لم يكن معه أكثر من ألف جندى. وقد أرسل صلاح الدين إلى عمه بالصعيد يشرح له سوء موقفه، ويطلب منه النجدة العاجلة، فاضطر شيركوه إلى العودة شمالا فى أواخر سنة ٥٦٢ ﻫ (١١٦٧ م). ويبدو أن شيركوه أدرك فى تلك المرحلة حرج موقفه، فأرسل إلى الصليبيين يطلب الصلح، وتم الاتفاق - مثل المرة السابقة - على تبادل الأسرى، وعلى أن يترك الطرفان مصر لينعم بها شاور من جديد.

وليس هناك من شك فى أن الذى شجع عمورى على قبول طلب الصلح هو إحساسه بسوء موقف الصليبيين بالشام فى ذلك الوقت، تحت ضغط هجمات نور الدين محمود. ولكن إذا كان عمورى قد غادر مصر فعلا، فإنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن حقق نوعا من السيادة الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية جميعاً. وأهم مظاهر هذه السيادة هى تعهد الفاطميين بدفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة ألف دينار، وبقاء قوة صليبية تحمى أبواب القاهرة، فضلا عن تعيين شحنة (مندوب) للملك الصليبي فى القاهرة يكون له رأى مسموع فى شئون الحكم [1].

استيلاء نور الدين على مصر :

على أنه إذا كان عمورى الأول قد خرج من مصر مضطراً سنة ٥٦٢ ﻫ (١١٦٧م) فليس معنى ذلك أنه تخلى عن فكرة الاستيلاء عليها، لا سيما وأن تردد الصليبيين على مصر فى المرات السابقة أدى إلى أن « اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها » على قول المؤرخ أبى المحاسن [2]. وقد أدرك عمورى الأول أنه فى حاجة إلى مساعدة قوة خارجية تمكنه من الاستيلاء على مصر، فتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية، وتم الاتفاق على أن تقوم

---

(١) ابن الاثير : تاريخ الدولة الأتابكية (Rec. Hist. Cr. II, pp. 240-246)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٣٥٠ .

القوات الصليبية البيزنطية بغزو مصر . ويبدو أن الامبراطور البيزنطى كان مشغولا فى البلقان عندئذ ، فطلب إمهاله بعض الوقت لينفذ اتفاقيته مع عمورى ضد مصر ، ولكن عمورى لم يشأ الانتظار وانفرد بالهجوم على أرض النيل . أما السبب الذى جعل عمورى يسرع بالهجوم ، فكان تنكر شاور لالتزاماته للصليبيين وعدم وفائه بتعهداته ، بل إن شاور اضطر تحت ضغط الرأى العام الإسلامى إلى أن يقلب سياسته رأساً على عقب ، فاتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته للتخلص من الحماية الصليبية [1] .

وعندما غزا عمورى مصر للمرة الرابعة سنة ٥٦٤ ﻫ (١١٦٨ م) لمس انقلاباً كبيراً فى موقف السلطات الحاكمة ، إذ قاومته بلبيس واضطر إلى استخدام العنف للاستيلاء عليها ، ثم تقدم مسرعا صوب القاهرة . وكان أن لمس شاور حرج موقفه واستياء الناس من سياسته فأحرق الفسطاط فى نوفمبر سنة ٥٦٤ﻫ (١١٦٨م) وبدأ يعد العدة للدفاع عن القاهرة .

ولم يلبث أن أدرك عمورى صعوبة الاستيلاء على مدينة كبيرة معادية مثل القاهرة ، فتراجع عنها بعد أن دفع له شاور مائة ألف دينار ، واتجه الصليبيون إلى جهة سرياقوس حيث سمعوا باقتراب جيوش نور الدين محمود بقيادة شيركوه .

وكانت خطة عمورى تتجه إلى مباغتة جيوش شيركوه عند فاقوس وهى متعبة ، قبل أن تتمكن هذه الجيوش من الاتحاد مع القوات المصرية . ولكن هذه الخطة انهارت من أساسها عندما علم عمورى أن شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة حيث رحب به الأهالى والتفوا حوله لحمايتهم من الصليبيين . وهكذا لم يجد عمورى فى تلك المرة حليفاً يعتمد عليه فى مصر ، إذ اتحد المسلمون جميعاً ضده ، فلم يبق أمامه سوى أن ينسحب فوراً عائداً إلى فلسطين فى يناير سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ ﻫ) ومعه رجاله « خايبين مما أملوه »[2] .

---

(١) أبو شامه : كتاب الروضتين .

(٢) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٦٤ ﻫ ، تاريخ الدولة الأتابكية p. 250

أما شيركوه فقد « فقد فرح به أهل مصر » واستقبلوه استقبال البطل المخلص عند وصوله إلى القاهرة. وسرعان ما استدعاه الخليفة العاضد الفاطمى وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور ، وأخذ أرباب الدولة يترددون عليه لقضاء حوائجهم . وكان من الطبيعى أن يحس شاور بخطر شيركوه ، لاسيما بعد أن رأى تأييد الخليفة العاضد له . لذلك أرسل شاور مرة أخرى إلى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويطلب منهم الحضور إلى مصر عن طريق دمياط[1] . بل إن شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه وقتلهم جميعاً أثناء وليمة يولمها لهم . وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه، فلما أرسل له الأخير يطلب منه الوفاء بوعده، أخذ يماطل لكسب الوقت ، انتظاراً لوصول الصليبيين لنجدته . وأخيراً اجتمع أعيان مصر وقالوا لشيركوه إن « شاور سبب فساد البلاد والعباد » وطالبوا بقتله وإنقاذ المسلمين من شره[2] .

وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل فى يناير سنة ١١٦٩م (٥٦٤ هـ) وشارك الخليفة الفاطمى نفسه فى التخلص منه . أما شيركوه فقد دخل على رأس قواته — وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين — القاهرة دخول الظافرين ، حيث أباح للناس نهب قصر شاور . على أن شيركوه لم يلبث أن توفى بعد شهرين (مارس ١١٦٩ م) فخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين[3] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥١ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٠ — ٧٠١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٦٤ هـ

ظهور صلاح الدين :

كان جيش شيركوه فى مصر يضم جماعة من أكابر الأمراء النوريه الذين تطلعوا جميعاً إلى منصب الوزارة عقب وفاة شيركوه ، ولكن المراجع المعاصرة تؤكد أن الخليفة العاضد الفاطمى أصر على اختيار صلاح الدين الوزارة ، ولما تمنع «ألزم به وأحضر إلى القصر وخلعت عليه خلع الوزارة» وربما ظن العاضد الفاطمى أن صغر سن صلاح الدين وعدم خبرته ستجعله أداة سهلة فى يد الخليفة ، يستعين به فى القضاء على بقية أمراء نور الدين فى مصر، وبذلك يكون قد تخلص من نفوذ نور الدين وخطر شاور جميعاً[1] .

ولكن صلاح الدين لم يكد يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة الفاطمى، فشرع فى استمالة الناس إليه بما بذله من أموال كان شيركوه قد جمعها « فمال الناس إليه وأحبوه ، وضعف أمر العاضد » ثم أن صلاح الدين أخضع مماليك شيركوه وسيطر سيطرة تامة على الجند ، فى الوقت الذى أمده نور الدين محمود بقوة جديدة من العسكر فيها شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين . وبفضل ذلك كله تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمـــد عليه الخليفة العاضد الفاطمى[2] .

وكان البلاط الفاطمى فى ذلك الوقت مركزاً لكثير من الفتن والمؤامرات ، ولا يحجم رجاله عن الاستعانة بالأعداء فى سبيل تحقيق مصالح خاصة مؤقتة . من ذلك أن رئيس بلاط قصر الخليفة العاضد ــ وكان خصياً نوبياً اسمه مؤتمن الخلافة ــ استاء من صلاح الدين عندما ثقلت وطأته على أهل القصر ، فدبر مؤامرة للخلاص منه ، وحاول أن يتصل بعمورى الأول والصليبيين

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٦ ــ ٧٠٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٧٤ (مطبوع) .

للحصول على معونتهم. ولكن رسالة مؤتمن الخلافة إلى عمورى وقعت في يد صلاح الدين ، الذى رأى أن يستأصل الشر من جذوره ويقضى على أية محاولة للعودة إلى سياسة ضرغام وشاور ، فقتل مؤتمن الخلافة فوراً فى ٢٠ أغسطس سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ)[١] .

ثم لجأ صلاح الدين إلى ابعاد جميع الخدم (الخصيان) السودان عن قصر الخلافة الفاطمية ، الأمر الذى أثارهم، فقاموا بثورة كبيرة فى الفسطاط بعد أن تجمعوا فبلغ عددهم خمسين ألفاً . وقد اضطر صلاح الدين لإخماد هذه الثورة إلى إشعال النار فى محلتهم التى اعتصموا فيها ، فطلبوا الأمان فى أواخر أغسطس سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) وانتقلوا إلى الجيزة على الضفة الغربية للنيل . ولكن صلاح الدين أرسل إليهم أخاه توران شاه فى طائفة من العسكر « فأبادهم بالسيف »[٢] . وكذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الأرمن ، إذ أشعل النار فى ثكناتهم وقبض عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بما قام به السودان . وبذلك قضى صلاح الدين على عناصر الخيانة ، وأدب القوى التى حاولت الوقوف فى وجه آماله ومشاريعه . ولم يبق أمام صلاح الدين إلا كبار الإقطاعيين وملاك الأراضى الذين دفعهم الحرص على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة إلى مساندة الأوضاع القائمة ، فتخلص صلاح الدين من هؤلاء أيضاً وأحل محلهم فى اقطاعاتهم جماعة من رجاله من أهل الشام .

على أنه يلاحظ أن صلاح الدين قام بأعماله السابقة فى ذلك الدور بوصفه نائباً عن نور الدين محمود ، لا باسم الخليفة الفاطمى بوصفه وزيراً له . وبعبارة أخرى فإن صلاح الدين استطاع حتى تلك المرحلة أن يحتفظ بعطف نور الدين وعدم إثارة مخاوفه نتيجة للخطوات السريعة الناجحة التى دعم بها

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ ، أبو شامه: كتاب الروضتين ص ١٧٨ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب . ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ (مطبوع) .

سلطانه فى مصر . والواقع إن صلاح الدين كان لايستطيع بأى حال أن يستغنى عن معونة سيده نور الدين فى ذلك الدور المبكر من كفاحه ، لاسيما وأنه واجه صعاباً عديدة داخل مصر فى الوقت الذى أخذ الصليبيون يتحفزون على الحدود الشرقية للبلاد[1] .

الصليبيون ومهاجمة مصر :

ومن الواضح أن نجاح قوات نور الدين محمود فى السيطرة على مصر أثار فزع الصليبيين بالشام بعد أن أحسوا بوقوعهم بين شقى الرحى . هذا إلى أن سيطرة قوات نور الدين على القواعد البحرية فى شمال مصر — وبخاصة دمياط والاسكندرية — كان من شأنها أن تسلب الصليبيين سيادتهم البحرية على الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط .

وعندما فشل عمورى الأول ملك بيت المقدس فى الحصول على معونة سريعة من غرب أوربا ، اتجه صوب الامبراطورية البيزنطية طالباً عقد تحالف بين القوتين لغزو مصر واقتسامها[2] . وكان أن أعد الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين أسطولا كبيراً غادر الدردنيل فى يوليو سنة ١١٦٩م (٥٦٤هـ) قاصداً قبرس ومنها إلى صور ثم عكا للاتفاق مع الصليبيين على الخطة المشتركة لغزو مصر .

وقد تم الاتفاق فى هذه الخطة على غزو مصر براً وبحراً عن طريق دمياط ، فأقلع الأسطول البيزنطى صوب دمياط ، فى حين زحف الصليبيون براً فى أكتوبر سنة ١١٦٩ م (٥٦٥ هـ) من عسقلان إلى الفرما قاصدين دمياط « ومعهم المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار »[3] ؛ فى حين

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٩ .

(٢) Guillaume de Tyr (R. Hist. Cr. II, p. 961).

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨٠ (مطبوع) .

وقف الأسطول البيزنطى عاجزاً عن دخول الميناء بسبب المآصر ، وهى السلاسل الحديدية الممتدة فى الماء بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء.

وعندما علم صلاح الدين بتحركات الصليبيين ، ظن فى أول الأمر أنهم سيقصدون القاهرة عن طريق الشرقية ، كما فعل عمورى فى حملاته السابقة . لذلك أسرع صلاح الدين إلى تحصين بلبيس والقاهرة فضلا عن الاسكندرية وغيرها من المراكز الأمامية . فلما اتجهت الحملة إلى دمياط وجد صلاح الدين نفسه فى موقف حرج ، لاسيما وأنه كان يخشى باستمرار نشوب ثورة ضده فى الداخل نتيجة للإستياء من سياسته تجاه خصيان القصر والجند السودان.

ومع ذلك ، فإن صلاح الدين ثبت للموقف وطلب النجدة العاجلة من نور الدين « فسير نور الدين العساكر إليه أرسالا يتلو بعضها بعضاً »[1] . وفى الوقت نفسه كان تقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — وخاله شهاب الدين ، قد استطاعا دخول دمياط ، فواصل صلاح الدين إرسال الإمدادات إليهما عن طريق النيل ، مما جعل حصار الصليبيين المدينة غير تام . هذا إلى أن أهل دمياط المحاصرين استغلوا جريان تيار النيل من الجنوب إلى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة، أنزلت أبلغ الضرر بالأسطول البيزنطى، فاضطر إلى الابتعاد عن لسان النيل والمدينة[2] .

ولم يلبث أن نفد تموين الأسطول واشتد القلق بعمورى نتيجة للأخبار التى بلغته عن ازدياد هجمات نور الدين على الصليبيين بالشام . لذلك رفع عمورى الحصار عن دمياط ، وعاد ومعه جيوشه إلى عسقلان فى أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩ م (٥٦٥ هـ) ترافقهم خيبة الأمل ، فى الوقت الذى

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. II, p. 968).

لم يستطع بحارة السفن البيزنطية التحكم فيها بسبب اشتداد الرياح، مما أدى إلى غرق كثير منها .

ولا شك فى أن فشل هذه الحملة الصليبية البيزنطية أدى إلى تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد آخر أمل تبقى لها فى التخلص من قبضته القوية . وكان أن أرسل الخليفة العاضد الفاطمى — عقب انسحاب الصليبيين — إلى نور الدين، يرجوه سحب جنده الأتراك من القاهرة بحجة أنهم بثوا الرعب فى قلوب أهلها . ولكن نور الدين أرسل إليه يعتذر عن عدم إجابته إلى طلبه ، ويوضح له أن بقاء أولئك الجند أمر ضرورى لحماية مصر من خطر الصليبيين[1] .

سقوط الخلافة الفاطمية :

وفى الوقت الذى شدد نور الدين محمود هجماته على الصليبيين بالشام، كما استولى على الموصل سنة ٥٦٦هـ (١١٧١م) ، كانت هناك مشكلة كبرى لها خطورتها تقلق بال نور الدين وصلاح الدين جميعاً . وأعنى بهذه المشكلة — التى تطلبت حلا سريعاً حاسماً وضع الخلافة الفاطمية الشيعية تحت حماية قوة كبرى تدين بالمذهب السنى . فنور الدين محمود كان سنياً ، وازدادت علاقته قوة بالخلافة العباسية وتقديرها له عقب استيلائه على الموصل[2] . أما صلاح الدين فى مصر فلم يكن أقل تحمساً للمذهب السنى لأنه كان شافعياً مخلصاً، مما دفعه — منذ أن استتبت له الأمور فى مصر — إلى العمل على تدعيم المذهب السنى فى البلاد . هذا كله والخليفة الفاطمى فى قصره عاجز عن مقاومة الوضع الجديد . ومع ذلك يبدو أن صلاح الدين ظل متخوفاً من

---

(١) ابو شامه : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٨١ .

(٢) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

الإقدام على الخطوة الكبرى الخاصة بإسقاط الخلافة الفاطمية . كما يبدو أن مخاوف صلاح الدين لم يكن مرجعها قوة الشيعة فى مصر ، بقدر ما كان التخوف من نوايا نور الدين . ذلك أن صلاح الدين أخذ يحس فى ذلك الدور بتغير شعور سيده نور الدين نحوه ، وأنه بات يحسده على مكانته فى مصر ، ويعمل حساباً لازدياد نفوذه فى وادى النيل ، ولذلك رأى صلاح الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية فى صورتها الشكلية ليستطيع أن يستغلها عند الحاجة ، إذا تأزم الموقف بينه وبين نور الدين[1] .

وكان أن أخذ صلاح الدين يماطل سيده نور الدين عندما طلب منه الأخير القضاء على الخلافة الفاطمية تحقيقاً للوحدة المذهبية فى العالم الإسلامى . ولكن نور الدين لم يعد يحتمل المماطلة ، فأرسل إنذاراً نهائياً فى صيف سنة ١١٧١ م (٥٦٦ هـ) إلى صلاح الدين يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسى المستضىء محل اسم الخليفة الفاطمى العاضد فى خطبة الجمعة « وألزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فيه »[2] .

وهكذا اضطر صلاح الدين إلى اتخاذ تلك الخطوة الخطيرة ، فتم الدعاء فى أول جمعة من عام ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١) للخليفة العباسى المستضىء أمير المؤمنين ، وحدث الانقلاب فى هدوء دون أن « ينتطح فيه عنزان » على قول ابن الأثير[3] ؛ ويقال أن الخليفة العاضد الفاطمى توفى بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته ، لأن صلاح الدين عندما علم بمرضه أمر بإخفاء الخبر عنه . وبعد ذلك اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات حاسمة للقضاء على آثار الخلافة الفاطمية فى مصر ؛ ومن

---

(١) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠٠ (مطبوع) .

(٣) ابن الاثير : تاريخ الدولة الاتابكية (Rec. Hist. Cr., Tome II, p. 287). الكامل حوادث ٥٦٧ هـ .

ذلك مايرويه المقريزى أنه نزع المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين [1] .

ولاشك فى أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب عادى ، وإنما كان حدثاً خطيراً فى تاريخ العالم الإسلامى بوجه عام وفى تاريخ مصر بوجه خاص . فها هى دولة الفاطميين تنهار بعد قرنين من الزمان تقريباً ، لتعود للعالم الإسلامى وحدته المذهبية ، وتصبح الخلافة العباسية هى الخلافة الوحيدة التى يدين لها المسلمون بولائهم الروحى . لذلك لاعجب إذا أقيمت الاحتفالات فى بغداد تعبيراً عن شعور الفرح بذلك النصر الذى تحقق للخلافة العباسية ، بل إن الخليفة العباسى المستضىء أسرع بإرسال الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين ، ومعها الأعلام والرايات السود ، شعار العباسيين [2] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٣ ، ٤٥ .

(٢) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٧ ﻫ ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٦ .

الفصل الثاني

صلاح الدين وتأسيس الدولة الأيوبية

الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين :

ولم تلبث الوحشة أن دبت بين صلاح الدين وسيده نور الدين، عقب سقوط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) بسبب تحديد علاقة الطرفين بعضهما ببعض . فحتى سقوط الخلافة الفاطمية كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلى فى مصر بوصفه وزيراً شرعياً للخليفة الفاطمى ، فضلا عن أنه كان ينفذ تعليمات نور الدين بوصفه نائباً عنه وقائداً لقواته فى مصر . ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد « صفا الوقت لصلاح الدين» على قول المؤرخ أبى المحاسن ، وصار يخطب باسمه على المنابر بعد الخليفة العباسى والملك العادل نور الدين محمود[١] .

ثم إن صلاح الدين لم يكتف بتوطيد نفوذه فى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر ، وإنما أخذ يفكر فى الاستيلاء على برقه طمعا فى ثروتها .

وهكذا صار لزاماً على صلاح الدين فى ذلك الدور أن يحدد موقفه من نور الدين ويختار أحد طريقين ، فإما أن يظل على ولائه لنور الدين وفى هذه الحالة عليه أن يتقبل فى أية لحظة قرار نقله وإحلال غيره محله فى مصر ، وإما أن يستقل عن نور الدين ويخرج عن طاعته وفى هذه الحالة من الممكن أن تسلم له مصر إذا استطاع الدفاع عن كيانه ضد هجمات نور الدين[٢]. ويروى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧ .

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 590.

لنا ابن الأثير مثلا واضحاً لتخوف صلاح الدين من نوايا نور الدين فى ذلك الدور ، ويقول إن صلاح الدين خرج من مصر فى أواخر سبتمبر سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) — بناء على أوامر صدرت إليه من نور الدين — لمهاجمة حصن الشوبك . ولم تستطع حامية الحصن الصليبية الثبات فى المقاومة، فطلبت إعطاءها مهلة عشرة أيام للتسليم . ولكن صلاح الدين لم يلبث — وهو أمام الشوبك — أن علم بمسير نور الدين إليه لمساعدته . وعندئذ خشى صلاح الدين أن يقبض عليه نور الدين إذا رآه ، فأسرع بالإنسحاب والعودة إلى مصر ، معتذراً بأن العلويين على وشك إشعال ثورة فى القاهرة مما تطلب سرعة عودته [١] .

على أن هذا السلوك لم يكن له سند قوى يبرره ، فاستاء نور الدين من مسلك نائبه فى مصر « وعظم عليه ذلك ولم يقبل عذره » . بل إن نور الدين أخذ يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين ، الأمر الذى أخاف الأخير فعقد اجتماعا من أقاربه وبعض خاصته للتشاور فى الأمر . وفى ذلك الاجتماع استهل الحديث بعض الشبان المتحمسين — مثل المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين — فنادوا بصد نور الدين ومقاتلته . ولكن والد صلاح الدين — وهو الشيخ نجم الدين أيوب — تدخل بلباقه، فشتم أولئك المتهورين ، ثم نظر إلى صلاح الدين وقال « والله لو رأيت — أنا وخالك هذا — السلطان نور الدين ، لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه . ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ! . . . وهذه البلاد له وقد أقامك فيها نائباً عنه ، فإذا أراد عزلك فاى حاجة إلى المجىء ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى البلاد من يريد » [٢] . ثم طلب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوداث سنة ٥٦٧ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٩ .

نجم الدين من ولده صلاح الدين أن يكتب إلى نور الدين ليعرب له عن ولائه ، ففعل ذلك وأرسل إليه هدية ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والأقمشة والمصنوعات والعطور[1] .

على أن صلاح الدين — مع ذلك — لم يتقاعس عن حماية مكاسبه التى حققها فى مصر ، ولم يشأ أن يتخلى عن مطامعه، وإنما اختار أن يستعد لما عساه أن يحدث فى المستقبل . وكان أن فكر صلاح الدين وأهله «فى تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها ، تكون عدة لهم ، إن أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها »[2] . لذلك أرسل صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه فى أواخر سنة ١١٧٢م (٥٦٨ ﻫ) لفتح النوبة حتى تصبح مأوى الأيوبيين فى حالة دخول نور الدين مصر . ثم اكتشف صلاح الدين أن بلاد النوبة فقيرة « قليلة الجدوى » فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٧٠ ﻫ (١١٧٤ م) حيث أخضعها وضمن تبعيتها لصلاح الدين .

بل إن ابن الأثير يبالغ فيذكر إن صلاح الدين حرص فى ذلك الدور على عدم التوسع فى حرب الصليبيين ليظلوا ستاراً يفصل بينه وبين نور الدين[3]

وإذا كان صلاح الدين قد قام بغزو أملاك الصليبيين فى الكرك والشوبك سنة ٥٦٨ ﻫ (١١٧٣ م) بناء على نصيحة والده ، فإن هذه الغزوة لم تطل ، بل على العكس أدت إلى تجدد الخلاف بينه وبين نور الدين . ذلك أن صلاح الدين لم يكد يحاصر حصن الكرك ، حتى عاد وتخوف من أن يغدر به نور الدين، الذى كان هو الآخر قد اقترب من الكرك فعلا . وهكذا لم يلبث صلاح الدين أن تحجج تلك المرة بمرض أبيه فى مصر ، وأنه يخاف

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .
(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٩ ﻫ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٢ .
(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية (Rec. Hist. Cr., II, p. 293).

أن يحدث عليه حادث الموت ، فعاد فوراً إلى مصر ، دون أن ينتظر وصول سيده نور الدين[1] . وفى تلك المرة كان صبر نور الدين قد نفد ، فصمم نهائياً على فتح مصر والقيام بعمل حاسم لتأديب صلاح الدين . ولكن بينما نور الدين يستعد للقيام بحملته على مصر ، إذ به يموت فى مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) وبذلك صار الميدان خالياً أمام صلاح الدين[2].

المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) :

استطاع صلاح الدين فى مدى فترة قصيرة أن يتخلص من الثورة التى اعترضت سبيله وسلطانه ، فقضى على الجند السودان ، ثم خلصه الموت من الخليفة العاضد الفاطمى وسيده نور الدين محمود . على أنه لم يكن معنى سقوط الخلافة الفاطمية من ناحية ، ووفاة نور الدين محمود من ناحية أخرى ، أن صلاح الدين قد غدا فعلا وارث القوتين الفاطمية والنورية ، وأن الأمور استقرت له نهائياً فى مصر والشام ، وإنما كان على صلاح الدين أن يواجه متاعب جمة من جانب أتباع الفاطميين فى مصر ، ثم من جانب ورثة نور الدين فى الشام ، حتى يستطيع أن يحقق وحدة إسلامية متينة فى الشرق الأدنى تمكنه من منازلة الصليبيين .

فمن ناحية مصر ، يلاحظ أنه إذا كانت الخلافة الفاطمية قد ماتت موتاً صامتاً فى ظاهر الأمر ، إلا أن المخلصين من الشيعة فى مصر لم يرضوا عن ذلك الانقلاب ، فضلا عن أنه وجد عندئذ عدد ضخم من أتباع النظام القديم ، الذين عز عليهم أن يسيطر على البلاد رجل قوى مثل صلاح الدين . ولم تلبث أن دبرت مؤامرة كبرى فى القاهرة سنة ٥٦٩ هـ (مارس —

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٢٣٠ وقد توفى نجم الدين أيوب فعلا فى ذى الحجة سنة ٥٦٨ هـ ولكن وفاته كانت بسبب سقوطه من فوق فرسه .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

ابريل ١١٧٤م) اشتركت فى حبك أطرافها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد، واتخذت ستاراً شيعياً يستهدف إحياء الخلافة الفاطمية وإعادتها إلى ماكانت عليه . أما زعماء هذه المؤامرة فكانوا الشاعر عمارة بن أبو الحسن اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى العوريس داعى دعاة الشيعة ، وابن عبد القوى ، فضلا عن عدد آخر كبير من أتباع الدولة الفاطمية من الموظفين وبقايا الجند السودان وخدم القصر الفاطمى ، وغيرهم[١] .

وعندما أدرك المتآمرون أنهم فى مسيس الحاجة إلى قوة خارجية تساعدهم فى تنفيذ مؤامرتهم ، اتصلوا بالإسماعيلية الباطنية (الحشيشية) وهى القوة الشيعية الكبرى بالشام، وطلبوا منهم القيام بقتل صلاح الدين[٢]. ولم يكتف المتآمرون بذلك وإنما اتصلوا أيضاً بالصليبيين ، واتفقوا معهم على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر فى الوقت الذى يشعلون هم نار الثورة فى القاهرة والفسطاط ، وبذلك يقع صلاح الدين بين نارين[٣] . ثم أن المتآمرين اتصلوا كذلك بوليم الثانى النورمانى ملك صقلية ليهاجم أسطوله بالاسكندرية فى الوقت الذى يدهم الصليبيون مصر من ناحية الشرق . وهكذا دارت الاتصالات بين زعماء المؤامرة فى القاهرة من ناحية وبين ملكى بيت المقدس وصقلية من ناحية أخرى ووضعت جميع الترتيبات بحيث « لم يبق إلا رحيل الفرنج » على قول ابن الأثير[٤] .

وقبل أن يبدأ التنفيذ، أرسل عمورى الأول رسولا إلى القاهرة يحمل فى ظاهر الأمر تحيات الملك الصليبي لصلاح الدين ، ولكنه أتى فى الحقيقة ليرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين . أما وليم الثانى ملك صقلية فقد استجاب

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤٩ .

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 311.

(٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٦٩ هـ

للدعوة، وأعد أسطولا ضخما من ستمائة سفينة تحمل ما يقرب من ثلاثين ألف رجل[1]. وقد اختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه فى اليمن موعداً لتنفيذ مؤامرتهم، حتى لا يحل محل أخيه فى حالة مقتله، بل بلغ بثقة المتآمرين فى نجاح مؤامرتهم أنهم عينوا أعضاء الجهاز الحكومى الجديد «وعينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الدور والأملاك»! بحيث لم يبق إلا التنفيذ[2].

ولكن الخيانة لم تلبث أن انكشفت وأحبطت المؤامرة قبل أن تولد. ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم فى سرهم الفقيه الواعظ زين الدين على ابن نجا الذى قام بإطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولا فأول. وفى الوقت نفسه وصل المبعوث الذى أرسله عمورى الأول إلى القاهرة محملا بالهدايا وعبارات الود لصلاح الدين، فانكشف أمره بعد قليل. أما صلاح الدين فلم يكد يتأكد من حقيقة المؤامرة حتى قبض على المتآمرين فوراً وصلب زعماءهم الشاعر عمارة اليمنى وعبد الصمد الكاتب والعوريس القاضى فى أبريل سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ)، فى حين اختفى آخر الأمراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد[3].

ثم أن صلاح الدين وجه جهوده بسرعة نحو إخماد ثورة أخرى قامت فى أسوان على حدود النوبة، أشعلها أحد قادة الفاطميين — واسمه كنز الدولة — الذى جمع حوله من أسوان بعض العناصر من الشيعة وغيرهم، وأوهمهم «أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المصرية»، ثم زحف بهم على قوص. ولكن الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه

---

(١) بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

العادل سيف الدين استطاعت أن تقضى على أولئك الجند السودان قضاءاً مبرما فى أوائل سبتمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ)[١]

أما عمورى الأول ملك بيت المقدس ، فلم يكد يعلم بانكشاف سر المؤامرة فى القاهرة وفشل خطته الموضوعة لغزو مصر حتى توفى مقهوراً فى يوليو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) فى بيت المقدس . ولم يلبث أن وصل أسطول صقلية فى ٢٨ يوليو من العام نفسه إلى الاسكندرية ليجد كل شىء قد انتهى ، وأن فشل المؤامرة من ناحية ووفاة عمورى الأول من ناحية أخرى جعلت غزو مصر غير ذى موضوع . ومع ذلك فإن رجال الحملة النورمانية حاولوا اقتحام الاسكندرية ، ولكن المسلمين صمدوا لهم وأحرقوا بعضاً من سفنهم ، فى الوقت الذى قدم صلاح الدين مسرعا ومعه جيشه فهاجم النورمان ، وأغرق بعض سفنهم ، وأنزل بهم الهزيمة ؛ وبذلك اضطر النورمان إلى الإنسحاب يجرون أذيال الفشل والخيبة[٢] .

صلاح الدين وتأمين الوحدة الإسلامية :

جاءت وفاة نور الدين محمود فى منتصف مايو سنة ١١٧٤م (٥٦٩ هـ) خسارة كبرى للمسلمين ، لأن مشكلة تقسيم دولته الواسعة بين ورثته هددت الوحدة الإسلامية التى أجهد نور الدين نفسه فى بنائها . وكان الوريث الأول لنور الدين فى حلب ودمشق هو ابنه الملك الصالح اسماعيل ، الذى لم يتجاوز عمره عند وفاة أبيه الحادية عشرة . ولكن الملك الصالح اسماعيل هذا كان له ابن عم هو سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل الذى فرح بوفاة عمه نورالدين ، وأسرع إلى احتلال بعض المواقع بالجزيرة مثل نصيبين والخابور وحران والرها وغيرها[٣] .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧٩ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣١ ، ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٧٠هـ

(٣) ابن الاثير : الكامل : حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

ثم أن المنازعات لم تقتصر على ما كان هناك بين ورثة نور الدين وبقايا البيت الزنكى فى الشام ، وانما امتدت إلى أمرائه ، فدب الخلاف بين أقوى اثنين من أمراء نور الدين ، وهما شمس الدين على بن الداية وشمس الدين محمد المعروف بابن المقدم . وكان سبب هذا الخلاف الوصاية على الملك الصالح اسماعيل ، فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها المركز الأول للدولة النورية ، فى حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح اسماعيل فى دمشق .

ولا شك فى أن هذه الخلافات هددت مركز المسلمين تهديداً خطيراً فى الشرق الأدنى ، فى الوقت الذى كان الصليبيون يتوعدون ويتحفزون . وهنا ظهر صوت ينادى بتحكيم صلاح الدين والالتفاف حوله ، بوصفه أقوى أمراء الدولة النورية والمتحكم فى ملك مصر بمواردها وثروتها وقوتها. ذلك أن القاضى كمال الدين الشهرزورى أشار على الأمير ابن المقدم وعلى بقية أمراء نور الدين بالرجوع إلى رأى صلاح الدين والانقياد له « فهو أقوى منا لإنفراده بملك ديار مصر » ولكن الأمراء الطامعين خشوا بأس صلاح الدين وخافوا أن يؤدى تدخله إلى أن يعصف بهم جميعاً ويضيف الشام إلى ملك مصر [1] .

أما صلاح الدين فقد صار لا سلطان لأحد عليه فى مصر ، وكان من الممكن أن يتدخل فى شئون الشام عقب وفاة نور الدين مباشرة ، لولا وصول الأسطول النورمانى إلى الاسكندرية مما أخره بعض الوقت . لذلك اكتفى صلاح الدين بأن أرسل إلى الشام يعلن حقه فى الوصاية على الصالح اسماعيل بن نور الدين وأملاكه . والواقع أن صلاح الدين كان يجد سنداً قوياً للتدخل بحجة حماية وحدة المسلمين ، فى الوقت الذى شرع الصليبيون

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣ (مطبوع) .

فعلا فى مهاجمة المدن والمعاقل الإسلامية فى الشام . ذلك أنه لم تكد تمضى على وفاة نور الدين محمود مدة قصيرة ، حتى شرع عمورى الأول فى مهاجمة بانياس وحاول الإستيلاء عليها، ولكن المدينة صمدت للحصار أسبوعين . وبدلا من أن يحاول الأمير ابن المقدم محاربة الصليبيين فإنه «راسلهم ولاطفهم» وعرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال واطلاق سراح أسرى الصليبيين فى دمشق ، ثم محالفة الصليبيين ضد صلاح الدين وأطماعه المقبلة[1] .

وعندما علم صلاح الدين بذلك الاتفاق «استصغر أهل الشام وعلم ضعفهم» وأدرك أن الاتفاق والصلح مع الصليبيين موجهان ضده ، فأرسل إلى الملك الصالح اسماعيل ورجاله «يقبح ما فعلوه»[2]. ولم يطل الأمر حتى أدت الخلافات بين أمراء الدولة النورية إلى استنجاد بعضهم بصلاح الدين ، فجاءت هذه الدعوة بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الحروب الصليبية .

ذلك أن صلاح الدين خرج من مصر على رأس جيش من سبعمائة فارس ، بعد أن استخلف على مصر أخاه الملك العادل ، فوصل دمشق فى أواخر نوفمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠هـ)، دون أن يصطدم — لحسن حظه — بالصليبيين أثناء الطريق . وهنا نؤكد أن صلاح الدين عندما خرج إلى الشام عندئذ لم يستهدف مجرد تحقيق أطماع ومكاسب شخصية ، وإنما كان حريصاً على أن يسعى لتحقيق الوحدة الإسلامية، فأعلنها فى صراحة «إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم»[3] . وقد استقبل صلاح الدين فى دمشق استقبالا طيباً، وفتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمها إياه.

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣١ — ٢٣٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٨ (مطبوع) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨ مطبوع) .

ولعل أهم ما يسترعى نظرنا فى ذلك الدور من تاريخ صلاح الدين ، أنه حرص على التظاهر بالولاء للصالح اسماعيل بن نور الدين ؛ فقال : « أنا مملوك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه[1] » . وتحت هذا الستار — ستار الولاء للصالح إسماعيل ورد أملاكه التى أخذت منه فى الجزيرة إليه — أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته الخاصة بتدعيم الجبهة الإسلامية المتحدة وإعادتها إلى سابق عهدها ، حتى تمتد من الفرات إلى النيل .

وبعد أن استمال صلاح الدين قلوب الدماشقة بتوزيع الأموال والهبات. غادر دمشق متجهاً شمالا ضد كمشتكين الذى استبد بالأمور فى حلب[2] . وقد بدأ صلاح الدين بالاستيلاء على حمص فى ديسمبر سنة ١١٧٤م(٥٧٠م) ثم على مدينة حماه فى أواخر الشهر نفسه .

أما حلب فقاومت صلاح الدين ورفضت الاستسلام ، بل إن أصحاب السلطان فيها أسرعوا إلى الاستعانة بالحشيشية والصليبيين . ولم يلبث سنان مقدم الباطنية أن أرسل إلى معسكر صلاح الدين جماعة من الفدائيين لقتله ، وأوشك هؤلاء على النجاح فى مهمتهم لولا انكشاف أمرهم . ولما فشل الباطنية فى قتل صلاح الدين ، أرسل الحلبيــــون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبى يطلبون منه المساعدة ، ويعدونه بدفع الثمن إذا هو نجح فى تخليص حلب من حصار صلاح الدين . ويضيف ابن الأثير أن أمراء حلب طلبوا من أمير طرابلس الصليبى أن يهاجم بعض المراكز التى بيد صلاح الدين حتى يضطر إلى رفع الحصار عن حلب[3] .

وكان ريموند الثالث أمير طرابلس — والوصى على عرش مملكة

---

(١) ابن الاثير : الكامل سنة ٥٧٠ هـ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٤٠ ، ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

بيت المقدس عندئذ — يدرك تماماً أهمية تحالف الصليبيين مع حلب ، كما أدرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب . لذلك أسرع ريموند الثالث إلى نجدة حلب، والقيام بدور حامى الصالح اسماعيل بن نور الدين ، لا حباً له وخدمة لأمراء حلب — كما يقول المؤرخ الصليبي وليم الصورى — وإنما ليسد الطريق فى وجه صلاح الدين ويحول دون قيام وحدة إسلامية فى الشرق الأدنى[1] .

ويبدو أن ريموند الثالث حاول أولا الالتجاء إلى الوسائل السياسية ، ففتح باب المفاوضات مع صلاح الدين حول مسألة حلب ، ولوح له بأن الفرنج اتحدوا « وصاروا يداً واحدة » . ولكن صلاح الدين لم يخش ذلك التهديد ، وأرسل بعض قواته للإغارة على إمارة أنطاكية[2] . وأخيراً لم يجد ريموند وسيلة لصرف صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص التى كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ أمد قريب . وإذا كان صلاح الدين قد اضطر إلى ترك حلب مؤقتاً فى أوائل فبراير سنة ١١٧٥م (٥٧٠هـ) لنجدة حمص ، فإنه عاد من جديد ليصطدم بالزنكيين الذين جمعوا قوات الموصل وحلب ضد صلاح الدين . وفى الموقعة التى دارت بين الطرفين عند قرون حماه فى أواخر أبريل سنة ١١٧٥م (٥٧٠هـ) انتصر صلاح الدين على الزنكيين ، ثم أتبع انتصاره بدخول حلب ، حيث أعلن عزل الصالح اسماعيل ، واتخذ لقب « ملك مصر والشام » . ولم يلبث الخليفة العباسى أن أقر الوضع الجديد ؛ وأرسل إلى صلاح الدين الخلع التى وصلته من حماه[3].

ولم يكن منتظرا أن يقبل الزنكيون ذلك الوضع فى سهولة ، فقام سيف

---

(١) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr., p. 1014).

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٨١ هـ .

الدين غازى صاحب الموصل بحركة تعبئة ضخمة ضد صلاح الدين ، واستعان من جديد بالصليبيين ، وعلى رأسهم ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصى على عرش مملكة بيت المقدس . وفى الموقعة التى دارت عند تل السلطان — على الطريق بين حماه وحلب — فى أبريل سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) حلت الهزيمة بالزنكيين وحلفائهم وقتل منهم كثيرون ، واستولى صلاح الدين على غنائم ضخمة [1] . وبعد ذلك ركز صلاح الدين جهوده فى الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شرقى حلب ليقطع الصلة بينها وبين الموصل ، حتى تم الصلح مرة أخرى بينه وبين الحلبيين ، فانصرف عن حلب فى صيف سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) .

أما الباطنية ، فلم يكونوا أقل من الصليبيين هلعا بسبب انتصارات صلاح الدين وتوحيد بلاد الشام الإسلامية تحت سيادته . ولم يلبث أن حاول الباطنية اغتيال صلاح الدين مرة أخرى أثناء حصاره عزاز فى صيف سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ولكن محاولتهم باءت مثل سابقتها بالفشل . وكان لابد لصلاح الدين من أن يثأر لنفسه من تلك الجماعة الهدامة ، فلم يكد يفرغ من الصلح مع الحلبيين حتى اتجه لحصار قلعة الباطنية فى مصياف وقتل كثيراً منهم ، ولم يتركهم إلا بعد أن شفع فيهم شهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين [2] .

وهكذا تحالفت قوى الزنكيين والباطنية والصليبيين جميعاً ضد صلاح الدين فى ذلك الدور ليحولوا دون تحقيق الوحدة الإسلامية ، بين العراق والشام ومصر ، وهى الوحدة التى كانت تنذر دائماً بالقضاء على الحلفاء الثلاثة .

ويلاحظ فى ذلك الدور من أدوار تاريخ صلاح الدين أن جهوده

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٧ .

كانت موزعة بين ثلاث جبهات ، فهو يعمل ضد دعاة الانفصال من الزنكيين فى شمال الشام والعراق ، ويحاول أن يحقق وحدة قوية تمتد من النيل إلى الفرات لمواجهة الخطر الصليبى . وهو فى الوقت نفسه مضطر إلى الدخول فى مناوشات وحروب محلية ضد الصليبيين إما لإرهابهم أو لصد عدوانهم، لا سيما وأن الانفصاليين فى شمال الشام والعراق أعمتهم مصالحهم الشخصية عن رؤية الخطر الحقيقى الذى يهدد الوطن العربى فى الشرق الأدنى، فلم يحجموا عن الاستعانة بالصليبيين ضد صلاح الدين . وأخيراً فقد كان على صلاح الدين ألا يغفل عن تحصين مصر والعمل على حمايتها بعد أن أثبتت التجارب أن الصليبيين أشد طمعاً فى مصر منهم فى الشام والعراق، وأنهم يحسبون حساباً كبيراً لإستيلاء صلاح الدين على مصر بالذات[1] .

ولعل هذا هو السبب فى أننا عند دراستنا لتاريخ صلاح الدين فى ذلك الدور نجده لا يكاد يحارب الانفصاليين عند حلب حتى يعقد معهم الصلح ويتجه لصد خطر الصليبيين ، ولا يكاد يدخل مع الصليبيين فى حرب حتى يقبل عروضهم للهدنة ويسرع إلى مصر ، ولا يكاد يقيم بعض الوقت فى مصر يشرف على تحصينها حتى يبادر بالعودة إلى الشام . . . وسنؤجل كلامنا عن جهود صلاح الدين فى تحصين مصر من ناحية وفى محاربة الصليبيين من ناحية أخرى ، لنحرص على وحدة الموضوع و نوضح كيف كللت جهوده فى سبيل توحيد العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى بالنجاح .

اضطر صلاح الدين إلى عقد الصلح مع الحلبيين سنة ١١٧٦م (٥٧١هـ) كما رأينا ، ولكنه ظل فى قرارة نفسه يؤمن بأن أى عمل حربى واسع ضد الصليبيين يجب أن يسبقه ضم حلب والموصل وتوحيد الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى . وإذا كان صلاح الدين قد شغل بعض الوقت بأمر الصليبيين

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٠ .

وأمر مصر ، فإنه لم ينس الموصل وحلب ؛ فخرج لحصار الموصل سنة ١١٨٢م (٥٧٨ ﻫ) ، ولكنه « ألح فى القتال فلم ينل غرضا » ، لأن عز الدين مسعود صاحب الموصل (١١٧٦ — ١١٩٣ م = ٥٧٢ — ٥٨٩ ﻫ) كان قد أعد عدته للحصار وحشد داخل مدينته عدداً ضخما من الرجال وكميات وافرة من الطعام والسلاح[1] .

ويبدو أن صلاح الدين أخذ يشعر بالحرج لفشله فى الإستيلاء على الموصل ، ولذلك حاول أن يدعم مركزه بطلب التأييد من الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، وأرسل رسالة إلى الخليفة يتهم فيها أتابك الموصل بالتحالف مع الصليبيين . على أن أتابك الموصل لم يهتز لجميع تلك المناورات ، بل لجأ إلى الاستعانة ببعض القوى الإسلامية المجاورة ، مثل صاحب أذربيجان وصاحب خلاط وغيرهما . أما الخليفة العباسى فقد اكتفى بأن سعى للوساطة بين صلاح الدين والزنكيين[2]. ولكن المؤرخ أبا شامه يؤكد أن الزنكيين حالفوا الصليبيين عندئذ وطلبوا منهم مهاجمة دمشق لطرد صلاح الدين منها ، الأمر الذى يفسر اشتداد غارات الصليبيين على أعمال دمشق وحوران فى تلك الفترة . ولم تلبث هذه الهجمات الصليبية أن أثمرت فى تحويل نظر صلاح الدين عن الموصل ، فعاد إلى شمال الشام فى صيف سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ — ٥٧٩ﻫ)[3] .

وإذا كان صلاح الدين قد عاد من الجزيرة ليباشر نشاطه فى شمال الشام فإنه بدأ بحصار حلب . وهنا نجد أن عماد الدين زنكى الثانى أتابك حلب (١١٨٢ — ١١٨٣ م = ٥٧٨ — ٥٧٩ ﻫ) لم يكن له ما لأخيه عز الدين أتابك الموصل من شجاعة ودهاء ، فلم يكد صلاح الدين يحاصر مدينته حتى ارتبك ورفض

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٩ (مطبوع)
(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٧٨ﻫ .
(٣) المرجع السابق .

أن يستنجد بالصليبيين أو حتى بأخيه عز الدين . وإذا كان الحلبيون انفسهم قد أظهروا مقاومة عنيفة فى ذلك الوقت ، إلا أن حاكمهم عماد الدين أخذ يفكر فى الفرار ، وأرسل إلى صلاح الدين سراً يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل إعطائه بلدة سنجار ، فوافق صلاح الدين على ذلك وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج؛ وتمت الصفقة فى يونيو ١١٨٣م (٥٧٩هـ)[١].

ولا شك فى أن استيلاء صلاح الدين على حلب وتوابعها كان نصراً كبيراً لفكرة الجبهة الإسلامية المتحدة ، كما كان ضربة كبرى أحس بها الصليبيون ، واعترف بها مؤرخوهم[٢].

وإذا كان صلاح الدين قد شغل عقب الاستيلاء على حلب بأمر الصليبيين فإنه لم ينس الموصل، فعاد إلى حصارها للمرة الثانية ١١٨٥ م (٥٨١ هـ) . ثم ترك صلاح الدين حصار الموصل مؤقتاً ليستولى على ميافارقين . ويقال إن المواصلة انتهزوا فرصة مرض صلاح الدين فى تلك السنة ، فسعوا إليه فى الصلح ، وتم الصلح فعلا بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب الموصل فى مارس سنة ١١٨٦ م (٥٨٢هـ) . وبمقتضى ذلك الصلح رضى صاحب الموصل أن يكون تابعاً لصلاح الدين وأن يخطب باسمه على المنابر ويضرب السكة باسمه[٣] .

وبذلك تحققت الوحدة الإسلامية الكبرى من الفرات إلى النيل ، ولم يبق إلا أن يوجه صلاح الدين جهوده نحو تحصين مصر من ناحية، وإنزال ضربة بالصليبيين من ناحية أخرى .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٤٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص٩٨ .

(٢) Guillaume de Tyr, p. 1114.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٢ (مطبوع) .

صلاح الدين وتحصين مصر :

لم ينس صلاح الدين مطلقاً مطامع الصليبيين فى مصر ، وظل متخوفاً طوال الفترة التى قضاها فى توحيد الجبهة الإسلامية من أن يقوم الصليبيون بحملة كبرى لغزو مصر ، من طراز حملات عمورى الأول ملك بيت المقدس السابق[1] . والواقع أن صلاح الدين لم يكن مبالغاً فى مخاوفه ، إذ يثبت التاريخ أن ثمة اتصالات قوية دارت سنة ١١٧٧ م (٥٧٣ هـ) بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر[2] . لذلك كان لابد لصلاح الدين من أن يتخذ الأهبة ويضع نظاماً قوياً لتحصين مصر حتى يمكن مواجهة أية محاولة يقوم بها الصليبيون لغزوها .

والواقع إن تفكير صلاح الدين فى تحصين مصر إنما يرجع إلى أيام وزارته ، أى قبل سقوط الخلافة الفاطمية . من ذلك إن صلاح الدين شرع سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) فى ترميم سور القاهرة وإصلاح مافيه من عطب بعد أن « تهدم أكثره وصار طريقاً لايرد داخلا ولا خارجاً[3]». على أنه يلاحظ إن صلاح الدين كان فى ذلك الوقت ضعيف النفوذ ، فهو وزير للخليفة الفاطمى ، وتابع لنور الدين محمود ؛ هذا إلى أنه كان فى ذلك الوقت أيضاً محدود المسئولية قليل التجربة بحرب الصليبيين . لذلك لم يكن منتظراً من صلاح الدين فى تلك المرحلة أن يقوم بأكثر مما تمكنه مسئولياته وإمكانياته ، فاكتفى بترميم سور القاهرة القديم .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين (أعلام العرب ٤١) ص ١٣٥ .

(٢) Guillaume de Tyr, p. 1033.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩٢ [طبعة النيل].

ولكن وضع صلاح الدين لم يلبث أن تغير بعد وفاة الخليفة الفاطمي ثم وفاة نور الدين محمود ؛ إذ غدا صلاح الدين سيد البلاد ورجلها الأول المسئول عن سلامتها والدفاع عنها. هذا إلى أن الفترة التي قضاها صلاح الدين في الشام يوحد قوى المسلمين ويحارب الصليبيين أكسبته خبرة واسعة في سياسية الشرق الأدنى في ذلك الوقت. ولاشك في أن صلاح الدين شاهد في بلاد الشام عندئذ مدنا محصنة، وحصونا مسورة، وأسوارا عالية محكمة البناء، فأخذ فكرة واضحة عن أساليب الحصار والدفاع والحرب، وعن أهمية الحصون والقلاع والاستحكامات في حماية المدن. وهكذا عاد صلاح الدين من الشام إلى مصر سنة ١١٧٦م (٧٢هـ) ثم سنه ١١٨١م (٥٧٧هـ) ليقوم في كل مرة بسلسلة من التحصينات القوية لحماية عاصمة مصر وثغورها ومراكزها الحيوية ضد أي هجوم منتظر من جانب الصليبيين.

وقد روى المؤرخ أبو شامه — على لسان العماد الأصفهاني — أن صلاح الدين «لما تملك مصر رأى أن مصر (الفسطاط) والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سورا واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم»[1]. وهكذا قرر صلاح الدين بناء سور ضخم يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع، ويحمي عاصمة البلاد وأهلها من أي هجوم خارجي، كما قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزا للحكم، وملاذا يحتمي به إذا هددته ثورة داخلية من جانب أتباع الفاطميين، أو خطر خارجي من جانب الصليبيين.

وسرعان ما أخذ صلاح الدين في تنفيذ مشروعه، فجلبت بعض الأحجار اللازمة للبناء من منطقة أهرام الجيزة، وساعد في العمل عدد كبير من

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١ ص ٢٦٨.

أسرى الصليبيين[1] أما عن القلعة فقد أحسن صلاح الدين اختيار موقعها بحيث تشرف على القاهرة ومصر إشرافا تاما ، وتستطيع حاميتها أن تقوم بعمليتين مزدوجتين ، هما ضبط الأهالى وإخماد أية فتنه داخلية ، ثم صد أى هجوم خارجى تتعرض له القاهرة[2]. والمعروف أن عمارة القلعة لم تتم إلا فى عهد الكامل الأيوبى سنه ١٢٠٧م (٦٠٤هـ) ، فهو الذى شيد أول ما بنى فيها من قصور كما شيد أبراجها الرئيسية، ثم اتخذها منزلا له ومقاماً للحكم . ومنذ ذلك الوقت والقلعة تقوم بوظيفة القصر السلطانى الذى عاش فيه بقية سلاطين الأيوبيين ثم المماليك ثم الولاة العثمانيون حتى زمن الخديو إسماعيل .

أما سور القاهرة فقد استخدمت فيه أيضاً الأحجار الضخمة، وروعى فى السور أن يكون محصنا بأبراج منيعة بعضها من طبقة واحدة والبعض الآخر من طبقتين ، ويتكون البرج من قبو نصف دائرى يؤدى إلى ستار الحائط بمزاغل تستخدم لرمى العدو المهاجم بالسهام منها ، أو إلقاء المواد الكاوية والزيت المغلى[3] .

على أن جهود صلاح الدين فى تحصين مصر لم تقف عند حد القاهرة ، وإنما امتدت إلى مختلف الثغور والموانى المصرية ، لاسيما بعد أن تكررت اعتداءات السفن الصليبية على تنيس ودمياط وغيرهما من الموانى . من ذلك مايرويه أبو شامه من خروج صلاح الدين سنة ٥٧٢ (١١٧٧م) إلى دمياط وبصحبته ولداه الأفضل على والعزيز عثمان، فتفقد تحصينات الميناء، ثم رحل إلى الاسكندرية حيث تفقد سورها الدائر وفحص الزيادات التى كان قد أمر بإنشائها غداة استيلائه على الحكم . كذلك تفقد صلاح الدين الأسطول

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٩ .

(٢) نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ص ٩٢ .

(٣) للوقوف على تفاصيل القلعة والسور ارجع إلى : نظير حسان سعداوى التاريخ الحربى المصرى ص ١٠٣ — ١٠٨ . وسنشير إلى بعض التفاصيل فى نهاية هذا الباب عند الكلام عن الفنون .

بالاسكندرية وأمر بعمارته وتجديد سفنه » وما انصرف حتى أمر بإتمام الثغر وتعمير الأسطول »[1] .

وبينما صلاح الدين منصرف فى السنوات التالية إلى تدعيم الوحدة الإسلامية بالشام ومحاربة الصليبيين ، كان العمل مستمراً فى التحصينات التى أمر بها صلاح الدين سواء فى القاهرة أو الاسكندرية . وقد حدث سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) أن أغار الصليبيون على تنيس — شرقى بحيرة المنزلة — فخشى صلاح الدين أن يكون المقصود بتلك الغارة سبر غور المسلمين تمهيداً لغزو مصر من ناحية البحر ، وأمر بالعناية بتحصين دمياط وتنيس « ورتبت المقاتلة على البرجين بدمياط ، وجهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر فى السلسلة التى بين البرجين . وعمل تقدير برسم ما يحتاج إليه سور تنيس وإعادته كما كان فى القديم » . كذلك أمر صلاح الدين فى العام نفسه ببناء برج بالسويس يسع عشرين فارساً « ورتبت فيه الفرسان »[2] .

وهكذا عنى صلاح الدين عناية فائقة بتحصين عاصمة مصر وموانيها وثغورها حتى يأمن عادية الصليبيين . وإذا كان صلاح الدين قد اهتم ذلك الاهتمام ببناء القلاع والأبراج وتحصين المدن والثغور فى مصر ، فمن الواضح أن يكون اهتمامه بذلك الأمر فى بلاد الشام عظيما ، فأكثر من بناء الحصون فى المواقع الاستراتيجية ، وحرص على تحصين القلاع لتكون مراكز لعملياته ضد الصليبيين .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢ — ٧٤ .

الفصل الثالث

صلاح الدين والصليبيون

فكرة الجهاد على عصر صلاح الدين :

ولد صلاح الدين وشب فى بلاد الشام فى عصر ازدهرت حركة الجهاد الدينى ضد الصليبيين . ذلك أن عماد الدين زنكى ومن بعده نور الدين محمود أكسبا هذه الحركة طابعاً عملياً واضحاً ، لأنهما بدءا من النقطة التى كان ينبغى أن يبدأ منها المسلمون منذ ظهور الخطر الصليبى فى أفق الشرق الأدنى ، وهى توحيد الجهود وجمع الشمل وإقامة وحدة إسلامية تضم — على الأقل — البلدان العربية التى كانت أكثر تعرضاً للخطر الصليبى من غيرها ، وهى الشام ومصر والعراق . وإذا كان صلاح الدين قد نشأ فى منطقة هى بمثابة الميدان الأول للصراع بين المسلمين والصليبيين ، وشب فى عصر شهد اشتداد حركة الجهاد ، وترعرع بين أناس لا حديث لهم إلا عن الجهاد والدفاع عن الوطن والعقيدة ، والتضحية بالنفس والنفيس فى سبيل الاحتفاظ بكيانهم ضد دخلاء معتدين ؛ فلا غرابة أن نجد بعد هذا صلاح الدين وقد برز فى صورة أعظم شخصية شهدها الوطن العربى فى عصر الحروب الصليبية . ذلك أن صلاح الدين لم يكتف باعتناق فكرة الجهاد ، وإنما أصر إصراراً عظيما على تنفيذها ، وقضى حياته حتى آخر رمق فيه يذود عن المسلمين وبلادهم . وفى ذلك يقول ابن شداد « ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ! »[1] .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٤ .

ويتضح لنا عند دراسة الدور الأول من أدوار حياة صلاح الدين أن القدر والحظ ساعداه إلى حد كبير ، إذ تهيأت له فرصة المجىء إلى مصر وهو الميدان البكر الذى استطاع صلاح الدين أن يعمل فيه ويظهر مواهبه على مسرحه . ثم تهيأ له سبيل الظهور بوفاة عمه شيركوه ووفاة الخليفة العاضد الفاطمى وفشل المحاولات التى بذلت لإحياء الخلافة الفاطمية . وأخيراً توفى نور الدين محمود صاحب الحق الشرعى فى حكم البلاد وفى السيادة على صلاح الدين وجيوشه . وجاءت وفاته فى الوقت الذى كان يتأهب للخروج إلى مصر لتأديب صلاح الدين . ولا ندرى ماذا كان الموقف إذا لم يحدد القدر نهاية أجل نور الدين فى ذلك الوقت بالذات ؛ ولكن كل ما نستطيع أن نقوله هو أنه لو أن العمر أمهل نور الدين حتى أتى إلى مصر فإن تاريخ صلاح الدين كان سينتهى عند تلك المرحلة . ذلك أنه كان من الصعب على رجل واحد من رجال صلاح الدين — بل كان من الصعب على صلاح الدين نفسه — أن يرفع سيفه فى وجه نور الدين محمود ، سيدهم الشرعى وولى نعمتهم ؛ إذ أحسوا جميعاً بأنهم مماليك نور الدين وعبيده ، كما اعترف بذلك نجم الدين أيوب والد صلاح الدين[1] .

ولذلك نستطيع أن نقرر أنه إذا كان مجىء صلاح الدين إلى مصر يمثل نقطة التحول الأولى فى حياة ذلك البطل ، فإن وفاة نور الدين محمود فى مايو سنة ١١٧٤م (٥٦٩هـ) كانت نقطة التحول الكبرى فى حياة صلاح الدين ، بل كان ذلك الحدث بداية مرحلة جديدة فى تاريخه ، هى مرحلة البطولة التى خلدت اسمه فى التاريخ . ذلك أن وفاة نور الدين تركت المسرح العربى فى الشرق الأدنى وليس عليه شخصية كبرى من طراز عماد الدين زنكى أو نور الدين محمود ، وبذلك برز صلاح الدين على المسرح ليبذ عماد الدين زنكى ونور الدين محمود جميعاً فى صبره على الجهاد ومقدرته على انتقاء خير الوسائل لتحقيق أغراضه .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٢ (مطبوع) .

الدور التمهيدى فى الحرب بين صلاح الدين والصليبيين :

وأول ما يسترعى نظرنا فى حروب صلاح الدين ضد الصليبيين هو أن تلك الحروب مرت بدورين كبيرين : الدور الأول الذى امتد من سنة ١١٧٤ – ١١٨٦م (٥٧٠ – ٥٨٢هـ) ، ولم يكن صلاح الدين فى هذا الدور متفرغاً لحرب الصليبيين وإنما وجه جل جهوده نحو توحيد الجبهة الإسلامية وإدخال القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة فى الشام وشمال العراق تحت سيادته، ليتمكن من مواجهة الصليبيين فيما بعد ، ومن خلفه جبهة قوية متحدة تشد أزره . وإذا كان صلاح الدين قد اشتبك مع الصليبيين فى حروب فى ذلك الدور ، فإن هذه الحروب كان يغلب عليها الطابع الدفاعى إما لحماية أملاك المسلمين وأراضيهم وإما ليحول بين الصليبيين ومساعدة بعض القوى الإسلامية الانفصالية التى أعمتها شهوة الحكم عن رؤية الخطر الخارجى ، فاستعانت بالصليبيين ضد صلاح الدين . وأما الدور الثانى من أدوار الحرب الصلاحية ضد الصليبيين فيمتد من سنة ١١٨٦ حتى سنة ١١٩٢م (٥٨٢-٥٨٨هـ) وفيه كان صلاح الدين قد فرغ من توحيد الجبهة الإسلامية من الفرات إلى النيل ، فانصرف بكل طاقاته إلى فكرة الجهاد ، حتى حقق الإنتصارات الضخمة التى خلدت ذكراه فى التاريخ .

ويبدأ الدور الأول التمهيدى كما ذكرنا بسنة ١١٧٤م (٥٧٠هـ) ؛ ولكن ليس معنى ذلك أن صلاح الدين لم يكن له عهد بمحاربة الصليبيين قبل ذلك التاريخ . حقيقة أن المصادر لا تمدنا بشىء ذى قيمة عن اشتراك صلاح الدين فى مستهل حياته – قبل مجيئه لأول مرة إلى مصر سنة ١١٦٤م (٥٥٩هـ) – فى حرب الصليبيين، ولكن صلاح الدين الذى شب على مسرح الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، وقضى فترة هامة من حياته الأولى فى بلاط نور الدين بدمشق ، شاهد بلاشك صورة طبيعية حية لمجتمع مضطرم بنار الحماسة للدفاع عن الوطن والعقيدة وحماية نفسه من عدو خطير أتى من اقصى

الغرب ليعتدى على قوم آمنين فى ديارهم ويسلبهم جزءاً عزيزاً من بلادهم .

وبوصول صلاح الدين — صحبة عمه شيركوه — إلى مصر لأول مرة سنة ١١٦٤م (٥٥٩هـ) بدأت صفحة جديدة فى تاريخ علاقته بالصليبيين ، لأن الحملات الثلاث التى أرسلها نور الدين محمود إلى مصر سنة ١١٦٤ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ (٥٥٩ هـ ، ٥٦٢ هـ ، ٥٦٤ هـ) والتى شارك فيها صلاح الدين ، إنما كانت فى حقيقة أمرها موجهة ضد الصليبيين الذين دخلوا مصر فى ذلك الوقت وحاولوا امتلاكها . وتعتبر المعارك التى دارت بين المسلمين والصليبيين فى أرض مصر عندئذ المحك الأول بين صلاح الدين والصليبيين ، إذ حدث فيها الاحتكاك المباشر بين الطرفين لأول مرة ، فقام صلاح الدين بدور بارز فى موقعة البابين فى أبريل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢ هـ) ، ثم تعرض صلاح الدين لحصار الصليبيين فى الاسكندرية بعد ذلك ، مما أكسبه خبرة بأساليب الصليبيين وحربهم .

ثم كانت الفوضى التى أصابت دولة نور الدين محمود بعد وفاته — كما سبق أن ذكرنا — الأمر الذى ترتب عليه قيام بعض الأطراف المتنازعة فى الشام بدعوة صلاح الدين لتسلم دمشق سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) . وقد خشى الصليبيون عاقبة جهود صلاح الدين فى الشام لتوحيد القوى الإسلامية ؛ فتدخل ريموند الثالث أمير طرابلس والوصى على مملكة بيت المقدس للحيلولة دون استيلاء صلاح الدين على حلب ، وفعلا نجح مؤقتاً سنة ٥٧٠ هـ (فبراير ١١٧٥ م) فى صرف صلاح الدين عن قصده . وعلى الرغم من أن ريموند قام بدوره فى مهارة فى التظاهر بحماية الزنكيين من أطماع صلاح الدين إلا أن الأخير أظهر ثباتاً عجيباً ، فظل يحارب الزنكيين حيناً ويدافع الصليبيين أحياناً ، مع حرصه الشديد فى ذلك الدور على عدم توسيع دائرة الحرب ضد الصليبيين حتى لا يحارب فى جبهتين فى وقت واحد . وربما احتدت الحرب بين صلاح الدين والصليبيين فى ذلك الدور كما حدث بين سنتى ١١٧٧ م ، ١١٨٠ م (٥٧٣ هـ ، ٥٧٦ هـ) ولكنها مع ذلك لم تتخذ صورة الحرب الشاملة . ثم إن الصليبيين أنفسهم كانوا يعانون اضطراباً كبيراً فى أحوالهم الداخلية

عندئذ ، إذ كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس مريضاً بالجذام ، ومشكلة العرش ووراثته تثير كثيراً من المنافسات بين أمراء الصليبيين ، فضلا عن اختلال أحوال إمارة أنطاكية فى الشمال . وهكذا حتى استولى صلاح الدين على حلب سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ ﻫ) ، ثم دخلت الموصل تحت طاعة صلاح الدين فى مارس سنة ١١٨٦ م (٥٨١ ﻫ) ، وعندئذ أصبح فى وسع صلاح الدين أن « ينصرف بكليته إلى الفرنج» .

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس :

والواقع أن هجمات صلاح الدين على مملكة بيت المقدس أخذت تشتد فعلا بعد استيلائه على حلب سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ﻫ). وفى ذلك الوقت كانت مملكة الصليبيين قد بلغت درجة شديدة من الضعف بعد أن ساءت أحوال ملكها المريض ووضع عرش المملكة تحت وصاية جاى لوز جنان وهو أمير ضعيف اتصف بالتردد وسوء التدبير[1] . وقد استولى صلاح الدين على بعض المعاقل الصليبية فى تلك السنة ، ثم حاول أن يستدرج خصومه للدخول معه فى معركة فاصلة فى فلسطين، ولكن الصليبيين « لم يخرجوا إلى المصاف خوفاً من المسلمين »[2] .

على أن صلاح الدين لم يلبث أن فكر فى اتخاذ خطوة حاسمة ضد الصليبيين نتيجة لاستفزاز الأمير أرناط الصليبى صاحب حصن الكرك . ولم يكن أرناط من طراز الفرسان الذين مجدتهم العصور الوسطى لحرصهم على التمسك بمبادىء الشرف ، وإنما اشتهر بحبه للسلب والنهب والاعتداء على الأبرياء المسالمين[3]. لذلك فإنه لم يكتف بقطع طرق القوافل بين مصر والشام

---

(١) Guillaume de Tyr, p. 1116.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب . ج ٢ ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 111.

والحجاز ، وإنما لجأ إلى تهديد الحرمين في الحجاز . وقد بدأ أرناط مشروعه الغريب سنة ١١٨٢ (٥٧٨هـ) بالاستيلاء على أيلة ، وهى الميناء الهام على رأس خليج العقبة . ثم لجأ أرناط إلى بناء عدة سفن حملت أجزاؤها مفككة إلى خليج العقبة حيث ركبت ، وشحنها بالمقاتلين ، واتجه على رأسها لمهاجمة الموانى الإسلامية فى البحر الأحمر[١] . ولم يكتف أرناط بالعدوان على الموانى المصرية مثل عيذاب ، بل نقل نشاطه إلى شاطىء الحجاز ، حتى أن المقريزى يذكر أن الصليبيين أضحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة[٢] .

ومن الواضح أن العدوان على الحرمين أمر لا يمكن أن يغفره أو يسكت عنه المسلمون . فأسرع العادل — أخو صلاح الدين — إلى إرسال أسطول قوى فى البحر الأحمر نجح فى تدمير السفن الصليبية وأسر كثير من رجالها ، فى حين فر أرناط نفسه بصعوبة . أما صلاح الدين فقد رد على عدوان أرناط بحصار حصن الكرك فى أواخــــر سنة ١١٨٣ م ثم سنة ١١٨٤ م (٥٧٩ هـ — ٥٨٠ هـ) وإن كان لم يستطع الاستيلاء عليه لقوة تحصينه[٣] .

ويبدو أن صلاح الدين كان مشغولا حينئذ بتنظيم الأوضاع الداخلية فى دولته وإحلال أبنائه محل إخوته وأبناء عمومته فى حكم أجزاء دولته الكبيرة ، فاكتفى بعقد هدنة مع الصليبيين مدتها أربع سنوات تبدأ بسنة ٥٨٠هـ (١١٨٥ م)[٤] . وكانت هذه الهدنة عظيمة الأهمية للطرفين إذ أتاحت لصلاح الدين فرصة لتنظيم دولته ، وفى الوقت نفسه أتاحت للصليبيين فرصة ذهبية لتصفية كثير من المشاكل الداخلية التى نشبت فى دولتهم بعد وفاة بلدوين الرابع فى مارس سنة ١١٨٥ م . ولكن أرناط لم يشأ — بحماقته

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٧٩ .
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٥٦ .
(٤) Eracles, II, pp. 12-14.

المعهودة — أن يترك الصليبيين ينعمون بتلك الفرصة ، فتعجل فى إثارة الحرب مع صلاح الدين ، وهى الحرب التى جاءت كارثة على الصليبيين جميعاً .

موقعة حطين :

انتهى الصراع الداخلى الذى نشب بين الصليبيين بعضهم وبعض — عقب وفاة بلدوين الرابع — باختيار جاى لوز جنان ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية . وفى الوقت الذى آل أمر المملكة الصليبية إلى ذلك الملك الضعيف ، كان أرناط قابعا فى حصن الكرك جنوبى البحر الميت ، وهو الحصن الذى كان يتحكم بموقعه الفذ فى طرق المواصلات بين مصر والشام والحجاز . ولكن أرناط كان « لايستطيع أن يحيا هادئاً دون أن ينهب ويسرق »[1] ؛ ولذلك لم يلبث أن انقض فجأة على قافلة كبيرة للمسلمين كانت متجهة فى أواخر سنة ١١٨٦ م وأوائل سنة ١١٨٧ م (٥٨٢ هـ) من القاهرة إلى دمشق . ويبدو أن الثروة الضخمة التى كانت تحملها القافلة أسالت لعاب أرناط ، فنصب لها كميناً واستولى على كل ماتحمله من ثروة وبضائع ، وأسر رجالها فى حصن الكرك حيث « سامهم الشد والشدة[2] » .

وكان كل مافعله صلاح الدين عندئذ هو أنه أرسل إلى أرناط مهدداً ، طالباً منه رد الأسرى والغنائم . ولكن أرناط أبى ذلك ، ورفض رجاء جاى لوز جنان نفسه عندما أمره برد الأسرى والغنائم إلى صلاح الدين . وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب ، فقام بحركة تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين ومواردهم البشرية والمادية ، استعداداً لحركة جهاد كبرى لم تنته

(١) Grousset: Hist. des Croisades, II, p. 116.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

إلا فى نهاية القرن الثالث عشر بالقضاء على آخر البقايا الصليبية بالشام .

وقد اختار صلاح الدين أن يقيم فى تلك المرحلة بدمشق ، ومن ذلك المركز أخذ ينظم تحركات قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر . وعندما اكتملت استعداداته ، خرج صلاح الدين من دمشق فى منتصف مارس سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) فقصد الكرك أولا ، ونازلها وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك ، ثم اتجه بعد ذلك إلى بانياس — قرب طبريه — لمراقبة الموقف[1] .

وفى ذلك الوقت جمع الملك جاى لوز جنان جيوشه فى القاهرة ، فدارت المعركة الأولى بين المسلمين والصليبيين قرب صفورية فى مايو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، وفيها سقط معظم الجيش الصليبى بين قتلى وأسرى . ويبدو أن هذه الكارثة التى حلت بالصليبيين جعلت ريموند الثالث يفيق إلى رشده ، فنقض تحالفه مع صلاح الدين ، واجتمعت الجيوش الصليبية فى صفورية استعداداً للانتقام .

وقد رد صلاح الدين على ذلك بمهاجمة طبرية — التى كانت للصليبيين — فاقتحمت جيوشه المدينه فى يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) وأحرقتها ؛ وإن لم يستطع المسلمون الاستيلاء على قلعتها[2] .

ويؤكد المؤرخ أبو شامة أن صلاح الدين استهدف من مهاجمة طبرية أن يجبر الصليبيين على ترك مواقعهم عند صفورية ، فيتمكن من إنزال الهزيمة بهم بعد أن يعتريهم التعب لطول الطريق وحرارة الجو .

وفعلا نجحت خطة صلاح الدين ، فتحرك الصليبيون للدفاع عن طبرية ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٣ .
(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ .

وساروا فى شهر يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) فى ظروف قاسية ، بسبب حرارة الجو وقلة الماء ومشقة الطريق [١] . وعندما علم صلاح الدين بزحف الصليبيين تجاهه سر سروراً كبيراً وقال « جاء ما نريد » ! [٢] .

وأخيراً وصل الصليبيون إلى قرون حطين – وهى هضبة مرتفعة على سفح جبل طبرية – وهم فى حالة سيئة من الإنهاك والعطش ، فى الوقت الذى كان المسلمون مدخرين قوتهم، ينعمون بالماء العذب والظل المديد . وفى ٤ يوليو دارت موقعة حطين الشهيرة بين صلاح الدين والصليبيين، فأحاط المسلمون بخصومهم ، ولم يجد الصليبيون مخرجاً سوى التراجع نحو قمة الجبل « القتل والأسر يعملان فى فرسانهم » حتى قتل معظمهم وانهارت قوة من نجا ، فاستسلموا للمسلمين [٣] .

وكان من جملة الأسرى الملك جاى لوز جنان. وأرناط صاحب حصن الكرك ، ومقدم الداويه ، فسيقوا جميعا إلى صلاح الدين فى خيمته حيث أحسن استقبالهم ، ماعدا أرناط الذى قتله صلاح الدين وفاء لقسم له [٤] .

استيلاء صلاح الدين على ساحل الشام وبيت المقدس :

تعتبر موقعة حطين دون شك نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية ، لأن الصليبيين لم يفيقوا مطلقاً من تلك الضربة التى أودت بزهرة فرسانهم. ولم يكن منتظراً من مملكة بيت المقدس بعد فناء جيشها وأسر ملكها أن تستطيع الصمود والمقاومة ، الأمر الذى مكن صلاح الدين من تحقيق مكاسب ضخمة عاجلة على حساب الصليبيين. وهنا نلاحظ أن صلاح الدين

---

(١) King: The Knights Hospitallers, pp. 125-126.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ .

(٣) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ٢٣ . ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٤ .

تحلى فى ذلك الدور من أدوار حروبه ضد الصليبيين بصفات التسامح والمروءة والشهامة والبعد عن التطرف ، وهى السياسة التى كثيراً ماسببت الأضرار بمصالح المسلمين، وجعلت بعض المؤرخين المسلمين – مثل ابن الأثير – ينقدون صلاح الدين نقدا مرا لتساهله مع خصومه تساهلا يفوق الحدود[1] .

وكان المفروض أن يتجه صلاح الدين بعد حطين صوب بيت المقدس ليستولى عليها فى سهولة، بعد أن غدت المملكة الصليبية دون جيش يدافع عن عاصمتها ؛ ولكنه آثر أن يتجه أولا إلى الموانى الساحلية ليحرم الصليبيين من أية معونة تأتى إليهم من غرب أوربا عن طريق البحر ، وبعد ذلك يسهل عليه انتزاع المدن والقلاع الداخلية من الصليبيين .

هذا بالإضافة إلى أن استيلاء صلاح الدين على موانى فلسطين من شأنه أن يهيأ له اتصالا بحرياً سريعاً وسهلا بين شطرى دولته، الشام ومصر[2].

وهكذا استولى صلاح الدين على عكا فى سهولة ، إذ استسلمت له المدينة بمجرد رؤية الجيش الإسلامى فى ٨ يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) . ويبدو أن السياسة الرحيمة التى اتبعها صلاح الدين مع أهل عكا، ساعدته فى الاستيلاء على كثير من المدن الساحلية والداخلية فيما بعد ، فأرسل جيوشه للإستيلاء على المعاقل القريبة، حتى تم للمسلمين الاستيلاء على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفوريه، وغيرها من المواقع القريبة من عكا[3] . هذا فى الوقت الذى زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا، فى حين سقط حصن تبنين، وصرفند، وصيدا فى أيدى المسلمين فى أواخر يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ). كذلك استولى صلاح الدين على بيروت وجبيل وعسقلان التى

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨١١ وما بعدها .

(٢) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 249.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠٢

أبدت مقاومة عنيفة . وهنا يلاحظ أن صلاح الدين كان يترك الحرية لأهالى معظم هذه المدن التى استولى عليها فى أن يبقوا أو يرحلوا ، فآثر معظمهم الرحيل إلى صور « حيث اجتمع كل أفرنجى بقى فى الساحل »[1] .

وهذا الخطأ من صلاح الدين ترتب عليه تجمع جميع عناصر المقاومة الصليبية فى مدينة صور ، الأمر الذى أدى إلى استحالة استيلاء صلاح الدين عليها من ناحية ، وإلى اتخاذها مركزاً لإحياء مملكة بيت المقدس فيما بعد من ناحية أخرى .

وعندما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعبا ، آثر أن يتجه إلى داخلية فلسطين ليستولى على بيت المقدس. وكان أهل بيت المقدس قد استفادوا من الفرصة التى أتاحها لهم إتجاه صلاح الدين إلى الساحل بعد حطين ، وحصنوا مدينتهم ، فرفضوا أن يستجيبوا لنداء صلاح الدين ويسلموا المدينة له مقابل تأمينهم[2] . ويقال أن صلاح الدين عندما رأى عناد الصليبيين فى بيت المقدس ، أقسم على أن يستولى على المدينة بحد السيف ، فبدأ هجومه على المدينة من الجهة الشمالية فى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ) ، وعندئذ أدرك الصليبيون استحالة المقاومة ، فطلبوا الأمان[3] . ويبدو أن صلاح الدين تمنع عن إجابة الصليبيين إلى طلبهم تلك المرة بعد أن رفضوا عروضه السابقة ، حتى وافق أخيرا على أن يسمح لهم بالخروج سالمين مقابل فداء معين عن كل رجل أو امرأة أو طفل . وهكذا دخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ) . وشاءت الظروف أن يوافق دخوله ذكرى ليلة الأسراء والمعراج ، فاحتفل المسلمون بهذه المناسبة الدينية فى بيت المقدس

---

(١) أبو شامة : النوادر السلطانية ص ١٢٦ .

(٢) Grousset: Hist. des Croisades, II, p. 809.

(٣) Runciman: A Hist. of the Crusades, II, p. 464.

وأحسنوا معاملة الصليبيين، مما جعل كثيراً من المؤرخين الأوربيين يشيدون بتسامح صلاح الدين، وبالفرق بين معاملته للمسيحيين ومعاملة الصليبيين للمسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٧م (٤٩١هـ)[١].

صلاح الدين وغزو شمال الشام :

وبعد أن أتم صلاح الدين غزو فلسطين، لم يبق أمامه إلا البقايا الصليبية في شمال الشام، مثل صور وطرابلس وأنطاكية، فضلا عن الحصون الداخلية، مثل حصن الأكراد وحصن المرقب. أما صور فقد فشلت جميع جهود صلاح الدين في الاستيلاء عليها بعد أن تجمعت فيها البقايا الصليبية التي تركها صلاح الدين تخرج آمنة من المدن التي استولى عليها. لذلك لم يجد صلاح الدين بدا من ترك صور وتوجيه جهوده ضد طرابلس وأنطاكية.

وقد بدأ صلاح الدين هجماته على إمارة طرابلس بالاستيلاء على بعض القلاع الصليبية الهامة في إقليم الجليل، مثل قلعة هونين، كما حاصر صفد وحصن كوكب، وإن كانت هاتان القلعتان قد أظهرتا مقاومة عنيفة بحيث لم يستطع صلاح الدين الاستيلاء عليهما إلا في أواخر سنه ١١٨٨ وأوائل سنة ١١٨٩م (٥٨٤هـ)[٢]. وفي تلك الأثناء استولى صلاح الدين على بانياس في أقصى الشمال من إمارة طرابلس، ثم أوغل في إمارة أنطاكية وإستولى على جبلة في يوليو ١١٨٨ (٥٨٤هـ). وبعد أن استولى صلاح الدين على اللاذقية - أكبر موانى أمارة انطاكية - في أواخر يوليو سنة ١١٨٨م (٥٨٤هـ)، هاجم حصن صهيون واستولى عليه بعد قليل. وبذلك أخذت معاقل أمارة أنطاكية تتساقط في يد صلاح الدين معقلا بعد آخر بحيث لم يبق لتلك الأمارة سوى ثلاث حصون، هي القصير وبغراس ودربساك[٣]. وحتى هذه الحصون

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٢٤.
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٠، ١٣٥.
(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٤ هـ، أبو شامة، الروضتين ص ١٣٦-١٣٧.

لم يلبث أن ستولى عليها صلاح الدين فى أواخر سنة ١١٨٨ م (٥٨٤هـ)، وبذلك أصبحت إمارتا انطاكية وطرابلس مقصوصتى الجناح ، على قول المؤرخ أبى شامة .

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة :

بدأ صلاح الدين هجومه الكبير الشامل على الصليبيين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣هـ) ، ولم تكد تمر ثلاث سنوات على ذلك الهجوم حتى انكمشت الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام، فلم يبق من مملكة بيت المقدس إلا صور، ومن إمارة طرابلس إلا عاصمتها مدينة طرابلس وقلعة انطرطوس وحصن الأكراد ، ومن إمارة إنطاكية إلا عاصمتها مدينة أنطاكية وحصن المرقب، هذا كله عدا بعض المواقع الثانوية الضئيلة الأهمية [١] .

ولا شك فى أن المصائب التى حلت بالصليبيين فى المشرق على يد صلاح الدين كان لها صداها ورد فعلها العنيف فى الغرب الأوربى، فارتفع صوت البابوية ينادى ملوك أوربا وأمراءها بالقيام بحملة صليبية كبرى، تسترد بيت المقدس من المسلمين، وتثأر مما حل بالصليبيين فى الشام على يد صلاح الدين. ولم يلبث أن استجاب لهذه الدعوة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيلب أغسطس ملك فرنسا وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا .

وقد اختار فردريك بربروسا أن يأتى إلى الشام عن طريق البر وآسيا الصغرى، فى حين سلك زميلاه ملكا فرنسا وإنجلترا طريق البحر . ويبدو أن الحملة الألمانية بزعامة فردريك بربروسا تعرضت فى طريقها لمصاعب جمة من جانب الدولة البيزنطية ثم السلاجقة ، حتى انتهى الأمر بغرق الإمبراطور

---

(١) Grousset: Hist. des Croisades, II, pp. 834-835.

فردريك بربروسا نفسه فى أحد أنهار أسيا الصغرى وتشتت حملته سنة ١١٩٠م (٥٨٦هـ)[١].

وفى الوقت الذى جمعت البقايا الصليبية فلولها فى الشام وأخذت تشدد الهجوم على عكا لاستردادها من المسلمين، وصل فيلب أوغسطس على رأس الحملة الفرنسية إلى الشام فى إبريل سنة ١١٩١م (٥٨٧ هـ) ليشجع الصليبيين ويبث فيهم روحا جديدة، ويحيى فيهم الأمل . ولم يضع فيلب أوغسطس الوقت ، وإنما تزعم على الفور معركة عكا ، حتى وصل ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا إلى الشام فى ٨ يونيه ، فازداد الصليبيون قوة ، فى حين ساء موقف الحامية الإسلامية المحصورة داخل عكا . ولم تفلح الهجمات القوية التى شنها صلاح الدين على جيوش الصليبيين لإنقاذ عكا ، فاضطرت حاميتها إلى التسليم فى يوليه سنة ١١٩١م (٥٨٧ هـ)[٢].

وإذا كان الخلاف بين فيلب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد قد دفع فيلب إلى الاعتذار بالمرض والإبحار إلى الغرب فى أوائل أغسطس سنة ١١٩١ ، فإن ريتشارد اختار أن يبقى بعض الوقت فى الشام ليحاول أن يصفى الحساب بين صلاح الدين والصليبيين . وتعتبر الحروب التى دارت فى الشام بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين سنة ١١٩١ — ١١٩٢ م (٥٨٧ — ٥٨٨ هـ) من أهم حلقات الحروب الصليبيه إطلاقاً ، وأكثرها متعة للباحث . ذلك أن ريتشارد جمع بين الشجاعة والتهور ، فتزعم القوى الصليبية بالشام للقيام بحركة كبرى يسترد بها بيت المقـــدس ويعيدها إلى سابق عهدها[٣]. وكان أن بدأ ريتشارد بمحاولة لاسترداد شاطىء فلسطين — من عكا

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٦ هـ Runciman: op. cit., III, p. 15.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥٩ — ٣٦٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٧٦ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٧١ وما بعدها .

إلى عسقلان ، فاستولى الصليبيون على حيفا ثم على قيسارية فى نهاية أغسطس سنة ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) ومنها اتجهوا صوب أرسوف .

على أن صلاح الدين لم يترك الصليبيين يواصلون زحفهم فى سهولة، وإنما أخذ فى مطاردتهم، وتحمل فى هذه المطاردة كثيراً من التضحيات، حتى كانت موقعة أرسوف بين الطرفين فى أوائل سبتمبر سنة ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) . وفى هذه الموقعة أحاط المسلمون بالصليبيين ، وأوشك صلاح الدين أن يقضى عليهم كما حدث فى حطين ، لولا ثبات ريتشارد الذى أعاد تنظيم رجاله فى سرعة، واستطاع أن يحول المعركة إلى صالح الصليبيين[١] .

ومع أن الصليبيين انتصروا فى أرسوف، إلا أن صلاح الدين ظل محتفظاً بالسيطرة على داخلية فلسطين ، وبخاصة بيت المقدس . وكان أن حاول ريتشارد الزحف على بيت المقدس ، ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء عليها بسبب يقظة صلاح الدين والاستعدادات القوية التى اتخذها للدفاع عن المدينة[٢] .

وأخيراً أدرك ريتشارد أن مشاكل الصليبيين الداخلية كثيرة ومعقدة ، وأن مركز صلاح الدين قوى ومتين ، وأن الأحوال فى غرب أوربا تستدعى سرعة عودته إلى بلاده ؛ ولذلك كله لجأ ريتشارد إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين . وقد طالت هذه المفاوضات بين الطرفين ومرت بأدوار متعددة ، حتى أدت فى النهاية إلى صلح الرملة فى ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) وهو الصلح الذى نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف ، وما عدا ذلك — بما فيه بيت المقدس ذاتها — تظل بأيدى المسلمين[٣].

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٦٣ ، عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ٣٤٢

وبعد عقد الصلح ركب ريتشارد البحر عائداً إلى بلاده فى أوائل أكتوبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) . ولم يلبث صلاح الدين نفسه أن توفى فى أوائل مارس سنة ١١٩٣ م (٥٨٩ هـ) فى دمشق بعد مرض قصير .

ولاشك فى أن وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة كبرى للعالم الإسلامى بوجه عام ومصر والشام بوجه خاص . ويكفى أنه — باعتراف جمهرة المؤرخين المسلمين والأوربيين — كان أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية ، مما دفعهم جميعاً إلى الترحم عليه والإشادة بقوته وعدله وتسامحه[١] .

---

(١) ابن شداد : النوادر ص ٤١٠ ، Runciman: op. cit., III, pp. 11-18.

الفصل الرابع

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

انقسام البيت الأيوبى :

ترك صلاح الدين خلفه دولة مترامية الأطراف ، وفراغاً ضخماً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر ، أو إخوته ، أو أبناء إخوته أن يملأه . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين ، لندرك مدى الخطر الذى كان يتهددها ويتهدد وحدة المسلمين فى الشرق الأدنى عندئذ . على أنه قبل أن نتكلم عن التوزيع الإدارى فى الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين يصح أن نشير إلى ملاحظة ، هى أن صلاح الدين اعتمد فى الدور الأول من تاريخه على إخوته وأبناء عمومته فى توطيد سلطانه، واختصهم بالمناصب الكبرى والولايات الرئيسية فى دولته؛ ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن بدل سياسته، فجعل لأبنائه المكانة الأولى، ووزع عليهم حكم الأجزاء الرئيسية ، ثم استبقى لأخوته وأقاربه المناصب الثانوية. وسواء كان الدافع لصلاح الدين إلى ذلك عاطفة الأبوة الطبيعية التى جعلته يفضل أبناءه على أخوته ، أم كان الدافع تخوفه من أطماع أقاربه وازدياد نفوذ إخوته ، فالمهم هو أننا نجد الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين وقد تقاسم حكم أجزائها عدد كبير من بنى أيوب ، فاستأثر أبناء صلاح الدين بالأجزاء المختارة وأخذ بقية الأقارب الأجزاء الأقل أهمية .

وكان أكبر أبناء صلاح الدين هو الملك الأفضل نور الدين على ، فاحتفظ (١١٩٣-١١٩٦م - ٥٨٩-٥٩٢ هـ) بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين إلى الداروم

قرب حدود مصر . أما الابن الثانى لصلاح الدين وهو الملك العزيز عثمان فكان بمصر وقت وفاة أبيه، فاحتفظ بها (١١٩٣ — ١١٩٨م = ٥٨٩ — ٥٩٥ هـ) ، فى حين أخذ الابن الثالث لصلاح الدين — وهو الملك الظاهر غازى — حلب وشمال الشام (١١٩٣ — ١٢١٥ م، ٥٨٩ — ٦١٣ هـ) . أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر — أخو صلاح الدين — فقد أخذ الكرك والأردن ، فضلا عن الجزيرة وديار بكر ، وكلها اقطاعات ثانوية متفرقة منحه إياها صلاح الدين ، ولا تتناسب مع أهمية العادل التى ستزداد ظهوراً مع مضى الوقت[1] . أما بقية أبناء صلاح الدين وإخوته وأقاربه ، فكانت لهم إقطاعات ثانوية صغيرة : مثل الظافر خضر ابن صلاح الدين الذى أخذ بصرى وحوران ، والأمجد بهرامشاه ابن أخى صلاح الدين الذى أخذ بعلبك، والمجاهد شيركوه الثانى (الصغير) ابن محمد بن شيركوه الكبير عم صلاح الدين وقد أخذ حمص ، والمنصور الأول محمد ابن تقى الدين عمر وقد أخذ حماه ، فى حين أخذ سيف الإسلام طغتكين — وهو الأخ الرابع لصلاح الدين — اليمن وجزيرة العرب[2] .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله تحفز أبناء البيوت القديمة الحاكمة فى الجزيرة ، مثل البيت الزنكى ممثلا فى عز الدين مسعود الأول ابن مودود أتابك الموصل (١١٨٠ — ١١٩٣م، ٥٧٦ — ٥٨٩هـ) وأخيه عماد الدين زنكى الثانى ابن مودود أتابك سنجار (١١٧٠ — ١١٩٧م، ٥٦٦ — ٥٩٤ هـ)، والبيت الأرتقى ممثلا فى قطب الدين سقمان الثانى صاحب كيفا وآمد، وعماد الدين أبو بكر صاحب خرتبرت ، فضلا عن بنى سكمان فى خلاط ، أدركنا حقيقة الموقف فى العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى عند وفاة صلاح الدين[3].

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ « مطبوع » .

(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ٣٦٤ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٩ هـ .

النزاع بين أبناء البيت الأيوبي :

ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي. ذلك أن صلاح الدين أوصى لإبنه الأفضل — صاحب دمشق — بالسلطنة من بعده، على أن تكون له السلطة العليا في بقية أنحاء الدولة الأيوبية. ولكن الأفضل لم يكن بالشخص الذي يصلح لتلك المهمة لضعفه وسوء سيرته، حتى وصفه المؤرخون بأنه «أقبل على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته»[1]. وزاد من كراهية الناس له أنه نبذ أمراء والده ومستشاريه، ووضع كل ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين ابن الأثير، أخي المؤرخ الشهير. ولم يلبث وزراء صلاح الدين وأمراؤه المستبعدون أن فروا إلى بلاط الملك العزيز عثمان بمصر، واستعدوه على أخيه الأفضل، فخرج العزيز من مصر في صيف سنة ١١٩٤ م (٥٩٠ هـ) قاصداً الشام، وشرع في محاصرة الأفضل في دمشق، الأمر الذي جعل الأفضل بدوره يستنجد بعمه العادل[2].

وهكذا أتيحت الفرصة للعادل — وهو الرجل الطموح الذي كان يرجو أن يخلف أخاه صلاح الدين - فأخذ يتدخل، عله يحقق أطماعه الخاصة. وقد وصف ابن واصل الملك العادل بأنه كان «ذا مكر شديد وخديعة، صبوراً ذا أناة وتؤده»[3]. ; فلم يشأ أن يتعجل الحوادث عقب وفاة أخيه صلاح الدين، وأخذ يتصرف بأناة ريثما تتضح الأمور. وكان أن استجاب العادل لنداء الأفضل، فالتقى بالملك الظاهر صاحب حلب والمنصور محمد صاحب حماه، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك. واتفق هؤلاء جميعاً على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق «علماً منهم

---

(١) المقريزي : السلوك حوادث سنة ٥٩٠ هـ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٢٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل، حوادث سنة ٥٩٠ هـ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٧١ « مطبوع » .

أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم » . وعندئذ أدرك العزيز أن لاقدرة له على مقاومة أولئك الأمراء جميعاً ، فانصرف عائداً إلى مصر بعد أن اجتمع بعمه العادل فى صحراء المـــزة ، فطيب العادل نفسه وأعطاه إحدى بناته ليتزوجها[1] .

أما التسوية التى على أساسها انصرف العزيز ، والتى تمت فى يوليو سنة ١١٩٤ م (٥٩٠هـ) ، فقد قضت بأن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ، فى حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين، ويأخذ الظاهر جبله واللاذقية ، وذلك علاوه على ما بأيديهما فعلا[2] .

وهكذا أخذ العادل يبدو فى صورة الشخصية الكبرى الحريصة على وحدة البيت الأيوبى ، والمحافظه على كيان المسلمين أمام الأخطار الخارجية[3] .

على أن الأفضل لم يلبث أن تمادى فى لذاته ولهوه « فتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب » فى الوقت الذى عاد العزيز عثمان إلى مطامعه ، فخرج من مصر قاصداً دمشق. وكان أن عاد الأفضل إلى طلب النجدة من عمه العادل ، فحرض العادل أمراء العزيز على تركه ، وعندئذ وجد العزيز نفسه وحيداً فاضطر إلى العودة إلى مصر . وسرعان ماتم الاتفاق بين الأمراء على أن يأخذ الأفضل مصر ويترك دمشق للعادل ، فجمع الأفضل والعادل جيوشهما واستوليا على بيت المقدس ، ثم شرعا يزحفان على العزيز فى مصر

---

(١) المقريزى : السلوك حوادث سنة ٥٩٠ هـ.

(٢) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٩١ هـ.

(٣) يروى ابو المحاسن أن العادل عندما التقى بالعزيز عثمان قرب دمشق قال له :

« لا تخرب البيت وتدخل عليه الآفة، والعدو وراءنا من كل جانب ... ارجع إلى مصر واحفظ عهد أبيك » (النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٢١) .

حتى وصلا إلى بلبيس وحاصراها . وليس أدل على مهارة العادل فى ذلك الدور من أنه عاد فخشى أن يأخذ الأفضل مصر ولا يعطيه دمشق ، فأرسل العادل سراً إلى العزيز يطلب منه الثبات ويتعهد له بالانسحاب من بلبيس[1]. وهكذا عاد الأفضل إلى دمشق فى حين جعل العادل من نفسه حكما بين أبناء صلاح الدين بما مكنه من أن يفرض كلمته عليهم جميعاً .

على أن الأفضل عاد فى تلك المرة إلى دمشق ليترك جميع شئون الحكم فى يد وزيره ضياء الدين ابن الأثير «الذى اختلت به الأحوال غاية الاختلال وكثر شاكوه» ؛ فضج الناس من سوء الحكم وأعلنوا سخطهم على الأفضل وابن الأثير جميعاً[2] .

وهنا وجد العادل أن الأمور قد نضجت لعزل الأفضل ، فذهب إلى العزيز فى مصر ، وعقد معه اتفاقية لتحقيق ذلك الغرض ، ثم خرج الإثنان — العادل والعزيز — من مصر فى يونية سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ ﻫ) قاصدين دمشق « فما صدهم عن البلد صاد ولا ردهم راد »[3] .

ولم تلبث أن سقطت دمشق فى أيديهما فى أوائل يوليه ، وعندئذ حل العادل محل الأفضل فى حكم دمشق وأواسط الشام ، فى حين أخذ العزيز لقب السلطنة، وبقيت له مصر وبيت المقدس ؛ على أن يذكر اسمه فى الخطبة وينقش على السكة . أما الأفضل فقد تركت له مدينة صرخد فى إقليم حوران شرقى بصرى، ليقيم فيها نسيا منسيا[4] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٩١ ﻫ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٢٩ . سنة ٥٩٢ ﻫ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٦١ (مطبوع) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١١٦ .

مصر فى عهد العزيز عثمان :

حكم العزيز عثمان مصر قرابة خمس سنوات (١١٩٣ — ١١٩٨ م = ٥٨٩ — ٥٩٥ هـ) وكان قبل ذلك يحكم مصر باسم أبيه صلاح الدين . وفى ذلك يقول المؤرخ أبو المحاسن عن العزيز عثمان أنه «ولى سلطنه مصر فى حياة والده صورة ، ثم تسلطن بعد وفاته استقـــلالا ، باتفاق الأمراء وأعيان الدولة بديار مصر[1] » .

ويلاحظ أن العزيز عثمان ولد بالقاهرة ، وهو لذلك يمثل أول حاكم من بنى أيوب يولد بمصر ويتولى حكمها . وقد أشارت المراجع باستقامة العزيز عثمان واستقامة حكمه وعدله فى الرعية ، حتى وصفه ابن خلكان بأنه « كان ملكا مباركا كثير الخير واسع الكرم محسنا إلى الناس » .

وعلى الرغم من أن مصر ظلت فى ذلك العهد — كما كانت فى أيام صلاح الدين — قلب الدولة الأيوبية ، إلا أن أحوالها الاقتصادية تأثرت إلى حد كبير بسبب انخفاض فيضان النيل سنة ١١٩٤ م (٥٩١ — ٥٩٢ هـ) وما ترتب على ذلك من نقص الغلال وانتشار الوباء، فهلكت المواشى، وكثر الزحام فى الأسواق على الخبز لقلته « وكثرت الطرحى من الأموات على الطرقات ، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة فى كل يوم عن مائتى نفس ، وبقى بمصر من لم يوجد من يكفنه وأكثرهم يموت جوعاً . »[2] ويبدو أن انشغال العزيز عثمان بالنزاع مع أخيه الأفضل فى ذلك الدور بالذات لم يساعد على سرعة وضع حد لتلك الضائقة التى أثرت تأثيراً خطيراً فى أحوال البلاد .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٢٠ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٣٠ .

العادل وتوحيد الدولة الأيوبية :

وإذا كانت الظروف التي ألمت بالبيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين قد ساعدت على إبراز أهمية العادل بوصفه كبير الأيوبيين وزعيمهم ، فإن هذه المكانة كانت تلقي مسئولية كبيرة على كاهل العادل، فيما يختص بالدفاع عن مصالح المسلمين ضد أي عدوان من جانب الصليبيين . وفعلا نهض العادل بمسئوليته تجاه العدوان الصليبي على خير وجه ، فعندما وفد بعض الصليبيين الألمان إلى الشام سنة ١١٩٧م (٥٩٣هـ) وهاجموا المسلمين — وبخاصة قرب الساحل — أسرع العادل إلى جمع القوى الإسلامية، وأنزل الهزيمة بالصليبيين عند تل العجول قرب غزة، ثم أسرع بالاستيلاء على يافا في سبتمبر سنة ١١٩٧م (٥٩٣ هـ)[١]. وقد رد الصليبيون على ذلك بالاستيلاء على بيروت في أكتوبر، ثم فكروا في الزحف على بيت المقدس ، ولكن العادل طلب معونة العزيز عثمان من مصر، فحضر إليه في أوائل سنة ١١٩٨م(٥٩٤هـ)، وتمكن المسلمون من الصمود في وجه الصليبيين الذين انصرفوا فاشلين[٢] .

ولم يكد يتم الصلح بين المسلمين والصليبيين في أوائل يولية سنة ١١٩٨م (٥٩٤ هـ) حتى مرت الدولة الأيوبية بعدة تطورات انتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة العادل . ذلك أن العزيز عثمان سلطان مصر توفي في أواخر نوفمبر سنة ١١٩٨م (٥٩٥ هـ) وكان ابنه الأكبر ناصر الدين محمد — الملقب بالملك المنصور — في العاشرة من عمره، فأرسل فخر الدين جهاركس — صاحب النفوذ في مصر — إلى العادل يستدعيه لحكم البلاد . ولكن المماليك الأسدية والصلاحية في مصر خشوا بأس العادل، فاستدعوا الملك الأفضل

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢) أبو شامة : المختصر في تاريخ البشر ، حوادث سنة ٥٩٤ هـ .

من حوران وسلموه مقاليد الأمور فى مصر فى يناير ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وكان العادل عندئذ يحاصر ماردين فى ديار بكر ؛ فاتفق الملك الأفضل فى مصر مع الملك الظاهر صاحب حلب للقضاء على سيادة عمهما الملك العادل وأخذ دمشق منه [١] .

وعندما علم العادل بمؤامرة أبناء أخيه ضده، عاد مسرعا إلى دمشق، فوصلها فى ٨ يونيو سنة ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وأخذ يعد المدينة بسرعة للدفاع . ولم تمض مدة طويلة حتى وصل الأفضل على رأس العسكر المصرى والظاهر على رأس العسكر الحلبي ، وحاصرا المدينة طوال ستة أشهر ، ولكن دون أن أن يقوما بهجوم عام جاد . على أن طول مدة الحصار أدت بكثير من أمراء الأفضل والظاهر إلى تركهما والانضمام إلى العادل ، فى الوقت الذى استغل العادل سوء تدبير الأخوين وأخذ يبذر بذور الخلاف بينهما، حتى انتهى الأمر فى أواخر ديسمبر سنة ١١٩٩ م (٥٩٦ هـ) بعودة الأفضل إلى مصر والظاهر إلى حلب [٢] . وهنا لم يشأ العادل أن يترك الأفضل يعود فى سلام إلى القاهرة وإنما تبعه إلى مصر ، وأنزل به الهزيمة قرب بلبيس . ولم يلبث أن استسلم الأفضل وطلب أن يسمح له بالعودة إلى إقطاعه المتواضع فى حوران، على أن تكون مصر للعادل (فبراير ١٢٠٠ م=٥٩٦ هـ) [٣] .

على أن الظاهر والأفضل لم يلبثا أن اتفقا فى العام التالى مرة أخرى ، وزحفا على دمشق ليحاصراها من جديد ، وعندئذ أسرع العادل من مصر ليبذر بذور الخلاف بين الأخوين ، فعاد الظاهر إلى حلب واعترف بسيادة

---

(١) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٩٥ هـ ؛ أبو المحاسن، النجوم ج ٦ ص ١٤٧.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٩٦ هـ .

عمه. أما الأفضل فقد اختار عمه العادل أن يعاقبه، فلم يعطه تلك المرة سوى سميساط[1].

وهكذا صار العادل «سلطان البلاد جميعها» وبيده ملك مصر وبيت المقدس ودمشق، فضلا عن أملاكه فى الجزيرة. وإذا كان العادل قد نجح فى توحيد الدولة الأيوبية من جديد، فإن ذلك تطلب منه إعادة تنظيم دولته، واستعان فى ذلك التنظيم بأبنائه، فأناب ابنه الكامل محمد فى حكم مصر، وجعل المعظم عيسى فى دمشق، وأعطى الأشرف موسى حران، والأوحد ميافارقين. واحتفظ العادل لنفسه بالإشراف التام على جميع تلك الأنحاء «وصار يتنقل فى ممالك أولاده، والعمدة فى كل الممالك عليه!»[2].

وبذلك تم توحيد الجبهة الإسلامية مرة أخرى فى وجه الصليبيين، وقام على رأس هذه الجبهة رجل يعتبر من أقوى رجال عصره؛ هو السلطان العادل أخو صلاح الدين.

السلطان العادل والصليبيون:

نظر الصليبيون والغرب الأوروبى إلى جهود العادل الأيوبى فى توحيد الجبهة الأسلامية بعين القلق، وأخذوا يدركون أهمية مصر بوصفها القاعدة الكبرى التى اعتمد عليها الأيوبيون فى نشاطهم الداخلى والخارجى لذلك ظهرت الدعوة فى الغرب الأوربى فى أوائل القرن الثالث عشر لإرسال حملة كبيرة ضد مصر، وهى الحملة التى عرفت فى تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الرابعة، والتى انحرفت إلى القسطنطينية ولم تصل إلى مصر أو الشام.

---

(١) المقريزى: السلوك، حوادث سنة ٥٩٨ هـ (ج ١ ص ١٥٩).

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٧.

وفى تلك الأثناء ظل الملك عمورى الثانى لوزجنان حريصا على عدم خرق الصلح الذى عقد مع المسلمين سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ، فعمل دائما على على عدم استفزاز العادل حتى تأتى الحملة الصليبية المنتظرة إلى الشرق . من ذلك أن ثلثمائة فارس من الفلمنكيين وصلوا فى نهاية سنة ١٢٠٢م (٥٩٩هـ) إلى عكا، وطلبوا من الملك عمورى الثانى البدء فورا بالزحف ضد المسلمين، ولكن عمورى رد عليهم بأن الحماسة وحدها لا تكفى ، وأنه من الأفضل عدم خرق الهدنة مع المسلمين حتى يضمن الصليبيون قوة فعالة تحقق لهم النجاح فى حروبهم ضد المسلمين[1] .

على أنه ليس معنى حرص عمورى الثانى على احترام الصلح مع المسلمين أنه ارتضى العدوان على الصليبيين ، إذ الواقع أن سياسته اتجهت إلى عدم المبادرة بالعدوان مع التأهب دائما للدفاع عن كيان الصليبيين ومصالحهم . من ذلك أن أميرا مسلما امتلك قلعة فى إقليم صيدا ودأب على تسليح بعض السفن للقيام بإغارات عدوانية على ممتلكات الصليبيين وسفنهم . ولم تفلح الشكاوى التى بعث بها عمورى إلى الملك العادل لوقف نشاط ذلك الأمير، وعندئذ عزم عمورى على رد العدوان بالمثل ، فتربص اسطوله لقافلة من السفن الإسلامية — تبلغ عشرين سفينة — قادمة من مصر إلى موانى الشام، واستولى على ما فيها من بضائع قدرت بنحو ستين ألف دينار، ورجال بلغوا المائتين.[2] وبعد ذلك شرع عمورى فى القيام بإغارة على إقليم الجليل ، فأوغل الصليبيون حتى كفر كنّا — على الطريق بين عكا وطبرية — واعتدوا على أرواح المسلمين وأملاكهم[3] . ولكن العادل خرج إليهم ، فأوقف

(١) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 296.

(٢) Grousset: Hist. des Croisades, III, p. 180.

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦٠٠ هـ .

الصليبيون زحفهم واختاروا أن يتريثوا حتى تصل الحملة الصليبية المزعومة. ولم تلبث أن جاءت الاخبار بانحراف الحملة الصليبية واتجاهها إلى القسطنطينية، مما ساعد على إبرام الصلح بين الصليبيين والمسلمين في سبتمبر سنة ١٢٠٤ م (٦٠١ هـ).

وهنا نلاحظ على العادل أنه كان متسامحا إلى أقصى حدود التسامح، وأنه حرص دائما على عدم العدوان، بل كان يعمد أحيانا إلى السكوت عن عدوان الصليبيين رغبة منه في عدم إشعال نار العداوة بينهم وبين المسلمين. ذلك أن الصليبيين – وبخاصة الاسبتارية في حصن الأكراد – دأبوا منذ سنة ١٢٠٦ م (٦٠٣ هـ) على الإغارة على مدينة حمص، في الوقت الذي استولى قراصنة قبرس سنة ١٢٠٧ م (٦٠٤ هـ) على عدة سفن «من أسطول مصر»[1]. ومع ذلك كله فقد اكتفى العادل بانذار ملك الصليبيين، وقنع برد أسرى المسلمين. ومن الواضح أن سياسة العادل وتسامحه كانت لا تتفق بأي حال وروح العصر وحماسة المسلمين، الأمر الذي جعل المسلمين يعقدون الاجتماعات في جامع دمشق، حتى أن امرأة قطعت شعرها وبعثت به إلى العادل وقالت له «اجعله قيدا لفرسك في سبيل الله»[2].

وإذا كان هذا الشعور قد دفع العادل إلى القيام ببعض الأعمال الحربية ضد الصليبيين سنة ١٢٠٧م (٦٠٤ هـ) في منطقة طرابلس، فإنه لم يلبث أن اصطلح معهم بعد قليل.

---

(١) ابن الاثير: الكامل؛ سنة ٦٠٤، ٦٠٦. سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ص٣٩.
(٢) ذيل الروضتين. (Rec. Hist. Cr., Tome 4, pp. 156-158).

الفصل الخامس

السلطان الكامل والحملة الصليبية الخامسة على مصر

تطلع الصليبيين إلى مصر :

أدرك الصليبيون منذ بداية استقرارهم بالشام أهمية مصر لهم ولمشاريعهم في الشرق الأدنى، فأخذوا يتطلعون إليها منذ أواخر القرن الحادى عشر للميلاد (الخامس الهجرى) ، وقام جودفرى دى بوايون بمحاولته الأولى الاستكشافية فى أرض مصر سنة ١٠٩٩ م (٤٩٣ هـ) ثم أعقبه أخوه بلدوين — أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية — فغزا مصر فعلا سنة ١١١٦ م (٥٠٩ هـ) .

وقد سبق أن أشرنا إلى التنافس بين شاور وضرغام فى أواخر الدولة الفاطمية ، وكيف أدى ذلك التنافس إلى تدخل الصليبيين فى شئون مصر وقيام ملكهم عمورى الأول بحملات أربع على مصر ، (١١٦١ — ١١٦٩ م = ٥٥٦ — ٥٦٤ هـ) . وإذا كان الصليبيون قد فشلوا فى أخذ مصر ، فإن فشلهم كان حافزاً لهم على الإحساس بمدى الخطر الذى يتهددهم بعد أن غدا نور الدين — ومن بعده صلاح الدين — يسيطران على الشام ومصر جميعاً ويحصران الممتلكات الصليبية بين فكى الكماشة الإسلامية .

ولا يخفى علينا كذلك أن مصر كانت المركز الذى استمد منه صلاح الدين قوته وموارده ، والتى اعتمد عليها فى جهوده الحربية التى انتهت بالإطاحة بالصليبيين فى موقعة حطين ، ثم الاستيلاء على بيت المقدس وغيرها من مدنهم ومعاقلهم فى بلاد الشام . لذلك لا عجب إذا أفاق الغرب الأوربى فى أوائل القرن الثالث عشر أمام حقيقة كبرى ، هى أن مفتاح بيت المقدس موجود فى مصر ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة فى بلاد الشام فعليهم أن يسيطروا على مصر أولا .

وكان المفروض أن تتجه الحملة الصليبية الرابعه سنة ١٢٠٤ م (٦٠٠ ﻫ) ضد مصر بالذات ، ولكن مطامع البندقية وجهت الحملة ضد القسطنطينية حيث أسقط الصليبيون الامبراطورية البيزنطية وأقاموا امبراطورية لاتينية. وإزاء هذا الفشل الذى منيت به الحملة الصليبية الرابعة ، قام البابا انوسنت الثالث ومن بعده البابا هونريوس الثالث بالدعوة لحملة جديدة ، هى الحملة الصليبية الخامسة .

حنادى برين ومهاجمة مصر :

وسرعان ماأخذت جموع الصليبيين تفد من الغرب إلى بلاد الشام تلبية لدعوة البابوية ، فى الوقت الذى آمن حنادى برين ملك مملكة بيت المقدس فى عكا بفكرة مهاجمة مصر . وكانت فكرة حنادى برين تستهدف غزو مصر عن طريق الاسكندرية أو دمياط ، وأيده فى هذه الفكرة جمهرة الصليبيين ببلاد الشام، وعلى رأسهم الداوية والاسبتارية ، فضلا عن الصليبيين فى قبرس[1] .

وعندما اكتملت استعدادات الصليبيين فى بلاد الشام ، ترك الملك حنادى برين حامية قوية فى عكا للدفاع عنها ضد أى هجوم إسلامى منتظر ، ثم خرج الأسطول الصليبى قاصداً دمياط فى أواخر مايو سنة ١٢١٨ م (٦١٥ ﻫ) . ولم يفت الصليبيون عندئذ أن يتصلوا بنجاشى الحبشة المسيحى ليتعاونوا معهم فى حرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة[2] .

على أنه يلاحظ أن الصليبيين ارتكبوا خطأ كبيراً سنة ١٢١٨ م

(١) Brehier : L'Eglise et l'Orient, pp. 191-192.
(٢) Coulbeaux : Hist. d'Abyssinie, pp. 256-266.

(٦١٥ هـ) بغزوهم مصر عن طريق دمياط والنيل . وكان المفروض أن يستفيد الصليبيون عندئذ من تجارب عمورى الأول التى أثبتت أن الوصول إلى القاهرة أمر سهل عن طريق الصحراء الشرقية . ولكن ربما كان عذر حنادى برين هو أن عمورى كانت له قاعدة حربية كبرى فى جنوب فلسطين — هى مدينة عسقلان — استطاع أن يعتمد عليها فى غزو مصر عن طريق الشرق ، أما حنادى برين فلم يجد للصليبيين أية قاعدة على الحدود يمكنهم الارتكاز عليها فى محاولاتهم . وهكذا اختار الصليبيون النزول بدمياط لا لأن دمياط أقرب الموانى المصرية للصليبيين بالشام فحسب ، بل لأن فرع دمياط يمثل أيضاً طريقاً طبياً ووسيلة سهلة للمواصلات تربط الصليبيين بقواعدهم فى الشام . ونسى الصليبيون مدى ما يمكن أن يتعرضوا له فى غزوهم مصر عن طريق النيل من عقبات طبيعية تتمثل فى السدود والترع والقنوات مما يجعل وصولهم إلى القاهرة عن هذا الطريق أمراً متعذراً بل مستحيلا [1] .

وعندما وصلت السفن الصليبية إلى مصب فرع دمياط ، نصب الصليبيون معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط . وقد وجد الصليبيون المدينة محصنة تحصينا قوياً . إذ كانت تمتد بعرض مجرى النيل عند مصبه مآصر ، وهى سلاسل ضخمة من الحديد تحول دون دخول المراكب العادية من البحر إلى النيل [2] . هذا بالإضافة إلى برج السلسلة ، وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية دمياط ودفع أى عدوان يقع عليها [3] .

ولما علم الملك الكامل — الذى كان ينوب عن أبيه السلطان العادل فى حكم مصر — بنزول الصليبيين فى مواجهة دمياط ، أسرع على رأس جنده ونصب معسكره جنوبى دمياط عند منزلة العادلية ، ليكون على اتصال

---

(١) King : The Knights Hospitallers in the Holly land, p. 190.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٨٨ سنة ٦١٥ هـ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

بالمدينه من ناحية ويمنع الصليبيين من العبور إليها من ناحية أخرى . هذا فى الوقت الذى استدعى السلطان العادل ابنه الملك الأشرف « فسار فى عسكره إلى حمص ودخل بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط »[1] .

ولم يلبث أن أدرك الصليبيون عظم الخطأ الذى وقعوا فيه برسوهم على الضفة الغربية للنيل بدلا من الضفه الشرقية القائمة عليها دمياط ذاتها ، مما أثار أمامهم مشكلة صعبة هى كيفية عبور النيل . هذا بالإضافة إلى أنهم أضاعوا كثيراً من الوقت عقب نزولهم على شاطىء مصر ، مما أعطى المسلمين فرصة طيبة للاستعداد .

وهكذا قضى الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون برج السلسلة ، حتى تمكنوا أخيراً — فى أغسطس ١٢١٨م (٦١٥هـ) — من الاستيلاء على البرج، وقطع المآصر التى كانت تعترض مدخل النهر[2] . ولاشك فى أن سقوط برج السلسلة فى قبضة الصليبيين وتحطيم تلك المآصر التى تحمى مدخل النيل جاء خسارة كبرى ، إذ اعتبر المعاصرون ذلك البرج « قفل الديار المصرية »[3] .

ويقال إن السلطان العادل عندما سمع بذلك الخبر لم يحتمله فمرض مرض الموت ، ولم يلبث أن توفى فى نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) .

أبناء العادل ومدافعة الصليبيين :

أدرك أبناء العادل فى مصر والشام أن الخطر الذى يهددهم ويهدد

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ورقه ٢٣٩ « مخطوط » .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٣) أبوشامة : ذيل الروضتين . (Rec. Hist. Cr. Or. 5, p. 161).

المسلمين عظيما ، وأنه لو ثبت الصليبيون قدمهم فى مصر ، فلن يبقى للمسلمين مقام فى مصر والشام ، لذلك بذلوا كل ما فى وسعهم لطرد الصليبيين من مصر من ناحية ، وللضغط عليهم فى الشام لإجبارهم على سحب قواتهم من الشام من ناحية أخرى .

ولكى يسد الكامل مجرى النيل فى وجه الصليبيين ، حاول إقامة جسر عظيم بعرض المجرى . ولكن الصليبيين قطعوا مجرى ذلك الجسر ، وعندئذ استحضر الكامل عدة مراكب كبيرة وأغرقها فى النيل ليعوق تقدم السفن الصليبية فى النهر [1] . وفى تلك المرة أيضاً تحايل الصليبيون على تفادى تلك العقبة ، فحفروا خليجا هناك كان النيل يجرى فيه قديما ، وأجروا فيه الماء إلى البحر ، وبذلك استطاعت السفن الصليبية أن تدخل فى النهر حتى موضع مقابل لمنزلة العادلية حيث كان العادل [2] .

ولم تكد أخبار هذه الانتصارات التى أحرزها الصليبيون أمام دمياط تصل إلى الشام ، حتى تشجع إخوانهم وهاجموا بعض المراكز الإسلامية قرب عكا . ولكن المسلمين تصدوا للصليبيين وأنزلوا بهم خسائر جسيمة ، كما خرج الملك المعظم عيسى من دمشق واقتحم قيسارية وهدمها ، فى الوقت الذى أغار الابن الثالث للسلطان العادل — وهو الأشرف موسى — على إمارة طرابلس [3] . ومع ذلك فإنه يبدو أن المعظم كان متخوفا من نتيجة الحرب مع الصليبيين فى مصر ، فهدم سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) عدة حصون قوية فى الشام حتى لا يستفيد الصليبيون منها إذا استولوا عليها ، بل أنه هدم أبراج مدينة بيت المقدس وأسوارها حتى لا يحصل الصليبيون منها على أية

---

(١) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Or. 5, p. 166).

فائدة ، الأمر الذى أثار موجة من الذعر والأسى بين صفوف المسلمين في المدينه[1] .

سقوط دمياط :

وعلى الرغم من أن الموقف فى تلك المرحلة كان يدل على تفوق الصليبيين ، إلا أن حنادى برين بدأ يواجه مشاكل عديدة فى مصر عقب استيلائه على برج السلسلة . ذلك أن كثيرا من الصليبيين ظنوا أن مهمتهم انتهت بسقوط ذلك البرج وأنهم أوفوا بقسمهم الصليبي فانسحبوا عائدين إلى بلادهم. وهكذا صار على حنادى برين أن ينتظر وصول إمدادت جديدة ، وهى الامدادات التى وصلت من أوربا فعلا فى سنة ١٢١٨ م (٦١٥ ﻫ). على أنه يلاحظ أنه جاء على رأس هذه الامدادات مندوب عن البابا هو الكاردينال بلاجيوس الذى تزعم الحملة . ولا شك فى أن ظهور زعيم جديد للصليبيين فى مصر أضعف مركز حنادى برين ، فضلا على أن ذلك الإزدواج فى القيادة أنزل أبلغ الضرر بالحملة الصليبية الخامسة ومستقبلها ، كما سيلى فيما بعد[2] .

أما عن الجبهة الإسلامية ، فيلاحظ أن العادل توفى فى نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م (٦١٥ ﻫ) وترك لأبنائه تركة ثقيلة ، إذا كان على ابنه الكامل — الذى خلف أباه فى مصر — طرد الصليبيين من الأرض المصرية ؛ كما كان على ابنه المعظم — الذى خلف العادل فى دمشق — حراسة جبهة الشام ، والضغط على الصليبيين لإجبارهم على ترك مصر ، فضلا عن مساعدة أخيه الكامل .

وقد حاول الكامل القيام بهجوم على معسكر الصليبيين فى أوائل أكتوبر سنة ١٢١٨ م (٦١٥ ﻫ) فعبر النيل وباغتهم بالهجوم ، ولكنهم صمدوا له

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧٠ .
(٢) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 211.

بل تغلبوا عليه ، وعندئذ انسحب الكامل . وأراد الصليبيون أن ينتهزوا الفرصة للعبور على ضفة دمياط ولكنهم فشلوا فى ذلك[1] .وزادمن موقف الكامل سوءاً أن البدو أتوا من سيناء والشرقية ليستفيدوا من حالة الفوضى التى نجمت عن الغزو الصليبى ، فأغاروا على القرى ونهبوها « وبالغوا فى الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج »[2] . ثم ضاعف من خطورة الموقف أن أحد قواد الكامل — وهو ابن المشطوب — دبر مؤامرة كبرى لعزل الكامل وإحلال أخيه الأصغر الفائز ابن العادل محله فى الحكم[3].

ولم يسع الكامل أمام هذه الأخطار سوى أن يستنجد بأخيه المعظم . وقبل أن يصل المعظم إلى مصر خشى الكامل على نفسه من المتآمرين، فهرب من معسكره فى العادلية ليلا ، وترتب على ذلك فرار الجند من بعده . فلما أصبح الصباح وجد الصليبيون المعسكر الإسلامى أمامهم خاويا ، فعبروا فى سهولة إلى الضفة الشرقية للنهر «آمنين بغير منازع ولا ممانع» وغنموا كل مافى معسكر المسلمين من عدد وسلاح ومؤونة[4] .

وهكذا ساء الموقف فى مصر ، لولا وصول المعظم فى الوقت المناسب ؛ فأعاد الثقة إلى اخيه الكامل، وتخلص من ابن المشطوب ،وأعاد تنظيم الجيش الإسلامى الذى رابط عند فارسكور جنوبى العادلية. وبفضل هذه الإجراءات الجديدة تمكنت دمياط من الصمود تسعة أشهر أخرى قاومت فيها المحاولات التى بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها . وتذكر بعض المراجع الصليبية أن الكامل والمعظم أرسلا فى طلب المعونة من جميع أنحاء العالم الإسلامى ،

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧١ .

(٢) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

وأنهما أوضحا لبقية الحكام المسلمين خطورة استيلاء الصليبيين على مصر « فإنهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها[1] » .

وعندما علم الكامل بوصول نجدات قوية للصليبيين من قبرس وغرب أوربا ، أرسل إليهم بعرض سخى ، هو استعداده لاحياء مملكة بيت المقدس القديمة وإعادتها إلى ما كانت عليه قبل حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) باستثناء حصن الكرك الذى يبقى بيد المسلمين ؛ على أن يجلو الصليبيون عن مصر . وقد قبل هذا العرض حنادى برين وأمراء مملكته والصليبيون الفرنسيون . ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض الموافقة عليه ، وشاركه رأيه الاسبتارية والداوية ، الذين ظنوا أن امتلاك مصر بات أمراً سهلا[2] . وثمة خطأ آخر وقع فيه بلاجيوس زعيم الحملة وشيعته من فرسان الداوية والاسبتارية ، هو إصرارهم على توجيه هجماتهم ضد معسكر الكامل والمعظم فى فارسكور ، بدلا من الاكتفاء بحصار دمياط ، مما عرضهم للهزيمة والفرار . ولم تلبث أن وصلت نجدات قوية للصليبيين فى سبتمبر سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) ، فشددوا هجماتهم على دمياط التى ازدادت حالتها سوءا ، فاضطرت إلى التسليم فى نوفمبر سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ)[3] .

وكان أن أتى الصليبيون كثيراً من أعمال السفك والعدوان فى دمياط ، كما أنهم أرادوا اتخاذ دمياط مركزا منيعا دائما لهم ، « فبالغوا فى عمارتها وتحصينها » أما عن المسلمين فكانت خسارتهم بضياع دمياط عظيمة ، ضاعف منها ظهور خطر المغول فى الجناح الشرقى للعالم الإسلامى ، عندما استولى جنكزخان على خوارزم وبلاد ما وراء النهر ومعظم فارس ، وسقطت بخارى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧٦ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

فعلا فى يده سنة ١٢٢٠ م (٦١٧ ﻫ)[١] .

الصليبيون والزحف على القاهرة :

ومع أن الظروف كلها كانت فى صالح الصليبيين عقب سقوط دمياط ، إلا أن الإنقسامات التى تعرض لها الصليبيون والأخطاء التى وقعوا فيها ، أنزلت بهم كثيراً من الأضرار وتسببت فى فشلهم النهائى . ذلك أن حنادى برين لم يستطع أن يتعاون مع المندوب البابوى بلاجيوس ، فانسحب الملك الصليبى عائدا إلى عكا فى أواخر مارس ١٢٢٠ م (٦١٧ ﻫ) ، تاركا بلاجيوس يضيع على الصليبيين بقية ذلك العام والنصف الأول من عام ١٢٢١ م (٦١٧ — ٦١٨ ﻫ) فى حالة ركود تام . ولم يكن ذلك إلا فى أواخر يونية سنة ١٢٢١ م (٦١٨ ﻫ) عندما قرر بلاجيوس الزحف على القاهرة ، فأرسل إلى حنادى برين فى عكا يرجوه العودة ومساعدة الصليبيين فى فتح مصر . وكان أن خشى حنادى برين أن يتهم بعدم التعاون ، فحضر إلى دمياط فى أوائل يوليو فى الوقت الذى شرع الصليبيون فعلا فى الزحف جنوبا بمحاذاة النيل[٢] .

وفى تلك المرحلة الخطيرة فعل الأيوبيون كل ما أمكنهم لانقاذ البلاد ، فجمعوا الناس وأقاموا خطاً دفاعياً إلى قباله طلخا ، حيث شيد الكامل منزلة على الضفة الشرقية للنيل أطلق عليها اسم المنصورة[٣] . وفى أواخر يوليو سنة ١١٢١ م (٦١٨ ﻫ) اجتمع الأخوة الثلاثة — الكامل والمعظم والأشرف — فى المنصورة ، ومعهم جيوشهم استعداداً للمعركة مع الصليبيين.

---

(١) D'ohsson : Hist. des Mongols, I, pp. 216-330.

(٢) Archer : The Crusades, p. 318.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٠١ .

على أنه تنبغى الإشارة إلى أن الكامل ظل طوال تلك الأثناء يكرر عرضه على الصليبيين بالجلاء عن مصر مقابل أحياء مملكة بيت المقدس الصليبية . وفى كل مرة يشتط الصليبيون فى طلباتهم ، بل أخذوا يواصلون زحفهم وسط مثلث كبير تحيط به المياه من ثلاث جهات ، هى بحيرة المنزلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير جنوباً .

على أن السفن الإسلامية حرصت على أن تتخذ مكانها فى النيل لتسد الطريق فى وجه السفن الصليبية وتحول دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم أثناء زحفهم[1] . وكان أن وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر أشمون) من فرع دمياط ، وهى المنطقة التى تمثل رأس مثلث يحيط به الماء من ثلاث جهات ، فقطع المسلمون السدود والنهر ملىء بماء الفيضان ، فلم يشعر الصليبيون إلا والأرض التى هم عليها قد غرقت بحيث لم يبق لهم سوى ممر ضيق يمكنهم من العودة عن طريقه إلى دمياط[2] .

فشل الصليبيين وجلاؤهم عن دمياط :

ولم يلبث أن تنبه الصليبيون إلى خطورة موقفهم ، فأرادوا الارتداد بسرعة نحو دمياط ، ولكن السلطان الكامل كان قد أنزل عند شارمساح — شمالى شربين — ألفى فارس ليقطعوا على الصليبيين خط الرجعة . وهكذا تجمد موقف الصليبيين وأحاطت بهم المياه من كل جانب ، فلا هم يستطيعون القتال فى الوحل ولاهم يستطيعون العودة إلى قواعدهم ، ولم يبق لهم إلا طلب الصلح من السلطان الكامل فى أواخر أغسطس سنة ١٢٢١م (٦١٨ هـ) . ومن الملاحظ أن موقف الصليبيين كان عندئذ جد خطير ، لأنه لو صبر الكامل

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ح ٦ ص ٢٤١ .

(٢) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٢٠٧ .

يومين « لأخذ برقابهم »[1] ، ولذلك عارض المعظم والأشرف فى إجابة الصليبيين إلى طلبهم . ولكن الكامل — الذى اشتهر بتسامحه — رأى السماح للصليبيين بالخروج من مصر ، لأنه كان يخشى وصول حملة صليبية من الغرب . على أن الكامل اشترط على الصليبيين أن يبعثوا إليه برهائن من ملوكهم يبقون لديه حتى يسلموا دمياط ، فوافق الصليبيون على ذلك وأرسلوا إلى الكامل عشرين من كبرائهم على رأسهم حنادى برين والمندوب البابوى بلاجيوس ، فى حين أرسل إليهم الكامل مقابل ذلك إبنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه جماعة من خواصه[2] .

وأخيراً تم جلاء الصليبيين عن دمياط فى ٧ سبتمبر سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ) فدخلها الملك الكامل فى اليوم التالى. وكان أن أبحر الصليبيون الغربيون إلى أوربا فى حين عاد حنادى برين ورجاله إلى الشام بعد أن عقد هدنة مع الأيوبيين لمدة ثمان سنوات (١٢٢١ — ١٢٢٩ م = ٦١٨ — ٦٢٦ هـ) .

وهكذا انتهى أمر الحملة الصليبية الخامسة بالفشل بعد أن كان منتظراً لها النجاح ، وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصة إحياء مملكة بيت المقدس واسترداد مدينة القدس ذاتها مقابل الجلاء عن دمياط ، فاضطروا فى النهاية إلى الجلاء عن دمياط بلا مقابل[3] .

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين سنة ٦١٨ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٤٩.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٠٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ .

الفصل السادس

السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثانى

الخلاف بين أبناء العادل :

أظهر أبناء العادل الثلاثة — الكامل والمعظم والأشرف — تضامنا قويا بعد وفاة أبيهم ، وإلى ذلك التضامن يرجع الفضل فى التغلب على الحملة الصليبية الخامسة . على أن هذا التحالف لم يلبث أن انفرط عقده فى نهاية سنة ١٢٢٣ م وبداية ١٢٢٤ م (٦٢٠ — ٦٢١ هـ) نتيجة لأطماع المعظم عيسى وجشعه[١] ذلك أن المعظم عيسى أراد أن يتوسع ويضيف إلى أملاكه، ولكنه بدلا من أن يتوسع على حساب الصليبيين ، لجأ إلى العدوان على ممتلكات إخوته وأقاربه . من ذلك أنه هاجم حماه واستولى على بعض أعمالها — مثل المعرة وسلمية — وكانت حماه وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان ، فغضب الأشرف والكامل لذلك ، وأرسل الكامل إلى أخيه المعظم يطلب منه الرحيل عن حماه « فتركها وهو حنق »[٢]. ويبدو أن هذا الحدث كان فاتحة الخلاف بين المعظم من ناحية وأخوية الكامل والأشرف من ناحية أخرى .

والواقع إن الأيوبيين كانوا أحوج إلى الاتحاد فى ذلك الوقت منهم فى أى وقت مضى، نتيجة لظهور خطار جديد هددهم، هو خطر الخوارزمية . وقد ظهر ذلك الخطر الجديد نتيجة مباشرة لحركة التوسع المغولى ، بعد أن دمر جنكز خان دولة الأتراك الخوارزمية سنة ١٢٢٠ — ١٢٢١م (٦١٧—

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 350-351.

(٢) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٢١٤ .

٦١٨ هـ) . ويقال إن السلطان جلال الدين منكبرتي اضطر عندئذ إلى الفرار إلى الهند ، حتى إذ ما علم بعودة جنكز خان إلى قراقورم فى جوف آسيا ، رجع جلال الدين إلى فارس حيث التف حوله الأتراك الخوارزمية من جديد ، وأقام دولته مرة أخرى متخذا أصفهان عاصمة له . وبدلا من أن يعمل جلال الدين فى ذلك الدور على حماية العالم الإسلامى من خطر المغول الوثنيين ، قام — وهو الحاكم المسلم — بمهاجمة الخليفة العباسى فى العراق ، وطارد جيوشه حتى قرب بغداد سنة ١٢٢٥ م (٦٢٢ هـ). وبعد ذلك اتجه جلال الدين لمهاجمة إقليم جورجيا على مقربه من أملاك الملك الأشرف بن العادل الأيوبى ، الأمر الذى جعل الأشرف يهرع إلى دمشق طالباً معونة أخيه المعظم (١) .

ومن الواضح أن الأشرف كان أكثر إحساساً بخطر الخوارزمية بحكم متاخمة بلاده — فى الجزيرة وخلاط — لهم . ولكن المعظم لم يأبه للخطر الخارجى ، وكان كل ما يعنيه هو تحقيق أطماعه على حساب أهل بيته ، فانتهز فرصة مجىء الأشرف إليه وقبض عليه ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته فى الاستيلاء على حمص وحماه ، ثم فى مهاجمة أخيهما الثالث الكامل فى مصر . وقد تعهد الأشرف بكل ذلك ، ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم ، حتى أكد تحالفه مع أخيه الكامل وأخبره بكل ما حدث (٢) .

على أن وجه الخطورة فى النزاع الذى قام عندئذ بين أبناء العادل ، هو أن الفريقين المتنازعين استعانا بقوى خارجية ، فاستنجد الملك المعظم

---

(١) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢١٥ ، D'ohsson : Hist. des Mongols, III, pp. 5-19.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر حوادث سنة ٦٢٣ العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ هـ .

بالخوارزمية فى حين استنجد الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى غرب أوربا . وهكذا لم يلبث أن حاصر السلطان جلال الدين الخوارزمى خلاط — عاصمة الأشرف — فى يونيه ١٢٢٦ م (٦٢٣ هـ) كما أرسل جلال الدين إلى المعظم « خلعه لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل »[1] . فاستعد الكامل للزحف على الشام ، مما أنذر باشتعال الحرب فى العالم الإسلامى فى سبتمبر سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) .

الكامل وفردريك الثانى :

عندما وجد السلطان الكامل نفسه فى حاجة إلى معونة خارجية لمواجهة أطماع أخيه المعظم وحلفائه من الخوارزمية ، أرسل مبعوثاً خاصاً - هو شيخ الشيوخ الأمير فخر الدين يوسف - إلى الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، يدعوه أن يحضر لمساعدته فى الشام ، وتعهد له مقابل ذلك أن « يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل »[2] . وسرعان ماوصل رسول الكامل إلى الامبراطور فردريك الثانى بصقلية ، فأحسن الامبراطور استقبال الرسول ، ورد على السلطان بسفارة مماثلة تحمل « هدية سنية وتحف عربية » فتلقى الكامل بدوره هدية الإمبراطور بالسرور البالغ « وأكرمه إكراماً زائداً » كما اهتم بإعداد هدية فاخرة للإمبراطور . وفى طريق عودة السفارة الإمبراطورية إلى الغرب مرت بدمشق لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للإمبراطور ولكن المعظم أساء استقبال رسول الإمبراطور ، وأغلظ له ، وقال : قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ، وماله عندى سوى السيف »[3] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ هـ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢١—٢٢٣ .

(٣) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ هـ .

والواقع إن استنجاد السلطان الكامل لم يكن الدافع الوحيد الذى حرك فردريك الثانى للذهاب إلى الشام ، وإنما كانت البابوية تضغط عليه ضغطاً شديداً للقيام بحملة صليبية جديدة تصلح الوضع الذى نجم عن فشل الحملة الصليبية الخامسة. والمعروف أن ذلك العصر يعرف فى التاريخ الأوربى باسم عصر البابوية والإمبراطورية ، نظراً لما احتدم من خلاف ومانشب من حروب بين السلطتين الدينية والعلمانية فى غرب أوربا . ويبدو أن الإمبراطور فردريك الثانى كان متخوفاً من تنفيذ وعده الصليبى حتى لا يترك البابا حراً طليق اليد فى العدوان على مصالح الإمبراطورية أثناء غيابه . ولذلك أخذ فردريك الثانى يماطل البابوية ويؤجل مشروعه الصليبى ، حتى أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان ضد الإمبراطور فى أواخر سبتمبر سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ)(١).

وكان هجوم البابوية على فردريك الثانى عنيفا فى تلك المرة فلم يحتمل الإمبراطور الهجوم وقرر القيام بحملته الصليبية ، فغادر الغرب فى يونيه ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) قاصدا بلاد الشام . ويجمع جميع المؤرخين على أن هذه الحملة الصليبية المعروفة باسم السادسة كانت أغرب حملة فى تاريخ الحروب الصليبية قاطبة . فإذا كانت الحملات الصليبية الأخرى قد حظيت بعطف البابوية وتمتعت ببركتها فإن حملة فردريك الثانى جاءت ملعونة من البابا وعلى رأسها امبراطور محروم من الكنيسة وعطفها . وإذا كانت بقية الحملات الصليبية قد حرصت على أن تجيش الجيوش وتجمع الآلاف من المقاتلين والكثير من السلاح لقتال المسلمين فى الشرق ، فإن فردريك حضر إلى الشام وليس معه سوى خمسمائة فارس . وأخيرا فانه إذا كانت الحملات الصليبية قد خرجت من غرب أوربا وهى تطفح بروح العداء ضد

---

(١) Kantorowicz : Fredrick the Second, p. 111.

المسلمين والكراهية الشديدة لهم ، فإن حملة فردريك الثاني أتى على رأسها امبراطور نشأ فى بيئة كانت مركزاً لحضارة إسلامية زاهرة ؛ فشب ذلك الإمبراطور فى جزيرة صقلية محباً المسلمين وحضارتهم مما جعل حملته تمتاز بمسحه فريدة من التسامح القوى الواضح[1] .

وتدل جميع الشواهد على أن فردريك الثانى أتى إلى الشام ليفاوض لا ليحارب ، حتى علق أحد المؤرخين على ذلك بأن فردريك بدا عندما غادر أوربا وكأنه يزمع القيام بنزهة جميلة يزور فيها سلطان مصر[2] ! . ولم يكن فى سياسة فردريك هذه شيء غريب بالنسبة له ، لأنه اعتمد على وعود السلطان الكامل، وهى الوعود التى نصت على تسليم الإمبراطور بيت المقدس مقابل قيام الأخير « بشغل سر أخيه المعظم »[3] .

وهنا نلاحظ أن فردريك الثانى لم يعتمد على وعود الكامل وحده ، وإنما يبدو أنه قام قبل مغادرته الغرب باتصالات واسعة مع غير الكامل من أمراء البيت الأيوبى بالشام، بقصد إعداد الجو للحصول على بيت المقدس دون عناء . وخير شاهد على ذلك تلك الرسالة التى أوردها القلقشندى ، وهى عبارة عن خطاب أرسله الملك الجواد — أحد أمراء بنى أيوب بالشام — إلى الإمبراطور فردريك الثانى ، رداً على رساله كان فردريك قد بعث بها إلى ذلك الملك الأيوبى . وتهمنا الفقرة الأخيرة من رسالة الملك الجواد الأيوبى، والتى يقول فيها « وأما ماذكره المقام العالى السلطانى الكاملى الناصرى ... من أنه لا فرق بين المملكتين[4] ، فهذا هو المتفق فى صدق عهده وخالص

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى ، بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — مجلد ١١ سنة ١٩٦٣ .

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 281.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٤) كانت كنية السلطان الكامل هى « الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد »

وده . . .»[1] ونخرج من هذه الرسالة بنتيجتين هامتين : أولا أن مراسلات فردريك الثانى قبل قيامه بحملته الصليبية لم تقتصر على الكامل وحده ، وإنما امتدت إلى غيره من ملوك بنى أيوب . والثانية هى أن تلك المراسلات حفلت بروح الود والأخاء حتى أن الكامل أرسل إلى فردريك يخبره بعدم وجود فرق بين المملكتين .

فردريك الثانى فى الشام :

على أن فردريك الثانى لم يكد يصل إلى عكا فى سبتمبر سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) حتى وجد الموقف فى بلاد الشام غير ما كان ينتظر . ذلك أن البابا — للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخ البابوية والحروب الصليبية — أخذ يرسل الرسل سرا إلى ملوك بنى أيوب بوجه عام — والسلطان الكامل بوجه خاص — محرضا إياهم على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور . ولا عجب فى ذلك الموقف الذى اتخذته البابوية ، إذ كانت المعركة بينها وبين الإمبراطورية فى الغرب ، أهم فى نظرها من المعركة بين المسلمين والصليبيين فى الشام[2] .

ثم إنه إذا كان فردريك الثانى قد أتى إلى الشام بعد أن وضع كل آماله فى وعود السلطان الكامل بتسليم بيت المقدس له ، فإن هذا الأمل انهار فجأة لتغير سياسة الكامل . ذلك أن المعظم صاحب دمشق — الذى كانت أطماعه هى السبب فى استنجاد الكامل بفردريك — كان قد توفى فى أواخر سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) تاركا ابنه الناصر داود ليخلفه . وكان الناصر داود هذا شاباً صغيراً فى العشرين من عمره ، عديم الخبرة محبا للهو ، مما مكن

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى : ح ٧ ص ١١٧ — ١١٨ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ .

الكامل والأشرف من اقتسام أملاك أخيهما المعظم ، وإعطاء الناصر داود الكرك والشوبك وغيرهما من الجهات الثانوية[1]. وما دام الوضع قد استقر بين أبناء البيت الأيوبى على ذلك ، فإن السلطان الكامل لم يعد فى حاجة إلى معونة الإمبراطور فردريك .

ويصور لنا المؤرخون العرب حيرة السلطان الكامل فى ذلك الوقت ، لأن فردريك الثانى لم يحضر إلى الشام إلا بناءً على طلب السلطان . وفى ذلك يقول ابن واصل والمقريزى « تحـــير الملك الكامل ولم يمكنه دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من الإتفاق ، فراسله ولاطفه[2] » . ويبدو أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الأيوبى أن يصطدم بالصليبيين بالشام فى تلك المرحلة التى تعرض الوطن العربى فى الشرق الأدنى لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول؛ وهذا هو السر فى ملاطفته للامبراطور. ولم ينس الكامل فى الوقت نفسه أن أى تساهل مع الصليبيين أو تفريط فى حقوق المسلمين سيثير ضده الرأى العام فى البلدان الإسلامية ، وبخاصة دمشق التى كانت أكثر إحساسا بخطر الصليبيين من غيرها[3] .

ومهما يكن من أمر فإن موقف فردريك الثانى ساء فى الشرق ، ولم ينس أنه خرج من بلاده محروما من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية ، وأنه اعتمد على وعود الكامل له بإعطائه بيت المقدس ، لإصلاح مركزه فى الغرب الأوربى . ولو كان الإمبراطور يعلم أن الكامل سينكث بوعده لما خرج إلى الشرق أصلا ، أو لكان استعد إستعداداً جدياً لحرب المسلمين وجلب جيشا كبيرا معه عند خروجه إلى الشرق .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٦ ؛ ابن الأثير : حوادث سنة ٦٢٥ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٥٢ « مخطوط » ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٩ .

(٣) Grousset : op. cit., III, p. 300.

وهكذا لم يبق أمام فردريك الثانى سوى سلاح واحد ، هو سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدام كافة وسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوربى مرفوع الرأس . لذلك أسرع فردريك الثانى إلى إرسال سفارة من رسولين إلى السلطان الكامل تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية ، وأوانى ذهبية وفضية ، مطالبا إياه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس . غير أن الكامل تنكر لوعوده وأعلنها فى صراحة أنه كان سيعطى بيت المقدس للامبراطور ثمنا المساعدة التى ينتظرها منه ، أما وقد تبدلت الظروف ولم يعد السلطان فى حاجة إلى تلك المساعدة فإنه لايستطيع التفريط فى بيت المقدس[1] . ولم تفلح جهود الأمير فخر الدين يوسف مندوب السلطان فى الوصول إلى حل بين الطرفين ، فساء موقف فردريك الثانى لاسيما بعد أن جاءته أخبار من الغرب بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته. ولعل هذه الأخبار فى حد ذاتها كانت كافية لدفع فردريك الثانى إلى التذلل للسلطان الكامل ، حتى حكى عنه أنه كان يبكى بكاء مرا فى مراحل المفاوضات .[2] ولا أدل على ذلك من رسالة أرسلها الامبراطور فردريك إلى السلطان الكامل أثنـــاء المفاوضات يقول فيها « أنا مملوكك وعتيقك وليس لى عما تأمره خروج . وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر . وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى، فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم ! وهذا القدس فهى أصل اعتقادهم وضجرهم . . . فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر . . . »[3] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الأمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى ص ٢٠٦ .

(٢) Kantorowicz : Fredrick the Second, p. 185.

(٣) المكتبة الصقليه ج ٢ ص ١٤ (ذيل الباب الثانى والسبعين من كتاب الوافى بالوفيات)

إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس :

ولم تلبث هذه الإستعطافات أن أفلحت مع السلطان الكامل — وهو الرجل المتسامح الطيب القلب — فوافق على إعطاء فردريك بيت المقدس لقمة سائغة دون حرب أو قتال. ويبدو أن ماقام به الإمبراطور فردريك أثناء المفاوضات من تحصين يافا جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى تحالف فردريك مع بقية القوى الصليبية بالشام للقيام بعمل حربى مشترك ضد المسلمين.

وقد فسر المقريزى هذا الشعور بقوله إن الكامل «خاف من غائلته عجزاً عن مقاومته»[1]. ولا شك فى أن المغامرة فى حرب ضد الصليبيين كانت تعنى بالنسبة للكامل عندئذ وقوعه بين ثلاثة أعداء، هم : ابن أخيه الناصر داود من ناحية، والصليبيين من ناحية ثانية، ثم الخوارزمية الذين استنجد بهم الناصر داود من ناحية ثالثة.

وفى ضوء هذه الحقائق جميعاً وافق الكامل — تحت تأثير الأمير فخر الدين يوسف — على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثانى فى فبراير سنة ١٢٢٩م (٦٢٦هـ). وبمقتضى هذه الإتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا. وبخصوص بيت المقدس اشترط المسلمون أن تبقى المدينة على ماهى عليه، فلا يجدد سورها، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدى المسلمين، وتقام فيه شعائر الإسلام.[2].

على أن تسليم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة أثار موجة عامة من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ هـ.

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٦ هـ.

السخط والأسى في العالم الإسلامي ، فاستعظم المسلمون ذلك واكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم مالم يمكن وصفه[1] » . كذلك يفصل المقريزي مدى الأسى الذي حل بالمسلمين لتفريط الكامل في بيت المقدس فيقول . « فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل .. وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار »[2] .

وسرعان ما أحس الكامل أنه « تورط مع ملك الفرنج » على قول المقريزي ، فحاول أن يهون من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين ، وبرر مسلكه بأعذار لم يقبلها معاصروه . بل أن الإمبراطور فردريك الثاني نفسه أحس « بما سببته تلك الإتفاقية من حرج للسلطان » فاعتذر للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ماكلف السلطان شيئاً من ذلك[3] » .

وهكذا استولى الصليبيون على بيت المقدس بسهولة تامة ، وهي المدينة التي أجهد صلاح الدين نفسه في فتحها ، ودخلها فردريك الثاني في ١٩ مارس سنة ١٢٢٩ م (٦٢٧ هـ) ليتوج نفسه امبراطوراً في كنيسة القيامة ، ثم عاد إلى عكا ، ومنها انصرف بعد قليل إلى غرب أوربا[4] .

جهود الأيوبيين تجاه الصليبيين بالشام :

مر الصليبيون عقب عودة الامبراطور فردريك الثاني إلى غرب أوربا بدور طويل من أدوار الضعف والإنحلال ، بسبب مانشأ بينهم وبين بعض من خلافات ومنازعات . ولا أدل على ضعف الأيوبيين أيضاً في تلك الفترة

---

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٦٢٦ هـ

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٣١ هـ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٤) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 314.

– أى فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر – من جمودهم أمام الصليبيين وعدم محاولتهم استغلال الظروف السيئة التى تعرض لها الصليبيون عندئذ. وكان المفروض أن يحاول المسلمون استعادة بيت المقدس من الصليبيين، لاسيما وأن هذه المدينة بقيت غير محصنة ومهدمة الأسوار دون جيش قوى للصليبيين فيها[1].

وربما كان السبب فى حرص الأيوبيين على عدم إثارة حرب مع الصليبيين بالشام فى تلك الفترة، هو تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتى. ذلك أن الخوارزمية لم يكتفوا بتهديد الخلافة العباسية فى بغداد، بل دأبوا على محاكاة المغول فى تدميرهم البلاد التى يجتاحونها أو يسلكونها، حتى لو كانت هذه البلاد إسلامية. ولم يكن الكامل والأشرف مبالغين فى مخاوفهما من الخوارزمية، إذ نجح جلال الدين فى الاستيلاء على خلاط فى أبريل سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧هـ) بعد حصار ستة أشهر، وعندئذ دخل الخوارزمية المدينة ليعتدوا على الأهالى اعتداءاً وحشياً. وكان من جملة الأسرى زوجة الملك الأشرف الأيوبى نفسه، فانتهك السلطان جلال الدين عرضها فى الليلة نفسها التى استولى فيها على المدينة[2].

وقد أفزعت همجية الخوارزمية حكام المسلمين فى البلدان المجاورة، فتناسوا ما بينهم من خصومات للقضاء على ذلك الخطر، وتحالف الأيوبيون مع عدوهم السابق علاء الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم ضد جلال الدين الخوارزمى. وكان أن تم اجتماع قوات الأيوبيين تحت زعامة الملك الأشرف بقوات السلاجقة تحت قيادة كيقباد فى سيواس، ومنها زحف الحلفاء على خلاط. وفى المعركة التى دارت بين الفريقين قرب

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٢٧

(٢) أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر حوادث سنة ٦٢٨ هـ.

أرزنجان فى أغسطس سنة ١٢٣٠م (٦٢٧هـ) حلت الهزيمة ساحقة بالخوارزمية، وفر سلطانهم إلى أذربيجان بعد أن قتل كثير من رجاله[١].

وبذلك استرد الأشرف خلاط، وتم الصلح بعد قليل مع جلال الدين. ولم يلبث أن قتل جلال الدين بيد بعض الأكراد سنة ١٢٣١م (٦٢٩هـ) وعندئذ تمزقت دولته، وهامت جموع الخوارزمية فى كثير من بلاد الشرق الأدنى يعرضون خدماتهم على من يرغب فى شرائها من حكام المسلمين[٢].

ومع ذلك، فإن الأيوبيين فى مصر والشام ظلوا لا يأمنون على أنفسهم أو بلادهم، لأن الخطر الذى هددهم عندئذ لم يكن خطر الخوارزمية فحسب، وإنما كان من وراء هؤلاء المغول بجحافلهم وعنفهم. ولم يلبث المغول أن استولوا على ممتلكات الخوارزمية، وبذلك أصبحت الخطوة التالية أمامهم هى غزو العراق وممتلكات الأيوبيين فى الجزيرة وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى[٣].

وكان المفروض أمام ذلك الخطر أن يتحالف الأيوبيون مع سلاجقة آسيا الصغرى لصد المغول، مثلما تحالفوا من قبل ضد جلال الدين الخوارزمى. ولكن علاء الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم (١٢١٩ — ١٢٣٧م = ٦١٦ — ٦٣٤هـ) أراد أن يستغل الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين لمنازعة الأيوبيين ملكية خلاط والرها وحران[٤]. وعندما أدرك السلطان الكامل حقيقة نوايا السلاجقة، جمع حوله القوى الأيوبية فى الشام وزحف لمنازلة السلاجقة فى الأناضول سنة ١٢٣٤م (٦٣١هـ). على أن ملوك بنى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٧٣ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٤١ .

(٣) D'ohsson : Hist. des Mongols, III, p. 62.

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٤٧ .

أيوب بالشام عادوا وخافوا عاقبة ازدياد نفوذ السلطان الكامل ، وخشوا إن هو نجح في السيطرة على سلاجقة الروم أن يسهل عليه القضاء عليهم جميعاً . لذلك تآمروا على السلطان الكامل ، وأرسلوا في الخفاء إلى علاء الدين سلطان سلاجقة الروم يخبرونه بوقوفهم إلى جانبه ضد الكامل . وهكذا انتهى الموقف بعودة الكامل من حيث أتى ، في حين احتل السلاجقة حران والرها سنة ١٢٣٥م (٦٣٢ هـ)[١] .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

الفصل السابع

الصالح نجم الدين أيوب ولويس التاسع

نهاية السلطان الكامل وقيام الصالح أيوب :

لم يقف الانقسام فى صفوف المسلمين فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر الميلاد (السابع الهجرى) على ماحدث من عداء بين سلاجقة الروم والأيوبيين ؛ بل إن البيت الأيوبى نفسه لم يلبث أن انقسم على نفسه ، فانشق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه الأكبر السلطان الكامل صاحب مصر ، وبدأ يدبر ثورة شاملة ضده مستعيناً فى ذلك بأسد الدين شيركوه صاحب حمص وضيفة خاتون الوصية على حلب[1]. على أن الظروف شاءت أن يموت الملك الأشرف فى أواخر أغسطس سنة ١٢٣٧ م (٦٣٥هـ) قبل أن تشتعل نار الحرب الاهلية فعلاً بين أبناء البيت الأيوبى[2] .

وكان الأشرف قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه فى ملك دمشق أخوه الملك الصالح اسماعيل صاحب بصرى . ولم يكد الصالح يتسلم زمام الأمور فى دمشق حتى أعاد تكوين الحلف الأيوبى ضد الكامل ، فاتصل بالمجاهد شيركوه صاحب حمص والمظفر صاحب حماه وضيفة خاتون فى حلب ليكونوا جميعاً يداً واحدة ضد الكامل . وقد استجاب جميع ملوك الأيوبيين بالشام لدعوة الصالح اسماعيل ، ماعدا المظفر صاحب حماه والناصر داود صاحب الأردن والكرك . ولكن السلطان الكامل أسرع بالحضور من

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٥٤ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٠٠.

مصر، وقضى على تلك الحركة، وحاصر دمشق وقطع الماء عنها، حتى استولى عليها فى أوائل سنة ١٢٣٨م (٦٣٥هـ). ولم يلبث أن انتهى الأمر بعزل الصالح من دمشق وإعطائه إقطاعا صغيراً فى بعلبك والبقاع[1].

على أن السلطان الكامل نفسه توفى بعد قليل — فى مارس سنة ١٢٣٨م (٦٣٥هـ) — وقد أجمع المؤرخون على مدحه، فوصفه أبو الفدا بأنه كان «ملكا جليلا مهيباً حازماً حسن التدبير»[2]، كما أثنى بقية المؤرخين على عدله وتسامحه وحبه للعلم وعنايته بالأمن. ولاشك فى أن وفاة الكامل أيوب جاءت نذيراً بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها. حقيقة أن العادل الصغير (الثانى) ابن الكامل خلفه فى ملكه وصارت له السلطنة، أى السلطة العليا فى الدولة الأيوبية، ولكن الأوضاع فى الشام نفسها اضطربت بعد أن دخل المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص فى حرب ضد المظفر تقى الدين الثانى صاحب حماه، فى حين استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب — ابن الكامل — على دمشق سنة ١٢٣٩م (٦٣٦هـ)، مما أوقعه فى نزاع مع أخيه السلطان العادل الصغير[3]. وفى ذلك النزاع استعان كل واحد من الأخوين المتنازعين بأنصار من أبناء البيت الأيوبى نفسه، فاعتمد العادل الثانى (الصغير) على شيركوه صاحب حمص، واعتمد الصالح أيوب على المظفر تقى الدين صاحب حماه. هذا بالإضافة إلى أن كل فريق منهما استعان بجموع من الخوارزمية الذين تفرقوا فى آسيا الصغرى والشام بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتى.

ثم حدث فى نهاية سنة ١٢٣٩م (٦٣٧هـ) أن استطاع الصالح اسماعيل — عم العادل الثانى والصالح أيوب — أن يسترد دمشق التى كان أخوه السلطان

(١) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٧.
(٢) أبو الفدا: المختصر حوادث سنة ٦٣٥هـ.
(٣) المقريزى: السلوك حوادث سنة ٦٣٥هـ، ٦٣٦هـ.

الكامل قد طرده منها ، وأن يطرد بدوره الصالح أيوب منها[1] . وقد ظل الصالح اسماعيل يحكم دمشق خمس سنوات (١٢٤٠ — ١٢٤٥م = ٦٣٧ — ٦٤٣هـ) ، فى حين وقع الصالح أيوب فى قبضة الناصر داود صاحب الأردن والكرك ، حتى أطلق الأخير سراح الأول واتفق معه على القيام بحملة على مصر للإستيلاء عليها من السلطان العادل الثانى[2] . وكان كبار أمراء العادل الثانى قد استاءوا منه فى ذلك الوقت لتحجبه عنهم واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة ، فقبضـــوا عليه فى نهاية مايو سنة ١٢٤٠م (٦٣٧هـ) وعزلوه ، واستدعوا بدله الصالح نجم الدين أيوب — ابن الكامل — الذى دخل القاهرة ليصبح سلطانا على مصر (١٢٤٠م — ١٢٤٩ ، ٦٣٧ — ٦٤٧هـ)[3].

الأيوبيون والصليبيون :

وقعت بلاد الشام فى حالة شديدة من الفوضى بسبب النزاع الذى اشتد بين الصالح أيوب وبين عمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وشارك فى ذلك النزاع بقية أفراد البيت الأيوبى فى الشام — مثل ملوك حمص وحماه والأردن. وزاد من تلك الفوضى أنها جاءت فى الوقت الذى تعرضت بلاد الشام لغزو جموع من الخوارزمية من ناحية وتهديد المغول من ناحية ثانية ، ثم وصول حملة صليبية جديدة من ناحية ثالثة .

ذلك أنه لم يكد ينتهى الصلح الذى عقده السلطان الكامل مع الإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٣٩م (٦٣٦هـ) حتى دعت البابوية لحملة صليبية جديدة وصلت إلى الشام فى أول سبتمبر سنة ١٢٣٩م (٦٣٧هـ) وعلى رأسها ثيبوت الرابع . ويؤخذ على هذه الحملة أن زعماءها افتقروا تماماً إلى المرونة السياسية

---

(١) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٣٦ هـ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٠ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٩٥ .

التي ميزت ريتشارد قلب الأسد وفردريك الثاني ، فلم يحاول ثيبوت الرابع أمير شامبنى استغلال المنازعات العنيفة الناشبة بين ملوك البيت الأيوبي عندئذ ، واتبع سياسة جامدة أدت إلى فشل حملته في نهاية الامر[١] .

وكانت بيت المقدس لاتزال بأيدى الصليبيين منذ أن استردها فردريك الثاني ، ولكن الناصر داود أسرع عندما علم بنزول الصليبيين في عكا سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) — باحتلالها ، بدعوى أن الصليبيين عمروا المدينة وحصنوها وبذلك نقضوا شروط الصلح مع المسلمين[٢] . وكان استيلاء المسلمين على بيت المقدس عندئذ صدمة للصليبيين الذين أخذوا يتدبرون أمرهم ، حتى استقر رأيهم أخيراً على أن يتجهوا إلى عسقلان لهدم تحصيناتها والاستيلاء عليها وبعد ذلك يقصدون دمشق بوصفها مركز الحركة الإسلامية في بلاد الشام[٣] .

وعندما اتجه الصليبيون من عكا إلى عسقلان ، بادر العادل الثاني — الذى كان لايزال سلطان مصر قبل عزله — إلى إرسال جيش أنزل هزيمة بالصليبيين قرب غزة في ١٣ نوفمبر سنة ١٢٣٩م (٦٣٧هـ) وسيق كثير من أسراهم إلى القاهرة[٤] .

ثم كان أن تمت في صيف سنة ١٢٤٠م (٦٣٧هـ) المؤامرة التي انتهت بعزل العادل الثاني من حكم مصر وقيام الصالح نجم الدين أيوب بدله في السلطنة كما سبق أن أشرنا ، وعندئذ استاء الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، لاسيما وأن الصالح أيوب أراد أن يرضى حليفه الناصر داود

---

(١) Grousset : op. cit., III, p. 374.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٤ .

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 317.

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. v, p. 139)

صاحب الكرك فوعده بمساعدته في الحصول على دمشق من الصالح اسماعيل [1] وهكذا لم يجد الصالح اسماعيل قوة تساعده سوى الصليبيين ، فمد يده إليهم ، وطلب منهم محالفته ضد الصالح أيوب في مصر والناصر داود في الأردن . وفي مقابل ذلك كله تعهد الصالح اسماعيل بإعطاء الصليبيين بيت المقدس وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً ، بما فيها الاردن . ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين ، بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان ، فضلا عن عدد آخر من قلاع الشام التي كانت بأيدي المسلمين [2] .

وسرعان ما ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح اسماعيل — مثلما ثار من قبل على السلطان الكامل ، حتى أن حاميات بعض القلاع رفضت إطاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح اسماعيل ، فأتى هو بنفسه ليؤدب تلك الحاميات ويسلم الحصون للصليبيين . أما الصليبيون فقد أسرعوا إلى تسلم بيت المقدس وحصنوا قلعتي طبرية وعسقلان ، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية . وهنا وعدهم الصالح اسماعيل « بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها » ، فسال لعابهم لذلك ، واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر [3] .

وتؤكد المراجع التاريخية أن الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص ، [4] حضرا على رأس جيوشهما لمعاونة الصليبيين في مهمة غزو مصر [1] . ولكن القوات الشامية

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٠٣ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٢ .

(٤) خلف المنصور ابراهيم أباه المجاهد شيركوه الثاني في حكم حمص ١٢٤٠ ، وظل يحكمها حتي سنة ١٢٤٦ م (انظر زامباور : معجم الأنساب ص ١٥٣) .

(٥) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٣ .

التابعة للصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم لم تقبل فكرة طعن أخوانهم المصريين ، فلم تكد تصل هذه القوات إلى غزة حتى انضمت إلى جانب الجيش المصرى ليشترك الجميع فى مهاجمة الصليبيين . وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين ، فقتل منهم عدد ضخم وسيق الأسرى إلى القاهرة ، فى حين انسحب الباقون إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع الصالح نجم الدين سلطان مصر سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ ﻫ)[١] . وإذا كانت هذه الحملة الفرنسية لم تستطع البقاء فى بلاد الشام بعد ذلك وغادرت عكا عائدة إلى الغرب فى سبتمبر سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ ﻫ) فإن حملة أخرى جديدة وصلت إلى عكا فى الشهر التالى بقيادة ريتشارد دى كورونول ، أخى ملك إنجلترا . على أنه يبدو أن هذه الحملة كانت صغيرة فلم تستطع القيام بعمل حربى هام فى الشرق الأدنى ، عدا تحصين عسقلان ليتخذها الصليبيون قاعدة لصد أى هجوم من جانب مصر .[٢] وبعد أن أتم ريتشارد تحصين عسقلان فى مارس سنة ١٢٤١ م (٦٣٨ ﻫ) ، أجاب الصالح أيوب إلى طلبه الخاص باحترام الصلح المعقود بينه وبين ثيبوت الرابع . وبمقتضى ذلك الصلح اعترف الصالح أيوب للصليبيين بملكية الحصون التى أخذوها فى فلسطين ، فضلا عن بيت المقدس . ولم يلبث أن قفل ريتشارد دى كورونول راجعا إلى بلاده فى مايو سنة ١٢٤١ م (٦٣٨ ﻫ) تاركا خلفه الصليبيين ببلاد الشام يتخبطون فى حروب أهلية طويلة بينهم وبين بعض.[٣]

الخوارزمية واسترداد بيت المقدس :

ولم يلبث النزاع أن دب مرة أخرى بين الصالح أيوب فى مصر وعمه الصالح إسماعيل فى دمشق ، وساند الأخير الناصر داود فى الأردن . وكان

(١) Eracles, 418-420.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٩ — ١٠٤٠ .

(٣) Grousset : op. cit., III, pp. 394, 303-304.

أن لجأ ملكا دمشق والأردن إلى طلب مساعدة الفرنجة ، وعرضا عليهم مقابل تلك المساعدة أن يوافقا على أن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة ، بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه من المسجد الأقصى وقبه الصخرة ، وهى المواضع التى ظلت — ولو اسميا — فى حوزة المسلمين وتحت إشرافهم منذ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس بمقتضى اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩ م (٦٢٧ هـ)[١] وفى ذلك الوقت نفسه عرض السلطان الصالح أيوب على الصليبيين محالفته ضد ملك دمشق والأردن ، مقابل الثمن نفسه الذى عرضه هذان الملكان على الصليبيين . وهكذا يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة ــ الصالح أيوب والصالح إسماعيل والناصر داود ــ قد أقروا فى تلك السنة ١٢٤٣ — ١٢٤٤ (٦٤١ هـ) مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف . ويروى المؤرخ جمال الدين بن واصل أنه مر ببيت المقدس عندئذ ، فرأيت الرهبان على الصخرة وعليها قنانى الخمر ، ورأيت الجرس فى المسجد الأقصى ، وأبطل الأذان بالحرم . . . »[٢]

أما الصليبيون ، فيبدو أنهم اتبعوا سياسة ذات وجهين مع ملك دمشق وسلطان مصر ، وذلك حتى يحتفظوا بالمكاسب التى حققوها دون عناء . على أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضى طويلا فى تلك السياسة ، ولم يلبثوا أن أحسوا بأنه لا بد لهم من الوقوف فى صف أحـــد الجانبين المتنازعين ومجاهرة الطرف الآخر بالعداء . وكان أن انتصرت سياسة الداوية الخاصة بمهاجمة مصر ، فاختار الصليبيون الوقوف فى جانب الصالح إسماعيل صاحب دمشق لأنه أقرب إليهم ، فضلا عن أن التحالف معه يعنى كسب الناصر داود صاحب الأردن والمنصور إبراهيم ملك حمص[٣] ولم يلبث هؤلاء الملوك الأيوبيون الثلاثه أن قرروا غزو مصر بمساعدة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤١ هـ ، أبو الفدا حوادث سنة ٦٤١ هـ .

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 322.

الصليبيين ، فجمعوا قواتهم عند غزة ، ووعدوا الصليبيين وعودا كثيرة لمشاركتهم فى الهجوم على مصر .

أما الصالح أيوب سلطان مصر فلم يجد قوة أمامه يمكنها أن تسعفه إسعافا سريعا سوى الخوارزمية ، فطلب معونتهم ، الأمر الذى ترتب عليه تحول الموقف بالشام تحولا سريعا فى صالحه [1]. ذلك أن دعوة الصالح أيوب لم تكد تصل إلى الخوارزمية حتى فرحوا بتلك الفرصة التى أتاحت لهم منفذا لدخول بلاد الشام ، فاندفع منهم عشرة آلاف فى طريق دمشق ، ولما وجدوا هذه المدينة قوية التحصين استولوا على طبرية ثم على نابلس ومنها قصدوا بيت المقدس [2] .

وكانت بيت المقدس عندئذ أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين ، ليس فيها ملك أو زعيم صليبى يدافع عنها ، فاستنجد من فيها من الصليبيين بأمير انطاكية وطرابلس وبملك قبرس . ولكن أحدا من هؤلاء الأطراف لم يلب النداء ، إذ كان الصليبيون فى الشام وقبرس فى شغل بمشاكلهم الخاصة فى حين لم يجرؤ حلفاء الصليبيين من أمراء المسلمين — فى دمشق وحمص — على التدخل ومنع الخوارزمية المسلمين من الاستيلاء على بيت المقدس من الصليبيين ، وإلا تعرضوا لنقمة الرأى العام فى العالم الإسلامى [3] .

وهكذا اقتحم الخوارزمية بيت المقدس فى ١١ يوليو سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) واستولوا عليها فى سهولة، وعندئذ طلب من فى المدينة من الصليبيين وساطة الناصر داود لتأمين خروجهم . فتوسط لهم وخرج ستة آلاف منهم قاصدين يافا فى شهر أغسطس. على أن الخوارزمية لم يتركوهم ينصرفوا

---

(١) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٤٢ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣١٦ .

(٣) Grousset : op. cit., III, p. 412.

آمنين وإنما اعتدوا عليهم فى الطريق، كما اعتدوا على كنيسة القيامة وغيرها من المشاهد المسيحية فى بيت المقدس.[1] وكانت هذه آخر مرة يستولى فيها المسلمون على بيت المقدس فى عصر الحروب الصليبية إذ لم يقدر لجيش مسيحى أن يدخلها بعد ذلك أبدا حتى الحرب العالمية الأولى.

الصالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوبية:

وبعد أن استعاد الخوارزمية بيت المقدس من الصليبيين اتجهوا نحو غزة للاجتماع بالعسكر المصرى الذى أرسله السلطان الصالح أيوب لمحالفتهم (أكتوبر ١٢٤٤ م = ٦٤٢ هـ). وفى ذلك الوقت كانت قوات الحلف الشامى الصليبى قد اتجهت من عكا نحو غزة، ومع الجيوش الصليبية كان المنصور إبراهيم صاحب حمص وصحبته قوات دمشق، فضلا عن نجدة وصلت إليهم من الناصر داود صاحب الكرك.[2] وفى موقعة غزة التى دارت فى ١٧ أكتوبر سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) بين الخوارزمية وجيوش الصالح أيوب من ناحية، والصليبيين وجيوش حمص ودمشق والأردن من ناحية أخرى، حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ومن انضم إليهم من منافقى المسلمين، حتى قدرت خسائر الصليبيين بثلاثين ألف قتيل وثمانمائة أسير.[3]

ولاشك فى أن هذه كانت أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ)، حتى أطلق المؤرخون عليها اسم «حطين الثانية»[4] وكان الخوارزمية يأملون بعد ذلك أن يكافأهم الصالح أيوب بالسماح لهم بالاستقرار فى مصر؛ ولكن يبدو أنه خشى ما يترتب على دخولهم

(١) العينى: عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٢ هـ.

(٢) أبو المحاسن: النجوم ج ٦ ص ٣٢٣.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome 5, p. 193)

المقريزى: السلوك ج ١ ص ٣١٧.

(٤) Grousset : op. cit., III, p. 415.

مصر من ضرر بالبلاد والعباد ، فلم يسمح لهم إلا بالاستقرار فى الشام على حساب الصليبيين . ولم تلبث جموع الخوارزمية أن أخذت تغير على ممتلكات الصليبيين وضياعهم حتى وصلت إلى مشارف عكا . أما الجيش المصرى ، فقد انفصل عن الخوارزمية بعد موقعة غزة واتجه لعقاب صاحبى الكرك ودمشق لتحالفهما مع الصليبيين . وقد نجح الجيش المصرى فى أخذ القدس والخليل وبيت جبريل والأغوار من الناصر داود صاحب الكرك، وبذلك لم يبق له سوى مراكز قليلة الأهمية مثل الكرك وعجلون[1] أما دمشق فإنها لم تستطع مقاومة الحملة التى أرسلها ضدها الصالح أيوب فاستسلمت فى اكتوبر سنة ١٢٤٥ م (٦٤٣ هـ) وعوض الصالح اسماعيل عنها ببعلبك وبصرى وأعمالها[2] .

على أن الخوارزمية لم يلبث أن اشتد استياؤهم من الصالح أيوب لأنهم ظنوا أنه سيجزل لهم العطاء بعد أن ساعدوه فى التغلب على خصومه وفى تملك بلاد الشام ، فخاب ظنهم . بل لقد حدث بعد استيلاء الصالح أيوب على دمشق أن منع الخوارزمية من دخولها وأقطعهم الساحل « فتغيرت نياتهم واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان»[3] .

وكان أن ثار الخوارزمية بالشام واتصلوا بالأمير ركن الدين بيبرس قائد قـــوات الصالح أيوب — وكانت أمه خوارزمية — وحسنوا له الانضمام إليهم فى ثورتهم ضد السلطان ففعل ذلك[4] .

كذلك انتهز الناصر داود صاحب الكرك والصالح اسماعيل طريد دمشق

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣١٨.

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome V, p. 193)

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٢٢ .

(٤) ابو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٥ .

الفرصة للانتقام من الصالح أيوب ، فانضموا إلى الثوار ، وزحفوا جميعاً على دمشق وحاصروها . وهنا أظهر الصالح أيوب صبراً ومهارة، فلجأ إلى أعمال الحيلة والتدبير ، وبدأ باستمالة الحلبيين فضلا عن المنصور ابراهيم صاحب حمص ، وتحايل حتى استحضر الأمير ركن الدين بيبرس إلى مصر حيث قبض عليه وأعدمه . وبفضل هذه الإجراءات تمكن الصالح أيوب من إنزال الهزيمة بالخوارزمية بين بعلبك وحمص ، فتبدد شملهم ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك[1] .

وبعد القضاء على الخوارزمية ، اتجه الصالح أيوب نحو الصليبيين . فتمكنت جيوشه فى ١٧ يونيه سنة ١٢٤٧م (٦٤٥ ﻫ) من الاستيلاء على قلعة طبرية من الصليبيين ، ثم استولت على عسقلان فى اكتوبر من العام نفسه ، وبذلك انحسرت حدود الصليبيين إلى أبواب يافا[2] .

وهكذا استعادت الدولة الأيوبية وحدتها ، وأصبح السلطان الصالح أيوب يمتلك القاهرة ودمشق وبيت المقدس ، فأقام فى دمشق من نوفمبر سنة ١٢٤٨ حتى أبريل سنة ١٢٤٩ (٦٤٦ — ٦٤٧ ﻫ) حيث وفد إليه ملك حماه المنصور الثانى والأشرف ملك حمص، وغيرهما من ملوك البيت الأيوبى بالشام لتقديم فروض الولاء والطاعة . كذلك زار الصالح أيوب بيت المقدس بعد أن عادت إلى أحضان الدولة الإسلامية، فقوى تحصيناتها ودعمها وحضر إليه فيها كثير من ملوك الشام ليعبروا عن ولائهم .[3]

الحملة الصليبية السابعة على مصر :

أحدث استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ ﻫ) رد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ص ٣٢٤ .

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٥ ﻫ .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome 5, p. 194)

فعل عنيف فى الغرب الأوربى ، فقامت البابوية — كعادتها عقب كل كارثة تحل بالصليبيين فى الشرق — بالدعوة لحملة صليبية جديدة . وكانت ظروف الغرب الأوربى عندئذ تحول دون أن يلبى كثير من ملوك أوربا وأمرائها تلك الدعوة ، فلم يستجب لها إلا لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الرجل الذى اشتهر بتقواه وورعه ، حتى لقب بالقديس .

وفى الوقت الذى أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يواصل استعداداته لحملته الصليبية ، إذا بأخبار الحملة تتسرب إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب . ذلك أن الأمبراطور فردريك الثانى — الذى ظل مصادقا للسلطان الكامل ومن بعده ابنه الصالح أيوب — أرسل سراً إلى السلطان الصالح يخبره بأن ملك فرنسا « عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها » .[1] وكان السلطان الصالح أيوب مريضا فى دمشق عندما بلغته تلك الاخبار ، فحمل إلى مصر ونزل عند اشموم طناح ليكون على مقربة من ميدان العمليات الحربية .

أما لويس التاسع فقد وصل على رأس حملته إلى جزيرة قبرس فى سبتمبر سنة ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) حيث قضى الصليبيون بضعة أشهر حصلوا فيها على مزيد من المساعدات ومواد التموين ، حتى استقر الرأى أخيراً على مهاجمة دمياط ، فأبحرت الحملة إليها فى مايو سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ)[2] .

وهنا نلاحظ ملاحظتين : الأولى أن فكرة الاستيلاء على مصر بوصفها مفتاح بيت المقدس كانت لا تزال مسيطرة على عقول الصليبيين فى الشرق والغرب جميعاً .

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ح ١ ص ٢١٩ (بولاق) ، ابن الجوزى : مرآة الزمان (المكتبة الصقلية ح ٣ ص ٥١٧) .

(٤) Joinville : 51, 62, 82.

والثانية أن لويس التاسع أراد أن يمهـــد لهجومه بنوع من حرب الأعصاب ، فاتبع أسلوب المغول الخاص بإرسال رسائل مليئة بعبارات التهديد والوعيد والمبالغة إلى حاكم البلد الذى ينوون غزوه ليسقط فى يده ويستسلم دون مقاومة . من ذلك أن لويس التاسع لم يكد يصل إلى دمياط فى أوائل يونية سنة ١٢٤٩م حتى أرسل رسالة عنيفة إلى السلطان الصالح يشرح له سوء موقف المسلمين فى الأندلس ويطلب منه التسليم فوراً « وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضا »[1] . ووصلت رسالة لويس إلى الصالح أيوب وهو مريض ، فاغرورقت عيناه بالدموع ورد على لويس ليندد بغروره ويذكره بما فعله المسلمون بالصليبيين ، وينذره بأنه سيندم حيث لا ينفع الندم[2] .

والواقع أن التحذير الذى أرسله الامبراطور فردريك الثانى أفاد الصالح أيوب ، فأسرع إلى تحصين دمياط بعد أن أثبتت التجارب اختيار الصليبيين لها نقطة ارتكاز للاستيلاء على مصر . وكان أن عهد السلطان الصالح إلى الأمير فخر الدين يوسف — صديق الامبراطور فردريك القديم — بالوقوف على رأس قوة على البر الغربى لفرع دمياط لمنع الصليبيين من النزول على ذلك البر[3] . أما دمياط ذاتها فقد شحنت « بآلات عظيمة وذخائر وافرة . وجعل فيها بنى كنانة وهم مشهورون بالشجاعة »[4] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٨ — ١٠٥٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(٣) المقريزى نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ٩٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٥٥ — ٣٥٦ (مخطوط) .

(٤) أبو الفدا : المختصر سنة ٦٤٧ ﻫ .

وعندما وجد لويس التاسع أن دمياط قوية التحصين بحيث يتعذر عليه النزول على برها ، قرر النزول على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط . وعلى الرغم من أن قوات الأمير فخر الدين تصدت للصليبيين وقاومتهم ، إلا أنها لم تنجح فى مهمتها واستطاع الصليبيون النزول على الشاطىء، مما جعل الأمير فخر الدين ومعظم رجاله يفرون ليلا إلى الضفة الشرقية حيث توجد دمياط[1] . ولم يلبث أن استولى الرعب على أهل دمياط، فتركوا مدينتهم بما فيها هاربين، بعد أن أشعلوا النار فى سوقها ؛ بل إن عرب كنانة الذين عهد إليهم الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة ولوا الأدبار وتركوا أبواب دمياط مفتوحة ، وفاتهم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذى يربط دمياط بالضفة الغربية التى عليها الصليبيون[2] .

وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة خالية من وسائل الدفاع ، فتملكها الفرنج بغير قتال ، فى ٦ يونيو سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) ويروى المقريزى أن الصليبيين عندما رأوا أبواب دمياط مفتوحة ولا أحد يحميها شكوا أن يكون فى الأمر خدعة ، ولكنهم لم يلبثوا أن أدركوا الحقيقة ، فدخلوا المدينة بغير كلفة ، واستولوا على مافيها من مؤن وآلات وأسلحة وأموال « صفواً عفواً »[3] .

على أن الصليبيين لم يحاولوا فى حملتهم هذه سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) . أن يستفيدوا من الأخطاء التى وقعت فيها الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٩م (٦١٦هـ) . ذلك أنه كان من المفروض أن يبادر لويس التاسع بالزحف إلى داخلية البلاد لمحاولة القضاء على الجيش الأيوبى ، ولكن الصليبيين

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٥ .

(٢) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٦ .

أضاعوا الوقت فى دمياط خمسة أشهر كاملة (يونيو — نوفمبر ١٢٤٩م = ٦٤٧هـ) وربما أراد لويس بذلك أن ينتظر انحسار فيضان النيل الذى كان سبباً فى فشل حملة حنادى برين على مصر قبل ذلك بثلاثين سنة[1] . ومهما تكن الأعذار التى حاول بعض المؤرخين انتحالها لتبرير تباطؤ لويس التاسع فى دمياط ، فالمهم أن ذلك التباطىء أعطى السلطان الصالح أيوب فرصة طيبة للاستعداد وإعادة تنظيم جيشه .

وكان الصالح أيوب قد عاقب أمراء بنى كنانة عقاباً شديداً لفرارهم من دمياط ، كما وبخ الأمير فخر الدين ورجاله لعدم ثباتهم أمام الصليبيين ، ولكن المرض اشتد على الصالح أيوب ، فحمل إلى قلعة المنصورة حيث استمر — وهو على فراش الموت — فى تنظيم شئون الدفاع[2] . ثم إن المسلمين انتهزوا فرصة انتقال الجيش الصليبى مرة أخرى إلى الضفة الغربية للنيل ، وأخذوا يشنون عليه الغارات المتوالية حتى أسروا كثيراً من الصليبيين وأرسلوهم إلى القاهرة[3] .

وأخيراً وصلت الإمدادات إلى لويس التاسع صحبة أخيه فى أكتوبر سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) ، فقرر الصليبيون الزحف على القاهرة . ولم يكد لويس التاسع يشرع فى الحركة على رأس جيشه ، حتى توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م (١٥ شعبان ٦٤٧هـ) .

ولا شك فى أن وفاة الصالح أيوب فى تلك الظروف الحرجة جاءت خسارة كبرى لعدم وجود من يحل محله بسرعة فى حكم البلاد وفى مواجهة خطر الغزو الصليبى .

---

(١) Runciman : op. cit., III, p. 263.

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٧ .

موقعة المنصورة :

كان للصالح أيوب ابن واحد اسمه توران شاه ، وهو شاب مستهتر عديم الخبرة ، كان عند وفاة أبيه ينوب عنه فى حصن كيفا وديار بكر .[1] وإلى أن يأتى توران شاه إلى مصر ، قامت زوج أبيه – شجر الدر أرملة الصالح أيوب – بدور بارز حفظه لها التاريخ، فأخفت خبر موت زوجها ، وأرسلت إلى توران شاه تستدعية على عجل من كيفا ، فى الوقت الذى استمرت الاستعدادات للدفاع عن البلاد تسير فى مجراها الطبيعى .[2]

ولكن حدث على الرغم من كل هـــذه الاحتياطات أن تسرب خبر وفاة السلطان،لا إلى المصريين فحسب ، بل إلى الصليبيين أيضاً . لذلك رأى لويس التاسع أن يسرع بالهجوم ليستفيد من تلك الظروف السيئة التى أمست فيها البلاد، وليتمكن من إنزال ضربته بالمسلمين قبل وصول توران شاه [3]

وعندما تحرك الجيش الصليبى من دمياط فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) ، اختار لويس طريق الدلتا الكثير الترع والقنوات ، فسار الصليبيون على الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل جنوبا فى المنطقة التى أطلق عليها الصليبيون اسم « جزيرة دمياط » ، وهى عبارة عن مثلث تحده من الشمال الشرقى بحيرة المنزلة ، ومن الغرب فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقى فرع اشموم طناح المعروف اليوم باسم البحر الصغير . وفى أثناء زحف الصليبيون جنوبا تعرضوا لهجمات كثيرة ، حتى وصلوا فى النهاية عند نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط ، وهى النقطة التى تمثل رأس المثلث ، وعندئذ وجدوا أن النيل يفصل بينهم وبين المنصورة . ولم يلبث أن استطاع الصليبيون عبور بحر أشموم عن طريق مخاضة قريبة اسمها مخاضة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٦٤ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٢ – ٣٦٣ (مخطوط)
(٣) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ

سلمون، فى الوقت الذى قتل الأمير فخر الدين قائد الجيش الأيوبى، مما جعل موقف المسلمين يتحرج حتى «كادت تكون الهزيمة بالكلية».[1]

ولم ينقذ الموقف عندئذ سوى حماقة الصليبيين. ذلك أن فريقا منهم تسرع فى شن هجوم على المسلمين فى المنصورة، دون أن يستمع إلى أوامر الملك الخاصة بالتريث والانتظار.[2] وهكذا اندفع فرسان الصليبيين داخل المنصورة، وأوغلوا فى طرقاتها، فى الوقت الذى وجد المسلمون قوة جديدة فى المماليك البحرية وزعيمهم بيبرس البندقدارى الصالحى. والواقع إن الموقف كان خطيراً، حتى أطلق المؤرخ ابن واصل على ذلك اليوم يوم «الكبسة».[3] ولكن المماليك البحرية أنقذوا الموقف، فانقضوا على الصليبيين فى دروب المنصورة وأوسعوهم قتلا، حتى انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين، وفرارهم منهزمين.[4] وكان عدد ضحايا الصليبيين فى المنصورة بضعة آلاف، مما جعل أحد المؤرخين الأوربيين يعتبرها «مقبرة الجيش الصليبى»، فى حين وصفها المقريزى بأنها كانت «أول ابتداء النصر على الفرنج».[5]

ويبدو أن موقعة المنصورة أعادت الثقة إلى نفوس المسلمين فاشتدت هجماتهم بعد ذلك على الصليبيين، فى الوقت الذى تمالك لويس التاسع شجاعته وأخذ يعيد تنظيم صفوف جيشه بسرعة بعد أن قلت المؤن وتناقص عدد الفرسان بسبب كثرة ضحاياهم فى المنصورة، هذا كله فضلا عن انتشار الأمراض والحميات فى معسكر الصليبيين لتزيد الطين بلة.[6]

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٦ (مخطوط).

(٢) Matthieu Paris, VII, pp. 14-11 & Joinville, pp. 118-119.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٣٥٩ (مخطوط)

(٤) العينى: عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

(٥) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٣٥١؛ Grousset : op. cit., III, p. 465

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٧٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توران شاه والصليبيون :

وفى تلك المرحلة وصل المعظم توران شاه إلى المنصورة فى نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ م (٦٤٧ هـ) بعد أن أعلن سلطانا فى دمشق أثناء طريقه إلى القاهرة . وقد أدى وصول السلطان الجديد إلى ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين ، « وتيمن الناس بطلعته»[1] ، وعندئذ أدرك لويس استحالة الزحف على القاهرة ، وبدأ يفكر جديا فى العودة إلى دمياط ليستغل هذه المدينة الكبيرة فى مساومة المسلمين . على أن انسحاب الصليبيين إلى دمياط لم يكن عندئذ بالمهمة السهلة ، وهذا هو السر فى تردد لويس فى اتخاذ تلك الخطوة حتى الخامس من شهر أبريل .

وفى تلك الأثناء ازداد موقف الصليبيين سوءا بسبب انقطاع المواصلات بينهم وبين دمياط ، مما هددهم بالجوع وفرض عليهم أن يتدبروا مصيرهم بسرعة . فحتى ذلك الوقت كانت الغلبة فى النيل — بين دمياط والمنصورة — للسفن الصليبية التى نجحت فى إمداد الصليبيين بكل ما احتاجوا إليه من إمدادات وقوة . ولكن السلطان توران شاه بنى عدة سفن وحملت أجزاؤها على الجمال إلى شمالى المعسكر الصليبى حيث ركبت وأنزلت فى الماء وشحنت بالمقاتلين . ولم تلبث هذه السفن الإسلامية أن انقضت على المراكب الصليبية ، وأخذتها أخذا وبيلا ، وبذلك قطعت الطريق على السفن الصليبية وحالت دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم فى دمياط .[2] وتفيض المراجع العربية المعاصرة بأخبار المعارك النيلية التى نشبت عندئذ بين السفن الإسلامية والسفن الصليبية، وكيف أن هذه المعارك انتهت كلها بالاستيلاء على عشرات من السفن الصليبية وبضعة آلاف من رجالهم ، فضلا عن كميات ضخمة من المؤن والعدد .[3]

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص ٣٥١ — ٣٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج٦ ص ٣٤٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٣٥٣ .

(٣) عن تفاصيل هذه المعارك انظر (العينى) عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ ، وابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٧١ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٤

ومن الواضح أن هذه الصعاب التى أحاطت بلويس التاسع جعلته - قبل أن يشرع فى التراجع إلى دمياط - يحاول فتح باب المفاوضات مع المسلمين ، على أساس ترك دمياط مقابل إعادة بيت المقدس إلى الصليبيين . وقد أراد لويس بهذا العرض أن يضرب عصفورين بحجر فيسترد بيت المقدس فى الوقت الذى يضمن لجيشه انسحاباً آمناً وخروجاً سليماً من مصر . ولكن عرض لويس التاسع جاء بعد فوات الاوان ، ولو أنه تقدم بطلبه هذا قبل عدة أشهر لكان من الممكن أن يتقبله المسلمون ، أما وقد قدم لويس عرضه السلمى بعد أن ساء موقفه وحلت بجيشه هزيمة المنصورة ، فإن توران شاه كان لا يسعه سوى أن يرفض طلب الملك الفرنسى[1] .

وفى ٥ أبريل سنة ١٢٥٠م (٦٤٨هـ) بدأ الصليبيون يتراجعون نحو دمياط بحذاء الضفة الشرقية للنيل، فى حين حمل المرضى والجرحى فى السفن. والواقع إن العملية لم تكن انسحاباً بالمعنى المعروف فى الحروب ، وإنما هى عملية « هروب إلى دمياط » كما أن أسماها ابن واصل[2] ولم يترك المسلمون الصليبيين يتراجعون فى سهولة ، وإنما تعقبوهم وأنزلوا بهم كثيراً من الخسائر ومع ذلك فقد أظهر لويس التاسع كثيراً من الكفاية فى تنظيم رجاله ،حتى وصل الصليبيون إلى شرمساح، عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط . ولم تكد مقدمة الجيش الصليبى تصل إلى فارسكور ، حتى غلب المرض على لويس التاسع ومعظم رجال جيشه ، فى الوقت الذى « أحدق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلا وأسراً »[3] . وعندما أدرك المسلمون سوء موقف الصليبيين ، اختاروا أن يشنوا عليهم هجوماً عاماً عند فارسكور . وكان المرض قد أشتد بلويس التاسع فلم يعد يقوى على القتال ، وقاده أحد

---

(١) Grousset : op. cit., III, p. 419.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٩ (مخطوط)

(٣) العيني : عقد الجمان حوادث سنه ٦٤٨ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٦٤ .

رجاله ليستريح فى منية أبى عبد الله، وهى إحدى قرى شرمساح . وفى موقعة فارسكور حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ، ووقع الجيش الصليبى بأجمعه تقريباً بين أسرى وقتلى ، وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه الذى سيق مكبلا بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن فى دار ابن لقمان[1] .

نهاية الدولة الأيوبية :

ولم يهتم المسلمون كثيراً — وهم فى نشوة نصرهم — بأمر دمياط، إذا باتوا يعتقدون أن استردادها صار أمراً مفروغاً منه ، ولذلك ركزوا طلباتهم فى الحصول على الممتلكات الصليبية بالشام . وهنا أجاب لويس بأنه لا سلطان له على الصليبيين وممتلكاتهم بالشام ، ورفض أن يعترف المسلمين بأى حق فى الممتلكات الصليبية بالشام . وكان أن اغتاظ توران شاه لموقف الملك لويس ، فصمم على غزو الشام وطالب بمبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسى، على أن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك الفرنسى نفسه[2] .

وقد وافق لويس على هذه الشروط وأبرمت معاهدة بينه وبين توران شاه تقضى بأن يستمر الصلح لمدة عشر سنوات وأقسم الطرفان على احترام شروط الصلح[3] .

على أن توران شاه لم يلبث أن قتل فى المحرم سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية السابقة مع الصليبيين . ولعل أهم ما ترتب على مقتل توران شاه من تطور خطير فى تاريخ مصر والشرق الأدنى . هو سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك فى حكم مصر والشام، على النحو الذى سنراه فى الباب التالى .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٦٧ .

(٢) Grousset : op. cit., III, p. 484.

(٣) جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع ص ٦١ .

الفصل الثامن

احوال مصر والشام في العصر الأيوبي

الحياة الدينية :

كان أهم ما اتصفت به الحياة الدينية فى العصر الأيوبى هو القضاء على آثار المذهب الشيعى وتدعيم المذهب السنى فى أنحاء البلاد . والمعروف أن المذهب الشيعى كان قد وجد له سنداً قويا فى البويهيين بالشرق وفى العبيديين أو الفاطميين فى الغرب. ولكن السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة العباسية حاربوا التشيع فى المشرق ، ولجأ الوزير السلجوقى نظام الملك فى تدعيم المذهب السنى إلى إنشاء المدارس، وأشهرها المدرسة النظامية فى بغداد. ومن المعروف أن عماد الدين زنكى ونور الدين محمود كانا من أتباع السلاجقة ، وكانا يدينان بالمذهب السنى ، لذلك لم تكد تتم لنور الدين محمود السيطرة على مصر حتى تعجل صلاح الدين فى القضاء على الخلافة الفاطمية ، والدعوة على منابر المساجد للخليفة العباسى السنى فى بغداد .

وقد حذا صلاح الدين فى مصر حذو نور الدين فى الشام فى القضاء على المذهب الشيعى ، فالتجأ إلى العنف والقتل ، كما لجأ إلى أساليب السياسة وإنشاء المدارس . ولم يستسلم الشيعة فى مصر لتلك السياسة ، لأنهم أدركوا أن الأمر بالنسبة لهم يعنى الحياة أو الموت ، فقاموا بالثورات وأشهرها ثورة عمارة اليمنى ، كما سبق أن ذكرنا . وإذا كانت بقايا المذهب الشيعى قد ظلت قائمة فى مصر إلى عصر المماليك وما بعد عصر المماليك ، فإن هذه البقايا صارت ضعيفة لا تقوى على الظهور إلا لتختفى بعد قليل .

وثمة ظاهرة دينية أخذت تزداد وضوحا فى العصر الأيوبى ، هى ظاهرة التصوف والاكثار من بناء منازل للصوفية عرفت باسم الخانقاوات. ويفهم مما كتبه المقريزى، أن صلاح الدين انشأ أول خانقاه بمصر وهى خانقاه سعيد السعداء (٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) وولى عليها شيخا عرف بشيخ الشيوخ ، ووقف عليها الأوقاف للانفاق على من فيها من الفقراء (الصوفية) ، كما خصص لهم فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا وبنى لهم حماما بجوارهم.[1] كذلك أمدنا المقريزى بصورة عن حياة أولئك الصوفية ، فقال إن الناس اعتادوا أن يأتوا يوم الجمعة لمشاهدة صوفية خانقاه سعيد السعداء عندما يتوجهون من دارهم إلى جامع الحاكم لصلاة الجمعة ، فكانوا يخرجون إلى الجامع فى موكب جميل يؤدون فريضة الصلاة فى موضع أعدلهم ويدعون للسلطان صلاح الدين ، ثم يعودون بنظام إلى الخانقاه .

ولا يخفى علينا أن التصوف ليس مجرد ظاهرة دينية ، وإنما كان أيضاً ظاهرة اجتماعية خطيرة . ولم يلبث أن وفد على مصر فى العصرين الأيوبى والمماليكى كثير من زعماء المتصوفة ومشايخهم — وبخاصة من المغرب — الذين أشاعوا بمصر حياة الزهـــد والتقشف مما ترك أثراً خطيراً فى المجتمع المصرى .

الحياة العلمية والفكرية :

اشتهر سلاطين الأيوبيين بحبهم للعلم والعلماء ، فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم فى أبحاثهم[2] . أما العزيز عثمان الذى خلف أباه صلاح الدين فى السلطنة فقد قال عنه

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ٣٢٩ .

ابن خلكان أنه « سمع الحديث من الحافظ السلفي والفقيه أبي طاهر بن عوف الزهري ، وسمع بمصر من العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم »[1]. ومثل ذلك يقال عن بقية سلاطين بني أيوب ، وبخاصة السلطان الكامل الذي قال عنه المقريزي « وكان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وعنده شغف بسماع الحديث النبوي . . . وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فمن أجاب عنها قدمه وحظي عنده . وكانت يبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم . . . فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه . . . »[2] .

لذلك لا عجب إذا اشتهر من بني أيوب أنفسهم أعلام في مختلف ضروب المعرفة ، منهم المؤرخ الشهير أبو الفداء ، وهو اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) وهو صاحب كتاب « المختصر في أخبار البشر » . ومنهم بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م) وكان شاعراً أديباً . والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى المتوفى سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وكان مشتغلا بتحصيل الكتب النفيسة ويجيز الأدباء . والملك المؤيد الأيوبي صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١هـ (١٣٢١م) وكان من أهل العلم واشتملت خزانته على مائة ألف مجلد . والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) وكان راغباً في الأدب وأهله حتى شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعه . . .[3] .

كذلك ظهر تقدير سلاطين بني أيوب للعلم في عنايتهم بالمكتبات ،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٥٨ .

(٣) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٠ .

وأهمها المكتبة التى عنى بها السلطان الكامل بالقلعة ، وكانت فى الأصل تؤلف مكتبة القاضى الفاضل ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد ، حتى أمر السلطان الكامل بوضع اليد عليها ونقلها إلى القلعة لتصبح نواة مكتبة كبرى ضمت ثمانية وستين ألف مجلد ، وقد تم نقلها إلى القلعة سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) .

وإذا كانت هذه هى رغبة سلاطين بنى أيوب فى العلم ، فإننا لا نعجب لكثرة ما أسسوه من مدارس درست فيها العلوم الدينية وغير الدينية ، وصارت مراكز لحياة علمية نشطة فى ذلك العصر .

والواقع أن الأيوبيين عندما أدخلوا نظام المدارس فى مصر لم يكونوا مبتكرين وإنما كانوا محاكين لما شاهدوه وسمعوا به فى الدولة العباسية ، قبل حضورهم إلى مصر . ذلك أنه من أبرز سمات الحياة العلمية فى العصر العباسى الثانى ظاهرة انتشار المدارس ، وخاصة بعد أن أسس نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى المدرسة السلجوقية فى بغداد[1] . ولم تلبث الحركة المدرسية أن انطلقت فى الإسـلام منذ سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٧م) ، إذ صارت المدرسة مكانا للدرس والتحصيل فضلا عن كونها قلعة لنشر المذاهب السنية ، وشن الحرب على الشيعة ومحاربة التشيع[2] . وكان من الطبيعى أن يحاكى الأتابكة فى العراق والشام سادتهم سلاطين السلاجقة فى إنشاء المدارس ، ومن ذلك على سبيل المثال المدرسة الأتابكية التى أنشأها سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى بالموصل قرب منتصف القرن الخامس للهجرة (الثانى عشر الميلاد) ، ومدرسة الجامع النورى التى أنشأها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى فى جامعه بالموصل[3] . وهكذا كان طبيعياً أن يحاكى صلاح الدين سيده نور الدين فى إنشاء المدارس .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩٦ .
(٢) حسين أمين : تاريخ العراق فى العصر السجلوقى ص ٢٢٢ .
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٥ ، العمرى : منية الأدباء ص ٢٠٥ .

ومهما يقال من أن صلاح الدين إنما قصد بإنشاء المدارس محاربة المذهب الشيعى ونشر تعاليم المذهب السنى ، فإن التوسع فى إنشاء المدارس فى حد ذاته جاء مظهراً قوياً لرقى الحياة الفكرية فى عصر الأيوبيين . وقد بدأ صلاح الدين بإنشاء مدرستين فى حياة الخليفة العاضد الفاطمى ، إذ يروى ابن الأثير أنه كانت بمصر دار تسمى دار المعونة يحبس فيها من يراد حبسه، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعيه سنة ٥٦٦هـ[1] . وقد عرفت هذه المدرسة باسم الناصرية . أما المدرسة الثانية فكانت للمالكية ، وقد عرفت باسم المدرسة القمحية نسبة إلى القمح الذى كانت تحصل عليه من الوقف الذى وقفه عليها صلاح الدين[2] . ولم تلبث أن سقطت الخلافة الفاطمية ، فأنشأ صلاح الدين ثلاث مدارس أخرى ، وبذلك صار عدد المدارس التى بناها بالقاهرة خمس ، خلاف ماأقامه من من مدارس فى دمشق والقدس .

وقد حاكى سلاطين الأيوبيين — ومن بعدهم سلاطين المماليك — صلاح الدين فى بناء المدارس . ولا يخفى علينا أن المدارس كانت تدرس فيها العلوم الدينية ، لذلك قصد السلاطين بتأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب . ومن أهم هذه المدارس المدرسة الكاملية التى أنشأها السلطان الكامل سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م) والمدرسة الصالحية التى بناها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١م)[3] . وكانت هذه المدرسة الأخيرة أول مدرسة تجمع بين مذاهب السنة الأربعة .

وكانت المدارس فى ذلك العصر أشبه بجامعات ، فهى معاهد للتعليم العالى ، ولكل مدرسة مذهبها الذى تتبعه ، وإن كان بعضها يشمل أربع كليات

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

(٢) المقريزى المواعظ ج ٤ ص ١٩٣ .

(٣) أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٠٢ — ١٠٣ .

المذاهب الأربعة . وإذا كان المفروض فى المدرسة أن تكون مركزاً للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وغيرها ؛ فإن الوضع لم يلبث أن تطور حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية فضلا عن العلوم الدينية .

وكان يقوم بالتدريس فى المدرسة مدرس أو أكثر يختار من مشايخ علماء عصره ، وأوسعهم علماً ، وأبعدهم صيتا لأنه على أساس مكانته وشهرته تتوقف سمعة المدرسة وأهميتها . ويساعد المدرس عادة معيد ، وظيفته أن يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ، فهو أكبر منهم درجة ، ويجلس معهم ليستمع إلى ما يعطيه المدرس ، وبعد ذلك يرجع إليه الطلاب لشرح ما قد يكون قد صعب عليهم فهمه . ومنذ العهد الأيوبى أصبح منصب المعيد مرموقاً ، وقل إن خلت منه مدرسة من المدارس التى أنشئت فى ذلك العصر ، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية كما عين الصالح نجم الدين أيوب معيدين اثنين لكل واحد من المدرسين الأربعة فى مدرسته[1] . واعتمد التدريس عادة فى ذلك العصر على الإلقاء والتلقين والإملاء ، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وطلابه .

والمعروف أن المدارس ومعاهد التعليم العالى لابد لها من مكتبات ضخمة يرجع إليها المدرسون والطلاب ، ويعتمدون عليها فى التحصيل والاستزادة . لذلك عنى الأيوبيون عناية كبيرة بالمكتبات ، فنسمع عن نور الدين محمود أنه خصص لمدرسته فى دمشق كتباً كثيرة ليرجع إليها طلاب العلم[2] .

وكان من الطبيعى أن يتبع الأيوبيون سياسة نور الدين فى العناية

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ص ١٥٧ ؛ المقريزى : المواعظ ص ٣٧٤ ، ٤٠٠ ، أحمد شلبى تاريخ التربية الإسلامية ص ٢١٥ .

(٢) النعيمى : الدارس فيها فى دمشق من مدارس ج ١ ص ٦٠٨ .

بالمكتبات مثلما اقتفوا أثره فى بناء المدارس[1] . هذا مع ملاحظة أن المكتبات فى ذلك العصر لم تكن قاصرة على المدارس فحسب ، بل وجدت بالجوامع مكتبات كبيرة ، فضلا عن المكتبات الخاصة .

وكان لكل مكتبة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها والمحافظة عليها ، فضلا عن خدمة المترددين على المكتبة من طلاب العلم ، وأهم هؤلاء الموظفين الخازن (الأمين) والنساخ ، والمجلدون ، والمناولون .

وبالإضافة إلى المدارس التى كانت تمثل نوعا من التعليم العالى الجامعى ، وجدت فى العصر الأيوبى كتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن . وقد أنشأ صلاح الدين عدداً من هذه الكتاتيب لتعليم « أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، مما جعل الرحالة ابن جبير يعتبر ذلك من « مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين عامة »[2] .

ولما كانت المنشآت التعليمية السابقة من مدارس وكتاتيب فى حاجة إلى ميزانيات ثابتة تضمن للمعلمين والمتعلمين فيها مستوى كريم من العيش يجعلهم ينصرفون إلى طلب العلم بنفوس راضية مطمئنة ؛ فقد لجأ سلاطين الأيوبيين إلى تدعيم مدارسهم بالأوقاف الغنية التى أوقفوها عليها . ولم تكن جميع هذه الأوقاف أراضى زراعية ، وإنما يروى المقريزى أن صلاح الدين وقف على مدرسته الصلاحية التى بناها بجوار مقام الإمام الشافعى حماما بجوارها ، وفرناً وحوانيت ، فضلا عن الجزيرة التى كانت تسمى جزيرة الفيل بالنيل خارج القاهرة[3] . أما المدرسة القمحية التى أنشأها صلاح الدين للمالكية فقد سبق أن ذكرنا أنها سميت كذلك نسبة إلى القمح الذى كانت

---

(١) أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٣٠ وما بعدها .

(٢) رحلة ابن جبير (طبعة بيروت) . ص ٢٧ .

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٤ ص ١٢٥ .

تغله الأوقاف التي أوقفها صلاح الدين بالفيوم على تلك المدرسة . أما المكاتب فكانت تخصص لها أيضاً أوقاف للإنفاق على مؤدبيها وتلاميذها ، كما كانت « تجرى عليهم الجراية الكافية لهم »[1] .

ومن الواضح أن المستوى المعيشى لمدرسى المدرسة وطلابها توقف على قيمة الوقف الموقوف عليها ومقدار ما يغله ذلك الوقف . ولما كانت هذه القيمة غير ثابتة ، إذ أن إنتاج الأرض يرتبط بحالة الفيضان وما قد يكون من آفات تصيب النبات ، فإن رجال العلم فى تلك العصور لم يكونوا على حال دائم من البسطة وسعة العيش . هذا إلى أن الأوقاف الموقوفة على المدارس لم تكن ثابتة ، وإنما تعرضت أحياناً للزيادة . من ذلك أن الملك السعيد بركه — ابن الظاهر بيبرس — أضاف إلى الأوقاف التى أوقفها الصالح نجم الدين أيوب على المدرسة الصالحية[2] .

وقد نشطت الحياة الأدبية فى عصر الأيوبيين ، وإن كانت الأحداث التى ألمت بالعالم الإسلامى فى الشرق الأدنى — وخاصة ما أصاب المسلمين على أيدى الصليبيين — قد صبغت الأدب صبغة خاصة ، فكسدت سوق الشعر واتجهت القرائح إلى الأدعية ومدح النبي (ص) وكذلك المعانى الصوفية[3] . ومن أشهر شعراء مصر فى العصر الأيوبى ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١م) ، وقد استكثر من الموشحات وأجاد فيها[4] ؛ وكمال الدين ابن النبيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢م) ، وابن شمس الخلافة المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م)[3] ، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وقد اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف ، وجمال الدين

---

(١) رحلة ابن جبير (بيروت) ص ٢٧ .

(٢) أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص ٤٩ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢ — ١٣ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٥٦ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٧ .

بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) ، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨ م)[١] .

أما النثر فى ذلك العصر فاتصف باتقان الصناعة اللفظية ، والتفنن فى البديع والجناس والسجع ، والمبالغة فى التنميق ، كما يبدو ذلك بوضوح فى كتابة عماد الدين الأصفهانى وخاصة كتابه الفتح القسى الذى أرخ فيه لإستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس . ومن أعلام النثر فى ذلك العصر القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) ، وكان وزير صلاح الدين ، وكتب عدداً ضخماً من الرسائل[٢] .

وشهد العصر الأيوبى كذلك نشاطاً فى علوم اللغـــة ، وخاصة النحو والصرف . واشتهر من علماء اللغة عندئذ أبو محمد بن برى المتوفى سنة ٥٨١هـ (١١٨٥ م) ، وأبو الفتح البلطى المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١٢٠٠ م) وابن عبد المعطى الزواوى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م) وابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)[٣] .

أما عن التاريخ فقد شهد نشاطاً كبيراً فى العصر الأيوبى ، فاتجه بعض المؤرخين نحو كتابة موسوعات فى تاريخ الدولة الإسلامية ، واتجه آخرون نحو شرح تراجم العظماء وتدوين مآثرهم ، فى حين عنى القسم الأكبر من المؤرخين بذكر أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين . ومن مؤرخى ذلك العصر أبو على الجوانى المصرى المتوفى سنة ٥٨٨ هـ (١١٦٣ م) وله شجرة رسول الله فى النسب النبوى ، والملك المعظم عيسى الأيوبى المتوفى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩٤ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٤٢ .
(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٥٥ — ٥٦ .

سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) ، وبهاء الدين ابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين المعروفة بالنوادر السلطانية وقد توفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وشهاب الدين أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) صاحب كتاب الروضتين ، وابن ظافر الأزدى صاحب كتاب الدول المنقطعة وقد توفى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، وجمال الدين القفطى المتوفى سنة ٦٤٦هـ(١٢٤٨م) صاحب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، هذا بالإضافة إلى أبي صالح الأرمنى وابن عساكر الدمشقى وغيرهما كثيرون .

الزراعة والإقطاع :

اعتمدت مصر فى حياتها الاقتصادية — طوال تاريخها — على الزراعة بوجه خاص، فبالزراعة اشتغلت غالبية أهلها وعلى الإنتاج الزراعى عاش معظم سكانها . والمعروف أن مصر لم تستخدم الرى الدائم لأول مرة إلا فى القرن التاسع عشر للميلاد ، ولذلك اعتمدت الزراعة فى العصور الوسطى ومن جملتها العصر الأيوبى على رى الحياض ، بمعنى تقسيم الأراضى الزراعية إلى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية ، ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور . وقد أدى اتباع هذه الطريقة إلى جعل البلاد والعباد تحت رحمة الفيضان ، فإذا جاء مستوى الفيضان طبيعيا تمكن الناس من زراعة الأرض فى اطمئنان ، وظهر المحصول طبيعيا فى مقداره وأثمانه . أما إذا جاء الفيضان منخفضاً فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال ، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة فى البلاد .

وعلى ذلك يمكن أن نفسر ماحدث بمصر فى تلك العصور من أزمات اقتصادية فى ضوء انخفاض الفيضان . ومن أمثلة ذلك ماحدث سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) فى عهد السلطان العادل الأيوبى ، إذ يروى أبو المحاسن أنه « كان هبوط النيل .. واشتد الغلاء والوباء بمصر ، فهرب الناس إلى المغرب .

والحجاز واليمن والشام، وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق[1] . ثم يسرد أبو المحاسن نصا عن الوضع فى مصر أثناء تلك الأزمة ، وكيف كان الناس يأكلون لحوم أبنائهم بدافع الجوع ، فيذبح الرجل ولده وتساعده أمه على طبخه وشيه !! ومهما يكن فى هذه الأوصاف من مبالغات فإنها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها ، وما كانت تمر به من ظروف اقتصادية عصيبة عند انخفاض الفيضان.

ولا ينتظر فى مثل هذه الاوضاع أن يحيا الفلاح حياة آمنة مستقرة ، طالما كان تحت رحمة الطبيعة من ناحية وتحت رحمة الحكام من ناحية أخرى. وإذا كانت الطبيعة تشدد قبضتها على الفلاح حينا وترحمه أحيانا ، فإن الحكام كانوا لا يرحمونه فى الغالب ، فأثقلوا عليه الالتزامات والرسوم ، ولم يتهاونوا فى جمع المفروض عليه من ضرائب وأموال . ومن الضرائب التى فرضت على الفلاحين فى ذلك العصر الخراج وشد الأحباس فضلا عن الزكاة[2] .

ومن الثابت فى تطور النظم الإقطاعية فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى أن الإقطاع اتخذ طابعا حربيآ فى بعض الدول التى غلب عليها الجو الحربى . ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجدون أنفسهم فى حاجة إلى محاربين وفرسان مزودين بالسلاح والخيول ، مما يتطلب أموالا و نفقات لا تتحملها مواردهم ، فيعمدون إلى توزيع الأراضى فى صورة إقطاعات على الأمراء والأجناد مقابل مايؤدونه من خدمة عسكرية للحكام . وهذا المبدأ الذى يفسر المؤرخون فى ضوئه تطور النظام الإقطاعى فى الغرب الأوربى منذ أيام شارل مارتل ، ينطبق أيضآ على النظم الإقتصادية التى عرفت على أيام السلاجقة والأيوبيين . وهكذا عرفت مصر زمن الأيوبيين الإقطاع الحربى الذى كان معروفا عند السلاجقة . ولم يكن هذا الأقطاع

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٧٣ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٠٨ — ٣١٥ .

وراثيا ، إنما صار المقطع أن يتمتع بالأرض المقطعة له طالما يؤدى الخدمة العسكرية المتفق عليها فى شروط عقد الإقطاع .

ولم يكد صلاح الدين يوطد أقدامه فى مصر حتى أعاد النظر فى توزيع الإقطاع، فقام سنة ٥٧٧ هـ ثم سنة ٥٨١ هـ (١١٨١ م ، ١١٨٥ م) ، باقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد،[١] . وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم دولته بين أبنائه وأهل بيته ، جعل ذلك التقسيم على أسس إقطاعية ؛ وكذلك حرص من بعده أخوه السلطان العادل على أن يكون أولاده دون غيرهم هم أصحاب الإقطاعات الكبرى فى مصر[٢] .

وهكذا حتى نهاية العصر الأيوبى، فنجد أن النظام الإقطاعى قد استقر فى مصر، فأقطع الصالح نجم الدين أيوب أهل بيته اقطاعات وافرة كما اختص الخوارزمية بإقطاعات واسعة مقابل ماقدموه من خدمات حربية . ولم ينس الصالح أيوب مماليكه الأتراك الذين ساندوه وناصروه فمنحهم الإقطاعات الوافرة[٣] .

وكان على المقطعين أن يؤدوا خدمات إقطاعية ، منها ماهو مالى مثل ضرائب الزكاة والجوالى وغيرها، ومنها ماهو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية شئون الأمن فى الاقطاع والعناية بالزراعة وصيانة الجسور . هذا كله فضلا عن الواجبات الحربية ــ التى هى الأساس فى فكرة الإقطاع ــ فكان على المقطع أن يقتنى العدد المقرر عليه من الجند ويخصص جزءاً من إقطاعه لكل منهم أو يمنح كل جندى مرتبا معينا يناسبه[٤] .

وكان من المنتظر أن يؤدى انتشار النظام الإقطاعى إلى ســوء

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين ص ٢٩ ــ ٣٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٣٢٢ ، ٣٥٨ ، المقريزى نهاية الارب ج٢٧ ص ٩٠

(٤) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٣٤ .

حال الفلاحين ، لأنه جعلهم أشبه شيء بعبيد الأرض ، كما جعلهم تحت رحمة طبقة جديدة هى طبقة كبار الأمراء الإقطاعيين .

ولكن النظم التى وضعتها الدولة الأيوبية حرصت على أن تحمى الفلاحين من عسف السادة الإقطاعيين ، فكان التوقيع الخاص بالإقطاع فى ذلك العصر يأمر المقطع بضرورة الأمر بالمعروف، واتباع العدل، والمحافظة على الإقطاع وعمارته وحسن إدارته ، والإهتمام بالقضاء وعدم أخذ الرشوة من الناس، وحسن الجوار مع زملائه من المقطعين المجاورين له . . .[1] ويبدو أن القيود التى وضعتها الدولة الأيوبية على السادة الإقطاعيين ، وخاصة ما يتعلق بتحديد الإيجارات والجبايات التى يدفعها الفلاح لسيده الإقطاعى ، حمت الفلاح من العسف من ناحية كما حدت من نفوذ وثروة السادة الإقطاعيين من ناحية أخرى[2] .

ولا أدل على عناية الأيوبيين بشئون الزراعة وأهميتها لحياة مصر وشعبها من عنايتهم الفائقة بعمارة القناطر والجسور ، حتى أن صلاح الدين عهد إلى الأمير قراقوش الأسدى بذلك[3] . وكانت الجسور فى ذلك العصر على نوعين : جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد ولذا تعهدت الحكومة بإقامتها والانفاق عليها ؛ وجسور خاصة بجهة معينة ويعود نفعها على تلك الجهة لا غير ، ولذا اختص أهالى تلك الجهة من الفلاحين والمقطعين بإقامتها والإنفاق عليها[4] .

الصناعة والتجارة :

وإلى جانب الزراعة ازدهرت فى مصر عـــدة صناعات أهمها صناعة

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١١ ص ٣٣ — ٣٤ ، ج ١٣ ص ١٤٤ — ١٤٨ .

(٢) Poliak : The Ayybid Feudalism, p. 430.

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ص ١٥١ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠١

النسيج التى اشتهر بها المصريون طوال العصور الوسطى . وهناك أنواع معينة من المنسوجات المصرية أحرزت شهرة عالمية وبخاصة فى غرب أوربا فى تلك العصور مثل قماش الفستيان Fustian الذى نسب إلى الفسطاط . ومن أهم مراكز صناعة المنسوجات فى مصر فى ذلك العصر تنيس ودمياط والبهنسا وأخميم ، وفيها جميعا صنعت أفخر المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية . وبالإضافة إلى صناعة المنسوجات ، اشتهرت مصر باستخراج الزيوت من بذور السمسم والكتان وغيرهما ، واستخدمت بعض هذه الزيوت فى صناعة الصابون ، وهى الصناعة التى اشتهرت بها فقط . هذا عدا صناعات أخرى عديدة ازدهرت فى مصر ، مثل صناعة السكر من القصب ، إذ كانت مصر تنتج عندئذ كميات ضخمة من السكر يستهلك بعضها داخل البلاد ويصدر الباقى إلى الخارج . وقد اتبعت الحكومة الأيوبية سياسة الاحتكار فى عصر قصب السكر ، فحتمت على المشتغلين بهذه الصناعة عصر القصب فى معاصرها العديدة المنتشرة فى كافة أنحاء البلاد[١] .

كذلك فرضت على الصناع والإنتاج الصناعى بعض الضرائب مثل الرسوم المفروضة على منتجات دار الطراز ، وما يحصل برسم أجرة الصناع الذين يعملون فى خزائن السلاح[٢] .

أما التجارة فقد نشطت فى الجانب الخارجى على عصر الدولة الأيوبية . ذلك أن قيام نور الدين بتوحيد مصر والشام تحت حكمه ترتب عليه ازدياد نشاط التبادل التجارى بين الجانبين . حقيقة إن سيطرة الصليبيين على حصن الكرك والشوبك بالأردن ، مكنتهم فى أول الأمر من اعتراض طريق

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٠٢

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٠٥

القوافل المتنقلة بين مصر والشام والحجاز ، ولكن نور الدين محمود ، ومن بعده صلاح الدين ، لم يسكتا عن ذلك التهديد حتى انتهى الأمر باستيلاء المسلمين على حصنى الشوبك والكرك جميعا ، وتأمين طرق القوافل فى تلك المنطقة الهامة التى تعتبر حلقة الوصل بين البلدان العربية .

وثمة ملاحظة أخرى هامة ، هى أن كثيرا من الناس يظنون أن الحرب كانت مستمرة ، وأن العداء ظل مستحكما بين المسلمين والصليبيين فى الشام طوال عصر الحروب الصليبية . ولكن الحقيقة — كما سبق أن رأينا — أن الحروب الصليبية كانت تشتعل حينا وتخمد نارها أحيانا . وفى الفترات التى كان يتوقف فيها القتال حدثت اتصالات حضارية ومعاملات اقتصادية على جانب خطير من الأهمية بين المسلمين والصليبيين . وقد ذكر ابن جبير فى رحلته أنه « من أعجب ما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين » ثم شرح ابن جبير كيف أنه غادر دمشق فى قافلة إسلامية للتجار متجهة إلى مدينة عكا الصليبية ؛ حتى وصلت القافلة عكا عن طريق بانياس . فلما وصلت القافلة الإسلامية إلى عكا « وهى قاعدة مدن الإفرنج بالشام » نزلت فى خان معد خصيصا لنزول القوافل الإسلامية[1] .

ثم إنه من المعروف أيضا أن الحروب الصليبية أدت إلى ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، وأن القوى الإيطالية — مثل بيزا والبندقية وجنوا — رأت فى تلك الحروب فرصة لتدعيم نشاطها التجارى مع البلدان العربية . لذلك ازدادت تجارة مصر الخارجية منذ العصر الأيوبى بالذات ، وقصد التجار الإيطاليون ثغرى دمياط والإسكندرية لشراء الكثير من حاصلات الشرق . وقد عبر صلاح الدين عن ذلك فى إحدى رسائله فقال

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧١ — ٢٧٦ (طبعة بيروت)

« ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبيازنة (البياشقة) والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لاتطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الإسلام فى الاموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة. وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا . بأهداء طرائف أعماله . . . »[1] .

ولم تفلح المراسيم التى أصدرتها البابوية لمنع التجار الأوربيين من التعامل التجارى مع المسلمين فى الشرق الأدنى ، إذ أدى حرص المدن الإيطالية التجارية على مواصلة نشاطها التجارى إلى سعيها لتجديد المعاهدات الإقتصادية مع السلطان العادل بعد وفاة صلاح الدين . كذلك أدت سياسة التسامح التى اتبعها العادل والكامل إلى اتجاه كثير من التجار الأوربيين بسفنهم نحو شواطىء مصر . ولم تلبث الإسكندرية — بصفة خاصة — أن شهدت نشاطا تجاريا واسعا نتيجة للامتيازات التى منحها سلاطين الايوبيين لتجار المدن الإيطالية ، حتى أن وجد بميناء الإسكندرية فى شتاء سنة ١١٨٧ — ١١٨٨ م (٥٨٣ هـ) سبع وثلاثون سفينة إيطالية تجارية ، وهذا عدد ضخم بالنسبة لفصل الشتاء بالذات[2] .

أما عن التجارة الداخلية فكانت لاتقل نشاطا فى العصر الأيوبى ، حتى أن الرحالة ابن جبير وصف مدن مصر فى ذلك العصر — مثل منفلوط وأبى تيج وغيرها — بأن « فيها الأسواق وسائر مايحتاج إليه من المرافق »[3] . وتشهد كتب الحسبة من ذلك العصر على مدى النشاط التجارى الداخلى فى العصر الأيوبى ، وعلى ما كان هناك من إشراف دقيق على الأسواق والباعة[4] .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٤٣ (طبعة النيل)
(٢) Heyd : Hist. du Commerce, Tome 2, pp. 391-399.
(٣) رحلة ابن جبير ص ٣٥
(٤) عبد الرحمن الشيزرى : كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة

الحياة الإجتماعية :

جاءت الدولة الأيوبية من الناحية الزمنية بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الإجتماعية فيهما بالإسراف والمبالغة فى إحياء الحفلات ، هما الدولة الفاطمية والدولة المماليكية . ولكن دولة الأيوبيين أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التى أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، إذ ولدت الدولة الأيوبية فى وقت كان الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوة وعنفاً ، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس فى الشام فحسب ، بل أيضا فى مصر والحجاز . لذلك لم تكن هناك فرصة أمام الأيوبيين ليحيوا حياة إجتماعية مترفة ، إذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالا للتوسع فى الاحتفالات وحياة الترف . وإذا توافر الوقت أحيانا فى العصر الأيوبى لحياة الترف ، فإن المال لم يتوافر عندئذ لأن حراسة القوافل وتحصين المدن والقلاع وإعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة العدد والآلات الحربية ، كل ذلك كان كفيلا بأن يستنفد كل درهم فى خزانة سلاطين بنى أيوب . وحسبنا أن أول ما فكر فيه المعز لدين الله الفاطمى عند وصوله إلى مصر كان تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها ، ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة فى إحيائها ، فى حين كان أول ما اهتم به صلاح الدين الأيوبى فى الدور الأول من أدوار سلطته هو بناء قلعة الجبل وبناء سور القاهرة ، وتحصين الثغور .

وقد وصف ابن شداد صلاح الدين الأيوبى وصفاً يصور روح العصر فقال عنه أن « حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه . لقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده ،

وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ».

وبينما نقرأ عن خلفاء الفاطميين وعن سلاطين المماليك أن كلا منهم مات وترك فى خزائنه أكوام المال وعديد التحف ، إذا بكتب التاريخ المعاصرة تروى أن صلاح الدين مات ولم يترك فى خزانته سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة وجراما واحداً من الذهب .. لقد استنفد الجهاد كل دينار فى خزانته[1] .

وليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية فى مصر على زمن الأيوبيين صارت مجدبة كل الجدب ، خشنة كل الخشونة ، إذ أن الأيوبيين — بوصفهم مسلمين — حافظوا على إحياء الأعياد الدينية ، بل وغير الدينية ، ولكن فى غير إسراف وبدون تهتك .

فالمقريزى عندما يشير إلى بعض الاحتفالات فى العصر الأيوبى لا يتعرض لألوان الإباحية والمنكرات التى انتقدها فى مرارة عند كلامه عن الاحتفالات فى العصرين الفاطمى والمماليكى[2] . ذلك أن الأيوبيين اقتصدوا فى الحفلات وألغوا بعض ما ارتبط منها بأعياد الشيعة ، فى حين حوروا البعض الآخر بما يتفق وتحول البلاد من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى . من ذلك مثلا أن عاشر المحرم — وهو يوم عاشوراء — كان يوم حزن عند الفاطميين تغلق فيه الأسواق ، فجعله الأيوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ويصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب[3] . وهكذا شهدت مصر فى العصر الأيوبى اهتماما بإحياء الأعياد وبالحفلات ، ولكن مع مراعاة الاقتصاد ، فنسمع عن الأسمطة السلطانية فى العصر الأيوبى ونسمع

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٨٥ وما بعدها

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص١٣٦ ، ج ٤ ص ٩٦٣

(٣) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ص ٥٩

أن أول من ركب بشعار السلطنة فى مصر كان السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ولكننا لا نسمع عن الإسراف والمبالغة اللتين اتصفت بهما الحفلات والمواكب الفاطمية والمماليكية .

ومع ذلك فإننا نقرأ عن بعض خلفاء صلاح الدين أنهم أسرفوا أحياناً فى إقامة بعض الأسمطة وإحياء بعض الحفلات . ومن ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الأسمطة الكبرى لأعيان دولته وموظفيها بين حين وآخر[1] . أما السلطان الكامل فقد أقام سماطاً سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير ، وانفق فى ذلك السماط أموالا باهظة[2] . وتكرر ذلك فى عهد السلطان العادل الصغير الذى أقام سماطاً فى الميدان الأسود تحت القلعة ، ذبح لأجله ألف رأس من الغنم فضـلا عن البقر والجاموس والإبل والخيل[3] . ولكن هذا الإسراف لم يكن الطابع الغالب على الدولة الأيوبية ، وبخاصة الشطر الأول من تاريخها .

ويفهم مما ذكره عبد اللطيف البغدادى — الذى زار القاهرة فى العصر الأيوبى — أن المجتمع بلغ درجة كبيرة من الرقى فى ذلك العصر ، فوصف البغدادى حمامات القاهرة ، وقال أنه لم يشاهد فى البلاد التى زارها أتقن منها صنعة وإحكاماً ، لما امتازت به من أرض مكسوة بالرخام الجميل ، وأحواض واسعة يجرى فيها الماء الساخن والبارد ، ومقاصير بأبواب للمستحمين[4] .

كذلك أفاض ابن جبير فى وصف عناية السلطان صلاح الدين بالأغراب الذين يفدون إلى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم ، فأمر

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

(٢) النويرى : نهاية الارب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩

(٣) المرجع السابق ورقة ٦٣ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠

(٤) البغدادى : كتاب الإفادة والاعتبار ص ٢١٣

السلطان « بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم .. » .

أما أبناء السبيل من المغاربة فكانت تصرف لهم جرايات من الخبز وغيره أثناء مرورهم بمصر فى طريقهم إلى الحج[1] .

ولم تكن مدن الصعيد أقل رقياً فى مستواها عن مدن الوجه البحرى والقاهرة، إذ ذكر ابن جبير عن بعض مدن الصعيد — مثل قنا وقفط — أنها كانت ممتازة « حسناً ونظافة بنيان واتقان وصنع » . كذلك امتدح ابن جبير تحشم نساء الصعيد « وصون نساء أهلها والتزامهن البيوت ، فلا تظهر فى زقاق من أزقتها المرأة البتة »[2].

الإدارة ونظم الحكم :

صار صلاح الدين بعد زوال الخلافة الفاطمية ووفاة نور الدين هو سيد البلاد وحاكمها الأوحد .

ومن الثابت تاريخياً أن صلاح الدين لم يتخذ لقب « سلطان » رسمياً ، وإن كان بعض المؤرخين قد أضفوا عليه هذا اللقب الذى تمسك به خلفاؤه من الأيوبيين والمماليك الذين تعاقبوا فى حكم مصر . ولما كان صلاح الدين كثير التغيب عن مصر بسبب اشتغاله بأمر الجهاد فى الشام ، فإنه صار عليه أن يترك شخصاً يعتمد عليه فى حكم مصر وإدارة شئونها أثناء غيابه . لذلك استحدث صلاح الدين وظيفة نائب السلطنة ، وهو الشخص الذى ينوب عن السلطان أثناء غيابه وقد استمرت هذه الوظيفة قائمة بعد ذلك فى عصرى الأيوبيين والمماليك .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٥ — ١٦

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٠

ومن الواضح أن إنشاء وظيفة نائب السلطان فى العصر الأيوبى أضعف من أهمية الوزير . فالوزارة التى كان لها شأن كبير فى العصر الفاطمى، حتى أصبح للخلفاء الفاطميين نوعين من الوزارة ، وزارة تفويض ووزارة تنفيذ، إذا بهذه الوظيفة تنحط فى العصرين الأيوبى والمماليكى بعد أن استحوذ نائب السلطنة على ما كان للوزير من سلطات . وقد أصبح الوزير فى العصر الأيوبى « وزير تنفيذ » لاغير . وإذا كان صلاح الدين قد اعتمد على وزيره القاضى الفاضل ووثق فيه وعهد إليه بكثير من الأمور ، فإننا نسمع أن بعض خلفاء صلاح الدين استغنوا أحياناً عن وظيفة الوزير . من ذلك أن السلطان العادل الأول أو الكبير استوزر الصاحب صفى الدين بن شكر ، ولكنه لم يلبث أن تغير عليه فأقاله من الوزارة وترك المنصب خالياً دون أن يعين فيه وزيراً حتى مات[1] .

وكذلك فعل السلطان الكامل بن العادل ، إذ أعاد ابن شكر إلى الوزارة فلما بغى ابن شكر « وأحدث حوادث كثيرة وحصل مالا جما » عزله الكامل وأحاط بجميع موجوده . . . ولم يستوزر بعد ابن شكر أحد»[2] .

وبالإضافة إلى وظيفة الوزارة وجدت وظائف أخرى سامية فى الدولة الأيوبية ، بعضها يختص بالبلاط والبعض الآخر يختص بالدواوين . فمن وظائف البلاط وظيفة الحاجب الذى يقوم بإدخال الناس على السلطان، ووظيفة الاستادار الذى ينظر فى إدارة البيوت السلطانية ، ووظيفة الدوادار الذى يقوم بإبلاغ الرسائل ورفع القصص إلى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والمناشير السلطانية ، ووظيفة ناظر الخاص المكلف برعاية شئون السلطان المالية . . .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ٣٦٣

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٠٥ ، ٢٢٠

اما عن الدواوين والوظائف الإدارية فقد حدثنا عنها بأسهاب ابن مماتى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ ﻫ (١٢٠٩م) وكان نصرانياً وأسلم ، وتولى نظارة الدواوين المصرية . وقد ألف كتاباً شهيراً اسمه قوانين الدواوين ، يتناول نظام حكومة مصر وقوانينها فى عصر الدولة الأيوبية . ويفهم منه أنه كان بعصر عدد كبير من الدواوين مثل ديوان الإنشا ، وديوان بيت المال، وديوان الجيش . ولكل ديوان من هذه الدواوين ناظر أى رئيس ، وميزانية خاصة، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره . وكان ابن مماتى صاحب كتاب قوانين الدواوين ناظراً لديوان بيت المال فى أوائل العصر الأيوبى[1] .

هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الوظائف بعضها ذو صبغه إدارية مثل والى القاهرة ، والبعض الآخر ذو صبغة دينية مثل قاضى القضاة والمحتسب. وجدير بالذكر أن صلاح الدين كان شافعى المذهب ، ولذا حرص على أن يكون قاضى القضاة شافعياً ؛ وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى أوائل دولة المماليك عندما عين السلطان الظاهر بيبرس قاضياً للقضاة من كل مذهب فأصبح عددهم أربعة يمثلون المذاهب السنية الأربعة .

المالية العامة :

أدى انتقال النظم المالية فى الدولة الأيوبية من الإقتصاد النقدى إلى الإقتصاد الإقطاعى إلى ضعف ثم زوال ديوان المال ، ليحل محله ديوان جديد اختص بالنظر فى جميع شئون المالية من إيرادات ومصروفات ، لذا سمى ديوان النظر[2] .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين — القاهرة ١٩٤٣

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر ، ص ٤٠

أما عن الإيرادات فقد تنوعت مواردها ، ومعظمها كان قديماً وجده صلاح الدين الأيوبى بمصر ، فأبقاه على حاله . ومن الواضح أن المورد الأول لإيرادات الدولة الأيوبية كان الإقطاع الحربى ، وهذا يرتبط بالخراج لأنه كان على المزارع أن يدفع الضريبة السنوية المفروضة على الأرض التى يقوم بفلاحتها ، ليقوم المقطع باستقطاع النسبة المطلوب منه دفعها لخزانة الدولة. وقد أدخل صلاح الدين ما يسمى بالبدل فى جميع الخراج ، بمعنى أن يؤدى الخراج عينا فيدفع الفلاح كميات من الشعير أو الفول أو الحمص بدلا من القمح مثلا ، وحددت نسبة البدل بحيث يؤدى المزارع أردبين شعير بدلا من أردب واحد قمح أو يؤدى أردب ونصف فول بدلا من أردب القمح وهكذا[1] . وارتبط بالمال الخراجى أيضاً الحراج والمعادن . أما الحراج فيقصد به أشجار السنط التى وجدت بكثرة فى بعض أنحاء البلاد مثل البهنسا والأشمونين وأخميم وقوص ، وكانت هذه الغابات تعتبر ملكا للسلطان ويدفع أهالى تلك الجهات رسوماً مقابل انتفاعهم بأخشابها[2]. وأما المعادن فأهمها الذهب والزمرد والنطرون والشب وقد احتكرها السلطان فلا تباع إلا فى المتجر السلطانى بالاسكندرية ولا يجوز لأحد الرعايا المتاجرة فيها[3].

وبالإضافة إلى الخراج وجدت ضرائب أخرى عديدة غذت إيرادات الدولة ، منها الجوالى وهى الضريبة المفروضة على أهل الذمة — أى اليهود والنصارى القادرين على حمل السلاح . وقد بلغ المتحصل من هذه الضريبة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) مائة وثلاثين ألف دينار[4] . ومنها أموال المواريث الحشرية وهم الذين يموتون دون وريث ، ومنها متحصلات ديوان الأحباس

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٤ — ٤٥٥

(٢) النابلسى : لمع القوانين المضيه فى دواوين الديار المصرية ، ص ٤٨

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ٨١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤

(٤) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٧

الخاصة والعامة أى الأوقاف،وهى على أنواع كثيرة مثل الدور والحوانيت والطواحين والأراضى التى وقفها المسلمون فى عصور سابقة . ومنها الأموال الهلالية وهى الإيجارات الشهرية المتحصلة من الجهـــات السكنية الخاصة بالسلاطين الأيوبيين ومن قبلهم من خلفاء الفاطميين ، ومنها متحصل دار الضرب وهى الرسوم التى تجبيها الدولة من أصحاب الأموال الذين يرغبون سك ماالديهم من ذهب أو فضة فى صورة عملة رسمية[1] . هذا كله بالإضافة إلى المكوس وهى الضرائب التجارية . ذلك أن صلاح الدين ألغى معظم المكوس الفاطمية سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) وكان لايزال نائباً عن نور الدين فى مصر ، وبلغ عددها ٨٨ مكسا جملة حصيلتها مائة ألف دينار فى السنة . ثم أعاد صلاح الدين بعضها مثل مكس تجار الكارم وهى الضريبة المفروضة على التوابل الواردة إلى البلاد ، ومكس الخمس وهى الضريبة المفروضة على مايجلبه التجار الأوربيون والمسيحيون من بضائع . . .

أما أبواب المصروفات فكانت عديدة ، تشهد عليها أسماء بعض الدواوين التى اختصت بالمصروفات . ومن هذه الدواوين ديوان الخاص السلطانى ، ويقوم بالإنفاق على شئون الدور السلطانية ، بعد جمع الإيرادات الخاصة بالسلطان، ومن هذا الديوان كان ينفق على المطبخ السلطانى والأسمطة والخيول السلطانية والمواكب السلطانية فى الأعياد وغيرها ، فضلا عن الهدايا والمنح والهبات التى كانت تخرج باسم السلطان . أما ديوان الجيش فكان مركز توزيع الاقطاعات، ومنه يتم الانفاق على الجند وشئون التعبئة والأسلحة والمؤن والحاميات والحصون والتحصينات والمواقع والمدن العسكرية — مثل العادلية والمنصورية والصالحية — أما ديوان الأسطول فكان ينفق على دور الصناعة، وكذلك قام ديوان الأحباس بالانفاق على المؤسسات الخيرية كالخانقاوات والمارستانات والمدارس ونحوها[2] .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٢ — ٣٣٣

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٥٨ وما بعدها

وقد واجهت البلاد فى بداية الدولة الأيوبية ضائقة مالية بسبب هروب الذهب منها نتيجة لعدم استقرار الأوضاع فى أواخر العصر الفاطمى. ولكن صلاح الدين واجه الموقف فى حزم بسك عملة ذهبية جديدة كاملة العيار حازت ثقة المتعاملين[1] على أنه يبدو أن أعباء الحرب الطويلة التى شنها صلاح الدين ضد الصليبيين ألجأته سنة ٥٨٣ ﻫ (١١٨٨م) إلى ضرب درهم نصفه من الفضة ونصفه من النحاس، فضاق الناس بهذه الدراهم الرديئة؛ مما جعل السلطان الكامل يصدر فلوساً نحاسية. وبالجملة فقد ظلت أحوال النقود مضطربة أيام الأيوبيين مما أثر تأثيراً سيئاً فى النشاط الاقتصادى داخل البلاد[2].

الجيش والبحرية :

سبق أن أشرنا إلى أن الدولة الأيوبية جاءت وليدة أحداث الحروب الصليبية، وثمرة مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة. وكانت الدولة الأيوبية هى التى عاصرت أشد مراحل الحروب الصليبية ضراوة وعنفاً، لذلك من الطبيعى أن يكون الاهتمام بالجيش فى أيام تلك الدولة فائقاً لأنه الأداة الكبرى للجهاد. وقد أقيم سنة ٥٦٧ ﻫ (١١٧١ م) — أى فى الوقت الذى كان صلاح الدين نائباً فى مصر عن سيده نور الدين محمود — عرضاً عسكرياً فى القاهرة شهده رسل البيزنطيين والصليبيين، فحضر ذلك العرض ١٤ ألف فارس كل منهم مزود بمتاعه من الخيل ونحوها، ولكل منهم غلام يحمل سلاح الحرب، هذا عدا الجنود المشاة والعربان الملحقين بالجيش[3]. ولما كان الفارس الواحد من الطواشية يتقاضى مرتباً يتراوح بين ٧٠٠ ،

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥ .

(٢) De Bollard: Evolution Monetaire de l'Egypte Medievale, p. 450.

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١ ص ٧٦ .

١٢٠٠ دينار ، فإن معنى هذا أن الاحتفاظ بذلك الجيش من شأنه أن يثقل كاهل صلاح الدين. لذلك لجأ صلاح الدين إلى تعميم نظام الإقطاع الحربى، بمعنى أن ينهض أمراء الأجناد بما يوزع عليهم من اقطاعات بالإنفاق على كتائبهم التى تدخل ضمن الجيش العام زمن الحرب .

ويبدو أن صلاح الدين أعاد تنظيم الجيش الأيوبى عدة مرات ، ففى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) بلغت عدة الجيش الأيوبى فى مصر ٨٢٤٠ فارساً منهم ١١١ أميراً و ٦٩٧٦ فارساً من الطواشية و١١٥٣ قراغلامية أى جندياً عادياً . ووصلت النفقة على هؤلاء ٣٫٦٧٠٫٦٠٠ دينار[١] . على أن الجيش الأيوبى لم يظل على حال واحد من الكثرة العددية والنفقات طوال العصر الأيوبى ، فانخفض ذلك كله بعد انتهاء مرحلة الجهاد الصلاحى ضد الصليبيين وعقد صلح الرملة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، ثم ازداد الجيش وارتفعت نفقاته أيام السلطان الكامل عندما هددت مصر الحملة الصليبية الخامسة .

وبالإضافة إلى الجيش الدائم ، ضم جيش صلاح الدين فرقاً مساعدة من التركمان والأكراد والعرب ، وهؤلاء كانوا بمثابة جند غير نظاميين ، يعملون مقابل ما يتقاضونه من أجور ، وإن كانوا لم يقلوا — فى حالات كثيرة — عن الجند النظاميين حماسة ورغبة فى الجهاد[٢] .

أما عن تنظيم الجيش فكان ينقسم إلى أطلاب ، كل طلب يتكون من عدد يتراوح بين ٧٠ ، ٢٠٠ جندياً . وعلى رأس كل طلب أمير (أى ضابط) وعند المسير إلى القتال توزع الأسلحة والزرد والنفقات على الجند ، على أن يستحضر كل جندى ما يلزمه من كميات المؤن . ويذكر العماد الكاتب أنه عندما خرج مع السلطان صلاح الدين من مصر لمحاربة الصليبيين بالشام سنة

---

(١) المرجع السابق ، السلوك ، ج ١ ص ٧٥ .
(٢) وأبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦

٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) نودى بأن يأخذ العساكر معهم مؤونة تكفيهم عشرة أيام ، حيث أنه كان من غير المتوقع أن يحصلوا على مؤن فى أرض العدو . فأقيم لذلك سوق للعساكر ، وأقبل الجند على شراء ما يلزمهم بعد أن أعطاهم أمراؤهم رواتب الإقامات الإقطاعية المعتادة [١] .

هذا عن الجيش ، أما الأسطول المصرى ، فكان فى حالة سيئة عند قيام الدولة الأيوبية ، بسبب الخلل الذى أصاب جميع أجهزة الدولة فى أواخر العصر الفاطمى من ناحية ، فضلا عن فقدان جزيرتى قبرس وكريت ، وكانتا بمثابة القواعد الأمامية للأساطيل الإسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط وخاصة فى حلبة الصراع بين المسلمين والروم . ثم كان وصول الصليبيين إلى الشام فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد واستيلاؤهم على معظم الموانى الكبرى فى بلاد الشام، فى وقت كانت وحدة النضال تجعل مصر والشام متممين لبعضهما البعض. وقد لمس صلاح الدين بنفسه فى الدور الأول من حياته بمصر ، كيف أدى ضعف الأسطول المصرى إلى تمكين عمورى الأول ملك بيت المقدس من القيام بهجماته الجريئة التى أوصلته إلى قلب البلاد ، فى الوقت الذى اعتمد الصليبيون على القوى البحرية المسيحية فى حوض البحر المتوسط — مثل الدولة البيزنطية والنورمان بصقلية — فى طعن صلاح الدين فى الدور الأول من تاريخه بمصر .

لذلك أخذ صلاح الدين يهتم بالأسطول اهتماما بالغا ، فعهد إلى ديوان الأسطول بالإشراف والإنفاق عليه ، وخصص لذلك الديوان موارد هامة ، منها متحصلات إقليم الفيوم وإيراد ديوان الزكاة فضلا عن حصيلة النطرون [٢] . وقام ديوان الأسطول بالإنفاق على المشتغلين بالأسطول ،

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٧١ .
(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ، ص ٧١ .

فضلا عن النفقة على دور الصناعة — حيث كانت تصنع السفن ، وهى ثلاث فى مصر والاسكندرية ودمياط[1] .

وبفضل هذه الإمكانيات ، غدا الأسطول الصلاحى منذ سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) قوة ضاربة قوامها ثمانون قطعة ، منها ستون من الشوانى وهى المراكب الضخمة المزودة بالأبراج والقلاع التى تحمل الواحدة منها ١٥٠ رجلا وتصلح فى حالات الهجوم والدفاع[2]، وعشرون طرادة وهى سفن سريعة الحركة تحمل الخيل ، ومنفعة المسلمين بها أشهر من أن تذكر[3] ، وقسم صلاح الدين هذا الأسطول إلى قسمين ، الأول يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها حماية شواطىء مصر والدفاع عنها ، والثانى يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها مهاجمة الصليبيين وموانيهم بالشام[4] .

ولم يلبث أن قام هذا الأسطول بواجبه على أتم وجه ، فأقلق بال الصليبيين بالشام ، وهاجم موانيهم الكبرى مثل عكا ، وقطع الطريق على السفن التى تحمل لهم الإمدادات من الغرب . وعنـــدما أقدم أرناط صاحب حصن الكرك الصليبي على إنزال أسطول فى البحر الأحمر — قرب أيله — سنة ٥٧٨ هـ (١١٧٠ م) وشرع فى مهاجمة الموانى المصرية — مثل عيذاب — فى طريقه لغزو الحجاز ، أصدر صلاح الدين أوامره إلى أخيه العادل بمصر فأعد أسطولا قويا فى البحر الأحمر . وكانت السفن تصنع فى دار الصناعة بمصر وتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال إلى شاطىء البحر الأحمر حيث يتم تجميعها وتركيبها . وخرج ذلك الأسطول تحت قيادة الحاجب حسام

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٢) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٣٥٢ .

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢ .

الدين لؤلؤ — متولى الأسطول بديار مصر عندئذ — « فظفر بمراكب الفرنج فخرقها وأسر من فيها »[1] وهكذا أثبت الأسطول المصرى وجوده فى البحرين المتوسط والأحمر. وازداد دور هذا الأسطول بروزا فى الأحداث التى أعقبت موقعة حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ)، إذ قام الأسطول بدور فعال فى مساعدة صلاح الدين فى الإستيلاء على بعض الموانى الهامة بالشام مثل عكا .

على أنه يبدو أن همة خلفاء صلاح الدين فترت عن الإهتمام بالأسطول، فضعف شأنه وأثره . وفى ذلك يقول المقريزى « فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إستمر الحال فى الأسطول قليلا ثم قل الإهتمام به، وصار لا يذكر فى أمره إلا عند الحاجة إليه، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرقات، وقيدوا فى السلاسل نهاراً، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا . ولا يصرف لهم إلا شيء قليل من الخبز ونحوه، وربما أقاموا الأيام بغير شيء كما يفعل بالأسرى من العدو، فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجال، وإذا قيل لرجل فى مصر يا أسطولى غضب غضبا شديداً، بعدما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله ويتبرك الناس بدعائهم[2] !! » .

ولم يكن ذلك إلا فى أواخر الدولة الأيوبية بعد أن دهمت مصر حملتان صليبيتان — الحملة الخامسة سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) والحملة السابعة سنة ١٢٤٩ م (٦٤٦ هـ) عندما أدرك سلاطين بنى أيوب أهمية الأسطول فى حماية البلاد . وظهر ذلك فى الوصية الشهيرة التى كتبها الصالح نجم الدين أيوب لإبنه تورانشاه والتى جاء فيها « فالأسطول أحد جناحى الإسلام ، فينبغى

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٨ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ .

أن يكونوا شباعا ، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبه ، جاءوا من كل فج عميق ... »[1].

الفنون :

واصل التطور الفني تقدمه في العصر الأيوبي ، على الرغم مما أحاط بتلك الدولة من ظروف حربية جعلتها توجه طاقتها الكبرى نحو حماية الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى من الخطر الصليبي. ففي فن العمارة ازدهر في العصر الأيوبي عنصران من عناصر العمارة الإسلامية ، أولهما المدارس التي شيدت لنشر المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي ؛ وثانيهما تطور بناء الأسوار والاستحكامات والقلاع بتأثير ما عرفه المسلمون عند الصليبيين بالشام[2].

وقد سبق أن أشرنا إلى أن صلاح الدين عند بداية دولته في مصر كان يخشى خطرا داخليا من جانب شيعة الفاطميين وخطراً خارجيا من جانب الصليبيين . لذلك أمر صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر (القطائع والعسكر والفسطاط) . ويرجع الفضل إلى البحاثة علي بك بهجت في الكشف عن جزء من هذا السور ، ثم واصل التنقيب بعده الأستاذ حسن الهواري حتى تم كشف جزء من السور يبلغ طوله ٨٤١،٣٠ متراً . وقد أشرف على بناء هذا السور أبو سعيد قراقوش عبد الله الأسدي الملقب ببهاء الدين — وهو مشيد القلعة أيضاً — وكان هذا السور هو ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلى عهد صلاح الدين ، وقد بنى الأول جوهر الصقلي وبنى الثاني بدر الجمالي . وكان هذان السوران الأولان من اللبن ، في حين كان السور الثالث الذي بناه صلاح الدين من الحجارة[3]

---

(١) النويري : نهاية الارب ج ٢٨ ورقة ٩٢

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٨ — ٦٩

(٣) عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، ص ٩٧ وما بعدها

أما قلعة الجبل فتقع على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم ، وهى تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين ، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة ، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج ، وفى وسط الجدار باب القلعة الذى يعرف الآن باسم الباب الجوانى . والجزء الشمالى من القلعة كان الحصن نفسه ، أما الجزء الجنوبى فكان يضم الملحقات والقصور السلطانية وما يتبعها من اسطبلات وغيرها . ويغلب على الظن أن الجزء الشمالى تم تشييده على أيام صلاح الدين نفسه ، فى حين أن الجزء الجنوبى الذى يشمل الملحقات تم على عهد السلطان الكامل الأيوبى[1] . وقد سار العمل فى بناء قلعة الجبل بهمة كبيرة تشهد على مهارة قراقوش وحزمه ، وجلبت أحجار البناء من منطقة أهرام الجيزة . ويقال إنه عمل فى القلعة والسور آلاف من أسرى الصليبيين . وفى الجهة الجنوبية من القلعة نحت قراقوش بئرا فى الصخر أطلق عليه اسم بئر يوسف ، نسبه إلى صلاح الدين يوسف وعرف هذا البئر باسم الحلزون ، ويتألف من طابقين عمق الأول خمسين متراً والآخر أربعين ، ولكل طابق منها ساقية لرفع المياه بواسطة الدواب . وقيل أن ماء البئر كان عذبا فى أول الأمر حتى أراد قراقوش توسيعها فاتصلت بعين مالحة أفسدت ماء البئر ، الأمر الذى جعل القلعة بعد ذلك تعتمد على النيل فى إمدادها بالماء[2] .

وثمة قلاع أخرى بناها صلاح الدين فى مختلف أنحاء البلاد ، أهمها قلعة سيناء قرب عين صدر وقلعة فرعون فى جزيرة فرعون فى خليج العقبة والغرض منهما منع الخطر الصليبى من الإمتداد إلى البحر الأحمر ، وخاصة بعد أن قام أرناط صاحب الكرك بحملته الشهيرة التى استهدفت الحجاز سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ هـ) .

---

(١) نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ص ١٠١ — ١٠٢

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٣٠ — ٣٣٢

هذا عن العمائر الحربية فى العصر الأيوبى ، أما عن العمائر المدنية ، فأهم ما بقى منها اليوم قبة الإمام الشافعى التى أنشأها سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) السلطان الكامل ، وتمتاز بما فيها من نقوش وزخارف ، مع ملاحظة أن كثيرا من الأمراء قام بتجديدها فى العصور التالية . ومن مدارس العصر الأيوبى توجد المدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) وقد تعرضت للخراب على مر العصور ، فلم يبق منها اليوم إلا مدخلها وواجهة غنية بالنقوش والكتابات التاريخية[1] .

أما عن فن الحفر ، فقد احتفظ الحفر على الخشب فى العصر الأيوبى بالأساليب الفنية التى كانت متبعة فى العصر الفاطمى ، غير أن الزخارف النباتية أصبحت أكثر إتقانا ، كما حل خط النسخ محل الخط الكوفى . ومن بدائع أمثلة الحفر على الخشب الأيوبى تابوت الأميرة العادلية بضريح الإمام الشافعى ، فى حين أن تابوت هذا الإمام نفسه يعتبر أعظم المنتجات الخشبية فى العصر الأيوبى[2] . ويتألف غطاء التابوت وجوانبه من حشوات ذات زخارف نباتية دقيقة مجمعة فى أطباق نجمية وأشكال مسدسة . والتابوت غنى بالنقوش المكتوبة بخط النسخ والخط الكوفى، منها نقش باسم النجار الذى صنعه وهو عبيد النجار المعروف بابن معالى ، وتاريخ صناعته وهو سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨ م) . ومن أعظم التحف الخشبية كذلك التابوت الذى نقل من المشهد الحسينى بالقاهرة إلى دار الآثار العربية ، وهو مصنوع من خشب الساج الهندى وتنقسم جوانبه إلى مناطق مستطيلة تحبسها إطارات عليها كتابات بخط النسخ الأيوبى وبالخط الكوفى . وجميع هذه الكتابات عبارة عن آيات من

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ؛ ص ٧٠

(٢) ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ١٢٢

القرآن الكريم . وكذلك يوجد فى دار الآثار العربية ثلاثة جوانب من تابوت خشبي جميل خاص بالأمير حصن بن ثعلب المتوفى سنة ٦١٣ ﻫ (١٢١٦ م) فى حين أن الجانب الرابع من هذا التابوت محفوظ بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن [١] .

أما النحت فى الحجر والجص فقد ظلت الأساليب الفاطمية فيه سائدة فى العصر الأيوبى . ومن أبدع أمثلة الحفر فى الجص فى العصر الأيوبى الجزء الأسفل من المنارة الأيوبية فوق الباب الأخضر بالمشهد الحسينى بالقاهرة [٢] أما النحت فى الحجر فمن أمثلته فى العصر الأيوبى واجهة تربة أبى منصور اسماعيل ، وفيها كتابة بالنسخ على أرضية نباتية وإفريز من زخارف هندسية ونباتية .

أما الحفر على العاج زمن الأيوبيين ، فقد ظلت متبعة فيه أساليب الفاطميين ، وإن كانت الزخرفة اقتصرت على الأشكال النباتية والهندسية . ولم تصلنا أمثلة كثيرة من تحف عاجية ترجع إلى ذلك العصر .

وأما عن صناعة الخزف فقد أخذت تضمحل فى مصر منذ نهاية القرن السادس الهجرى ، وإن كانت قد أزدهرت بعد ذلك فى الشام فى القرنين التاليين . وقد جرى الخزافون المصريون والسوريون فى العصر الأيوبى على استخدام الأشكال الزخرفية والأساليب الفنية التى عرفها العصر الفاطمى ، ويتضح ذلك فى الأوانى المدهونة بطلاء واحد تقليدا للخزف الصينى . هذا فى حين أخذ يختفى الخزف ذى البريق المعدنى من مصر [٣] .

---

(١) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ١٢٣ — ١٢٥ ، فنون الإسلام ص ٤٦٤ .

(٢) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ج ١ ص ٨٥

(٣) ديماند : الفنون الإسلامية ص ٢١٨

وعلى العكس ازدهرت صناعة الزجاج فى العصر الأيوبى ، حتى أن الباحثين يتخذون نهاية القرن الثانى عشر للميلاد بداية العصر الذهبى لهذه الصناعة فى العالم الإسلامى . وبلغت هذه الصناعة أجل صورها فى تزيين التحف بالزخارف المذهبة والمموهة بالمينا . هذا مع ملاحظة أن فضل التقدم بهذه الصناعة فى ذلك العصر إنما يرجع إلى الصناع السوريين — وخاصة فى حلب ودمشق — وإن كانت مصر قد ساهمت بنصيب وافر فى إنتاج الزجاج المطلى ، مثلما ساهمت العراق وإيران[1].

أما عن التحف المعدنية ، فالمعروف أن كثيراً من أرباب هذه الصناعة هاجروا من الموصل إلى مصر والشام فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) . وقد اشتغل هؤلاء الفنانون للأمراء الأيوبيين فى دمشق وحلب والقاهرة ، ونقلوا معهم الأساليب الفنية ، التى ألفوها فى بلاد الجزيرة[2] . ومن القطع المعدنية التى ترجع إلى الأيوبيين بعض أوانى ذات موضوعات زخرفية مسيحية تحمل أسماء بعض سلاطين بنى أيوب ، الأمر الذى يرجع إلى تسامح هؤلاء السلاطين . ويوجد فى متحف اللوفر إناءان من النحاس المكفت بالفضة قوام زخرفتهما رسوم آدمية وحيوانية ونباتية ، وعليهما كتابة تحمل اسم السلطان الملك الناصر يوسف .

أما فى المنسوجات فقد ورث العصر الأيوبى عن العصر الفاطمى أساليب صناعة الأقمشة ذات الزخارف المنسوجة ، وإن كانت أقمشة العصر الأيوبى أكثر بساطة من أقمشة العصر الفاطمى . كذلك يلاحظ أن نسيج الكتان أخذ يضمحل منذ عصر الأيوبيين لتزداد العناية بنسج الحرير ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٨

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥٤٩ — ٥٥٠

وهناك مجموعة مطرزة بألوان متعددة ومصنوعة بخرزة متتابعة وعليها كتابات نسخية وكوفية ، ويمكن إرجاع هذه المجموعة إلى القرن الثانى عشر للميلاد[1] .

* * *

وبعد ، فإنه يتضح من العرض السريع السابق أن عجلة الفن لم تتوقف فى عصر الأيوبيين ، وأن صليل السيوف فى ذلك العصر لم يوقف تيار التقدم الحضارى . وفى الوقت الذى كان بنو أيوب يخوضون أضخم معركة للجهاد دخلها المسلمون منذ قيام دولتهم الكبرى فى القرن السابع الميلاد ، إذا بالمدارس تفتح ، والمكتبات تنشأ ، والحصون والقلاع تبنى ، والصناعات والحرف والفنون تواصل تقدمها فى إقامة أعظم بناء حضارى شهدته العصور الوسطى ، وهو بناء الحضارة الإسلامية .

(١) ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ٣٥٧

الباب الثاني

دولة المماليك

الفصل الاول

قيام دولة المماليك البحرية

رأينا فى الباب السابق كيف انقسمت الدولة الايوبية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين الايوبى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) فصارت مصر ودمشق وحلب والكرك وبصرى وبعلبك وحمص وحماه . . . وغيرها ، مراكز لامارات يحكمها بعض أبناء البيت الايوبى الذين تلقبوا بالملوك . كذلك رأينا كيف دب الشقاق بين ملوك بنى أيوب ، وأدى النزاع إلى قيام حروب فيما بينهم وبين بعض ؛ فضلا عن المنازعات التى ظلت قائمة بين ملوك بنى أيوب من ناحية وأبناء البيوت القديمة التى ظلت تحكم أجزاء من الوطن الإسلامى فى الشرق الادنى من ناحية أخرى ، مثل أبناء البيت الزنكى فى الموصل وسنجار وكيفا وآمد وخرتبرت ، فضلا عن بنى سكمان فى خلاط[1]

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة التى عمت العلاقات بين حكام المسلمين فى الشرق الادنى — وخاصة فى مصر والشام — حرص كل حاكم أو ملك على تكوين عصبية لنفسه يعتمد عليها فى الاحتفاظ بإمارته أو فى صد عدوان جيرانه . ولم يجد أمراء المسلمين فى ذلك العصر — سواء كانوا أيوبيين أو غير

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام : ص٣ .

أيوبيين — وسيلة لتحقيق هدفهم إلا عن طريق الإكثار من شراء المماليك — أو الرقيق الابيض — فاشتروا منهم أعداداً كبيرة وعنوا بتدريبهم وتنشأتهم ليكونوا لهم عدة وسنداً . وهكذا شهدت السنوات الاخيرة من القرن السادس الهجرى والنصف الاول من القرن السابع (القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد) إزدياد نفوذ المماليك فى مختلف الإمارات والدول الإسلامية فى الشرق الادنى ، ومنها مصر . وسرعان ماغدا لاولئك المماليك كلمة مسموعة فى الاحداث والخلافات التى تعرضت لها المنطقة مما يدل على ازدياد سطوتهم . من ذلك ماترويه المراجع من أنه عندما توفى الملك العزيز عثمان سلطان مصر سنة ١١٩٨ م (٥٩٥هـ) وتطلع العادل أخو صلاح الدين للإستيلاء على مصر ، خشى المماليك الاسدية والصالحية فى مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فوراً ، واستدعوا الملك الافضل من حوران وسلموه مقاليد الامور فى مصر فى يناير سنة ١١٩٩ م(٥٩٥هـ)(١) .

ومرة أخرى نسمع أن المماليك هم الذين دبروا مؤامرة لعزل العادل الثانى وإحلال الصالح نجم الدين أيوب محله فى السلطنة سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ)(٢) .

والواقع إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل فى تكوين فرقة جديدة من المماليك قدر لها أن تنهض بدور خطير فى التاريخ ، هى فرقة المماليك البحرية . ويبدو أن الصالح نجم الدين أيوب أحس بفضل المماليك عليه فى الوصول إلى دست السلطنة من ناحية ، كما أحس بحاجته إلى جيش قوى من المماليك يسانده ، بعد أن لمس غدر الطوائف الاخرى من الجند المرتزقة من ناحية أخرى ؛ فدفعه كل ذلك إلى تكوين تلك الفرقة

---

(١) المقريزى : السلوك ح ١ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

الجديدة . وفى ذلك يقول ابن ايبك عن الصالح نجم الدين أيوب أنه « اشترى من المماليك الترك مالم يشتر أحد من المماليك مثله من قبله حتى عاد أكثر جيشه مماليكه ، وذلك لكثرة ماجرب من غدر الاكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش »[1] .

أما عن السبب فى تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة فى بحر النيل مركزاً لهم . وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك ، مجلوبين من بلاد القفجاق — شمالى البحر الأسود — ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين . وقد أجمع المؤرخون على أن الأتراك القفجاق امتازوا عن غيرهم من طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس، فضلا عن الشجاعة النادرة . وبفضل هذه الصفات من جهة ، والظروف الخارجية والداخلية التى أحاطت بمصر فى أواخر العصر الأيوبى من جهة أخرى ، تمكن المماليك من الاستئثار بحكم مصر ، كما سنفصل فيما بعد . ولم يلبث أن توصل البحرية بالذات إلى السلطنة ، وظلوا يحكمون مصر نحو قرن وثلث (٦٤٨ — ٧٨٤هـ = ١٢٥٠ - ١٣٨١ م) استطاعوا فيها مواجهة المشاكل العديدة التى واجهت المسلمين فى مصر والشام عندئذ ، سواء كانت هذه المشاكل خارجية من جانب الصليبيين والمغول ، أو داخلية فى صورة مؤامرات أو أزمات إقتصادية . وعندما دالت دولة المماليك البحرية حلت محلها دولة أخرى من المماليك أيضاً ، هم المماليك الجراكسة أو البرجية (٧٨٤ هـ — ٩٢٢ هـ = ١٣٨٢ — ١٥١٧م) وبذلك تكون مصر قد استمرت تحت حكم سلاطين المماليك أكثر من قرنين ونصف قرن ، أى حتى غزا السلطان سليم العثمانى البلاد .

وسنرى أنه طوال تلك المدة ، ظل المماليك يمثلون ارستقراطية حاكمة

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ورقة ٣٠٠ .

بوصفهم الجهاز الحربى الذى استأثر بحكم البلاد والدفاع عنها . وإذا كان المماليك البحرية الأوائل معظمهم من الأتراك القفجاق ، فإنه ليس معنى ذلك أن جميع المماليك فى مصر والشام طوال ذلك العصر كانوا ينتمون إلى ذلك العنصر وحده . ذلك أنه بدأت تصل إلى مصر منذ عهد بيبرس دفعات من المماليك من أصل مغولى ، وهؤلاء ارتقوا بسرعة فى وظائف الدولة حتى أن السلطان كتبغا نفسه (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ = ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) كان مغولى الأصل . وفى ضوء هذه الظاهرة يمكننا أن نفسر انتشار بعض العادات المغوليه فى مصر على عصر سلاطين المماليك مثل أكل لحوم الخيل فى الحفلات والمناسبات وصناعة بعض أنواع الخمور من لبن الخيل بالذات .

وعندما وجد تجار الرقيق أن سلاطين المماليك وأمراءهم فى مصر يقدرون بضاعتهم ويدفعون فيها الأموال الطائلة ، نشطوا فى جلب المماليك ، وأسهم فى هـــذه التجارة أيضاً بعض التجار الأوربيين — وخاصة المدن الإيطالية — الذين نافسوا التجار الشرقيين فى جلب المماليك إلى مصر . وهكذا نجد أصول المماليك فى مصر وقد أخذت تتنوع تنوعا واضحا منذ القرن الثامن الهجرى أى الرابع عشر الميلادى ، إذ وجد منهم الاتراك والشراكسة والمغول والصقالبة واليونانيين والأسبان والألمان ... وغيرهم . وقد انتسب هؤلاء المماليك غالباً إلى أساتذتهم أى سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار ، وأشرفوا على تربيتهم . فالمماليك الظاهرية بيبرس نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس ، والمماليك الأشرفية خليل نسبة إلى السلطان الأشرف خليل وهكذا . وأحياناً نسب المملوك إلى تاجره الذى جلبه كالمماليك العثمانية ، أو إلى قيمته التى اشترى بها إذا كانت كبيرة تستحق الفخر لما لها من دلالة على عظم المواهب والصفات المتوفرة فى ذلك المملوك ، مثل قلاون الالفى الذى اشترى بألف دينار .

هذه كلمة عامة موجزة عن أصل المماليك الذين حكموا مصر فى فترة من

أهم فترات تاريخها فى العصور الوسطى ، وبقى أن نعرف كيف تمكن هؤلاء المماليك من أن يحلوا محل سادتهم الأيوبيين فى حكم مصر .

مقتل توران شاه وقيام شجر الدر فى الحكم .

الواقع إن انتصار المماليك البحرية على الصليبيين فى المنصورة ثم فى فارسكور (٦٤٧ هـ = ١٢٥٠م) أدى إلى ازدياد قوة شوكتهم لإحساسهم بأنهم أصحاب فضل فى إنقاذ مصر من خطر ضخم . وكان ذلك فى الوقت الذى وصل إلى مصر تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب وصاحب الحق الشرعى فى حكم البلاد ، كما ذكرنا فى الباب السابق . ومن الواضح أن المعظم توران شاه كان سلطانا جديداً يريد أن يحس بسطوته وخطورة منصبه ، ويباشر سلطانه على أوسع نطاق . لذلك وجد توران شاه فى المماليك البحرية حجر عثرة تعترض سلطانه المطلق ، مما ادى إلى سوء العلاقات بين الطرفين من أول الأمر .

وخير ما يوضح لنا رغبة السلطان المعظم توران شاه فى ذلك الدور الأول من حكمه فى الاستئثار بالنفوذ والسلطان ، ما يرويه المقريزى من أنه لم يكد يطمئن إلى هزيمة الصليبيين فى المنصورة وفارسكور حتى « أخذ فى إبعاد رجال الدولة » ، فتخلص من كل من خشى منافستهم له من أبناء بيته ، ومنهم الملك المغيث عمر الأيوبى الذى أخرجه توران شاه من قلعة الجبل إلى الشوبك حيث اعتقل . وكذلك أخرج الملك السعيد فخر الدين حسن الأيوبى من مصر إلى دمشق حيث اعتقل أيضاً . أما كبار موظفى الدولة الذين اعتمد عليهم أبوه — مثل الأمير حسام الدين نائب السلطنة — فقد عزلهم أيضاً وأحل محلهم غيرهم[1] بل إن توران شاه لم يحفظ الجميل

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٨ .

لزوج أبيه شجر الدر ، التى حفظت له عرشه وملكه بعد وفاة أبيه ، فأرسل إليها — وكانت قد خرجت إلى بيت المقدس — يتهددها ويطالبها بمال أبيه. وكان أن تخوفت شجر الدر من نوايا توران شاه « لما بدا منه من الهوج والخفه، فكاتبت المماليك البحرية بما فعلته فى حقه من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة ، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها[1] » .

ولم يكن المماليك فى مصر فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد توران شاه . وتروى المراجع أن الفارس أقطاى الذى أرسلته شجر الدر لاستدعاء توران شاه من حصن كيفا ، كان قد حصل من توران شاه — عقب البشارة — على وعد منه بأن يؤمره ، ولكن توران شاه عاد فتنكر وامتنع عن الوفاء بوعده « فتنكر له اقطاى وكتم الشر ، فحرك كتاب شجر الدر منه ساكنا» ثم إن المماليك اشتد استياؤهم من توران شاه عندما وجدوا أنه احتجب عنهم ، وانصرف إلى الفساد وعبث بهم وبخطايا أبيه . وأخيراً أدرك البحرية سوء ما يضمره لهم توران شاه من سوء عندما رأوه وهو سكران بالليل يجمع الشموع بين يديه ويضرب رؤوسها بالسيف واحدة بعد أخرى حتى تتقطع ويقول « هكذا أفعل بالبحرية» ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه[2].

وهكذا لم يبق أمام البحرية إلا أن يقتلوا توران شاه قبل أن يقتلهم هو ، فاستقر رأيهم على تنفيذ خطتهم عند نزوله فى فارسكور . ولم يكد يمد السماط عقب وصول المعظم توران شاه إلى فارسكور ويجلس السلطان على عادته ، حتى تقدم إليه واحد من البحرية — هو بيبرس البندقدارى — وضربه بالسيف فأطار أصابع يده ، وعندئذ أسرع توران شاه بالفرار

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج٣ ص ١٨٠ ؛ المقريزى : السلوك ج١ ص٣٠٨-٣٠٩.

إلى برج خشبي قد نصب له فى فارسكور ، وهو يصيح « من جرحنى » فقالوا له « الحشيشية » ، ولكنه قال « لا والله إلا البحرية ! والله لا أبقيت منهم بقية » . وهنا رأى البحرية أن يسرعوا فى العمل فقال بعضهم لبعض « تمموه وإلا أبادكم » فبادروه بالهجوم على البرج . ولكن توران شاه احتمى بأعلى البرج وأغلق بابه،والدم يسيل من يده ، فأضرم البحرية النار فى البرج ، حتى اضطر توران شاه إلى الفرار منه وألقى نفسه فى ماء النيل والبحرية تلاحقه بالنشاب ، حتى غرق ، فمات جريحا حريقا غريقا . .[1] .
وبقتل توران شاه ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) انقرضت دولة بنى أيوب من أرض مصر ، بعد أن حكموا البلاد إحدى وثمانين سنة .[2] .

سلطنة شجر الدر :

يبدو أن قتلة تورانشاه وجدوا أن الأمور ليست مهيأة بعد لأن يتولى أحدهم منصب السلطنة ، فأجمعوا على تولية شجر الدر ذلك المنصب . ولا شك فى أن شجر الدر تعتبر من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك ولذلك يعتبرها المقريزى « أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك »[3] وقد أجمع المؤرخون على أن شجر الدر كانت « خيرة دينة رئيسة عظيمة فى النفوس » .

ولكن قيام امرأة فى حكم المسلمين « لم يقع قبلها ولا بعدها » . وقد أحست شجر الدر نفسها بما لوضعها من حرج فكانت لا توقع باسمها على المناشير ، وإنما جعل توقيعها « والدة خليل » . كذلك نقش اسمها على السكة (النقود) فصيغة « المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل » . أما الخطباء فى المساجد ، فكانوا يقولون فى الدعاء لها « واحفظ اللهم الجهة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧١ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح » . ويفهم من هذا كله أن شجر الدر تحرجت — أن تذكر اسمها صراحة فى المناسبات الرسمية ، فضلا عن أنها أرادت أن تضفى على حكمها صبغة شرعية ، فهى حينا تتمسح بالخلافة العباسية وتتمسك بلقب « المستعصمية » إشارة إلى صلتها بالخليفة العباسى المستعصم[1] ، وأحيانا تتمسك بلقب « أم خليل صاحبة الملك الصالح » إشارة إلى صلتها بالبيت الأيوبى والملك الصالح نجم الدين أيوب بوجه خاص .

جلاء الفرنسيين عن دمياط :

وكانت أولى المشاكل التى واجهت السلطانة شجر الدر هى أنها قامت فى السلطنة ، والفرنسيون مازالوا فى البلاد . حقيقة إن لويس التاسع كان أسيراً فى المنصورة ، ولكن دمياط نفسها ظلت قاعدة بحرية فى قبضة الفرنسيين . وما دام الأمر كذلك فإن خطر الصليبيين على مصر بأجمعها مازال باقيا ، لأن الفرصة قائمة أمام الغرب الأوربى لإنزال حملة جديدة فى دمياط . لذلك كان على شجر الدر أن تفكر فى وسيلة لاسترداد دمياط أولا قبل القيام بأية خطوة أخرى فى الداخل أو الخارج .

وكان أن ندبت الأمير حسام الدين محمد لمفاوضة لويس التاسع ، فجرت مفاوضات طويلة[2] . وبعد « محاورات ومراجعات » تم الإتفاق على أن يطلق المسلمون سراح لويس التاسع مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها مقدما ، وأن يجلو الصليبيون عن دمياط . وبعد أن تم الإتفاق أرسل لويس

---

(١) كانت شجر الدرجارية للخليفة المستعصم العباسى قبل أن يشتريها الملك الصالح نجم الدين أيوب. (Lane-Poole : A hist. of Egypt, p. 526)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ورقة ٣٧٣ .

التاسع إلى الصليبيين بدمياط يأمرهم بتسليم المدينة للمسلمين ، ولكنهم تمنعوا كثيراً حتى وافقوا أخيراً على ذلك . وفى الوقت نفسه قامت زوجة لويس — وكانت بدمياط — بجمع نصف الفدية المتفق عليها ، فأفرج عن زوجها . أما بقية الأسرى — وعددهم أكثر من إثنى عشر ألف أسير — فقد ظلوا فى الأسر لحين دفع باقى الفداء المطلوب منه[1] .

موقف بنى أيوب من السلطنة المماليكية :

ذكرنا أن مقتل توران شاه وقيام شجرة الدر فى الحكم يعنيان نهاية حكم الأيوبيين وبداية حكم المماليك فى مصر . وقد جرت العادة أن يكون لسلطان مصر منذ أيام صلاح الدين هيمنة على بقية الملوك والأمراء فى بلاد الشام . ولذلك بادرت شجرة الدر عقب سلطنتها إلى إرسال الخطيب أصيل الدين محمد لاستحلاف أمراء الشام على الولاء للسلطانة الجديدة[2] . ولكن لم يكن منتظراً من أمراء الأيوبيين أن يرتضوا الخضوع لمماليكهم ، لاسيما وأن بنى أيوب ظلوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعى فى حكم مصر والشام بوصفهم سلالة صلاح الدين .

وكان أن بدأت تشتعل نار الثورة فى الشام ضد سلطنة المماليك الوليدة فى مصر ، فأبى ملوك بنى أيوب أن يعترفوا بما تم فى مصر من قيام المماليك فى الحكم وإعلان شجر الدر سلطانة . وكان المعظم توران شاه — وهو فى طريقه من كيفا إلى مصر — قد عين الأمير جمال الدين بن يغمور نائباً للسلطنة فى دمشق ، فامتنع ذلك الأمير عن الحلف لشجر الدر[3] . كذلك وجد بدمشق عندئذ

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٣ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٣ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ .

فئة من المماليك — أطلق عليهم اسم القيمرية[1] ، فامتنعوا أيضاً عن الاعتراف بالولاء للنظام الجديد . وهكذا اختلت أوضاع الشام ، فاستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان على مال مدينة غزة واتجه نحو الصبيبة فملكها[2] ؛ وثار الطواشي بدر الدين اؤاؤ الصالحي — نائب الكرك والشوبك — واتجه إلى الشوبك حيث أخرج الملك المغيث عمر الأيوبي من الحبس ، « وملكه الكرك والشوبك وأعمالها ، وحلف له الناس ، وقام يدبر أمره لصغر سنه »[3] .

ولم يلبث أن أخذ ملوك بنى أيوب يتكتلون بالشام الوقوف فى وجه المماليك فى مصر ، بل لغزو مصر ذاتها واسترداد ملكها للأيوبيين . وكان أن كتب الأمراء القيمرية من دمشق إلى الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب يعرفونه بالامتناع عن الحلف لشجر الدر ، ويطلبون منه الحضور إلى دمشق لتسليمها إليه . وقد استجاب الناصر يوسف لتلك الدعوة وتسلم دمشق فى سهولة ، نخلع على الأمراء القيمرية وعلى جمال الدين بن يغمور[4] .

وأخيراً أدرك المماليك فى مصر أن الأمر ليس بالسهولة التى توقعوها ، وأن موقف الأيوبيين فى الشام يهدد بالقضاء على سلطانهم فى مصر . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ الخليفة العباسى المستعصم بالله يعيب على أهل مصر أنهم اختاروا امرأة لتحكمهم فأرسل إليهم يقول « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلا[5] » . ولمواجهة هذه المشاكل مجتمعة ، وجد أمراء المماليك بمصر أنه من المصلحة أن تتزوج شجر الدر

---

(١) نسبة إلى قلعة قيمر قرب الموصل

(٢) العينى : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ ورقه ٣١٨ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ .

(٤) المقريزى : نهاية الأدب ج ٢٧ ورقه ٩٧ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ص٣٨٦-٣٨٧.

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٧ .

من الأمير عز الدين أيبك — اتابك العسكر — على أن تترك له السلطنة . وكان أن تمت هذه الخطوة (٦٤٨ هـ = يوليو ١٢٥٠م) ، فخلعت شجر الدر نفسها من مملكة مصر ، وتنازلت عن الحكم لايبك ، بعد أن ظلت فى السلطنة ثمانين يوما برهنت فيها على «حسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها»[1]

السلطان المعز أيبك التركمانى :

تولى المعز أيبك السلطنة سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م ليجد نفسه أمام مشاكل كثيرة خطيرة ، أولها تهديد الأيوبيين بغزو مصر ذاتها . وقد لجأ المماليك إلى ألعوبة يتحايلون بها على تخدير بنى أيوب ، فأتوا بطفل صغير من أبناء البيت الأيوبى اسمه الأشرف موسى وعمره ست سنوات ، وأقاموه سلطانا ليكون شريكا للمعز أيبك فى الحكم . وبذلك صارت المراسيم تخرج باسم الملكين الشريكين الأشرف والمعز ، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم فى الشركة لاغير ، وجميع الأمور بيد المعز أيبك »[2] .

غير أن هذه الخديعة لم تجز على الأيوبيين فى الشام ، فجمعوا قواهم بزعامة الناصر يوسف الأيوبى وزحفوا على مصر يريدون حرب المماليك والقضاء عليهم . وكانت القوة الرئيسية من المماليك التى خرجت للقاء الجيش الأيوبى تتألف من البحرية . وفى سنة ٦٤٨ هـ (٢ فبراير سنة ١٢٥١م) دارت موقعة فاصلة بين الطرفين قرب العباسة بالشرقية ، انهزم فيها الأيوبيون وفر الناصر يوسف ورجاله عائدين إلى الشام[3] . ولا شك فى أن هذه الموقعة كان لها أثرها وأهميتها فى تثبيت أركان دولة المماليك الناشئة ، الأمر الذى شجع المعز أيبك بعد ذلك بشهر على إرسال جيش بقيادة فارس الدين

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقه ٣٧٢ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ج٨ ورقه ١٧ .

اقطاى — زعيم البحرية — فاستولى على غزة .

وفى تلك المرحلة كان لويس التاسع زعيم الحملة الصليبية السابعة قد أقام بالشام عقب إطلاق سراحه من دار بن لقمان ؛ وظل يرقب الموقف بين الأيوبيين والمماليك دون أن يجاهر بالانضمام إلى جبهة معينة حتى يرى ماتسفر عنه الأحداث . فلما انجلى الموقف بانتصار المماليك وهزيمة الناصر يوسف ، بادر المماليك بتجديد اتفاقية الصلح مع الصليبيين ليضمنوا عدم تأييد الصليبيين للناصر يوسف والايوبيين • وفى سنة ٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م وافق المماليك فى الاتفاقية الجديدة على أن يطلقوا سراح بقية أسرى الصليبيين فى مصر وعلى إعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقى عليه من الفدية . بل أكثر من هذا تشير بعض المراجع إلى أن المماليك فى مصر وعدوا لويس التاسع بإعطائه بيت المقدس إذا هو أيدهم ضد الايوبيين فى الشام[1].

على أنه لم يقدر للعداء بين المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام أن يستمر ويزداد عنفاً ، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعاً فى الشرق الادنى بأوخم العواقب ، وتطلب منهم أن يتحدوا لمواجهته ؛ هو خطر المغول . وكان الخليفة العباسى فى بغداد أشد إحساساً بخطر المغول ، بحكم تطرف بلاده فى الشرق وقربها من دولة هولاكو فى فارس ، لذلك بادر الخليفة المستعصم بإرسال رسول إلى الناصر يوسف الايوبى صاحب دمشق « يأمره بمصالحه الملك المعز (أيبك) وأن يتفقا على حرب التتار »[2] . ويبدو أن موجة الرعب التى أثارتها أخبار المغول ووحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبان فى سهولة لدعوة الخليفة المستعصم ، فتم الصلح فى أبريل سنة ١٢٥٣م (٦٥١هـ) بين المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام بشرط أن يكون للمماليك مصر حتى

---

(١) العينى : عقد الجمان ج ١٨ ورقة ٣١٤ .
Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 502.
(٢) السبكى : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ .

نهر الاردن وللأيوبيين ماوراء ذلك من بلاد الشام ؛ بمعنى أن تستولى سلطنة المماليك على غزة والقدس ونابلس ، والساحل كله ، فضلا عن مصر[1].

مقتل السلطان المعز أيبك وشجر الدر :

ولم يكن موقف الايوبيين العدائى بالشام هو المشكلة الوحيدة التى واجهت المعز أيبك ، وإنما وجدت مشاكل داخلية أقلقته وهددت سلطانه فى الفترة القصيرة التى تولى الحكم فيها . وأولى هذه المشاكل جاءت من ناحية المماليك البحرية الذين ازداد نفوذهم ازدياداً خطيراً عقب واقعة المنصورة من ناحية ، ثم عقب الانتصار على الناصر يوسف الايوبى عند العباسة من ناحية أخرى . فجميع هذه الانتصارات كان الفضل فيها لقوة المماليك البحرية ، الامر الذى جعلهم يشعرون بنفوذهم وسطوتهم ويتمادون فى غيهم وإفسادهم . ويبدو أن ازدياد نفوذ البحرية فى ذلك الدور لم يهدد نفوذ أيبك فحسب ، بل هدد أمن عامة الناس وسلامتهم . ففى حوادث سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) يقول المقريزى « وفيها كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ، ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الاموال ، وسبوا الحريم وبالغوا فى الفساد حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم »[2] . وقد أدرك أيبك مدى خطورة ازدياد نفوذ البحرية ، فأقطع زعيمهم الفارس أقطاى ثغر الاسكندرية ، ولكن ذلك لم يفلح فى الحد من شرهم « فكثر تمردهم وطغيانهم »[3] . ثم يعود المقريزى فيشير فى حوادث سنة ٦٥١هـ (١٢٥٣م) إلى ازدياد خطر البحرية فيقول « وفيها قويت البحرية — وكبيرهم فارس الدين اقطاى — على المعز وكثر تعنتهم واستطالتهم وتوثبهم على الملك المعز (أيبك) وهموا بقتله[4]» .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٨٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٦.

وعندما أحس أيبك بنية البحرية ، استدرج زعيمهم أقطاى إلى القلعة وقتله ، وعندئذ تجمع تحت أسوار القلعة نحو سبعمائة فارس من البحرية ، فألقى لهم أيبك رأس أقطاى . وعندئذ خاف البحرية على أنفسهم وفروا إلى الشام وعلى رأسهم الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى وسيف الدين قلاون ، حيث دخلوا فى خدمه بنى أيوب بالشام[1] .

أما المشكلة الداخلية الكبرى التى واجهت المعز أيبك والتى أودت به فى نهاية الامر فكان سببها شجر الدر . ذلك أنه يبدو من تاريخ هذه المرأة أنها كانت من ذلك النوع من النساء الذى يميل إلى السيطرة والتحكم وحب السلطان . وقد سبق أن ذاقت شجر الدر طعم السلطان وحكمت مصر حكما انفرادياً مدة ثمانين يوماً ، مما جعل من الصعب عليها بعد ذلك أن تقبل الانزواء محرومة من كل نفوذ وسلطان . ويبدو أن شجر الدر لم تكد تتنازل عن السلطان لزوجها أيبك ، حتى عادت وعز عليها ذلك ، وشعرت بالندم ، فأخذت تفكر فى وسيلة أو أخرى للتخلص من أيبك . ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن شجر الدر سيطرت على زوجها المعز أيبك سيطرة تامة بحيث صار فى جميع أحواله « ليس له معها كلام »[2]. ثم إنها لم تكتف بالاستبداد بأمور المملكة بل منعت أيبك من الاجتماع بأم ابنه على « وألزمته بطلاقها » . وعندما وجدت شجر الدر أن تحقيق نفوذها المطلق يتطلب الخلاص من أيبك نهائياً ، اتصلت بالناصر يوسف الايوبى فى الشام ، وبعثت إليه بهدية « وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز (أيبك) والتزوج به وتمليكه مصر » ولكن الناصر يوسف خشى أن يكون هذا خديعة ، فلم يجبها بشىء[3] .

وكانت أنباء مؤامرات شجر الدر تصل أولا بأول إلى أيبك ، فرأى

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٩٨ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٢ .

أن يحتاط لنفسه ، وعزم على إنزالها من القلعة . وهكذا أمسى الزوجان — أيبك وشجر الدر — يتربص كل منهما للآخر . وجاءت الاشاعات إلى شجر الدر بأن زوجها أيبك يريد الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل « فتخيلت منه أنه ربما عزم على إبعادها أو اعدامها لانه سئم من حجرها واستطالتها ، فعاجلته وعزمت على الفتك به ، وإقامة غيره فى الملك»[1] .

وكان أن نفذت شجر الدر مؤامرتها فى سرعة ، فحرضت جماعة من الخدم على قتله بالحمام ، وأسهمت هى فى تدبير المؤامرة فأخذت « تضربه بالقبقاب وهو يستغيث ويتضرع إليها إلى أن مات » . ولكن مماليك المعز أيبك لم يغفروا لشجر الدر فعلتها فقتلوها بعد قليل ، وبذلك خلا المسرح (سنة ٦٥٥ هـ = ١٢٥٧م) من أيبك وشجر الدر جميعاً[2] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص٣٧٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ج١ ص٤٠٣ — ٤٠٤ ، أبوالمحاسن : النجوم ج٦ص٣٧٦ — ٣٧٧ .

الفصل الثاني

قطز والمغول

سلطنة علي بن أيبك :

أحدث موت أيبك وشجر الدر فراغا ضخما في صفوف المماليك ، حيث أنه فتح الباب على مصراعيه أمام القوى المتنافسة حول الحكم ، وبخاصة من زعماء المماليك . والمعروف أن المماليك لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة في الحكم . وإنما اعتنقوا مبدأ الحكم للأقوى . وكانت التمثيلية التي تتكرر عادة عقب وفاة كل سلطان من سلاطينهم هي أن يسرع الأمراء إلى تنصيب ابن السلطان المتوفى مكان أبيه ، حتى تهدأ الأمور وتستقر الأوضاع ، وعندئذ لا يجد أقوى الأمراء صعوبة في خلع ذلك الإبن وإحلال نفسه محله .

وعندما وجد أمراء المماليك أنفسهم لا يستطيعون الإجماع على أحدهم ليتولى منصب السلطنة ، قر رأيهم على اختيار علي بن أيبك ، فأعلن سلطانا عقب مقتل أبيه وقبل مقتل شجر الدر ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) . وقد لقب السلطان الجديد بالمنصور ، وكان في الخامسة عشرة من عمره فاختير أحد الامراء — وهو سيف الدين قطز — أتابكا له .

ويبدو أن الأمراء البحرية الذين كانوا بالشام أدركوا عندئذ أن فرصتهم قد حانت للعودة إلى مصر ، فاتصلوا بالملك المغيث عمر الايوبي صاحب الكرك وزينوا له غزو مصر . وكان أن استجاب المغيث عمر للبحرية ، وخرجت الحملة قاصدة غزو مصر عن طريق الشرقية ، ولكن قطز استطاع صدهم وأنزل الهزيمة بهم عند الصالحية .[1]

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص٤٠٢ .

وفى الوقت الذى كان السلطان المنصور على يقضى وقته فى اللعب وركوب الحمير بالقلعة ، إذا بالأخبار تصل إلى مصر بأن المغول استولوا على بغداد سنة ١٢٥٨ م (صفر ٦٥٦ هـ) وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسى ، وحرقوا الجوامع والمساجد ، وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات . . . »[1] وبدلا من أن يتدبر الناصر يوسف الأيوبى ذلك الخطر الذى أصبح على أبواب الشام، إذا به يرسل ابنه الملك العزيز إلى هولاكو يطلب مساعدته فى الاستيلاء على مصر من المماليك . وكان أن استجاب هولاكو لتلك الدعوة ، وقرر إرسال قوة من عشرين ألف فارس إلى الشام . وعندما جاءت أخبار تهديد المغول لبلاد الشام عقد مجلس بالقلعة للتشاور فى الأمر ، فوجد الأمير سيف الدين قطز فرصته قد حانت ، فأخذ ينكر على الملك المنصور على بن أيبك سلوكه وقال « لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة ! » ثم انتهز قطز فرصة خروج الأمراء للصيد ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) ، وقبض على المنصور على وأخيه وأمهما ؛ وبذلك انتهى حكم المنصور على ، بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام

سلطنة سيف الدين قطز :

رأينا كيف انتهز قطز فرصة غيبة الأمراء فى الصيد ليعزل المنصور على من السلطنة . فلما عاد الأمراء انكروا عليه عمله ، فخاف غضبهم واعتذر لهم بأنه ما فعل ذلك إلا خوفا من المغول من ناحية والملك الناصر من ناحية أخرى « وأنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك . فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم ! » .

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٠ .

وهكذا أخذ قطز يرضى الأمراء «حتى تمكن» ؛ وعندئذ قبض على زمام الأمور بيد من حديد ، فاعتقل من توهم خطره من الأمراء ، وبدأ يعد العدة لمواجهة الخطر الأكبر الذى هدد الشام ومصر فى ذلك الوقت ، وهو خطر المغول .

ذلك أن المغول لم يلبثوا أن زحفوا من العراق على الشام ، فانتقلوا فى سرعة مذهلة من ديار بكر إلى آمد يريدون حلب . ولم يوفق المسلمون فى الدفاع عن حلب فدخلها المغول وقتلوا ونهبوا وسلبوا « وفعلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم ».(1)

وهنا أفاق الناصر يوسف لحقيقة خطر المغول ، فأرسل إلى قريبه المغيث عمر صاحب الكرك والمظفر قطز صاحب مصر يطلب منهما النجدة السريعة . على أنه يبدو أن كثيرا من الأمراء بالشام خافوا عاقبة مقاومة المغول ونادوا بأنه لا فائدة من تلك المقاومة ، فأخذ الأمير زين الدين الحافظى يعظم من شأن هولاكو وأيد مبدأ الاستسلام له ، ولكن الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى — أحد أمراء المماليك البحرية بالشام — لم يعجبه ذلك القول ، فقام وسبه وضربه ، وقال له « أنتم سبب هلاك المسلمين ! » ولم يرض بيبرس ومن معه من البحرية عن مسلك الناصر يوسف وأمراء الشام ، فساروا إلى غزة ، وأرسل بيبرس إلى السلطان قطز يعرض عليه توحيد جهود المسلمين ضد خطر المغول . وفى الحال استجاب قطز للدعوة ، فأرسل إلى بيبرس يطلب منه القـــدوم ، واستقبله بدار الوزارة وأقطعه قليوب وأعمالها(2).

موقعة عين جالوت :

اضطربت أحوال الشام نتيجة لغزو المغول ؛ إذ لم يمض على استيلاء

---

(1) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٦ .

(2) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٦٤ .

هولاكو على حلب ستة عشر يوما حتى أخذ فى الزحف على دمشق، فدخلها المغول ونهبوها، ثم ساروا إلى بعلبك واتجهت طائفة منهم إلى غزة، وخربوا بانياس «واسعروا البلاد حرباً وملأوها قتلا ونهبا»[1]

ولم يلبث أن وصل إلى قطز بمصر خطاب تهديد من هولاكو، يطلب منه التسليم ويقول له «يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه وسلطه على من حل به غضبه... فاتعظوا بغيركم... فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى...»[2] ولكن قطز لم يجبن أمام ذلك التهديد، فقتل رسل المغول وعلق رؤسهم على باب زويلة، فكانت أول من علق على باب زويلة، من رءوس المغول. ولما وجد قطز أن بعض الأمراء مترددون فى الخروج لحرب المغول صاح فيهم «يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون؟ أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى ركاب المتأخرين!»[3]

وفى الوقت الذى أخذ قطز يعد العدة للقاء المغول، اختار أن يوفد بيبرس على رأس مقدمة الجيش ليتحسس أخبار المغول. وكان المغول قد وصلوا إلى غزة، فلما وصل بيبرس انسحبوا من غزة فاحتلها المماليك. وبعد قليل وصل قطز ومعه بقية الجيش، فزحف المماليك عن طريق الساحل قاصدين بحيرة طبرية. ويبدو أن وصول ذلك الجيش الكبير من المماليك إلى الشام أزعج الصليبيين فى عكا، فخرجوا إلى السلطان قطز وعرضوا عليه المساعدة، ولكنه شكرهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وهددهم

---

(1) المقريزى: السلوك ج 1 ص 426.

(2) القلقشندى: صبح الاعشى ج 8 ص 63.

(3) المقريزى: السلوك ج 1 ص 429.

إذا هم اعتدوا على مؤخرة جيش المسلمين أن يعود إليهم ويقاتلهم قبل أن يقاتل المغول .[1]

وفى تلك الأثناء كان هولاكو قد عاد إلى حاضرة المغول فى آسيا وترك كتبغا نائبا عنه فى الشام . وعندما علم كتبغا بوصول قطز على رأس الجيش المصرى إلى الشام قر رأيه على منازلة المسلمين ، فاتجه صوب عين جالوت قرب بيسان فى فلسطين . وفى موقعه عين جالوت التى دارت بين المسلمين والمغول سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) تفوق المغول فى أول الأمر ، ولكن قطز ثبت فى القتال ، ويقال أنه ألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصاح « وا إسلاماه » ، وحمل على المغول حملة صادقة زعزعتهم بها ، فقتل كتبغا وكثير من رجاله وولى من نجا من المغول الأدبار .

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الشرق الأدنى . ومهما يقال من أن المغول كانوا بوصولهم إلى عين جالوت قد بلغوا نهاية الشوط فى حركتهم ، وأنه كان لابد من أن ينتهى أمر تلك الحركة إلى التوقف عند نقطة معينة ، فالذى يعنينا هو أن موقعة عين جالوت أنقذت مصر والشام من خطر المغول وجعلت دولة مغول فارس تقف عند حدود العراق . وإذا كان المغول قد استمروا بعد ذلك يهددون الشام ، فإن تهديدهم بعد عين جالوت لم يتخذ شكل غزوات كاسحة كما كان الحال من قبل ، وإنما اتخذ صفة إغارات متقطعة تنتهى بالانسحاب السريع عندما تخرج لهم الجيوش الإسلامية من مصر .

أما عن الموقف فى بلاد الشام عقب عين جالوت ، فيتلخص فى قيام السلطان قطز بحركة تطهير سريعة للبلاد ، فاسترد دمشق من المغول ، فى حين قام الأمير بيبرس بمطاردة المغول حتى حلب[2] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٠ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٨١ — ٨٢ .

نهاية قطز :

وفى الفترة القصيرة التى قضاها قطز ببلاد الشام بعد عين جالوت ، تمكن من أن يبسط سيطرة دولة المماليك على الشام ، وأن يعيد الحياة إلى مجراها الطبيعى هناك . وإذا كان قطز قد سمح لبعض أمراء بنى أيوب بأن يعودوا إلى ولاياتهم فى حمص وحماة ، فإن هؤلاء اعترفوا بالتبعية لسلطنة المماليك فى مصر وتعهدوا بدفع الجزية للسلطان قطز والدعاء له على المنابر. أما فى مصر فقد كان لانتصار قطز فى عين جالوت أجمل الوقع ، فدقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزينات بالقاهرة ، وأخذت البلاد تستعد لاستقبال قطز عند عودته . ولكن شاءت الظروف ألا يعود قطز مرة أخرى إلى القاهرة ، وأن يقتل غدراً وهو فى طريق عودته إليها . ذلك أن قطز كان قد وعد بيبرس بإعطائه ولاية حلب تقديراً لجهوده وبلائه فى حرب المغول، ولكن لم يكد يتم طرد المغول من الشام واسترداد حلب حتى تنكر قطز لوعوده وأعطى حلب للأمير علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ[1] . ولاشك فى أن قطز أظهر قصر نظر واضح وعدم مرونة خطيرة بتصرفه هذا ، لأنه نسى أن الأمير ركن الدين بيبرس غدا ذا مكانه كبيرة من الأهمية والقوة بعد أحداث المغول بحيث صار خطراً على سلطان قطز فى مصر . ولو كان قطز على شىء من الحكمة لألقى حلب للأمير بيبرس وألهاه بها عن منافسته فى مصر ، وبذلك يتمكن قطز من مباشرة سلطانه فى مصر دون منافس أو حاقد .

ومهما يكن من أمر فإن قطز بلغه تنكر الأمير بيبرس له وتغيره عليه ، فخافه السلطان وأضمر له السوء . وهكذا « احترس كل منهما من الآخر »

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٧ .

على قول المقريزى[1] ، واتجه الاثنان فى موكب واحد إلى مصر . ويقال إن بيبرس حدث جماعة من الأمراء فى قتل السلطان المظفر قطز فأقروه وأخذوا يترقبون الفرصة المناسبة لتنفيذ مؤامرتهم . وعندما اقترب الجمع من الصالحية انصرف قطز إلى الصيد – صيد الأرانب – فثارت أرنب وجمحت ، وعندئذ نسى قطز أن يحترز على نفسه وتعقب الأرنب حتى ابتعد عن رفاقه . وكان أن استغل المتآمرون الفرصة ، فتبعوا السلطان حتى لم يبق معه غيرهم ، وعندئذ تقدم بيبرس ليطلب من السلطان طلباً فأجابه قطز إلى إلى طلبه[2] . واستطاع بيبرس أن يسبك الحيلة فتظاهر برغبته فى تقبيل يد السلطان اعترافاً بفضله ، ولكن لم يكد قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة ، فى حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى اجهزوا عليه[3] . وعلى هذا الوجه انتهت حياة بطل عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (اكتوبر ١٢٦٠م) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٥ .

(٢) ذكرت بعض المراجع أن بيبرس طلب من السلطان امرأة من سبى التتار فأنعم بها عليه (المقريزى السلوك ج ١ ص ٤٣٥) .

وذكرت مراجع أخرى أن بيبرس شفع عند السلطان فى إنسان فاجابه : أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٨٣ — ٨٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٧ .

الفصل الثالث

بيبرس وتأسيس دولة البحرية

سلطنة بيبرس :

من الأمور المألوفة فى عصر المماليك أن يحل القاتل فى سهولة محل القتيل فى دست السلطنة ، مادام القاتل قد أظهر من الشجاعة والقوة ماضمن له التفوق على زملائه من الأمراء . وفى الوقت الذى كان قطز مازال ملقى على الأرض لم يدفن ولم تجف دماؤه ، تقدم الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب وبايع الأمير بيبرس بالسلطنة ، ثم تبعه بقية الأمراء قرب الصالحية[1] . ويروى المقريزى أن الأمراء الذين قتلوا قطز اتجهوا بعد ذلك إلى الدهليز السلطانى بالصالحية — وأيديهم مخضبة بالدماء — فقابلهم هناك الأمير أقطاى المستعرب وسألهم: «من قتله منكم؟»، فقال بيبرس «أنا قتلته»، فرد عليه أقطاى « ياخوند ! اجلس فى مرتبة السلطنه مكانه ! » . وبعد أن بايع أقطاى وبقية الأمراء بيبرس بالسلطنة قال له أقطاى « لا تتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل» فركب بيبرس وصحبته الأمراء قاصدين القاهرة[2].

وكانت القاهرة قد تزينت لاستقبال الملك المظفر قطز ، والناس فى فرح وسرور بالغ لما حدث من انكسار المغول ونجاة مصر من شرهم ، فإذا بالمنادى يطوف فى شوارع القاهرة يصيح « ترحموا على الملك المظفر ،

---

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٦—٤٣٧ .

وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ! » . ولا يخفى علينا ما أصاب الناس من غم عند سماع الخبر ، لأن بشرى الانتصار على المغول فى عين جالوت جاءتهم مقرونة باسم قطز . هذا إلى أن الناس لم ينسوا عندئذ ظلم البحرية وعسفهم ، فخافوا من عودة دولة المماليك البحرية وسوء ملكتهم وجورهم[1] .

أما بيبرس الذى تلقب أول الأمر بلقب الملك القاهر ، فقد قصد القلعة حيث استقبله نائب السلطنة الأمير عز الدين أيدمر ؛ وكان قد خرج للقاء قطز ولكن بيبرس أعلمه بما حدث فلم يجد نائب السلطنة وغيره من أمراء القلعة غضاضة فى أن يحلفوا للسلطان الجديد (٦٥٨ هـ = اكتوبر ١٦٢٠م). وبعد ذلك أشار الوزير زين الدين بن يعقوب على بيبرس بأن يغير لقب القاهر إلى الظاهر ، لأن اللقب الأول « ما تلقب به أحد فأفلح » : فوافق بيبرس ، وغدا لقبه السلطان الظاهر بيبرس[2] . ولم يكد يستقر بيبرس فى السلطنة حتى أخذ يتقرب من الخاصة والعامة ، فخفف عن الأهالى عبء الضرائب ، وألغى الأموال التى كان قطز قد فرضها واستحدثها بدعوى محاربة المغول ، كما عفا « عمن بالحبوس من أصحاب الجرائم » وأفرج عنهم[3] .

ثم أن بيبرس أرسل « إلى الاقطار » بسلطنته ، ليعترف الحكام التابعين للسلطنة المماليكية بسيادة بيبرس . على أن الأمور لم تتم لبيبرس فى سهولة ، إذا امتنع بعض الأمراء عن الاعتراف لبيبرس بالولاء مما هدد سلطانه فى ذلك الدور الأول من حكمه .

وكان أول هؤلاء الثائرين الأمير علم الدين سنجر الحلبى الذى كان قطز

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٧ .
(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ٢٠٨ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٠٣ .

قد ولاه على دمشق ، فلما علم بمقتل قطز ثار وأعلن نفسه سلطانا ، كما طلب من أصحاب حماه وحمص الدخول فى طاعته ولكنهما امتنعا . ولم يتوان بيبرس فى القضاء على هذه الثورة التى هددت نفوذه فى الشام ، فأرسل حملة بقيادة الأمير علاء الدين البندقدارى ، نجحت فى القبض على الأمير علم الدين سنجر وإحضاره إلى القاهرة ٦٥٩ هـ (يناير ١٢٦١م)[١] .

وقد ولى الظاهر بيبرس علاء الدين البندقدارى على دمشق وكلفه بالقبض على بعض الأمراء الذين تخوف منهم بيبرس . وكان أن فر أحد أولئك الأمراء — وهو شمس الدين آقوش البرلى — إلى حلب واستولى عليها بمساعدة أعوانه ، ثم عزم السير إلى مصر لغزوها . ولكن السلطان الظاهر أرسل حملة قضت على جيش البرلى ، وفر البرلى نفسه حتى قبض عليه بيبرس فيما بعد .

ومع ذلك فإن بيبرس ظل يخشى قيام ثورة فى الشام ، لاسيما من جانب بنى أيوب . ويبدو أن بيبرس كان يخشى بالذات ثورة المغيث عمر الأيوبى صاحب الكرك ، فتحايل بيبرس حتى استحضره لمقابلته فى بيسان وعندئذ قبض عليه رغم الأمان المعطى له واعتقله بالقلعة حتى قتل بعد ذلك[٢] .

ولم تكن جميع الثورات التى واجهت بيبرس فى مستهل حكمه فى بلاد الشام ، وإنما قامت ثورة شيعية فى القاهرة تستهدف إعادة الخلافة الفاطمية ، فاستولى الثوار على ما فى دكاكين السيوفيين من أسلحة ، وشقوا القاهرة وهم يصيحون « يا آل على » . ولكن جند بيبرس أحاطوا بهم وقضوا على

---

(١) المقريزى: السلوك ج١ ص٤٤٤ — ٤٥١ .
(٢) مفضل ابن أبى الفضائل: النهج السديد ص ١٠٧ — ١٠٨ .

حركتهم فى سهولة فهدأت الفتنة بعد قليل(١) .

إحياء الخلافة العباسية :

ويبدو أن هذه الثورات التى اعترضت طريق بيبرس فى بداية حكمه جعلته يشعر بأنه فى حاجة إلى دعامة كبرى يسند إليها سلطانه ؛ بعد أن نظر إليه المعاصرون من زاوية أنه أغتصب منصب السلطنة من قطز قاهر المغول . هذا إلى أنه لايخفى علينا أن المماليك بوجه عام شعروا منذ اللحظة الأولى التى ولوا فيها حكم البلاد أنهم انتزعوا لأنفسهم ملك سادتهم بنى أيوب ؛ بدليل تحايلهم على الموقف بمحاولة إشراك بعض أبناء البيت الأيوبى معهم فى الحكم كما سبق أن رأينا . فإذا أضفنا إلى هذا كله تجريح المعاصرين للمماليك بسبب أصلهم غير الحر ؛ أدركنا فى النهاية السر فى تحمس السلطان الظاهر بيبرس لإحياء الخلافة العباسية فى مصر ليتخذ منها سنداً يسند إليه حكم المماليك .

والواقع إن سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) خلق موقفا غريبا فى العالم الإسلامى لم يعتاده المسلمون منذ وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام . وفى وسط ذلك الفراغ الكبير الذى أحس به المسلمون ، حاول بعض حكام الولايات الإسلامية إحياء الخلافة فى بلده ليكتسب تشريفا عظيما من ناحية ويجعل بلاطه قبلة بقية حكام العالم الإسلامى من ناحية أخرى . ولكن الظاهر بيبرس كان أسرع هؤلاء جميعا إلى اتخاذ تلك الخطوة ، فلم يكد يسمع بوصول أحد أبناء البيت العباسى إلى دمشق ، حتى أرسل يستدعيه فورا مع اتخاذ كافة الاحتياطات لسلامته وراحته .(٢)

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) النويرى : نهاية الارب ج ٢٨ ص ١٨ (مخطوط)

وقد وصل ذلك الأمير العباسى فعلا إلى مصر – وهو أحمد بن الظاهر ابن الناصر العباسى – فاستقبله بيبرس بالحفاوة والإكرام ، ثم عقد السلطان مجلسا بالقلعة دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء ليشهدوا باثبات صحة نسب ذلك الإمام . وبعد أن شهد الشهود بذلك بايع السلطان الظاهر الخليفة الجديد – الذى لقب بالمستنصر بالله – وتبعه القضاة والعلماء وسائر الناس . أما الخليفة فقد قام بتقليد الظاهر بيبرس السلطنة وتم ذلك فى حفل كبير عقد بعد أيام بجهة المطرية ، وبذلك تم لبيبرس ما أراد وأصبح يتولى منصبه بتفويض من السلطة الشرعية الكبرى فى العالم الإسلامى ، وهى الخلافة[1].

ولكن يبدو أن بعض الناس تشككوا فى صحة نسب الخليفة المستنصر بالله ، وذلك على الرغم من الاحتياطات التى قام بها الظاهر بيبرس ، وعلى الرغم من شهادة الشهود . ويبدو هذا التشكك واضحا فى الطريقة التى أشار بها بعض المؤرخين إلى الخليفة الجديد ، وهى طريقة لا تخلو من الغمز الواضح . مثال ذلك ما يقوله المؤرخ أبو الفدا فى حوادث سنة ٦٥٩ هـ « وفى هذه السنة قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر »[2] ويكرر أبو الفدا أسلوبه فى الإشارة إلى الخليفة الجديد فيقول « وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود . . . » . أما مفضل بن أبى الفضائل فقد أطلق على الخليفة الجديد اسم « المستنصر بالله الأسود » .[3] ولعله من الواضح أن هذا الأسلوب ليس الأسلوب الذى تعودناه من المؤرخين المعاصرين فى كلامهم عن الخلافة وشخص الخليفة .

أما السلطان الظاهر بيبرس ، فإنه بعد أن حقق غرضه وحصل على

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥٣ – ٤٥٧ .
(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج٣ ص٢١٣ .
(٣) مفضل ابن ابى الفضائل : النهج السديد ص١٠٥ .

تقليد بالسلطنة من الخلافة العباسية ليضفى على نفسه وعلى ملكه صبغة شرعية ؛ عاد وأحس بأنه أوجد لنفسه شريكا فى الملك . ذلك أن النقود صارت تضرب باسم السلطان والخليفة معا ، كما صار يدعى للخليفة على منابر الجوامع يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان . ولم يغب عن بيبرس أنه إذا حدث صدام بينه وبين الخليفة ، فإن الرأى العام فى العالم الإسلامى سيقف إلى جانب الخلافة بوصفها السلطة الشرعية الأولى فى حكم المسلمين منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . لذلك بدأ بيبرس يفكر بسرعة فى التخلص من الخليفةالمستنصر بعد أن قضى وطره من الخلافة وحصل منها على ما كان يطمع فيهمن تفويض بالسلطنة . وكان أن أدعى بيبرس أنه يرغب فى إعادة الخليفة إلى قاعدة العباسيين فى بغداد ، فخرج معه إلى دمشق ، وهناك ترك بيبرس الخليفة يخترق الصحراء ومعه جماعة من الأعراب والترك قاصدا العراق .[1] ومن الواضح أنه لو كان بيبرس جادا فى استرداد بغداد من المغول وإعادة الخلافة العباسية إلى قاعدتها الأولى؛لمشى بنفسه صحبة الخليفة المستنصر إلى العراق ، ولأعد للأمر عدته وجمع جيشا كبيرا جديرا بمنازلة المغول . ولكن بيبرس — وهو خير من يعرف قوة المغول — ترك الخليفة يذهب لحرب المغول فى بضع عشرات أو مئات من الرجال ، مما أدى إلى مقتل الخليفةومعظم رجاله على أيدى المغول قرب هيت .[2] ولا عبرة هنا بما يردده بعض المؤرخين عن حزن بيبرس على الخليفة وعن أسفه لما أنفقه من أموال على تلك الحملة ؛ إذ يكفى دليل على إهمال بيبرس فى حق الخليفة المستنصر أنه لم يوافقه فى مشروعه لاسترداد بغداد ، وهو المشروع الذى ابتكره بيبرس نفسه ودفع إليه الخليفة الجديد دفعا .

على أن مشكلة الخلافة لم تنته عند ذلك الحد ؛ إذ أحس بيبرس عقب

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج٢٠ ورقة ٤٣٠ .

مقتل الخليفة المستنصر أنه بدأ السير فى طريق فعلا ولا بد له من أن يمضى فى الطريق . وما دام بيبرس قد أخذ على عاتقه مهمة إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة ، فإنه أصبح ملتزما أدبيا أمام الرأى العام الإسلامى — وبخاصة داخل دولته — بالاستمرار فى مشروعه . لذلك لم يجد بيبرس مفرا من استدعاء أمير جديد من بنى العباس — هو الأمير أبو العباس أحمد — وبايعه بالخلافة ، كما حصل على تقليد منه بالسلطنة سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م)(١). وفى تلك المرة حرص بيبرس على الحد من نفوذ الخليفة العباسى الجديد — الذى لقب بالحاكم بأمر الله — بحيث لم يترك له فرصة للظهور وتأكيد نفوذه على حساب السلطنة . كذلك استحضر بيبرس بعض أفراد آخرين من بنى العباس للتلويح بهم فى وجه الخليفة الحاكم إذا حدثته نفسه بالخروج عن النطاق الذى رسمه له السلطان .(٢)

وقد حاكى سلاطين المماليك فى مصر الظاهر بيبرس فى الحد من نفوذ الخلفاء العباسيين فى القاهرة ، فأصبح الوضع طوال العصر المماليكى أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى السلطان ، ويكتب له عنه عهدا بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الحكم ، فى حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد(٣) . وقد عبر المقريزى تعبيرا صادقا عن الخلافة العباسية فى وضعها الجديد بعد إحيائها بالقاهرة ، فقال إن خلافة الخليفة العباسى « ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين ».(٤)

بيبرس والصليبيون:

على أن إحياء الخلافة العباسية بمصر ، وتمتع المماليك بعطفها ، وحصولهم

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨

(٢) النويرى : نهاية الارب ح ٢٨ ص ١٢٩ .

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣٤ ص ٢٧٥ .

(٤) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ٣٩٤.

على تقليد منها بحكم البلاد والعباد ؛ كان لا يكفي وحده لتبرير اغتصاب المماليك حقوق بني أيوب في السلطنة . وقد أحس المماليك من أول الأمر أنهم مجرحون ، وأن الأهالي قالوا عن السلطان أيبك أنه « مملوك وقد مسه الرق » ووصفوا المماليك بأنهم « عبيد خوارج » (١)

ولا يخفى علينا أن المماليك وجدوا سنداً ومبررا لقيامهم في الحكم في نجاحهم في إنزال الهزيمة بلويس التاسع وجيشه في المنصورة ثم في فارسكور؛ الأمر الذي تطلب من سلاطين المماليك جهدا متواصلا في صد الأخطار الكبرى التي هددت المسلمين عندئذ في الشرق الأدنى ، وذلك لتبرير حكمهم وضرورة بقائهم في الحكم أمام رعاياهم . وكان أكبر خطرين يهددان المسلمين في الشرق الأدنى عند قيام دولة المماليك هما الخطر الصليبي وخطر المغول . وفي كلتا الحالتين أبدى بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك بطولة نادرة وشجاعة كبيرة في حماية الشام ومصر من تلك الأخطار .

وتبدو مهارة بيبرس السياسية في أنه حرص أثناء حروبه ضد الصليبيين والمغول على محالفة بعض القوى الخارجية المعادية لكل من الصليبيين والمغول ؛ فحالف الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس وعقد معه حلفا دفاعيا (٦٦٠ هـ = ١٢٦٢ م) لعلمه أن الامبراطورية البيزنطية كانت دائما العدو اللدود للصليبيين بالشام .(٢) كذلك حالف بيبرس مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية عند بحر قزوين وهم الذين اعتنقوا الإسلام واشتدت العداوة بينهم وبين مغول فارس الوثنيين .(٣)

وهكذا دخل بيبرس المعركة ضد خصومه من الصليبيين والمغول وبجانبه

(١) المقريزي : البيان والاعراب ص ٩ ، القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٦٣ ، ج ٤ ص ٦٧ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٢٦٢

Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 266.

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٦٥ .

حلفاء طيبون يشدون أزره ، إن لم يطمع فى مساعدتهم فهو على الأقل يطمئن إلى حيادهم .

أما عن حروب بيبرس ضد الصليبيين فكانت طويلة عنيفة ، امتازت دائما برجحان كفة بيبرس وانتصاره على خصومه . ذلك أنه لم تنقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين ٦٥٩ هـ ، ٦٦٩ هـ (١٢٦١ م ١٢٧١ م) دون أن يوجه بيبرس حملة صغيرة أو كبيرة ضد الصليبيين بالشام . وفى كل مرة كان بيبرس يحرز نصرا على الصليبيين ويستولى منهم على بعض المعاقل والمدن ، وقد يعقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات، ولكنه لا يلبث أن يعاود هجومه عليهم بعد قليل . (١)

وقد بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) عندما هاجمت جيوش بيبرس الناصرة ، كما هاجم بيبرس بنفسه مدينة عكا ولكنه لم يفلح فى الاستيلاء عليها. (٢) على أن الحرب الشاملة التى شنها بيبرس على الصليبيين لم تبدأ إلا فى عام ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) عندما استولى بيبرس على قيسارية ويافا وعثليث وأرسوف . وفى العام التالى استولى بيبرس على صفد ثم على هونين وتبنين ومدينة الرملة (٣) .

ولم يغفر بيبرس لمملكة أرمينية الصغرى فى قيليقيه أو لإمارتى انطاكية وطرابلس تحالفها مع المغول ضد المسلمين؛ فأخذ يمهد سنة ٦٦٥ هـ(١٢٦٦م) للقيام بعمل حربى ضد هذه القوى الصليبية ، وأرسل جيشا تحت قيادة الأمير قلاون استولى على بعض القلاع الواقعة شمالى طرابلس لتحقيق ذلك الغرض . (٤) وفى صيف سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦م) وجه السلطان بيبرس

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 432.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ سنه ٦٦١ ، ٦٦٢ هـ .

(٣) العينى : عقد الجمان سنة ٦٦٤ هـ ،المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٠ .

(٤) Stevenson : The Crusaders, p. 339.

حملة كبرى ضد أرمينية الصغرى أثناء غياب ملكها هيثوم الأول فى زيارة لمغول فارس ، ونجح المماليك فى إنزال هزيمة كبرى بالأرمن قرب دربساك (٢٤ أغسطس) .

وقد دمرت جيوش بيبرس فى تلك الغزوة مدن أرمينية الصغرى وبخاصة أذنه وطرسوس والمصيصة ، كما أشعلوا النار فى عاصمتها سيس ، وقتل أحد أبناء الملك هيثوم الأول فى الحرب فى حين أسر الابن الثانى ؛ وبعد ذلك عاد المماليك إلى الشام محملين بالغنائم ومعهم آلاف الأسرى من الأرمن[1] .

وأخيراً توج بيبرس جهوده ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية فى مايو سنة ١٢٦٨م . وكانت خسارة الصليبيين بسقوط أنطاكية ضخمة ؛ لأنها كانت كبرى إماراتهم بالشام ، وثانى إمارة أسسوها بعد الرها ؛ لذلك جاء سقوطها إيذانا بانهيار البناء الصليبى بالشام ، بحيث لم يبق للصليبيين بعد ذلك من المدن الكبرى سوى عكا وطرابلس .

ثم إن حركة الجهاد التى قام بها بيبرس ضد القوى الصليبية فى الشرق الأدنى لم تقتصر على أرمينية الصغرى والصليبيين بالشام ، وإنما امتدت إلى جزيرة قبرس . وكانت هذه الجزيرة قد حكمتها أسرة صليبية — هى أسرة لوزجنان — منذ أواخر القرن الثانى عشر ، مما مكنها من القيام بدور بارز نشيط فى الحروب الصليبية أواخر العصور الوسطى .

ولم يستطع السلطان الظاهر بيبرس أن يغفر لملك قبرس تهديده لسفن المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط ، أو مساعدته للصليبيين ضد المسلمين

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٠ ؛ المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٥٢.
وسعيد عبد الفتاح عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينيه الصغرى ،
(بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨) .

بالشام ، فأرسل حملة بحرية سنة ٦٦٨ ﻫ (١٢٧٠م) لغزو قبرس[1]. ولكن هذه الحملة أصيبت بالفشل بسبب ريح عاصفة هبت على السفن الاسلامية قرب شاطىء قبرس فتحطم بعضها ، وعاد البعض الآخر دون نتيجة[2].

وهكذا شن بيبرس على الصليبيين حرباً عنيفة لاهوادة فيها ولا رحمة ، فاستولى سنة ٦٦٩ ﻫ (١٢٧١م) على صافيتا وحصن الأكراد وحصن عكا والقرين ، وأخذ يستعد لمهاجمة طرابلس ذاتها ، لولا وصول الأمير ادوارد الانجليزى إلى بلاد الشام ومعه بضع مئات من المحاربين ، مما جعل بيبرس يخشى أن يكون ذلك مقدمة لحملة صليبية كبيرة[3].

وجدير بالذكر أن حرص بيبرس على تقليم أظافر الصليبيين بالشام دفعه إلى القضاء على نفوذ الباطنية الحشيشية . وكانت هذه الطائفة قد قامت بدور خطير فى تاريخ الحروب الصليبية ، وأسهمت بقسط وافر فى انحلال بلاد الشام فى ذلك العصر . ثم أنهم لم يكتفوا باغتيال كثير من زعماء حركة الجهاد من المسلمين ، وإنما حالفوا الصليبيين ودفعوا لهم الأموال رمزاً للتبعية . لذلك سعى بيبرس للقضاء على نفوذ الباطنية فى بلاد الشام قضاء تاماً ، فعزل مقدمهم نجم الدين الشعرانى ، واستولى على حصونهم حصناً بعد آخر حتى استولى عليها جميعاً وأراح البلاد من شرهم[4].

بيبرس ومغول فارس :

وفى الوقت الذى قام بيبرس بمحاربة الصليبيين وانتزاع مدنهم وقلاعهم

---

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ — ٤٨
(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٩ ﻫ .
(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 343.
(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٧ .

بالشام ؛ حارب أيضاً مغول فارس ودفع شرهم عن بلاد الشام ولم يسمح لهم مطلقاً بالتقدم غرباً خارج حدودهم فى العراق .

والملاحظ عند دراسة حروب بيبرس أنه يصعب فى كثير من الحالات الفصل بين حروبه ضد المغول وحروبه ضد الصليبيين . بسبب ما كان هناك من تحالف قوى بين المغول والصليبيين ضد المسلمين فى مصر والشام. لذلك كثيراً ما كان يحدث أن يحارب بيبرس المغول والصليبيين فى وقت واحد، ويخرج لحرب أحد الخصمين فيحارب الآخر .

والواقع أن العداء بين المماليك والمغول لم ينقطع منذ موقعة عين جالوت، إذ ظل مغول فارس يتحينون الفرصة للثأر ، ويغيرون بين حين وآخر على أطراف دولة المماليك الشمالية بالعراق والشام. وإذا كان هولاكو — خان مغول فارس — قد توفى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) فإن ابنه وخليفته أبغا واصل سياسة أبيه العدائية تجاه المسلمين من ناحية وسياسته الودية تجاه الصليبيين فى الشام وأرمينية الصغرى من ناحية أخرى. ولكن بيبرس وقف دائماً بالمرصاد لمغول فارس وحال بينهم وبين ما يشتهون . من ذلك أن بيبرس لم يكد يسمع سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) بإغارة المغول على البيرة — وهى قلعة هامة على الفرات — حتى أرسل حملة سريعة لردهم ، ففر المغول هاربين تاركين خلفهم أموالهم وعددهم[١] .

ومن الواضح أن موجة المغول الكاسحة كانت قد انكسرت حدتها عندئذ ، وأصبح مغول فارس أنفسهم فى حالة من الاجهاد والمشاكل الداخلية لا تمكنهم من القيام بمحاولة كبرى لغزو الشام فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر . لذلك فكر أبغا فى طلب الصلح من بيبرس ، ولجأ

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٩٠ .

فى طلبه إلى مزيج من الترغيب والتهديد ، إذا قال « فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ماتخلصت منا ، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً »[1]. ولكن بيبرس كان يعلم جيداً أن الصلح مع المغول أمر لا يرضى عنه أى مسلم عندئذ ، بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ، وفعلوا بالمسلمين فى العراق ما يتنافى مع قواعد الانسانية والرحمة . لذلك رفض بيبرس طلب أبغا للصلح وأعلن أنه لن يكف عن المغول حتى يسترد جميع البلاد التى اغتصبوها من المسلمين[2] .

ولما يئس أبغا من الصلح أرسل رجاله للإغارة على بلاد الشام سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) فهاجموا الساجور ، ولكنهم ارتدوا خائبين عندما رأوا الجيوش التى أرسلها السلطان لمنازلتهم . ثم عاد المغول مرة أخرى لمهاجمة عين تاب وعمق الحارم سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١م) ، ولكن إغارتهم كانت محدودة الأثر والأهمية . وفى ذلك الوقت حاول الأمير ادوارد الانجليزى أن يستغل المغول فى مهاجمة المسلمين بالشام ، وأرسل فعلا سفارة إلى أبغا لذلك الغرض ولكن أبغا لم يقدم للصليبيين أكثر من بضعة وعود ، بل إنه أرسل بعض الرسل للسلطان بيبرس لتجديد الكلام فى الصلح . وفى تلك المرة أحسن بيبرس استقبال رسل المغول فى دمشق وأرسل معهم بعض الهدايا لأبغا[3] . ومع ذلك فإن بيبرس لم يوافق على مبدأ الصلح مع المغول مما جعلهم يجددون هجماتهم على البيرة ٦٧٠ — ٦٧١ (١٢٧٢ — ١٢٧٣م) .

وعندما وجد بيبرس أن المغول تحالفوا مع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ضده ، أعد حملة كبيرة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٦ م) لغزو سلاجقة

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص ٥٧٤ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج٢٠ ورقه ٥٤٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ج١ ص ٦٠٢ .

الروم . وفى موقعه ابلستين حلت الهزيمة ساحقة بالمغول وحلفائهم السلاجقة ، وفر معين الدين سليمان البرواناه زعيم السلاجقة بعد أن قتل عدد ضخم من من رجاله ومن المغول [1] وبعد ذلك دخل بيبرس قيصرية ودعى له على منابرها وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة ثم قفل راجعا إلى بلاد الشام . ويقال أن أبغا عندما سمع بما فعله بيبرس برجاله فى أبلستين أسرع الى هناك سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧ م) فاشتد حنقه عندما وجد آلاف من رجاله المغول صرعى فى حين لم ير أحدا من السلاجقة ، ولذلك أمر بقتل مائتى الف من المسلمين السلاجقة ، كما قتل البرواناه نفسه . [2] ولم يلبث أن شغل أبغا باضطراب أحوال دولته ، مما صرفه عن القيام بعمل انتقامى ضد دولة المماليك .

أبنـــاء بيـــبرس :

لم يلبث أن توفى الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) بعد أن قام بجهود كبيرة فى تدعيم دولة المماليك والدفاع عنها ضد أعدائها وبخاصة الصليبيين والمغول . والواقع أن السلطان الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ، لأن الفترة الطويلة نسبيا التى قضاها فى الحكم مكنته من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية التى أضفت على دولة المماليك الناشئة قدرا من الهيبة كانت أحوج ما تكون إليها .

ثم إن حروب بيبرس الطويلة ضد المغول والصليبيين لم تصرفه عن تأمين حدود مصر الجنوبية ، فأرسل حملة كبيرة إلى مملكة النوبة المسيحية سنة ١٢٧٦ نجحت فى اخضاعها واجبار ملكها على دفع الجزية [3] هذا بالإضافة

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١١٨ .

(٢) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣، أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٣) مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٢٣٤ — ٢٣٨ .

إلى ما قام به بيبرس من تأكيد نفوذه على بلاد الحجاز ، وما قام به فى مصر من تحصين الثغور والعناية بالأسطول ، وما استحدثه من وظائف ونظم إدارية ، بحيث أنه يمكن القول بأن دولة المماليك اتخذت فى عهد بيبرس طابعها الخاص المميز الذى ظلت عليه حتى أوائل القرن السادس عشر[1] . وكان بيبرس بوصفه أحد المماليك لا يحترم مبدأ الوراثة . ومع ذلك فقد غلبت عليه غريزة الأبوة فأراد أن يتحدى طبيعة المماليك ونظامهم ، وأن يورث العرش لابنه البكر سعيد بركة . وقد ظن بيبرس أن تولية ابنه عهد السلطنة فى حياته وجعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لذلك الابن ، كفيل بأن يجعل الأمور تستتب على الوجه الذى يريده بعد وفاته . وفعلا أقسم الأمراء يمين الطاعة للملك السعيد بركة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) وجعل ابنه نائبا عنه فى مصر أثناء انشغاله بحرب الصليبيين والمغول بعد ذلك . وفى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) أقام بيبرس احتفالا كبيراً قرىء فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء والأمراء[2] ومع ذلك فإن بيبرس لم يطمئن تماما إلى ما سيفعله الأمراء بابنه ، فحرص وهو على فراش الموت أن يوصى الملك السعيد بأن يأخذ حذره من كبار الأمراء « فهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى . فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فأضرب عنقه فى وقته ولا تعتقله ، ولا تستشر أحدا فى هذا ، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك ![3] »

ولم تكد تمضى على وفاة بيبرس فترة قصيرة حتى تحقق ظنه . ذلك أن

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤١ وما بعدها . والظاهر بيبرس : ص ١٢٨ وما بعدها

(٢) المقريزى : السلوك ج١ ص٤٦٨ — ٥١٥ ، النويرى : نهاية الارب ج٢٨ ورقة ١٦٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٤٠

أكابر الامراء تظاهروا فى غمرة الاسى التى صحبت وفاة السلطان باحترامهم للعهد ، ونودى بالملك السعيد بركة سلطانا . ولكن امراء المماليك الذين لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة فى الحكم ظلوا ينظرون الى الملك السعيد « بعين الصبي » وأخذو يسببون له المتاعب فى مصر والشام جميعاً .

وكان أن اتهم الامراء السلطان السعيد بركة بدس السم للأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنه . وهكذا « اضطربت أمور الملك السعيد » وتعاقب بعض الامراء فى نيابة السلطنه ، وكلما تولى واحد منهم ذلك المنصب لجأت بطانة السلطان الى تخويفه منه فيبعده .[1] ويروى المقريزى ان الملك السعيد قرب إليه صغار الامراء ، فنفرت منه قلوب كبار الامراء ، « فإنهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون انهم أحق منه بالملك ، فصار ابنه الملك السعيد يضع من اقدارهم ويقدم عليهم المماليك الاصاغر[2]» .

وفى سنة ٦٧٧ ه (١٢٧٨ م) خرج السلطان بركة الى دمشق ، فظن امراء دمشق أنه يريد بهم سوءا وفروا من وجهه . وعبثا حاول السلطان أن يستميلهم ويسترضيهم ليعودوا ولكنهم قالوا « لا سبيل الى مراجعته وقد انصدعت القلوب وجرت بهذه الخطوب »[3] وعندما علم بركة أن هؤلاء الامراء ينوون السير الى مصر لخلعه ، اسرع بالعودة ، ولم يستطع دخول القلعة الا فى صعوبة بالغة . على أن الامراء أسرعوا الى حصاره بالقلعة ، وشددوا عليه الحصار حتى ساء موقفه واضطر الى التنازل عن السلطنة بحضور الخليفة والقضاة والامراء ٦٧٨ ه (١٢٧٩)[4].

---

(١) المقريزى : ج ١ ص ٦٤٣ — ٦٤٤
(٢) المرجع السابق ص ٦٤٥
(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٦٨
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤ المقريزى: السلوك ج ١ ص ٦٥٥

لم يعد للسلطان بركة المخلوع مقام فى مصر ، فخرج الى الكرك ولما ينقض على قيامه فى منصب السلطنه عامان . وقد عرضت السلطنة عندئذ على أقوى الأمراء — وهو الامير قلاون الالفى - ولكنه كان يدرك أن الأمور لم تنضج بعد نضجا كافيا ، فتظاهر بالزهد وقال « أنا لم أخلع الملك السعيد شرها الى السلطنة وحرصا على المملكة ولكن حفظا للنظام . . . والأولى ألا يخرج الامر من ذرية الملك الظاهر [1] ، وهكذا اختير الابن الثانى لبيبرس - وهو الأمير بدر الدين سلامش - سلطانا ٦٧٨ ﻫ (١٢٧٩ م) فى حين أصبح الأمير قلاون أتابكا للسلطان الجديد — أى وصيا عليه . وبهذه الطريقة حقق قلاون غرضه لأن السلطان كان فى السابعة من عمره ، فاستغل قلاون وصايته للاستئثار بالسلطة والتخلص من المماليك الظاهرية . وعندما اطمأن قلاون تماما الى أن الامور غدت مهيأة لاعتلائه منصب السلطنة أعلن أنه « لا فائدة من بقاء ذلك الصبى الصغير ، لانتشار السمعة فى البلاد ، وامتهان الحرمه فى أنفس الحواضر والبواد ! » .

وهكذا تم عزل بدر الدين سلامش سنة ٦٧٨ ﻫ (١٢٧٩ م) قبل أن يمضى عليه فى السلطنة ثلاثة أشهر ، وحل محله الامير سيف الدين قلاون . [2]

---

(١) المقريزى السلوك ج ١ ص ٦٥٧ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٧٤
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٧ — ٢٨٩ ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤ .

الفصل الرابع

أسرة قلاون

تتمتع أسرة قلاون بأهمية خاصة فى تاريخ المماليك . فمع أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة الملك — كما سبق أن أشرنا — إلا أن بيت قلاون شذ عن هذه القاعدة ، واستطاع أن يحتفظ بمنصب السلطنة فى ذرية المنصور سيف الدين قلاون مدة أربت عن قرن ٦٧٨ — ٧٨٤ ﻫ ، (١٢٧٩ — ١٣٨٢) مما يعتبر مثلا فريداً فى دولة المماليك . هذا إلى أن العصر الذى حكمت فيه أسرة قلاون يمثل عصر الازدهار فى الدولة المماليكية ، إذ ظهرت فى ذلك العصر جميع مميزات تلك الدولة ، واكتملت فيه معالمها مثلما ازدهرت حضارتها ، وذلك بعد أن انتهى الدور التأسيسى الذى نهض به السلطان الظاهر بيبرس ، وبعد أن أثبت المماليك قدرتهم على الحكم وعلى مواجهة الأخطار الكبرى التى هددت مصر والشام فى ذلك العصر . وليس هناك من شك فى أن الفضل يرجع إلى السلطان المنصور قلاون فى إرساء هيبة بيته فى النفوس ، وفى إحاطة اسمه واسم أسرته بهالة من المجد والعظمة ، جعلت المعاصرين يتمسكون بأبنائه وأحفاده من بعده ، ويرون فى بيت قلاون رمزا للقوة والعظمة والاستقرار فى الداخل والأمن فى الخارج .

الأمير سيف الدين قلاون :

وكان الأمير سيف الدين قلاون أحد المماليك البحرية ، اشتراه الأمير علاء الدين أقسنقر — أحد مماليك العادل أبى بكر الأيوبى — بألف دينار ؛ وهو مبلغ ضخم يدل على ما فيه من مواهب ، وغالى فى قيمته لحسنه وصورته

نعرف بالألفى »[1] . ولما مات الأمير علاء الدين ، انتقل قلاون إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فأصبح لقبه « الألفى العلائى الصالحى النجمى أبو الناصر محمد » وسرعان ما أخذ نجم الأمير قلاون يرتقى بسرعة فى الأحداث التى صحبت قيام دولة المماليك ، إذ كان أحد زعماء البحرية البارزين ، فهاجر من مصر فراراً صحبة من فر من المماليك البحرية عقب مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاى فى عهد أيبك ، ثم عاد إليها عندما حركت أحداث المغول المماليك نحو الوحدة . وهكذا حتى كانت سلطنة الظاهر بيبرس فبرز الأمير قلاون فى صورة أقوى أمراء الدولة ، وقويت مكانته عند السلطان بيبرس واعتمد عليه فى كثير من أعماله الحربية والسلمية[2] .

على أنه لا يخفى علينا أن مجتمع المماليك قام إلى حد كبير على أساس الشك والتحاسد ، لأن المماليك اعتبروا أنفسهم زملاء متساوين ، والأمراء اعتقدوا أنه لا فضل لأحدهم على آخر . لذلك يبدو أن قلاون أحس بشعور الغيرة عندما وجد أحد زملائه وهو بيبرس يتولى منصب السلطنة ؛ وإن كان لم يستطع أن يعبر عن ذلك الشعور لقوة بيبرس ودهائه . يدل على ذلك ما يقوله المقريزى من أن كبار الأمراء « كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ويرون أنهم أحق منه بالملك[3] » وفى الوقت نفسه لا بد وأن يكون بيبرس — وهو الرجل الذكى الذى يعرف جيداً روح المماليك — قد أحس بازدياد نفوذ الأمير قلاون وعظم مكانته ، وأن هذا النفوذ وتلك المكانة تهدد مشروعات بيبرس المقبلة بخصوص حفظ منصب السلطنة من بعده لابنه الملك السعيد . لذلك لجأ بيبرس إلى حيلة قوية ظنها تضمن بقاء العرش من بعده لأبنائه ، وهى أنه زوج ابنه الملك السعيد بركة من غازية خاتون

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ورقه ٢٧

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٣٨

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٤٥

ابنة الأمير قلاون سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) وبذلك ظن بيبرس أن قلاون لن يطمع فى انتزاع الملك من زوج إبنته[١] .

ولكن أطماع أمراء المماليك فى الملك كانت أقوى بكثير من روابط المصاهرة ، فلم يكد بيبرس يموت حتى أخذ قلاون يفكر فى الملك ، وإن كان حريصاً على عدم كشف مطامعه . ولم يكن قلاون فى تفكيره هذا غادراً أو مغتصباً أو معتدياً على مالزوج ابنته من حقوق ، وإنما كان — وفق العقلية المماليكية — مطالباً بحق طال السكوت عليه ، ويكفى إنه رضى بالظاهر بيبرس سلطانا وهو زميله ، فلا داعى بعد ذلك للخضوع لأبناء الظاهر وهم فى نظره صبيان صغار .

وكان قلاون على قدر من الذكاء وبعد النظر جعله ينفذ اطماعه بطريقة تدريجية بطيئة . ذلك أنه لم يعترض سبيل الملك السعيد بركة عندما تولى السلطنة بعد أبيه ، وإنما تركه يمضى فى غيه دون أن يحاول اصلاحه أو نصحه . وعندما اشتد حصار الأمراء على السلطان بركة فى القلعة سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) وأرسل الأخير إلى حميه الأمير قلاون يطلب مساعدته ، أرسل الامير قلاون إلى زوج ابنته ينصحه بترك السلطنة[٢] . وكان فى وسع قلاون أن يعتلى العرش بعد عزل الملك السعيد بركة مباشرة ، ولكنه أمعن فى التظاهر بالزهد ، فوافق على أن يتولى الحكم أخو بركة خان وهو الأمير بدر الدين سلامش ابن السلطان الظاهر بيبرس ، فى حين قنع الأمير سيف الدين قلاون بأن يكون أتابكا للسلطان الجديد .

وهكذا أخذ قلاون — وهو أكبر أمراء الدولة وأقواهم — يتصرف فى حكمة بالغة دون أن يستثير حقد بقية الأمراء . ومن الواضح أنه كان

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ١٥٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٧٩

السلطان الفعلى الحاكم للبلاد فى عهد سلامش ، لأن الأخير كان طفلا لم يتجاوز السابعة من عمره ، مما جعل الكلمة الأولى والأخيرة فى شئون الحكم للأتابك سيف الدين قلاون .

وحسب الأمير قلاون فى ذلك الدور أن النقود كانت تسك وعلى أحد وجهيها اسم سلامش وعلى الوجه الآخر اسم قلاون ، كما ذكر اسم قلاون جنبا الى جنب مع اسم العادل سلامش فى خطبة الجمعة .[1]

ولم يضع الأمير قلاون تلك المدة القصيرة التى قضاها فى الوصاية على السلطان الصغير سدى ، وانما أخذ يمكن لنفسه فى مختلف انحاء الدولة ، فقبض على نسبة كبيرة من المماليك الظاهرية - وهم مماليك الظاهر بيبرس المخلصين له ولأبنائه - وعزل كثيراً من الولاة والنواب الذين كان الظاهر بيبرس وابنه السعيد بركة قد عينوهم بالولايات ، وأحل محلهم جماعة من انصاره . كذلك تخلص قلاون من بعض الأمراء المنافسين له أو الذين توهم منافستهم له فى منصب السلطنة ، وأرسل الأمير شمس الدين سنقر إلى دمشق ليكون نائب السلطنة بالشام . أما زملاؤه من المماليك البحرية الصالحية فقد أحسن اليهم وأغدق عليهم الاقطاعات ليستميلهم الى جانبه[2]

وأخيرا أدرك قلاون أن جميع الأمور باتت معدة لتوليه منصب السلطنة ، فدعا الأمراء وتحدث معهم فى صغر سن العادل ، وقال لهم « قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل » ؛ فاستقر الرأى على خلع سلامش وتولية الأمير سيف الدين قلاون منصب السلطنة سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩ م) وهكذا لم يبق سلامش فى السلطنة أكثر من ثلاثة شهور ، وأرسله مع أخيه

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ورقه ٣٧

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٧٤ .

خضر الى قلعة الكرك ؛ منفى أبناء السلاطين المعزولين فى عصر المماليك[1].

سلطنة المنصور قلاون (٦٧٨ - ٦٨٩هـ ، ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) :

أجمع المؤرخون على وصف السلطان المنصور قلاون بأطيب الصفات وأحلاها . فبيبرس الدوادار قال عنه أنه «كان حليما ، عفيفا فى سفك الدماء مقتصداً فى العقاب ، كارها الأذى » [2] وابن فضل الله العمرى وصفه بأنه «كان رجلا مهيباً شجاعاً» . [3] وفى ضوء هذه الصفات الطيبة فسر المؤرخون بقاء الحكم فى بيته مدة طويلة لأن الله اكرمه فى ذريته وجازاه بالحسنى على طيب أفعاله .

ولم يكد قلاون يعتلى العرش حتى أخذ يتقرب إلى الناس بطيب أفعاله. وإذا كان بعض المؤرخين قد أخذ عليه حبه لجمع المال[4] ، فإن الاموال التى جمعها قلاون استغلها فى أقامة كثير من المنشآت الحيوية التى خلدت ذكراه والتى كان أشهرها المدرسة والبيمارستان ، وهى أمور «لم يسبقه إلى ذلك فيها أحد قديما ولا حديثا ، شرقا ولا غربا» . [5] هذا عدا القلاع التى جددها بالشام ، والحروب التى قام بها ضد الصليبيين والمغول مما تطلب مزيداً من المال .

ولم يسلم السلطان المنصور قلاون من الثورات الداخلية التى تعرض لها معظم سلاطين المماليك فى بداية حكمهم ، «فلم يبلع ريقه» - على قول

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٥٨ ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤
Wiet : L'Egypte Arabe, p. 54.

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٥ — ٧٦

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ج ١٦ ورقة ٦٥٠

(٤) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٤

(٥) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٢٧

المؤرخ أبي المحاسن - حتى خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب الشام . ويبدو أن الأمير سنقر عز عليه أن يتولى منصب السلطنة دونه الأمير قلاون ، وهو زميله ، فدعا أهل الشام الى الخروج عن طاعة قلاون . بل إن سنقر نادى بنفسه سلطانا وتلقب بالملك الكامل . ولكن الأمير سنقر لم يجد تأييداً من أهل دمشق ، وفى الوقت نفسه بادر قلاون بأرسال جيش قوى أنزل به الهزيمة سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، وعندئذ فر سنقر شرقا، وحاول أن يتصل بالمغول ويزين لهم غزو بلاد الشام.[١] وفى العام التالى تآمر بعض الامراء الظاهريه - من مماليك الظاهر بيبرس - على السلطان قلاون، واتصلوا بالصليبيين سراً ، فعلم قلاون باسرار المؤامرة وعاقب المتآمرين بالاعدام والسجن . [٢]

ويبدو أن أحساس قلاون بموقف المماليك الظاهريه منه ، جعله يفكر جديا فى إنشاء عصبية من المماليك لنفسه ، يعتمد عليها فى مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية التى تواجهه . لذلك أكثر قلاون من شراء المماليك وأنشأ فرقة جديدة منهم ، رباهم بابراج القلعة ، ولذلك عرفوا بالمماليك البرجيه . [٣]

وبعد أن تخلص السلطان قلاون من الأخطار الداخلية التى واجهته ، بدأ ينصرف نحو المغول والصليبيين الذين مافتئوا يهددون بلاد الشام بين فينة وأخرى . وكان الأمير سنقر الأشقر قد استولى على عدة قلاع بالشام أهمها قلعة صهيون ، ومن هناك أرسل يستنجد بالمغول والصليبيين جميعاً ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٧٦ وما بعدها

(٢) مفضل ابن أبى الفضائل : المنهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ ، النويرى : نهاية الأرب ج ١٩ ورقة ٢٧٨ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٥ ، ابن دقماق الجوهر الثمين ورقة ١١٧

ضد خصمه قلاون [١]. وقد شجعت هذه الأحداث الداخلية فى دولة المماليك المغول ، فأرسل أبغا فى سنة ٦٧٩هـ (سبتمبر سنة ١٢٨٠ م) قوة احتلت بعض القلاع فى شمال الشام، حتى رحل المغول إلى حلب فدخلوها واحرقوا جوامعها ومدارسها، وقتلوا كثيرا من أهلها . على انه يبدو أن غزوة المغول للشام سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، كانت من قبيل الأعمال الاستكشافية ، بدليل أنهم أسرعوا بالعودة الى قواعدهم بالعراق عندما علموا أن السلطان قلاون وصل غزة فعلا فى طريقه اليهم لمنازلتهم [٢] .

على أنه إذا كان المغول قد ارتدوا الى العراق ، إلا أن غزوتهم للشام سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) نبهت قلاون الى الخطر الذى يحيق به نتيجة لتحالف أعدائه الثلاثة ، المغول والصليبيين وسنقر الأشقر . فالمغول هاجموا الشام عندئذ بناء على استغاثة الأمير سنقر ، وفى الوقت نفسه استغل الصليبيون فرصة أغارة المغول وحاولوا استرداد حصن الاكراد سنة ٦٧٩هـ (اكتوبر سنة ١٢٨٠ م) ، وإن كانت محاولتهم هى الأخرى قد باءت بالفشل [٣] لذلك أخذ قلاون يتبع سياسة جديدة تستهدف التفرقة بين خصومه وعدم تمكينهم من الاتحاد ضده ليتمكن من منازلة كل منهم على حدة . ويبدو أن قلاون أراد أن ينزل ضربته الأولى بالمغول ، لأنه بدأ بعقد صلح فى سنة ٦٨٠ هـ (مايو سنة ١٢٨١ م) لمدة عشر سنوات مع القوى الصليبية الرئيسية فى بلاد الشام، وهم الداوية والاسبتارية وبوهيمو ند السابع أمير طرابلس . أما سنقر الأشقر - خصم قلاون العنيد - فقد عفا عنه السلطان فيما بعد سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) وأجزل له العطاء وعينه حاكما

---

(١) ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٩ هـ

(٢) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٩٩ Wiet : L'Egypte Arabe, p. 445.

(٣) **King** : The Knights Hospitallers in the Holy land, p. 282.

على إقليم انطاكية[1] . هذا فى الوقت الذى وقف الصليبيون فى عكا موقف الحياد بين قلاون وخصومه ، بل إن الفضل يرجع اليهم فى تنبيه قلاون الى المؤامرة التى دبرها الظاهرية ضده ، كما سبق أن اشرنا .

وكان أن خرج أبغا بنفسه إلى الشام على رأس جيش كبير من المغول فى سنة ٦٨٠ هـ (سبتمبر سنة ١٢٨١م) . وتحالف مع المغول فى غزوتهم هذه ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى . وفى موقعة حمص التى دارت بين السلطان قلاون والمغول سنة ٦٨٠ هـ (٣٠ أكتوبر سنة ١٢٨١م) ، حلت الهزيمة ساحقة بالمغول وولوا الأدبار إلى العراق بعد أن « هلك منهم خلق كثير »[2] . وما دام السلطان قلاون قد أحرز هذا النصر على المغول ، فإنه رأى أن ينتهز الفرصة لينزل ضربته الثانية بالصليبيين على الرغم من أنه كان قد عقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات لم تنقض منها سوى أربع سنوات فقط . ففى سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥م) هاجم قلاون الاسبتارية فى حصن المرقب — وهو من أخطر الحصون الصليبية بالشام — واستولى عليه فعلا ، مما سبب خسارة كبرى للصليبيين[3] .

وفى الوقت الذى كان المماليك يتأهبون للإجهاز نهائيا على الصليبيين بالشام لم يتنبه الصليبيون إلى حقيقة الخطر الذى يتهددهم ، واستمروا غارقين فى منازعاتهم الداخلية ، وهى المنازعات التى ميزت تاريخ الصليبيين بالشام فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر[4] وقد انتهز السلطان قلاون فرصة إنشغال الصليبيين بتلك المنازعات وأرسل حملة استولت على اللاذقية سنة ٦٨٦هـ

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٠

(٢) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ج ٢ ص ٨٣

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢٨ ، ابو الفدا : المختصر ، حوادث ٦٨٤هـ

(٤) Runciman : History of the Crusades, III, pp. 402-403.

(ابريل سنة ١٢٨٧م)، وهو آخر بلد كان قد تبقى للصليبيين من إمارة انطاكية.
وشاء سوء حظ الصليبيين فى تلك الظروف أن يموت بوهيموند السابع أمير
طرابلس دون وريث ، فقام فى إمارته نزاع داخلى حول وراثة الحكم ،
واستنجد فريق من المتنازعين بالسلطان قلاون[1] .

وهنا أسرع قلاون إلى افتراص الفرصة ، فتجهز لأخذ طرابلس ،
وخرج من مصر على رأس جيشه فى فبراير ١٢٨٩م . وكان جيش قلاون
كبيراً — يزيد عن أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاه — فلم تستطع
طرابلس مقاومة الحصار الذى فرضه عليها السلطان وسقطت فى قبضته سنة
٦٨٨ هـ (أبريل سنة ١٢٨٩)[2] .

ولم يلبث المسلمون أن استولوا على المراكز التى أخلاها الصليبيون
قرب طرابلس — مثل بيروت وجبله — ؛ وبذلك لم يبق للصليبيين من
ملكهم العريض فى بلاد الشام سوى عكا وصيدا وصور وعثليث[3] . ومن
الواضح أن عكا كانت أعظم هذه المدن الصليبية وأمنعها ، وأنها صارت
المركز الجديد لمملكة بيت المقدس الصليبيه بعد استيلاء صلاح الدين على
بيت المقدس ، ومع ذلك فإنه لم يكن فى نية السلطان قلاون مهاجمة عكا
عقب استيلائه على طرابلس مباشرة . ذلك أن قلاون اتجه إلى دمشق ،
حيث وافق على تجديد الهدنة مع الصليبيين لمدة عشر سنوات[4] .

وبينما الصليبيون فى الشام يخطبون ود السلطان قلاون ويسألون الله

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٠ — ٣٢١

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤٦ — ٧٤٧

(٣) Grousset : op. cit., III, p. 145.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٧

أن تبقى لهم البقية الباقية من مدنهم بالشام ، إذا ببعض الجموع الصليبية تفد من إيطاليا سنة ٦٨٩ه (١٢٩٠م) لتفسد الجو بين المسلمين والصليبيين. ذلك أن أولئك الصليبيين الجدد وصلوا عكا وهم يفيضون حماسة، وفى الوقت نفسه ينقصهم النظام والخبرة وضبط النفس ، فاعتدوا على المسلمين خارج أسوار عكا مما أنذر بتجدد الحرب بين المسلمين والصليبيين . ويقال أن السلطان قلاون عندما رأى ملابس ضحايا المسلمين مضرجة بالدماء استشاط غضباً وأقسم على أن ينتقم لهم من الصليبيين . وفى الوقت الذى أخذ قلاون يستعد فى مصر والشام للقيام بعمل حربى كبير ضد عكا ، إذا بالسلطان يموت فجأة سنة ٦٨٩ه (١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠م)[1].

السلطان الأشرف خليل والاستيلاء على عكا :

لم يتعظ السلطان المنصور قلاون بما حدث لأبناء الظاهر بيبرس ، فغلبت عليه غريزة الأبوة وأراد أن يخرق شريعة المماليك فى الحكم فيعهد بالسلطنة من بعده لأبنه الأكبر .

بل إن المنصور قلاون تمادى ، فلم يكتف بما فعله الظاهر بيبرس من تولية ابنه الأكبر عهد السلطنه ، وإنما أراد قلاون أن يقيم ابنه الأكبر علاء الدين على سلطاناً فى حياته . وفعــلا تمت هذه الخطوة سنة ٦٧٩ ه (١٢٨٠م) ، فأقيم حفل بالقلعة قرىء فيه تقليد علاء الدين على بن قلاون بحضور الأمراء والكبراء ، ولقب السلطان الجديد الملك الصالح[2].

ولكن شاءت الظروف أن يموت الملك الصالح على بن قلاون سنة ٦٨٧ه (١٢٨٨م) بعد أن قضى ثمان سنوات سلطاناً فى حياة أبيه . وقد ضاعف

---

(١) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٧٥٤

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ح ٩ ورقة ٨٢ — ٨٥

من حزن قلاون على ابنه علاء الدين أن الابن الثانى للسلطان — وهو خليل — كان مكروهاً من الأمراء ، لما عرف عنه من قسوة وعدم تمسك بقواعد الدين ؛ بل لقد اتهمه البعض بأنه هو الذى دس السم لأخيه علاء الدين[1] ومن الثابت تاريخياً أن ولاية العهد الأمير خليل كتبت فعلا فى حياة أبيه وأن السلطان قلاون لم يوقعها . وسواء كان عدم توقيع كتاب ولاية العهد راجعاً إلى عدم ارتياح قلاون لأن يخلفه ابنه خليل فى حكم المسلمين — كما قال بعض المؤرخين — ، أو إلى انشغال قلاون بأمر الصليبيين حتى دهمه الموت فجأة ؛ فالمهم هو أن السلطان المنصور قلاون توفى دون أن يعتمد ولاية العهد لابنه خليل[2] .

ومهما يكن الأمر ، فإن ما قام به السلطان قلاون فى حياته من إعلان ابنه علاء الدين سلطانا فى حياته بموافقة الأمراء ، وما أعقب ذلك من كتابة ولاية العهد لابنه الثانى خليل بعد وفاة علاء الدين على ؛ كل ذلك جعل خليل لايصادف صعوبة فى المناداة به سلطاناً عقب وفاة أبيه سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠م) ؛ لاسيما وأن الموقف كان يتطلب قيام سلطان جديد بسرعة ليقود الحملة التى كان المنصور قلاون قد أعدها للثأر من الصليبيين فى عكا. وهكذا أقسم الأمراء الايمان للسلطان خليل — الذى لقب بالأشرف — سنة ٦٨٩هـ (١٢٩٠م) وبدأ السلطان الجديد يتأهب للخروج على رأس الحملة إلى الشام .

على أن الأمور لم تتم للسلطان الجديد فى هدوء تام ودون أن يتعرض المنافسة التقليدية التى تعرض لها معظم سلاطين المماليك من جانب كبار

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٩٢ — ٧٩٣

(٢) المرجع السابق ح ١ ص ٦٨٢ ، ٨٥٠ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٢٠ القلقشندى : صبح الأعشى ح ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ ، النويرى نهاية الأرب ح ٢٩ ورقة ٢٩٣ .

الأمراء . وذلك أن الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة عز عليه ألا يفوز هو بالعرش بعد وفاة قلاون ، فدبر مؤامرة للتخلص من الأشرف خليل . وفى الوقت الذى تفاءل الصليبيون فى عكا بسبب ما حدث فى داخل الدولة المماليكية من وفاة السلطان قلاون وتآمر الامير حسام الدين ضد السلطان الجديد الأشرف خليل ، إذا بالسلطان خليل يكشف المؤامرة فى سرعة ، فقبض على حسام الدين طرنطاى وقتله بعد أن صادر أملاكه ، كما أعطى إقطاعه للأمير بدر الدين بيدرا الذى أصبح نائب السلطنة .[1]

وعندما علم الصليبيون فى عكا أن السلطان الأشرف خليل تغلب على الصعاب التى واجهته ، وإنه بصدد الخروج اليهم ، حاولوا ثنيه عن عزمه ، فأرسلوا اليه سفارة « يسألون العفو » ، ولكن السلطان «لم يقبل منهم ما اعتذروا به »[2] وهكذا اجتمعت الجيوش الاسلامية من مصر وبلاد الشام أمام عكا سنة ٦٩٠ هـ (أوائل ابريل سنة ١٢٩١ م) ، فبدأ حصار المدينة ورميها بالمجانيق رميا متواصلا . وقد بذل الصليبيون جهداً مستميتاً فى الدفاع عن عكا ، ولكن جهودهم ذهبت مع الريح ، فاقتحم المسلمون المدينة سنة ٦٩٠ هـ (١٨ مايو سنة ١٢٩١ م) وفر من استطاع الفرار من الصليبيين فى السفن إلى عرض البحر ، حيث غرقت بعض السفن بسبب كثرة من تحمله من الفارين[3] .

ولا شك فى أن استيلاء المسلمين على عكا كان بمثابة الضربة الكبرى الختامية التى نزلت بالصليبيين فى الشام . ولم يصبح للصليبيين بعد ذلك مقام فى تلك البلاد ، فاستولى المسلمون فى سهوله على المراكز القليلة الباقية

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ١٠٧

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٦٢

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦ — ٧ أبو الفدا : المختصر سنه ٦٩٠ هـ .

بأيديهم مثل صور وصيدا وانطرطوس وعثليث . [1] وبذلك كان السلطان الأشرف خليل قلاون هو بطل آخر صفحات الحروب الصليبية بأرض الشام .

على أن نجاح السلطان الأشرف خليل فى طرد آخر البقايا الصليبية من الشام لم يشفع له لدى كبار الأمراء ، الذين ازداد حنقهم عليه لغدره واستخفافه بهم . ويبدو أن نجاح الأشرف خليل فى الاستيلاء على عكا جعله يتمادى فى كبريائه وتعاظمه على الامراء ، حتى ضاقوا به ذرعا وأخذوا يفكرون فى التخلص منه . وقد تزعم حركة التآمر على الأشرف خليل الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة الذى ساءت العلاقة بشكل خطير بينه وبين السلطان . ذلك أن الوزير شمس الدين بن السلعوس أخذ يوغر صدر السلطان ضد بيدرا ، وأوهمه أن أملاك بيدرا ازدادت بشكل يهدد السلطان نفسه ، فلجأ الأشرف خليل إلى استعادة بعض الأملاك التى كان بيدرا قد استولى عليها [2] .

وكان أن أحس الأشرف خليل بتغير بيدرا عليه ، فحاول - بعد فوات الأوان - أن يسترضيه وأرسل إليه مائة ألف دينار ليطيب خاطره بها [3] . ولكن بيدرا كان قد وضع خطته فعلا بالإشتراك مع بعض كبار الأمراء ، مثل حسام الدين لاجين وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين بهادر . وعند خروج الأشرف خليل للصيد سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) تبعه الأمراء المتآمرون . ولم يلبث أن ضربه بيدرا بالسيف ثم تبعه بقية الأمراء حتى أجهزوا عليه [4] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبيه ج ٢ص ١١٨٣ -- ١١٨٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٨٢ — ٧٨٣ .

(٣) مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

(٤) مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٥ — ٤٠٦ المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٩٠ .

السلطان الناصر محمد بن قلاون :

تكررت عقب مقتل الأشرف خليل نفس التمثيلية التى حدثت عقب مقتل السلطان قطز ، إذ اجتمع المتآمرون وقر رأيهم على أن يلى بطل المؤامرة عرش السلطنة . وهكذا حلف الأمراء يمين الولاء للأمير بيدرا وقبلوا له الأرض ولقبوه بالملك الأوحد[1] . ولم يبق بعد ذلك سوى أن يغادر السلطان الجديد وشركاؤه مكان الجريمة عند تروجه بمديرية البحيرة فى طريقهم إلى القاهرة ليحتل بيدرا مكانه فى القلعة . ولكن مماليك السلطان الأشرف خليل — بزعامة زين الدين كتبغا — لم يتركوه يصل إلى القاهرة، إذ ما كادوا يسمعون بمقتل أستاذهم حتى أسرعوا فى تعقب بيدرا وأنزلوا به الهزيمة فى البحيرة ، بل قتلوا بيدرا نفسه . وهكذا خلا المسرح من الأشرف خليل وبدر الدين بيدرا جميعاً ، وظهر بطل جديد هو الأمير زين الدين كتبغا ، الذى سار صحبة رجاله إلى القاهرة لينادى بنفسه سلطاناً فى القلعة . ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى — الذى كان السلطان الأشرف خليل قد أنابه عنه فى قلعة الجبل قبل خروجه للصيد — حال بين كتبغا وبين دخول القاهرة ، حتى انتهت المفاوضات بين الطرفين باختيار الملك الناصر محمد ابن قلاون سلطاناً[2] .

ومن الواضح أن الناصر محمد بن قلاون كان طفلا صغيراً لم يتجاوز عمره عندما ولى سلطاناً لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣م) تسع سنوات ، فلم يكن اختيار الأمراء له ناجما عن احترام شخصيته أو رغبة منهم فى احترام أحقيته فى الحكم بوصفه ابن السلطان المنصور قلاون . وإنما اختاره الأمراء

---

(١) وقيل الملك الأمجد ، وقيل الملك القاهر ، وقيل الملك الرحيم . (أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٣٠ ، ابن آياس بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٣٣٩ تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٣٨) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٤١ ، مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٧٥ .

وفقاً لسياستهم التقليدية حسماً للموقف بينهم، إلى أن تظهر شخصية قوية بين صفوفهم تستطيع الإطاحة بذلك الطفل وتولى الحكم . وفعلا قضى الناصر محمد سنة فى الحكم كان شبه محجور عليه بالقلعة ، فى حين استبد بأمور الدولة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، ثم الأمير كتبغا المنصورى . ذلك أن كتبغا عندما أدرك ازدياد نفوذ الشجاعى بدرجة تهدده ، صمد له وقاتله حتى تخلص منه بالقتل[1] .

وقد لجأ كتبغا إلى العفـــو عن بعض الأمراء الذين اشتركوا فى قتل الأشرف خليل — مثل الأمير حسام الدين لاجين والأمير قراسنقر — فأثار ذلك المماليك الأشرفية . وكان أن اتخذ حسام الدين لاجين تلك الثورة ذريعة ليزين للأمير كتبغا عزل الناصر محمد وإعلان نفسه سلطانا بدله ، « فمتى كبر الناصر محمد لا يبقيك البته . . . والمصلحة خلعه وسلطنتك »[2] .

وهكذا جمع الأمير كتبغا الأمراء ، وتشدق بنفس الأسطورة القديمة التى سبق أن رددها قطز وقلاون ، فقال لهم « لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك فى حق الرعية ؛ ومن الرأى ان نولى سلطاناً كبيراً يقمع المماليك عن هذه الأفعال ! »[3] . وهكذا عزل الناصر محمد الصغير من السلطنة سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) وحل محله كتبغا .

السلطان العادل كتبغا :

أما السلطان العادل كتبغا الذى تولى السلطنة سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤ م) فـكان مغولى الأصل ، ويقال أنه من أسرى موقعة حمص . على أن الناس

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٩٧ — ٨٠١ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٤٨ — ٤٩ .
(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٢ .

تشاءموا من كتبغا وحكمه لأنه جاء مصحوباً بانخفاض النيل واشتداد المجاعة وارتفاع الأسعار وانتشار الوباء[1].

ويروى المقريزى أن جميع الناس بالقاهرة ترددت على ألسنتهم عبارة واحدة يوم ركوب كتبغا بشعار السلطنة هى « يانهار الشوم ! إن هذا النهار نحس ! »[2] . وزاد من كراهية الناس لكتبغا وحكمه أنه وفد على مصر فى عهده جماعة من بنى جنسه من المغول ، عرفوا باسم العويراتيه أو الأويراتيه — فرحب بهم كتبغا وبالغ فى إكرامهم رغم أن معظمهم كانوا وثنيين. وكانت أعدادهم كبيرة — إذ قاربوا العشرة آلاف — فأدى ترحيب كتبغا بهم إلى استثارة شعور الأهالى وإلى نقمتهم على السلطان[3].

وعلى الرغم من أن السلطان كتبغا عفا عن الأمير حسام الدين لاجين الذى شارك فى قتل الأشرف خليل ، كما عين ذلك الأمير نائباً للسلطنة ، إلا أن لاجين لم يلبث أن طمع فى السلطنة مستغلا عوامل الكراهية التى أخذت تتجمع ضد كتبغا . ويردد بعض المؤرخين أن أمراء الشام غضبوا على كتبغا لأنه عزل الأمير عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنه بالشام وولى أحد مماليكه بدله ، فضلا عن أن كتبغا عندما زار دمشق لأول مرة بعد سلطنته سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) لم يوزع على الأمراء ماجرت به عادة السلاطين السابقين من منح أو انعامات[4].

وكان أن دبر لاجين مؤامرة مع الأمراء لقتل كتبغا أثناء عودته من الشام إلى مصر ، واختير موضع قرب طبريه لتنفيذ المؤامرة . غير أن

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨١٣ — ٨١٤

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٨٠٧

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٣

(٤) مفضل ابن ابى الفضائل : النهج السديد ص ٥٩٢-٥٩٤

كتبغا تمكن من الفرار، وعاد إلى دمشق، فى حين أعلن حسام الدين لاجين نفسه سلطانا وبايعه الامـــراء، وأتى إلى القلعة حيث تلقب بالسلطان المنصور[1] .

السلطان المنصور لاجين :

تولى السلطان المنصور حسام الدين لاجين منصب السلطنة سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) ، فى حين وجد كتبغا نفسه مغلوباً على أمره فقبل ماعرضه عليه لاجين من التنازل عن الحكم والإقامة فى مدينة صرخد من أعمال دمشق[2] .

على أن كتبغا لم يكن العقبة الوحيدة أمام السلطان لاجين وإنما كان الناصر محمد بن قلاون مازال يقيم فى القلعة على مقربة من أهل القاهرة الذين نظروا إليه دائما على أنه صاحب حق شرعى فى السلطنة . لذلك تحايل السلطان لاجين على إبعاد الناصر محمد إلى قلعة الكرك سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦)، بعد أن أوهمه أنه سيعيده إلى عرشه عندما يبلغ سن الرشد ، وإنه يقوم بالوصاية على الملك بدله لصغر سنه[3] .

وكان الأمراء قد اشترطوا على لاجين عند مبايعته سلطانا — ألا يحابى مماليكه على حسابهم — كما فعل كتبغا — وألا ينفرد برأى « وألا تخول مملوكك منكوتمر فى التحكم والتدبير فتصل » وعندئذ تعهد لهم لاجين بكل ذلك وقال لهم « أنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم ، ولست موليا عليكم من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٢٢-٨٢٣

(٢) وقد ظل كتبغا مقيما فى صرخد حتى أنعم عليه الناصر محمد — فى سلطنته الثانية — بحماه وأعمالها فظل بها إلى أن توفى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٧ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥

مماليكي أحدا »[1] . ولكن سرعان مانسي لاجين وعوده بعد أن استتبت له الأمور، فعزل شمس الدين قراسنقر الذى كان قد عينه أولا نائبا للسلطنة، وعين بدله في منصبه مملوكه منكوتمر ، مما جاء بداية المتاعب التي واجهت السلطان لاجين . ذلك أن منكوتمر لم يلبث ان أستثار الأمراء بتضييقه عليهم وتشككه فيهم واقصائهم عن مناصب الدولة وإحلال غيرهم من مماليك لاجين محلهم . بل إن منكوتمر تسلط على السلطان تسلطا غريبا «فاستحوذ على عقل مخدومه وأستولى عليه وحجبه عن الخاصة والعامة». ويبدو أن منكوتمر أعد نفسه لأن يخلف لاجين في منصب السلطنة ، لاسيما وأن الأخير لم يكن له ولد يحرص على أن يوليه عهد السلطنة ، الامر الذى أثار حنق الامراء وجعلهم يفكرون في التخلص من لاجين ومنكوتمر جميعا[2]. ولم يلبث أن انتهى الأمر بقتل لاجين وهو جالس بالقلعة يلعب الشطرنج سنة ٦٩٨هـ(١٢٩٨م) ثم قتل منكوتمر بعده بقليل[3] .

عودة السلطان الناصر إلى العرش ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) :

لم يوجد بين امراء المماليك — عقب مقتل لاجين ومنكوتمر — شخصية كبرى تستطيع أن تسيطر على الموقف وتستأثر بالسلطنه ، فاضطر الامراء وسط ذلك الفراغ إلى التفكير في الناصر محمد بن قلاون الذى كان يقضى أيامه في الكرك، والذى ظل دائما يبدو في صورة صاحب الحق الشرعي في السلطنة. وكان أن استحضر الناصر محمد إلى مصر ليتولى منصب السلطنة للمرة الثانية (٦٩٨ — ٧٠٨هـ = ١٢٩٨ — ١٣٠٨م) فاستقبل استقبالا حماسيا رائعا من

---

(١) بيبرس الدوادار : زبده الفكرة ج ٩ ورقه ١٧٢ ، مفضل ابن أبى الفضائل: النهج السديد ص ٥٩٦ .

(٢) النويرى : نهاية الارب ج٢٩ ورقه ٣١٩ ، ابو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ورقه ٦٧

(٣) مفضل بن أبى الفضائل: النهج السديد ص ٦٠١، ابن اياس: بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨

المماليك وعامة الناس سواء ، وتفاءل الناس بمقدمه وأقاموا الزينات فى طريقه حتى صعد إلى القلعة . وهناك فى القلعة جددت له البيعة ، وأخذ يباشر سلطانه ، نعين الأمير سيف الدين سلار نائبا للسلطنة والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا ، كما فرق الخلع على أعيان الدولة ووزع على مماليك أبيه العطايا والهدايا[1] .

وكان أهم ما تعرضت له دولة المماليك فى ذلك الدور هو تجدد هجمات المغول على بلاد الشام ، إذ اوغلت جيوش غازان فى بلاد الشام سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) حتى انزلت الهزيمة بالمماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماه . ويبدو أن مقاومة المماليك فى الشام أنهارت بعد هذه الهزيمة فدخل غازان دمشق وعاث جنوده فيها فسادا . على أن غازان أكتفى بذلك وعاد إلى بلاده بعد أن عين نائباً عنه فى دمشق . وكان ذلك فى الوقت الذى خرج جيش كبير من المماليك على رأسه السلطان الناصر محمد قاصدا الشام سنه ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) وقد استطاع المماليك دخول دمشق ولم يعبئوا بطلب غازان مهادنتهم[2]، الأمر الذى استثار غازان فخرج من بلاده سنه ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) قاصدا غزو الشام من جديد . وفى موقعة مرج الصفر التى دارت قرب دمشق فى تلك السنة حلت الهزيمة قاسية بالمغول ، الأمر الذى جعل الناس يفرحون بالناصر محمد رغم صغر سنه ويستقبلونه استقبالا حافلا فى دمشق والقاهرة[3].

غير أنه لا يخفى علينا أن الناصر محمد تولى منصب السلطنة تلك المرة الثانية وهو لا يزال صغيرا، ولذلك فإنه كان لا يستطيع بأى حال الوقوف فى وجه كبار أمراء المماليك الذين اشتدت ضراوتهم ومرنوا التلاعب بكبار السلاطين

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٨ ص ١١٥ - ١١٦

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج٢٩ ورقة ٣٢١ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج٩ ص ٢٢٦ - ٢٣٠

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٢٨ .

فما بالنا بسلطان طفل كان لا يزال فى الرابعة عشر من عمره . لذلك كانت سلطنة الناصر محمد الثانية اسمية ، بعد أن ضيق الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير الخناق عليه ، وحالا بينه وبين الاتصال بالناس أو التصرف فى أمواله[1] بل لقد بلغ الأمر بالسلطان الناصر محمد عندئذ أنه كان يشتهى نوعا معينا من الطعام فيرسل التماسا برغبته إلى الأمير سلار . ويحكى المؤرخون أنه حدث أن أرسل الناصر محمد إلى الأمير سلار يبلغه أنه يشتهى تناول بعض الحلوى والاوز ، فرد الامير سلار على حامل الطلب قائلا « وإيش يعمل السلطان بالأوز ؟ هو الاكل عشرون مرة بالنهار[2] ؟ » .

وأخيراً ضاق السلطان الناصر بذلك الحجر المفروض عليه ، فاستدعى الأمير بكتمر الجوكندار لمساعدته فى التخلص من الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير . ولكن هذين الأميرين علما بالمؤامرة ، فحاصرا القلعة للقبض على الناصر محمد ومنعه من الهروب ، مما أثار إشتباكا بين المماليك السلطانية وأتباع الأميرين . وجدير بالذكر أن الرأى العام فى القاهرة كان يعطف على السلطان الناصر محمد الصغير عطفا غريبا ، فلم يكد العامة يعرفون بما تم من محاصرة الناصر محمد حتى تجمعوا وهم يهتفون « ياناصر يامنصور ! . . . الله يخون من يخون ابن قلاوون . . . !! »[3] ولأول مرة نسمع عن إرادة الشعب بوضوح فى عصر المماليك ، فوجد سلار وبيبرس الجاشنكير نفسيهما فى مأزق إزاء مناصرة الشعب للسلطان الصغير ، واضطرا إلى الانحناء أمام العاصفة فجددا الولاء للناصر محمد بعد أن نفى لهما أية نية سيئة تجاههما وأعلن أن أحدا من الأمراء لم يحرضه ضدهما[1] .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥٤

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنه ٧٠٣ هـ ابو المحاسن النجوم ج ٨ ص [illegible] .

(٣) ابو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٧٣

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٩ ، أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص : ٥

ولكنْ إذا كانت العاصفة قد هدأت ، فإن هدوءها كان فى الظاهر لأن سلار وبيبرس ظلا يضمران الكراهية للناصر محمد فى حين أن الناصر محمد نفسه كان غير مرتاح إلى وضعه، ويخشى على نفسه عاقبة غدر هذين الأميرين. وأخيراً ضاق السلطان بحياته التى قضاها حبيس القلعة، وأدرك أنه لا فائدة من التغلب على سلار وبيبرس بعد أن « تجاوزا الحد فى الانفراد بالأموال والأمر والنهى »[1] . لذلك فكر الناصر محمد فى الهروب من السلطنة ، فتظاهر برغبته فى أداء فريضة الحج وخرج من مصر قاصداً الحجاز عن طريق الكرك . ولكنه لم يكد يصل إلى الكرك سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨م) حتى أعلن ما فى نفسه ، فدعا من معه من الأمراء والمماليك وأخبرهم أنه اختار الحياة فى الكرك حراً ، وأنه ترك السلطنة وقيودها ؛ ثم أرسل الناصر كتاباً إلى الأمراء فى مصر يخبرهم فيه بنيته[2] .

وقد ارتبك الأمراء فى مصر عندما وصلتهم رسالة الناصر محمد لأنهم لم يكونوا مستعدين للموقف ، فأرسلوا إليه يسألونه العودة وإلا حرموه من السلطنة ومن الإقامة فى الكرك . ولكن الناصر محمد أصر على رأيه ورد عليهم قائلا « دعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره ». وكان أن عرض الأمراء على سلار منصب السلطنة ولكنه كان حريصا على ألا يتعرض للمصير الذى تعرض له كتبغا ولاجين لاسيما وأن أحوال الدولة كانت مرتبكة عندئذ ولا تبشر بخير .

لذلك اعتذر سلار عن قبول المنصب، وأشار إلى زميله بيبرس الجاشنكير وقال « والله ياأمراء أنا ماأصلح للملك ، ولا يصلح له إلا أخى هذا ! » . وكان أن بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير بالسلطنة[3] .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥٤

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦

السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير :

تولى منصب السلطنة سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ، وبادر فور اعتلائه العرش بكتابة تقليد بمنح الناصر محمد الكرك . على أنه إذا كان السلطان بيبرس الثانى قد ظن أن الأمور قد هدأت له بذلك ، فانصرف إلى تنظيم أمور الدولة وعين الأمير سلار نائبا له ؛ فإن آماله لم تلبث أن انهارت بالسرعة التى قامت بها . ذلك أن الناصر محمد ظل دائما يتمتع بشعبية كبيرة فى مصر والشام ، بحيث لم يستطع الناس أن ينسوه بالسهولة التى توهمها المظفر بيبرس . وشاءت الظروف أيضا أن يأتى قيام بيبرس الجاشنكير مقرونا بانخفاض النيل وارتفاع الأسعار، مما جعل الناس يفسرون ذلك بسوء طالع السلطان الجديد ، فصاروا يطوفون شوارع القاهرة وهم يصيحون « سلطاننا ركين (تصغير ركن الدين بيبرس) ونائبنا دقين (يقصدون الأمير سلار ، وكان أجردا بذقنه شعيرات قليلة) ؛ يجينا الماء منين ؟ ؟ جيبوا لنا الأعرج (يقصدون الناصر محمد وكان به عرجا خفيفاً) ، يجى الماء يدحرج[1] !! » .

ثم إن كثيرا من أمراء الشام رفضوا الاعتراف بالسلطان المظفر بيبرس ، وبخاصة نواب حلب وحماه وطرابلس الذين رفضوا أن يتزعزعوا عن موقفهم وأعلنوا ولاءهم لبيت قلاون ؛ بل لقد بلغ الأمر بهؤلاء الأمراء الثلاثة أنهم اجتمعوا وأرسلوا إلى الناصر محمد بالكرك يستأذنونه فى القدوم عليه بالكرك لمناصرته ، « فإما أن نأخذ له الملك وإما إن نموت على خيولنا[2] » .

أما الناصر محمد نفسه فكان كلما تقدم به الوقت تنبه إلى حقوقه فى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨

الملك وإلى سلطانه المسلوب . نعم صار الناصر محمد سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٩م) غيره سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤م) ، إذ فعلت هذه السنوات الخمس عشرة منذ عزله أول مرة — فعلها فى صقله واكسابه قدرا كبيرا من التجربة، وبخاصة فى معاملة الأمراء . وكان المظفر بيبرس قد علم بما دار من إتصالات بين الناصر محمد وأمراء الشام ، فأرسل إليه يهدده ويتوعده « وإلا جرى عليك ماجرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى[1] » بل لقد بلغ الأمر بالسلطان بيبرس الثانى أن أرسل إلى الناصر محمد بالكرك يطلب منه مالديه من خيل ومماليك ، وهنا غضب الناصر محمد غضبا شديدا وصاح « أنا خليت ملك مصر والشام لبيبرس (الثانى) وما يكفيه حتى ضاقت عينه على فرس عندى أو مملوك لى ! » وفى الحال أرسل الناصر محمد إلى حلفائه من أمراء الشام يقول لهم « أنتم مماليك أبى وربيتمونى، فإما أن تردوه عنى وإلاأسير إلى بلاد التتار[2] . »

وهكذا أخذ الناصر محمد ينظم صفوفه لاسترداد سلطنته المفقودة ، فترك كثيرا من الأمراء جانب بيبرس الجاشنكير وهربوا إليه. وعندما زار دمشق استقبله أهل دمشق فى حفاوة بالغة ، وأقيمت الخطبة باسمه يوم الجمعة ٢٢شعبان سنة٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) . أما المظفر بيبرس ، فقد ساء موقفه وانفض عنه معظم رجاله ، فحاول أن يقوى مركزه بالحصول على بيعة جديدة من الخليفة العباسى فى القاهرة — وهو أبو ربيعة سليمان — ولكن كل ذلك لم ينفعه شيئاً أمام التفاف الناس حول الناصر محمد وحبهم له . هذا إلى أن الخليفة العباسى فى القاهرة كان لاحول له ولاقوة فى ذلك العصر حتى أن أحد الأمراء المماليك عندما قرأ العهد الذى منحه الخليفة سليمان

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور : ج١ ص ١٥١ .

(٢) المقريزى : السلوك ج٢ ص ٥٦

للسلطان المظفر بيبرس ووجد أوله «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» رد على الفور قائلا «ولسليمان الريح[1] !!».

وأخيرا عول الناصر محمد وحوله رجاله وأنصاره على الحضور إلى مصر، فوجد بيبرس الجاشنكير نفسه عندئذ وحيداً، لا شعب يلتف حوله ويعطف عليه، ولا جيش يقف إلى جانبه. لذلك اضطر بيبرس إلى دعوة الأمراء لمشاورتهم فى الأمر، فأشار عليه بعضهم بالنزول عن العرش واستسماح الناصر محمد ليعفو عنه. ولم يكن فى وسع بيبرس الثانى أن يفعل غير ذلك؛ فغادر القلعة ليلا قاصداً أطفيح، والعامة يطاردونه حتى أوسعوه سبا وأوشكوا على الفتك به لولا أن شغلهم بما رماه إليهم من مال[2]. وعلى هذا النحو انتهت سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير

سلطنة الناصر محمد الثالثة (٧٠٩ هـ — ٧٤١هـ=١٣٠٩ — ١٣٤٠ م)

خرج السلطان الناصر محمد من الكرك قاصداً القاهرة، يرافقه رجاله وأتباعه. وكان المؤرخ أبو الفدا يرافق السلطان فى رحلته هذه، فوصف لنا كيف كان يلتقى السلطان كل يوم أثناء مسيرته بجموع المماليك والأمراء وقد خرجوا لاستقباله وتقديم فروض الولاء والطاعة له[3]. وهكذا حتى دخل قلعة الجبل مساء الأربعاء أول أيام عيد الفطر سنة ٧٠٩ هـ(١٣٠٩م)، «وأصبح السلطان يوم الخميس جالسا على تخت الملك وسرير السلطنة، وحضر الخليفة أبو الربيع والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للهناء[4]».

وكان الناصر محمد عندما تولى السلطنة للمرة الثالثة سنة ٧٠٩هـ(١٣٠٩م)

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٣.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٣
(٣) أبو الفدا: المختصر ج ٤ ص ٥٦-٥٨
(٤) المقريزى: السلوك ج ٢ ص ٧٣.

فى الخامسة والعشرين من عمره ، أى فى سن تمكنه من مباشرة شئون الحكم بنفسه ومن فرض كلمته على الأمراء . وقد بدأ الناصر محمد بالثأر لنفسه من الأمراء الذين سبق أن آذوه واستخفوا به ، فقبض على بيبرس الجاشنكير عند غزة وهو يحاول الفرار ، وأعدمه بعد أن عنفه وذكره بمواقفه منه [(١)]. أما سلار فقد ألقى به فى السجن حتى مات [(٢)] . وهكذا تنبه الناصر فى تلك المرة إلى مطامع الأمراء ، فكلما سمع بتآمر أمير أوشك فى تصرفاته تخلص منه فى الحال وأقصاه عن الوظائف العامة . وكانت سياسته تجاه كبار رجال الدولة بوجه عام هى أن يقرب الواحد منهم ، حتى إذا ما أحس أن نفوذه زاد عما يجب ، تخلص منه فى الحال [(٣)] .

وقد استمر حكم الناصر محمد فى تلك المرة الثالثة إحدى وثلاثين سنة ، هى مدة طويلة لم يدانيه فيها سلطان آخر من سلاطين المماليك فى مصر . ويمثل ذلك العصر بالذات أعظم عصور التاريخ المصرى زمن المماليك ، وأكثرها أزدهارا ورقيا واستقرارا . ذلك أن نفوذ الناصر محمد امتد من المغرب غربا حتى الشام والحجاز شرقا ومن النوبة جنوبا حتى آسيا الصغرى شمالا . وقد أرسل السلطان الناصر حملة إلى النوبة سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٤ — ١٣٠٥م) فى سلطنته الثانية ، ثم حملتين أخرتين سنة ٧١٥ ، ٧١٦ هـ (١٣١٥، ١٣١٦م) فى سلطنته الثالثة ، وتمكنت هذه الحملات من إقامة أول ملك مسلم من أهل النوبة على تلك البلاد هو عبد الله بر شنبو . وإذا كانت أحوال مملكة النوبة لم تستقر بعد ذلك مما تتطلب من السلطان الناصر محمد إرسال حملة جديدة سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) إلا أنه يلاحظ أن بلاد النوبة أخذت منذ ذلك

---

(١) ابو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٧٤ — ٢٧٥ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٠-٨١ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٦ .
(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ٢٠ .

الوقت تفقد صفتها المسيحية تدريجيا لتتخذ طابعا عربيا إسلاميا[١] .

أما فى الداخل ، فقد كان عهد الناصر محمد عهد رخاء واستقرار ، فأقام الناصر كثيراً من المنشآت مثل المساجد والقناطر والجسور وغيرها[٢] . ومن منشآته الشهيرة المدرسة الناصرية والمسجد الذى شيده بالقلعة والخانقاه التى أقامها فى سرياقوس . هذا فضلا عن المنشآت التى جددها مثل المارستان المنصورى الذى كان والده قد شيده سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ولا عجب إذا وصف المقريزى الناصر بأنه « كان محبا للعمارة ... وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة »[٣] .

وهكذا قضى الناصر محمد عهده الطويل فى الإصلاح والإنشاء والتعمير ، الأمر الذى جعل المؤرخين والرحالة المعاصرين يشيدون بسيرته وفضله وازدهار حكمه[٤] :

أولاد الناصر محمد وأحفاده :

من الثابت فى التاريخ أن بيت قلاون تمتع بحب الناس وإخلاصهم ، وأن الناصر محمد بن قلاون حظى بشعبية كبيرة عبرت عن نفسها فى تمسك رعاياه به وإخلاصهم له . وقد يكون السبب فى ذلك أن الناس فى عصر سلاطين المماليك سئموا الاضطرابات والفتن والمنازعات بين طوائف المماليك وأمرائهم ، فلا يكاد ينتشر الخبر بمرض سلطان أو وفاته أو مقتله حتى تغلق الحوانيت ويختزن الناس الطعام ، ويستعدون لفترة عصيبة

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص١٦١ — ١٦٢، مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة ص٩٦ وما بعدها .

(٢) ذكر المؤرخ أبو المحاسن (ج٩ص١٧٨ وما بعدها) منشآت الناصر محمد وإصلاحاته بالتفصيل

(٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٤) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٢٥٠ ، رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٣ .

يتزعزع فيها الأمن وتقل المؤن وتضطرب الحياة الاقتصادية . أجل، سئم الناس فى عصر المماليك تلك الأوضاع وأرادوا أن يهنئوا بقسط من الاستقرار والهدوء يباشرون فى ظله حياتهم العادية دون أن تقلقهم فتنة أو أزمة ، فوجدوا غايتهم فى عهد المنصور قلاون وعهد ابنه الناصر محمد .

ولعل هذه الشعبية الكبيرة التى تمتع بها بيت قلاون ، هى التى جعلت الناس يتمسكون بسلالة الناصر محمد بعد وفاته سنة ٧٤١ ﻫ (١٣٤٠ م) ، فظل أولاده وأحفاده يحكمون الدولة حتى سنة ٧٨٤ﻫ (١٣٨٢ م) أى طوال أربعين سنة ، رغم أنه كان من هؤلاء الأبناء والأحفاد من لا يستحق الملك لضعفه أو سوء خلقه أو صغر سنه ، ومع ذلك فإن الهيبة التى صارت لبيت قلاون فى نفوس الناس جعلتهم يتمسكون به .

ويبدو أن الناصر محمد بن قلاون كان يحس دائما بشعور القلق نحو مستقبل العرش بعد وفاته، ويخشى أن يتعرض أبناؤه من بعده لما تعرض له فى مستهل حياته من تلاعب كبار أمراء المماليك بمصالحه وحقوقه . لذلك عهد الناصر محمد سنة ٧٣١ ﻫ (١٣٣١ م) إلى ابنه الأمير ناصر الدين آنوك بالسلطنة، وعندئذ وافق الأمراء على ذلك ووزعت عليهم وعلى كبار رجال الدولة الخلع، وركب الأمير آنوك بشعار السلطنة . غير أن السلطان الناصر لم يلبث أن غير رأيه فجأة ، وألغى ما أحدثه بالنسبة لآنوك من ولاية العهد ، « ورسم أن يلبس آنوك شعار الأمراء ولا يطلق عليه اسم السلطنة »[1] وتقف المراجع صامتة إزاء هذا الانقلاب المفاجىء فى سياسة الناصر محمد تجاه مسألة ولاية العهد ، ولا نستطيع أن نفسر نحن ذلك إلا فى ضوء عدم رضى الناصر عن ولده آنوك ، أو أنه رأى أن يرجىء هذا الأمر حتى يكبر

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣

ابنه ويتجاوز مرحلة الطفولة ، لأن سنه كان عندئذ تسع سنوات فقط .

ومهما يكن من أمر ، فإن آنوك توفى سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م) ، وبعدها أحس الناصر محمد بمرض الموت ، فجمع الأمراء حوله وأعرب لهم عن رأيه فى أن يخلفه فى الحكم ابنه سيف الدين أبو بكر ، فأقر الأمراء ذلك وتعهدوا بتنفيذ رغبة السلطان[1]. ولم يلبث أن توفى السلطان الناصر محمد نفسه سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وسط مظاهر الأسى والحزن البالغ .

والواقع أن وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠م) جاءت إيذانا بانتهاء فترة الاستقرار والرخاء اللذين تمتعت بهما مصر فى عهد ذلك السلطان . وإذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد تمكنوا من البقاء فى الحكم أربعين سنة بعد وفاة الناصر نفسه ، فإن ذلك لا يرجع إلى موهبة خاصة ظهرت فى أحد أولئك السلاطين ، وإنما كان مرجع ذلك هيبة بيت قلاون نفسه فى قلوب المعاصرين ، وهى الهيبة التى وضع أساسها المنصور قلاون، وازدادت نمواً فى عهد ولده السلطان الناصر محمد. وبعبارة أخرى فإن أبناء الناصر محمد وأحفاده عاشوا على السمعة الطيبة والمكانة الراسخة والشهرة الواسعة التى تركها الناصر محمد بالذات فى قلوب معاصريه[2] .

وليست هناك أهمية خاصة فى التاريخ تجعلنا نتكلم عن كل أحد من أبناء الناصر محمد وأحفاده الذين تولوا الحكم من بعـــده حتى سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ؛ وإنما تكفى الإشارة إلى أنه فى العشرين سنة الأولى التى أعقبت وفاة الناصر محمد (٧٤١ — ٧٦٢هـ ، ١٣٤١ — ١٣٦١م) تولى منصب السلطنة ثمانية من أولاده ، وفى العشرين سنة التالية (٧٦٢ — ٧٨٤ هـ ، ١٣٦١ — ١٣٨٢ م) تولى المنصب أربعة من أحفاده . وحسبنا أن نعلم أن بعض

---

(١) تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٣٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ص ١٦٤ .
(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 499.

هؤلاء الأبناء والأحفاد تولى منصب السلطنة وعمره عام واحد — مثل الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد — ، كما أن بعضهم لم يبق فى الحكم إلا شهرين وبضعة أيام ، مثل الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد . ولعل هذه الصورة الموجزة كافية لأن تعطينا فكرة عامة عن مدى ماعانته الدولة بعد وفاة الناصر محمد من اضطراب وعدم استقرار وفوضى، تركت أثرها واضحا فى جميع نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وزاد من أحوال البلاد سوءاً فى ذلك الدور انتشار وباء خطير عرف باسم الوباء الأسود سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) — أى فى عهد السلطان الناصر حسن بن السلطان الناصر محمد ، فمات كثير من الناس ، وتأثرت الحياة الاقتصادية أسوأ أثر حتى كادت تتوقف تماما « وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر »[1].

ولا شك فى أنه لدينا الآن فكرة واضحة ـ بعد العرض السابق لتاريخ المماليك ـ عن مدى استغلال الأمراء اصغر سن السلاطين ، وما كان ينتج عن ذلك من منازعات فيما بينهم وبين بعض من ناحية ، ومن تحكم واستبداد بشؤون الدولة من ناحية أخرى .[1] وهكذا نلمس ظاهرة واضحة عند دراستنا لعصر أبناء الناصر محمد وأحفاده، هى أن كل سلطان من بنى قلاوون كان يقف خلفه أمير أو أكثر من كبراء أمراء المماليك، بحيث طغت شخصية أولئك الأمراء على السلاطين ، وأصبحت أسماء الأمراء ـ دون السلاطين — هى مدار الأحداث المعاصرة ، وموضع اهتمام المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين . ومن هؤلاء الأمراء لمع فى عصر أبناء الناصر محمد الأمير قوصون ويلبغا اليحياوى وأقسنقر السلارى وأرغون العلائى وشيخو وطاز

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٧٧٠ — ٧٨٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٢١ وما بعدها .

وصرغتمش. أما عهد احفاد الناصر محمد، فقد ظهرت فيه أسماء الأمير قشتمر المنصورى ويلبغا الخاصكى وبرقوق . . .

ويعنينا من أمر هؤلاء الأمراء أن بعضهم كان من المماليك البرجية أو الجراكسة، الأمر الذى يدل على ازدياد نفوذ تلك الطائفة، مما أدى الى تمكنهم من انتزاع الحكم سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) كما سنرى بالتفصيل فى الباب الآتى .

الحملة الصليبية على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م)

هذا عن الأحوال الداخلية لدولة المماليك فى عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده . أما فى الخارج فإن اضطراب أحوال مصر الداخلية وعدم وجود رجل قوى مهيب الجانب على رأس دولة المماليك، أفقد تلك الدولة مكانتها وهيبتها التى كانت قد بلغت أوجها على عهد السلطان الناصر محمد . ولم يلبث أن استخف الاعداء بدولة المماليك وطمع الطامعون فى أراضيها بل تجرأ الصليبيون على غزو مصر ذاتها سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥)

والمعروف أن الحروب الصليبية لم تنته باستيلاء المسلمين على عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وبطرد آخر البقايا الصليبية من الشام، وإنما استمرت تلك الحروب فى صورة أو أخرى حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلاد تقريبا، واتخذت لها أكثر من ميدان فى المشرق والمغرب جميعاً .

وفى ذلك الدور الجديد من أدوار الحروب الصليبية، اتخذ ملوك قبرس من آل لوزجنان جزيرتهم قاعدة كبرى لتهديد السفن والمتاجر الاسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط، فضلا عن القيام بغارات جريئة على بعض الموانى الاسلامية وموانى دولة المماليك بوجه خاص [1]

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٥٢ — ٥٣ .

وساعد ملوك قبرس فى تنفيذ هذه السياسية أن كثيرا من البقايا الصليبية التى طردت من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر اتخذت جزيرة قبرس بالذات مستقراً ومقاما ، مما هيأ لآل لوزجنان قوة محاربة مرنت حرب المسلمين وتتوق للانتقام مما حل بالصليبيين فى الشام . [1]

وهكذا حتى اعتلى عرش قبرس سنة ٧٦٠ ﻫ (١٣٥٩ م) الملك بطرس الأول لوزجنان الذى اشتهر بقوة شخصيته وحماسته الدينية الفذة . حتى أنه اراد منذ ارتقائه العرش ان يجعل من نفسه بطل المسيحية الأول فى عصره . وكان أن فكر الملك بطرس فى القيام بحملة صليبية كبرى يطعن بها المسلمين طعنة قوية ، ولكنه وجد أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج الى استعدادات ضخمة وأموال كثيرة ورجال عديدين ، فلجأ الى القيام برحلة طويلة فى غرب أوربا (٧٦٣ - ٧٦٦ ﻫ = ١٣٦٢ - ١٣٦٥ م) للحصول على ما يمكنه من مساعدات من البابوية وملوك الغرب الأوربى [2]

وأخيرا جمع بطرس لوزجنان قواته فى جزيرة رودس حيث تم الاتفاق على اختيار الاسكندرية بالذات هدفا للهجوم الصليبى ؛ وذلك للقضاء على دولة المماليك التى تسببت فى طرد الصليبيين من الشام من ناحية، والاستفادة من مركز تلك المدينة الحربى وموقعها التجارى من ناحية أخرى . ولا بد أن يكون الصليبيون والغرب الأوربى قد سمعوا بأخبار الفوضى التى غرقت فيها مصر فى عصر أحفاد الناصر محمد ، وكيف كانت الموانى والمدن المصرية خالية تماما من وسائل الدفاع . [3]

---

(١) Schlumberger : Prise de Saint Jean d'Acre, p. 35.

(٢) Machaut : La Prise de l'Alexandrie, pp. 21-42.

(٣) النويرى : الالمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الأسكندرية ص ٢٨٦ — ٢٩٤ « مخطوط » .

وعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت إلى مصر عن طريق التجار قبل وقوع الهجوم بمدة طويلة الا أنه « لم يكن من الدولة اهتمام » على حد تعبير المقريزى[1] . وكان يحكم دولة المماليك فى ذلك الوقت السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد ، وهو طفل صغير فى الحادية عشرة من عمره ، فى حين استبد بأمور البلاد الأمير يلبغا الخاصكى الذى اشتهر بعسفه وجوره وكبريائه ، حتى أنه عندما سمع بنية ملك قبرس فى مهاجمة الاسكندرية قال « إن القبرسى أقل وأذل من أن يأتى الى الاسكندرية »[2]

ولكن هذه الكبرياء لم تنفع فى صد المعتدين الذين نزلوا على شاطىء الاسكندرية صباح الجمعة ١٠ أكتوبر سنة١٣٦٥ (٧٦٧ هـ) ، وهاجموها فور وصولهم . ولم تفلح الاستعدادات السريعة التى اتخذت لوقف الخطر الصليبى ، فاقتحم الصليبيون الاسكندرية وفر العربان الذين استحضروا من البحيرة للدفاع عن الثغر[3] . وهكذا سقطت الاسكندرية فى قبضة الصليبيين. فقضوا فيها ستة أيام تعتبر من أحلك الايام فى تاريخ الثغر ، إذ انتشر الصليبيون فى شوارع المدينة وازقتها ينتقمون من أهلها المسلمين « فأستلموا الناس بالسيف ، ونهبوا الحوانيت والدور وأحرقوا الخانات والقصور ، وخربوا المساجد والزوايا ، واعتدو على النساء والبنات[4]» .

وكان قائد الحملة ـ الملك بطرس لوزجنان ـ يرى ضرورة الاحتفاظ بالاسكندرية ، والدفاع عنها لاتخاذها نقطة ارتكاز لغزو مصر بأجمعها ، ولكن بعض رجاله أقنعوه بخطورة ذلك المشروع ، فاضطر الصليبيون

---

(١) المقريزى : السلوك ح٤ ورقة ٤٦ « مخطوط » .
(٢) النويرى : الألمام ح ١ ص ٥١٥ .
(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٣ — ٦٤ .
(٤) المقريزى : السلوك ح ٤ ورقة ٤٧ ، النويرى : الألمام ح ١ ص٣٢٦ — ٣٣٥ .

الى الجلاء يوم الخميس ١٦ اكتوبر بعد أن حملوا فى سفنهم آلاف الأسرى وشحنوها بالمنهوبات . وأخيراً وصل يلبغا الخاصكى على رأس جيشه الى الاسكندرية ليشهد ماحل بها من دمار وخراب على أيدى الصليبيين فأمر بدفن جثث القتلى وترميم ما خرب وأحرق[1] .

وإذا كانت دولة المماليك عندئذ تمر بدور من الانحلال والفوضى لم يمكنها من الثأر من جزيرة قبرس وملوكها ؛ فإن المسلمين لم يغفروا ما حل بالإسكندرية على أيدى الصليبيين سنة ٧٦٧ ﻫ (١٣٦٥ م) ، حتى تمكنوا من الانتقام فى عصر دولة المماليك البرجية كما سنرى فيما بعد .

---

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٨ — ٦٩ .

الفصل الخامس

دولة المماليك الجراكسة

نشأة فرقة المماليك الجراكسة :

أراد السلطان المنصور قلاون أن يكون فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء ، وتكون سنداً لأولاده وذريته في الاحتفاظ بالعرش . ولتحقيق هذا الغرض رأى قلاون أن تكون فرقته الجديدة من جنس غير الأجناس التي انتمى إليها مماليك عصره ، فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركمان ، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون إلى بلاد الكرج (جورجيا) ، وهي البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود . وساعد على تحقيق رغبة قلاون ، كثرة الجركس في أسواق الرقيق في النصف الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) بسبب تعرض بلادهم لغزوات المغول ، حتى أصبحت ميدانا للصراع بين مغول فارس ومغول القفجاق . ويبدو أن كثرة الجركس في أسواق الرقيق في ذلك العصر أدت إلى انخفاض أثمانهم على الرغم مما امتازوا به من جمال الصورة وقوة البدن والشجاعة ، حتى أن متوسط ثمن المملوك الجركسي بلغ مائة وخمسة عشر ديناراً في حين كان متوسط المملوك التركي مائة وثلاثة وخمسين ديناراً[1] . ومهما يكن الأمر ، فقد أكثر السلطان المنصور قلاون من شراء هؤلاء المماليك الجركس حتى بلغ عددهم في حياته أكثر من ثلاثة آلاف مملوك ؛ وعني بتربيتهم في أبراج القلعة ، مما جعل اسم « البرجيه » يلصق بهم في التاريخ .

---

(1) Heyd : Hist. du Commerce, T. 2, p. 529.

وكان أن نجحت خطة قلاون ، فازدادت أعداد هذه الطائفة الجديدة ، وتعهدها أبناء قلاون وأحفاده بالرعاية والعطف ، حتى يقال أن الأشرف خليل بن قلاون أشترى أثناء حكمه القصير ألفي مملوك منهم . ومن ناحية أخرى فقد حقق المماليك البرجية الغرض المقصود منهم ، فكانوا بمثابة دعامة كبرى دافعت عن مصالح أبناء المنصور قلاون . وقد سبق أن أشرنا إلى ثورة المماليك الأشرفية — من البرجية — ضد قتلة الأشرف خليل ، ولم يهدأ أولئك البرجيه حتى تمكنوا من الانتقام للأشرف خليل فقتلوا بيدرا وغيره من الأمراء الذين شاركوا في قتل السلطان خليل بن قلاون . وبفضل تأييد البرجية أختير الناصر محمد بن قلاون سلطانا لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) رغم صغر سنه . حقيقة أن تعلق الشعب ببيت قلاون كان له اثره في ذلك الاختيار ، ولكن يجب أن نذكر أن الشعب المصري في ذلك العصر كان أعزلا ، ولم تكن اديه قوة حربية تمكنه من تنفيذ إرادته ، وأن القوة الحربية الوحيدة التي كانت موجودة في البلاد عندئذ كانت قوة المماليك . وهكذا وقف البرجية بالمرصاد لجميع المحاولات التي استهدفت عزل السلطان الناصر محمد ؛ وفي كل مرة عاد الناصر محمد إلى الحكم بعد عزله نجد أصبع البرجية قويا واضحا [1]

ازدياد نفوذ البرجية :

وسرعان ما ساعد تطور الأحداث الداخلية في مصر عقب وفاة السلطان المنصور قلاون إلى ظهور البرجية على مسرح تلك الأحداث وازدياد نفوذهم وأثرهم في توجيهها . والمعروف أن السلطان قلاون حاول من أول الأمر أن يفرض نطاقا من العزلة حول المماليك البرجية ،

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ١١١ وما بعدها .

فحال دون اتصالهم بغيرهم من المماليك الترك حتى لا يتأثروا بأوضاعهم وروحهم التى تطرق إليها الفساد ، كما حرص على عدم السماح لهم بمغادرة أبراجهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة . ولكن هذه الأوضاع كانت لا يمكن أن تدوم . وإذا كان قلاون قد نجح فى أن يفرض تلك القيود على المماليك البرجية فى تاريخهم الأول عندما كانت أعدادهم محدودة ، فإن خلفاء قلاون لم يستطيعوا فرضها على البرجية بعد أن ازدادت أعدادهم حتى بلغوا فى أوائل عصر الناصر محمد خمسة آلاف مملوك . لذلك نرى السلطان الأشرف خليل يسمح للبرجية بالنزول من القلعة أثناء النهار بشرط العودة إليها قبل المغرب للمبيت فيها ، وبذلك بدأت خبرة البرجية بالحياة العامة تزداد ، فوقفوا على كثير من الاتجاهات والأوضاع الداخلية الخاصة بالبلاد فى ذلك الوقت[1] .

ولا شك فى أن إسراف السلطان المنصور قلاون فى العطف على المماليك الجراكسة الجدد ، وتفرقته فى المعاملة بينهم وبين المماليك القدامى من الأتراك ، كان له أثره فى إثارة روح البغضاء والتنافر بين الفريقين . ذلك أنه عرف عن المنصور قلاون أنه عنى بالبرجية عناية خاصة ، فخصهم بالترقية إلى وظائف السلاحدارية ، وغيرها من الوظائف الكبرى فى الدولة[2] ؛ وحرص على أن يلبسهم زياً جديداً حسناً ، وأجزل لهم العطاء فيما كانوا يتقاضونه من جوامك ورواتب ، وعنى عناية خاصة بتعليمهم أصول الدين ، فضلا عن تدريبهم على استخدام الرماح ورمى النشاب . وكان أن تلفت المماليك الأتراك حولهم فوجدوا فى الجراكسة منافسا جديدا خطيرا ؛ فهم يحظون بعطف السلطان ورعايته ، وفى الوقت نفسه هم ينتمون إلى عنصر

(١) المقريزى : المواعظ ح ٢ ص ٢١٤ .
(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ح ١ ص ١٢٠ .

غير عناصرهم وأصل غير أصولهم . وهكذا أدى التمييز فى المعاملة إلى إثارة البغضاء العنصرية ، والتعصب الطائفى بين المماليك الجراكسة من ناحية ، والأتراك من ناحية أخرى .

هذا إلى أن دفاع الجراكسة عن أبناء المنصور قلاون وغضبهم لمقتل الأشرف خليل ثم ثورتهم لعزل الناصر محمد جعلهم يقفون في جانب ، وبقية المماليك الأتراك فى جانب آخر . ولعل طول المنازعات التى امتاز بها تاريخ المماليك فى تلك الحقبة ، جعل الأمر يتطور ويتحول من نزاع بين الأمراء بعضهم وبعض ، أو بين أنصار بيت قلاون وخصومه ، إلى نزاع عنصرى بين الجراكسة والأتراك . وأدى ذلك إلى أن الجراكسة أتى عليهم وقت صاروا لايهتمون فى قليل أو كثير بمستقبل الناصر محمد ، بقدر مايستهدفون القضاء على نفوذ الأتراك الذين طال استبدادهم بالحكم وحرصوا دائما على الاستئثار — دون الجراكسة — بالامتيازات والنفوذ

وفى تلك الأحداث الطويلة ، لم تخل المراجع من إشارات واضحة إلى ازدياد نفوذ المماليك البرجية وسطوتهم . فالمقريزى يذكر فى حوادث سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) — أى فى سلطنة الناصر محمد الثانية — « وقويت شوكة البرجية بديار مصر وصارت لهم الحمايات الكبيرة . وتردد الناس إليهم فى الأشغال »[١] كذلك يذكر المؤرخ نفسه فى حوادث سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) أن البرجية صار لهم رأى مسموع فى اختيار السلاطين ، فعندما اختار الأمراء الأمير سلار فى تلك السنة ليتولى منصب السلطنة « قلق البرجية ولم تبق إلا إقامتهم الفتنة » ؛ حتى إذا ماتنازل سلار عن المنصب ورشح له زميله بيبرس الجاشنكير « تسارع البرجية وقالوا بأجمعهم : صدق الأمير ، وأخذوا بيد بيبرس وأقاموه كرها ، فصاحوا بالجاويشيه فصرخوا باسمه »[١] .

---

(١) المقريزى : السلوك حوادث سنة ٦٩٨ هـ ج ١ ص ٨٧٥ . والمقصود بالحمايات المكوس التى يفرضها الأمراء على الأراضى والمتاجر وغيرها .

وفى عصر السلاطين الصغار — من أحفاد الناصر محمد بن قلاون — برز إسم أحد أمراء البرجية أو الجراكسة — وهو الأمير برقوق — الذى استطاع بفضل طموحه وقوته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠هـ (١٣٧٨م) وبذلك أصبح برقوق على جانب كبير من القوة فى عهد السلطان علاء الدين على (٧٧٨ - ٧٨٣ هـ = ١٣٧٦ - ١٣٨١ م) الذى لم يتجـــاوز سنه ست سنوات[١].

قيام دولة المماليك الجراكسة :

ظل السلطان علاء الدين على فى الحكم حتى وفاته سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١م) ، وهو فى الثانية عشر من عمره . وكان فى إستطاعة برقوق أن يلى عرش السلطنة عقب وفاة السلطان على مباشرة ، وانتشرت الإشاعات فعلا بذلك، ولكن برقوق كان يدرك أن الأمور لم يتم نضجها بعد. هذا إلى أن برقوق كان له معارضون من كبار الأمراء ، وهؤلاء صاحوا — عندما سمعوا الاشاعات التى ترشح برقوق للسلطنة عندئذ — « لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك كتبغا[٢] » .

لذلك تظاهر برقوق بالزهد فى السلطنة ، فجمع الخليفة والقضاة وكبار الأمراء بقلعة الجبل ، وأعلن أمامهم جميعا أن المصلحة تتطلب إبقاء وظيفة السلطنة فى بيت قلاون . وهكذا استدعى أمير حاجى حفيد الناصر محمد وسنه وقتئذ إحدى عشرة سنة ، وأعلن سلطانا سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م)[٣]

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 510.

(٢) من المعروف أن برقوق جلب من أحد أسواق الرقيق ببلاد القرم سنة ٧٦٤هـ «١٣٦٣م» ، وفى القاهرة اشتراه الأمير يلبغا الخاصكى ، ثم اعتقه يلبغا وصار برقوق « من جملة مماليكه » « ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ح ١١ ص ٢٢٣ » .

(٣) المقريزى : السلوك ح ٣ ص ٣٧٥ « مخطوط » .

ولم يكن منتظرا من السلطان الطفل الجديد أن يقف فى وجه الأمير برقوق الذى « أخذ فى التكلم فى الدولة على عادته من غير معاند ». وهكذا أخذ برقوق يمكن لنفسه ، فاختص زملاءه وأنصاره من المماليك اليلبغاوية بالوظائف الرئيسية فى الدولة ، فى الوقت الذى أخذ يعمل على اكتساب محبة عامة الناس ، فخفف عنهم الضرائب ، وسك نقودا جديدة جيدة لتحل محل الفلوس الزائفة التى كان الأمير جركس قد سكها من قبل[1] . ولم يسلم برقوق فى تلك الأثناء من بعض المؤامرات التى حيكت ضده ، ولكنه اكتشف الخطر قبل وقوعه ، وتخلص من زعماء المؤامرة والمشتركين فيها بالسجن أو النفى ، وبذلك أصبح صاحب الكلمة العليا فى الحكم « ولم يبق له معاند » على قول ابن اياس[2] .

وأخيراً وجد برقوق أن الأمور باتت مهيأة لاعلان نفسه سلطانا ، فانتحل نفس العذر الذى سبق أن تحجج به الطامعون فى الحكم من أمراء المماليك ، وهو صغر سن السلطان القائم ، وحاجة البلاد إلى رجل رشيد يقضى على عوامل الاضطراب فى الداخل والخارج . لذلك عقد إجتماعاً كبيراً بالقلعة سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) حضره الخليفة والقضاة والأمراء ، ونهض كاتب السر القاضى بدر الدين ليعلن « أن الوقت قد ضاق ، ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب[3] » .

وكان أن أجمع الحضور على خلع السلطان أمير حاجى بعد حكم دام سنة ونصف ، وأعلن برقوق سلطانا ، فتلقب بلقب الظاهر .

وبعزل أمير حاجى من السلطنة انتهى بيت قلاون ، كما انتهى حكم

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ح ١ ص ١٤٩ ، العينى : عقد الجمان ح ٢٤ قسم ٢ ص ٢٦
(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ح ١ ص ٤٠٥ .
(٣) المقريزى : السلوك ح ٣ ص ٤٠٥ .

المماليك البحرية . وبقيام الظاهر برقوق فى الحكم ٧٨٤ھ (١٣٨٢م) بدأت دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

خصائص عصر السلاطين الجراكسة :

تختلف دولة المماليك الثانية — أو الجراكسة — عن الأولى ، أو البحرية ، فى عدة نواحى ، أولها أن سلاطين الدولة البرجية أو الثانية كانوا جميعا جراكسة الجنس ، ماعدا اثنين يرجعان إلى أصل يونانى هما خشقدم وتمربغا . هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثى الذى حاول بعض سلاطين دولة المماليك الاولى تطبيقه فى عناد وإصرار والذى نجح بوضوح فى عصر بيت قلاون ، هذا المبدأ لا نجد له أثرا فى عصر دولة المماليك الجراكسة . والواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا زعماء أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح السلطان فى مهمته يتوقف على مدى توفيقه فى توجيه كبار الامراء وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة . فإن ابنه كان يخلفه عادة . ولكن لعدة أشهر فقط حتى ينجلى الموقف بين كبار الامراء ويستطيع أحدهم أن ينفرد بالغنيمة[1] .

والمعروف أن دولة المماليك الجراكسة عمرت اكثر من مائة وأربعة وثلاثين سنه (٧٨٤—٩٢٢ھ = ١٣٨٢ — ١٥١٧م) ، تعاقب على عرش السلطنة خلالها ثلاث وعشرون سلطانا ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائه وثلاث سنوات ، فى حين حكم الاربعة عشر سلطانا الباقون تسع سنوات فقط . أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين ارتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجراكسة فهم برقوق وفرج وشيخ وبرسباى وجقمق وأينال وخشقدم

(١) Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 325

وقايتباى وقانصوه الغورى . ولا ترجع أهمية هؤلاء السلاطين إلى مهارتهم الحربية ، بقدر ما ترجع إلى مقدرتهم فى الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضها ببعض . وكثير من أولئك السلاطين مثل برقوق وشيخ وجقمق وقايتباى عرفوا بحبهم الأدب ومجالس العلم ، كما عرف بعضهم بالتقوى والورع ، الأمر الذى تشهد عليه مؤسساتهم الخيرية من مدارس ومساجد وسبل ومشافى وغيرها . وربما كانت هذه المؤسسات ستارا حاول به بعض هؤلاء السلاطين التكفير عن ذنوبهم وتغطية ما قاموا به من أعمال ضد خصومهم [1] .

ولاشك فى أن البلاد قاست كثيرا فى عهد المماليك الجراكسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك ، وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال فى الشوارع ، مما أوجد جوا من القلق وعدم الاستقرار فى القاهرة بوجه خاص . وزاد من شدة البلاء أن السلاطين عجزوا فى ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ بمراكزهم سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالاشرفيه ، وضرب الناصريه بالمؤيديه ، وبذلك يخلو الجو للسلطان ومماليكه فيعيثون فى الارض فسادا .

على أننا نلاحظ على الرغم من كل ذلك أن سلاطين الدولة الجركسية عملوا دائما على حصر تلك المنازعات داخل دائرة داخلية بحته ، بحيث لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل فى شئون البلاد أو الانتقاص من سيادتها . وهكذا استطاعت دولة المماليك فى ذلك العصر الصمود فى وجه تيمورلنك فى وقت اهتزت جميع الدول القائمة فى غرب القارة الأسيوية أمام هجماته [2] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٤١ ، ١٥٩ .

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 511-513.

برقوق وفرج وشيخ :

لم يمض على قيام الظاهر برقوق فى السلطنة عام واحد حتى حبكت مؤامرة لعزله وأحلال الخليفة العباسى بدله . ولكن برقوق اكتشف المؤامره وأحبطها ، فعزل الخليفة المتوكل وأحل محله خليفة آخر لقب بالواثق بالله . [١] ويبدو أن هذه المؤامرة جعلت الظاهر برقوق يتطرف فى اضطهاد من يشك فيهم ، وبخاصة المماليك الأتراك ، فطرد عدد كبير منهم من وظائفهم ، ونفى بعضهم الى الشام [٢] .

على أن هذه الإجراءات التى قام بها الظاهر برقوق لم تنفع فى حمايته من المؤامرات المتصلة التى دبرها خصومه ضده ، حتى انتهى الأمر سنة ٧٩١هـ (١٣٨٩ م) بقيام ثورة فى شمال الشام تزعمها منطاش نائب ملطية ويلبغا الناصرى نائب حلب . وقد زحف الثوار ، تؤيدهم جموع غفيرة من التركمان والمغول ، نحو دمشق ، فاستولوا عليها ثم زحفوا على القاهرة حيث ساء موقف برقوق ، فهرب من القلعة حتى قبض عليه ونفى إلى الكرك [٣] .

وعندما دخل الثوار القاهرة أعادوا إلى العرش أمير حاجى ابن الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاون (٧٩١ — ٧٩٢ ، ١٣٨٩ — ١٣٩٠م) ولكن النزاع لم يلبث أن اشتد بين الأميرين الثائرين منطاش ويلبغا ، مما أعطى برقوق فرصة لاسترداد مكانته . وكان برقوق قد تمكن من الفرار من حصن الكرك ، فجمع جيشاً بالشام ، وانزل هزيمة بأعدائه عند صرخد سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) ثم دخل القاهرة ظافرا حيث رحب به الأهالى واستقبلوه استقبالا حافلا [٤] .

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٤ — ٢٨ ص ٢٨٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٧٥ — ٢٨٩ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ج ٤ ٣٦٥ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٣٦٤ — ٦٣٥ .

وكان مركز الظاهر برقوق قويا فى تلك المرة ، إذ التف حوله الناس بعد مارأوه من سوء تدبير منطاش وتعسفه . وقد قضى برقوق العامين التاليين فى إخضاع منطاش بالشام ؛ ولم يكد يفرغ من ذلك حتى دهمه خطر جديد هو تيمورلنك والمغول . وكان تيمورلنك قد استولى على بغداد سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) ، واستولت جيوشه على بعض البلاد التابعة لسلطنة المماليك — مثل ماردين — مما جعل الظاهر برقوق يحس بذلك الخطر ويعمل بسرعة على تلافيه . وكان أن استطاع برقوق أن يعمل حلفا سريعا بين القوى التى أحست بخطر تيمورلنك فى الشرق الأدنى ، مثل المماليك فى مصر وأمير سيواس ومغول القفجاق وسلطنة العثمانيين [١] . ولم يلبث تيمورلنك أن أرسل إلى برقوق رسالة مخيفة من نوع تلك التى أرسلها هولاكو إلى قطز سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، يطلب منه التسليم السريع « فالويل كل الويل لمن لم يمتثل أمورنا ، فإنا قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد وأظهرنا فى الأرض الفساد ... » [٢] ولكن برقوق أظهر ثباتا ، ورد على تيمورلنك بنفس أسلوبه ، بل طرد رسول تيمورلنك من القاهرة . وفى العام التالى — أى فى سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) — خرج برقوق على رأس حملة لإعادة أحمد بن أويس — صاحب بغداد الذى كان قد لجأ إلى القاهرة — إلى عاصمته ، ومحاربة تيمورلنك . ولكن برقوق وجد أن تيمورلنك عاد إلى بلاده ، فرجع هو الآخر إلى القاهرة حيث توفى سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) دون أن تتاح له الفرصة لاظهار شجاعته فى حرب المغول .

وقد خلف برقوق فى الحكم أكبر أبنائه الثلاثة وهو الناصر فرج ، الذى كان فى الثالثة عشر من عمره . وكان أن أسرع السلطان الصغير إلى الشام

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 518-519.

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، ص ٧٠ .

سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) على رأس جيش كبير عندما سمع بعودة تيمورلنك إليها، وبأنه اجتاح حلب، وأخذ يهدد دمشق. ولكن الناصر فرج أدرك حرج موقفه فى الشام وخشى على حياته، فعاد إلى القاهرة تاركا جيشه يلقى أسوأ مصير على يد تيمورلنك قرب حلب[1]. وهكذا اضطرت دمشق إلى التسليم بشروط معينة، وإن كان المغول لم يرعوا شروط الأمان الذى منحوه لأهل دمشق فنهبوا المدينة ودمروها وأشعلوا فيها النيران كما دمروا معظم الأطراف الشمالية لبلاد الشام.

وعندما سمع السلطان فرج بأخبار الانتصارات التى أحرزها تيمورلنك فى آسيا الصغرى وبأخبار الهزيمة التى حلت بالسلطان بايزيد العثمانى فى موقعة أنقره سنة ٨٠٥هـ (١٤٠٣م) رضخ للشروط التى تقدم بها تيمورلنك، فأطلق سراح من لديه من أسرى، بل رضى أن يسك العملة باسم تيمورلنك، وإن كنا لم نعثر فعلا على أية قطعة من النقود المصرية تحمل اسم تيمورلنك. ولم يلبث أن مات تيمورلنك سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) دون أن يحقق حلمه فى احتلال مصر[2].

أما السلطان الناصر فرج فقد خسر مكانته فى نفوس المعاصرين نتيجة لرضوخه لطلبات المغول. وسرعان ما نشب نزاع بين امراء المماليك فى مصر فعمت الفوضى القاهرة، واضطر السلطان فرج إلى الاختفاء عن المسرح شهرين، فحل محله فى السلطنة أخوه المنصور عبدالعزيز سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م)، حتى هدأت الأمور وتمكن الأمير يشبك من إعادة الناصر فرج إلى السلطنة

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 526.

(٢) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٢٧ ، ابن عربشاه : عجائب المقدور ص١٠٧ ومابعدها.
Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 334.

فى نفس العام . وقد قضى الناصر فرج بقية عهده فى إقرار الأوضاع ببلاد الشام التى غدت هى الأخرى مسرحاً المنافسات بين كبار الأمراء . ولم يستطع الناصر فرج مقاومة الأمير شيخ المحمودى ونوروز ، فاضطر إلى التسليم لهما سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) بشرط تأمينه على حياته . ولكن على الرغم من ذلك فإن الخليفة والعلماء أفتوا بقتل الناصر فرج لسوء خلقه وإدمانه على شرب الخمر وتنكيله بمماليك أبيه ، حتى لقد وصفه المؤرخون « بكثرة الجهل مع قلة الدين » ، فاغتيل بدمشق فى نفس العام[١].

وكانت المشكلة التى نشأت بعد مقتل الناصر فرج هى أيهما يلى العرش الأمير شيخ أم الأمير نوروز ؟ وإلى أن يتم الفصل فى هذه المشكلة عهد بالسلطنة إلى الخليفة المستعين العباسى سنة ٨١٥هـ (١٤١٣م) . ومن الواضح أن سلطنة المستعين التى استمرت خمسة أشهر تقريباً ، كانت اسمية بحتة ، إذ لم يلبث أن فاز شيخ فى حلبة المنافسة بينه وبين نوروز ، فخلع الخليفة ، وتولى منصب السلطنة بعد أن تلقب بلقب المـؤيد[٢] ومن الطبيعى ألا يرضى نوروز بذلك الوضع ، فأعلن الثورة فى الشام ، ورفض الاعتراف بالسلطان المؤيد شيخ وأن يضرب السكة باسمه ، الأمر الذى دفع السلطان المؤيد شيخ إلى الخروج فى العام التالى لتوليته إلى الشام والتخلص من نوروز بالقتل[٣] .

أما أهم الأحداث الخارجية فى عهد المؤيد شيخ ، فهى قيامه بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام الدويلات التركمانية على الحدود — وهى قرمان وذو الغادر ورمضان — على العودة إلى سابق تبعيتها للدولة المماليكية. ففى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨م) خرج السلطان المؤيد شيخ إلى طرسوس حيث

---

(١) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .
(٢) العينى : السيف المهند تاريخ الملك المؤيد ص ٢٥٩ (تحقيق فهيم شلتوت) .
(٣) العينى : السيف المهند ، ص ٣٢٦ .

قدم له أمراء التركمان فروض الطاعة ، بل إن أمير قرمان رضى أن يسك نقوده باسم السلطان المؤيد . ولكن لم يكد شيخ يرجع إلى مصر ، حتى أخذ التركمان ينقضون الشروط التى تعهدوا بها ، ومن ثم أرسل المؤيد ابنه إبراهيم ضدهم سنة ٨٢٢هـ (١٤١٩م) ، فاستولى على قيصرية وقونية ، وسك العملة فى بلاد التركمان باسم أبيه شيخ . ولم يعد ابراهيم إلى مصر إلا بعد أن عين حاكما على تلك الجهات من الموالين له ، كما ضم إلى دولة المماليك بعض المدن مثل أذنه وطرسوس . وقد استقبل ابراهيم فى القاهرة استقبالا حماسياً ؛ ولكنه لم يلبث أن مات فى العام التالى ، ويقال أن أباه حقد عليه لما ناله من تقدير ، فدس له السم[1] .

على أن مصر لم تستفد كثيراً من تلك الأعمال فى الوقت الذى لم يستطع المؤيد أن يسيطر على مماليكه ، مما سبب أضرارا جسيمة للأهالى الآمنين . وقد خلف المؤيد شيخ ابنه أحمد سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م) تحت وصاية الأمير ططر . ولم يلبث بعد أشهر أن تولى ططر نفسه السلطنة لفترة قصيرة ، فخلفه ابنه محمد الذى لبث فى الحكم عدة أشهر تحت وصاية برسباى . وفى سنة ٨٢٥هـ (١٤٢٢ م) انتزع برسباى السلطنة لنفسه وتلقب بالسلطان الأشرف[2] .

برسباى وفتح جزيرة قبرس :

حكم الأشرف برسباى مايزيد عن ستة عشر عاما ، وهى مدة طويلة لم يفقه فيها من سلاطين الجراكسة سوى الأشرف قايتباى . وعلى الرغم مما قاساه الناس فى عهده من سوء الأحوال الاقتصادية وارتفاع الأسعار

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 548.

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٦٣ .

بسبب سياسته الاحتكارية إلا أن ذلك العهد اتصف بالاستقرار وقلة الاضطرابات ، مما مكن برسباى من القيام بمشروع حربى ضخم هو غزو جزيرة قبرس .

وقد سبق أن أشرنا إلى ماقام به ملوك قبرس من آل لوزجنان من جهود صليبية ضد سلطنة المماليك فى مصر ، وبخاصة بعدأن استولى المماليك على عكا سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م) وطردوا آخر البقايا الصليبية من الشام . كذلك ذكرنا أن هجمات قبرس وملوكها على شواطىء دولة المماليك بلغت ذروتها سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) عندما هاجم بطرس لوز جنان ملك الجزيرة ثغر الاسكندرية وخربه تخريباً لم يغفره له المسلمون .

ولم يستطع سلاطين المماليك عندئذ الثأر من جزيرة قبرس ، نظراً للظروف التى أحاطت بدولة المماليك فى عصر أبناء الناصر محمد بن قلاون وأحفاده ، ثم المشاكل التى تعرض لها السلاطين الأوائل من دولة المماليك الجراكسه . ويبدو أن ملوك قبرس ظنوا أن سكوت سلاطين المماليك عنهم معناه عجزهم عن مدافعتهم ، فاستمروا فى هجماتهم على شواطىء دولة المماليك كما حدث من إغارتهم على الإسكندرية سنة ١٤٠٣ وعلى طرابلس الشام سنة ١٤٠٤ على عهد الناصر فرج[١]. وأكثر من هذا ، فإن ملوك قبرس حرصوا على طعن دولة المماليك فى أعظم موارد ثروتها وغناها ، فاعتدوا على السفن والمتاجر المماليكية فى عرض البحر ، كما منعوا السفن الأوربية من الوصول إلى الشواطىء المصرية لابتياع مايلزمها من توابل[٢] .

وإذا صبر سلاطين المماليك فى مصر على ذلك العدوان السافر من

Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 335. (١)

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٤ — ٨٥ .

جانب أهل قبرس ، فإن هذا الصبر كان لا يمكن أن يطول . لذلك فكر السلطان برسباى فى القيام بعمل حاسم ضد قبرس ، لاسيما بعد أن تكرر العدوان فى أوائل حكمه من جانب قراصنتها على الاسكندرية والتجار المسلمين[1] . وقد أرسل برسباى ثلاث حملات ضد جزيرة قبرس تعتبر من أعظم الأعمال الحربية التى تمت فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ونجحت فى ضم الجزيرة واخضاعها لسلطنة المماليك . أما الحملة الأولى فكانت سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م) ، وهى حملة صغيرة ، لا تعدو أن تكون مجرد حملة استطلاعية ، ومع ذلك فقد نجح رجالها فى مهاجمة ثغر ليماسول بجزيرة قبرس وأشعال النار فى بعض أحيائها ثم العودة سالمين إلى مصر[2] .

ولم تكد السفن المصرية تعود من تلك الغزوة سالمة ، حتى تشجع برسباى ، فأمر فوراً بالاستعداد لحملة جديدة ، غادرت مصر فى صيف ٨٢٨هـ (١٤٢٥م) قاصدة ميناء قورباص على الشاطىء الشمالى الشرقى لجزيرة قبرس ومنه تحركت جنوبا قاصدة ميناء فاماجوستا . وقد مكث المسلمون أربعة أيام فى منطقة فاماجوستا ، شنوا فيها الغارات على الضياع القريبة وأوسعوها نهبا وأسرا وتحريقا . وبعد أن أنزل المسلمون الهزيمة بالقوات القبرسية فى منطقة الملاحة توجهوا إلى ليماسول واستطاعوا الاستيلاء على حصنها الحصين بعد جهد شاق ، ثم قفلوا راجعين إلى مصر بعد أن سمعوا باستعدادات جانوس ملك الجزيرة[3] .

على أن برسباى لم يقتنع بالنتائج التى حققتها الحملتان السابقتان لأنه لم يستهدف مجرد السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وبعض

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٥٢ ، أبو المحاسن النجوم ج٦ ص ٥٦١ (طبعة كاليفورنيا) .

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٧٢ .

(٣) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ١٠٦ ب ، صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٣

أكوام من الغنائم . لذلك بادر السلطان عقب عودة الحملة الثانية إلى إعداد حملة كبرى تحقق له اخضاع قبرس وملوكها . وبعد أن تمت جميع الترتيبات لتلك الحملة خرجت من مصر سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٦ م) قاصدة قبرس حتى وصلت ميناء ليماسول ، فبدأ المسلمون بمهاجمته والاستيلاء عليه[١] . وبعد أن قضى المسلمون فى ليماسول ستة أيام ، قرروا الزحف إلى داخلية الجزيرة للإستيلاء على عاصمتها ومنازلة ملكها .

وفى تلك الأثناء كان الملك جانوس — ملك قبرس — قد جمع جيوشه واستعد لمنازلة المسلمين ، ودارت الموقعة الفاصلة بين الطرفين عند خيروكيتا إلى الشمال الشرقى من ليماسول — وفيها حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة ، ووقع ملكهم جانوس نفسه أسيرا فى قبضة المماليك . أما المسلمون فقد زحفوا بعد ذلك على نيقوسيا عاصمة قبرس ، وصلوا الجمعة فى كنيستها ، ثم غادروها بعد أن أشعلوا النار فى أرجاء المدينة[٢] .

وأخيرا عادت الحملة المصرية إلى القاهرة ، ومع المسلمين مئات الأسرى من جملتهم جانوس ملك قبرس نفسه ، وكميات ضخمة من الغنائم . وقد أفاضت المراجع المعاصرة فى وصف الاستقبال الحافل الذى استقبل به الغزاة فى القاهرة . وظل جانوس ملك قبرس أسيرا فى مصر حتى سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٧ م) عندما أفرج عنه السلطان برسباى بعد دفع فدية كبيرة وبشرط الاعتراف بالسيادة لسلطنة المماليك . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس تعتبر « من جملة بلاد السلطان » حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ٩٢٢هـ (١٥١٧م)[٣] .

---

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٠٧ .
(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٤٣ ، المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٣٧٤ب العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٨٣ .
(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٢١ — ١٢٦ .

السلطان جقمق وغزو جزيرة رودس :

مات السلطان برسباى سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) غير مأسوف عليه من شعبه بسبب تعسفه فى سياسته الاقتصادية وتطرفه فى سياسية الاحتكار مما أنزل ضررا بليغا بالعباد . ولم يستطع العزيز يوسف بن برسباى — وكان فى الرابعة عشر من عمره — أن يحتفظ بالعرش أمام نفوذ أقوى الأمراء عندئذ وهو جقمق . وكان أن تولى جقمق السلطنة بعد قليل .

وكان حكم الظاهر جقمق (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ = ١٤٣٨—١٤٥٣ م) معتدلا إذا قيس بحكم برسباى ، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه ، فحرم المعاصى وشرب الخمور[1] .

غير أن السلطان جقمق لم يلبث أن تعرض فى أوائل حكمه للثورات التقليدية التى تعرض لها غيره من سلاطين المماليك السابقين واللاحقين ؛ فثار ضده الأمير قرقماش الشعبانى اتابك العسكر فى مصر ، كما ثار ضده نائب الشام فى دمشق . ولكن جقمق نجح فى القضاء على هاتين الثورتين ، كما نجح فى القضاء على فتنة العبيد فى الجيزة سنة ٨٤٦هـ (١٤٤٢)[2] .

والواقع أن أهمية عهد جقمق ترجع إلى ماامتاز بهذلك العهد من نشاط خارجى ، كانت أبرز معالمه تحسن العلاقات بين المغول ودولة المماليك من ناحية ، وقيام جقمق بغزو جزيرة رودس من ناحية أخرى . ذلك أن وفاة تيمور لنك سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) اعقبها تصدع امبراطوريته الواسعة ، حتى تمكن ابنه شاه رخ من استرداد سمرقند — مركز قوة أبيه وحكمه — وتدعيم سلطانه وأحياء مجد دولة المغول كما كانت فى عهد أبيه . وكان أن بدأ

---

(١) المقدسى : الانس الجليل ج ٢ ص ٤٤٣ .
(٢) ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٥.

شاه رخ صفحة جديدة فى العلاقات بين دولته ودولة المماليك ، فأرسل إلى برسباى سنة ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م) يطالب السماح له بكسوة الكعبة فضلا عن تزويده ببعض الكتب التى ألفها علماء عصر المماليك مثل ابن حجر العسقلانى والمقريزى . ولما لم يلق شاه رخ جوابا على طلبه ، أرسل سفارة أخرى إلى القاهرة فى نفس العام يكرر طلبه ورغبته فى كسوة الكعبة [1] . ومن الواضح أن برسباى والمماليك خشوا أن يكون وراء طلب شاه رخ أطماع يريد تحقيقها فى الشام والحجاز ، لاسيما وأن حماية الحرمين كانت من الحقوق التى استأثر بها سلاطين المماليك وأضفت عليهم مكانة خاصة وسط بقية حكام المسلمين .

أما شاه رخ فإنه لم ييأس ، وظل يوالى طلبه ، فأرسل إلى برسباى سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) يطالب السماح له بزيارة بيت المقدس ، ثم تمادى فأرسل سنة ٨٤٠ هـ (١٤٣٦ م) يطالب من برسباى إقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه . ولكن برسباى أساء إلى السفير الموفد إليه من قبل شاه رخ ، مما عكر العلاقة بين الطرفين وجعل شاه رخ يحاول أن يتصل بأمراء التركمان وبالسلطان العثمانى بقصد تأليف حزب ضد الأشرف برسباى [2] .

وهكذا مات برسباى سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) وتولى الظاهر جقمق عرش السلطنة المماليكية فى نفس العام ليجد نفسه أمام مشكلة لابد من تصفيتها ، هى مشكلة العلاقة مع شاه رخ . وهنا اتبع جقمق سياسة معتدلة متزنة فى علاج تلك المشكلة ، لاسيما وأن الظروف الخارجية التى أحاطت به ، وإحساسه بخطر العثمانيين المتزايد من ناحية وبعاقبة فشل حملته الثالثة على رودس من ناحية ثانية — أملت عليه ذلك المسلك المعتدل [3] .

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 563-564.

(٢) Wiet : op. cit., p. 564-565.

(٣) ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٩٣ .

لذلك أحسن الظاهر جقمق استقبال رسل شاه رخ الذين وفدوا إلى القاهرة لتهنئته بالسلطنة ، كما وافق على السماح لشاه رخ بكسوة الكعبة سنة ٨٤٧ ﻫ (١٤٤٣ م) بشرط أن تكون الكسوة من الداخل فقط أو تحت كسوة السلطان . وقد بادر شاه رخ بارسال سفارة تحمل كسوته للكعبة فاستقبل أعضاء السفارة استقبالا حسنا ، وإن كان العوام وبعض طوائف المماليك لم يرضوا على ذلك الوضع فاعتدوا على أعضاء البعثة . ومن الواضح أن الرأى العام فى العالم الإسلامى لم ينس للمغول ماضيهم الملطخ بالدماء فى الاعتداء على المسلمين وعلى الخلافة العباسية ، لذلك استاء المسلمون من فكرة قيام أحد حكام المغول — كائنا من كان — بكسوة الكعبة . وربما أدى إحساس السلطان جقمق بهذا الشعور إلى نزعه كسوة شاه رخ سنة ٨٥٦ ﻫ (١٤٥٢ م) وبقيت للكعبة كسوة سلطان المماليك وحدها[1] .

هذا عن علاقة السلطان الظاهر جقمق بالدولة التيمورية ، أما عن علاقته بجزيرة رودس ، فيلاحظ أن هذه الجزيرة صارت قاعدة لفرسان الاسبتارية منذ سنة ٧١٠ ﻫ (١٣١٠ م) وهم الفرسان الذين قاموا فى بلاد الشام بدور كبير فى خدمة القضية الصليبية ، حتى إذ مادالت دولة الصليبيين بالشام غادروها إلى قبرص ، ومنها إلى رودس ليواصلوا نشاطهم ضد المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط .

وقد أحس الاسبتارية فى رودس بالخطر عندما قامت قوات السلطان الأشرف برسباى بغزو جزيرة قبرص ، فأسرع مقدم الأسبتارية فى رودس وهو دلوفيان إلى محاولة كسب ود السلطان برسباى عن طريق تقديم الهدايا

(١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٦ وما بعدها .

والتعهد بدفع جزية سنوية لسلطنة المماليك فى القاهرة . على أنه يبدو أن عهد برسباى لم يتسع للقيام بغزو رودس فتأجل المشروع لعهد الظاهر جقمق .

والواقع أن برسباى استطاع بفتحه جزيرة قبرس أن يضرب لمن يأتى بعده من سلاطين المماليك مثلا فى كيفية حماية دولة المماليك من خطر القواعد البحرية التى ظلت بأيدى الصليبيين فى شرق البحر المتوسط . لذلك كانت الخطوة الطبيعية أمام الظاهر جقمق بعد أن استقرت له الأمور هى العمل على غزو رودس . ويقال أن السلطان مراد الثانى العثمانى حرض جقمق على غزو رودس ، وكان هدف مراد من ذلك هو أن يشغل فرسان الاسبتارية عن الانضمام إلى الحلف المسيحى الذى أوشك أن يتألف بين القوى المسيحية الأوربية لشن حملة صليبية ضد العثمانيين فى البلقان [1] هذا إلى أن اغارات القراصنة المسيحيين لم تنقطع عن سواحل مصر ، فأغارت أربع سفن منها فى سنة ٨٤٣ هـ (أغسطس ١٤٣٩ م) على رشيد وأوغلت فى النيل حيث اعتدت على المناطق القريبة . ولما كانت قبرس فى ذلك الوقت قد تم أخضاعها لسلطنة المماليك ، فإن الشبهات قويت ضد رودس التى لم تبق قاعدة غيرها للصليبيين فى شرق البحر المتوسط [2] .

على أن أخبار استعدادات جقمق لغزو رودس وصلت إلى أصحاب الجزيرة من الاسبتارية ، فأخذوا يستعدون فى سرعة ، كما أرسلوا إلى القوى المسيحية فى أوربا يستنجدون بها خوفا من أن يحل بهم ما حل بأهل قبرس [3] . وإلى هذه الاستعدادات يرجع السبب فى فشل جقمق فى اخضاع رودس وجعلها تابعة لسلطنة المماليك فى مصر تبعية كاملة مثلما حدث لجزيرة قبرس .

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ص ٢٩٧ .

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 582.

(٣) Atiya : The Crusade in the Later Middle age, p. 474.

وكانت الحملات التي أرسلها جقمق ضد رودس ثلاث سنة ٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨ هـ (١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ م) . وبعد أن فشلت الحملتان الأولى والثانية في تحقيق هدف واضح ، اهتم جقمق بإعداد الحملة الثالثة ، وحشد لها عدداً كبيراً من الرجال والسفن. وقد قامت هذه الحملة بحصار مدينة رودس — حاضرة الجزيرة — طوال أربعين يوماً ، ولكن المدينة صمدت للحصار واستعصى على المسلمين اقتحامها . ولم يلبث أن ساء موقف رجال الحملة ، لاسيما بعد أن وصلت بعض الإمدادات الأوربية إلى رودس ، فعادوا فاشلين إلى مصر[١] .

وعلى الرغم من أنه تم الصلح بين فرسان رودس وسلطنة المماليك بعد قليل ، إلا أن العـــلاقة بين الطرفين ظلت تتأرجح بين الهدوء حينا والعداء أحياناً بقية القرن الخامس عشر . ومن الواضح أن سلطنة المماليك صارت في النصف الأخير من القرن الخامس عشر في حال لا تمكنها من القيام بعمل حربي كبير ضد رودس أو غيرها من القوى المعادية ، فلم يسع سلاطين المماليك سوى أن يردوا على موقف رودس بالقبض على التجار الأوربيين في ثغور مصر ومضايقتهم[٢] .

السلطان الأشرف قايتباى والتركمان :

توفى السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) بعد أن عهد وهو على فراش الموت لابنه عثمان بولاية العهد . ولم يستطع المنصور عثمان البقاء في السلطنة سوى ثلاثة وأربعين يوماً ، إذ عزله الأمير إينال وحل محله بعد أن تلقب بلقب الأشرف . ولعل الظاهرة الواضحة في تاريخ المماليك عندئذ هي إنعدام روح النظام وكثرة المنازعات والفتن والمنافسات بين طوائف المماليك .

(١) Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 339.
(٢) Wiet : op. cit., pp. 621-622.

ويبدو الفارق واضحا بين ما كان عليه المماليك فى أوائل عصرهم من نظام وطاعة ، وبين ما آل إليه أمرهم فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر للميلاد) من انحلال ، حتى لقد وصفهم المؤرخ أبو المحاسن بقوله « ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتعدون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف[1] » .

وقد ظل الأشرف إينال فى الحكم ثمان سنوات ٨٥٧ — ٨٦٥ هـ (١٤٥٣ — ١٤٦١ م) ثار أثناءها المماليك الجلبان سبع مرات ! وفيما عدا هذه الفتن والمنازعات والقلاقل الداخلية ، لا يوجد ما يستحق الذكر فى الفترة التالية التى تعاقب فيها على عرش سلطنة المماليك أحمد بن إينال (٨٦٥ هـ = ١٤٦١ م) فالظاهر سيف الدين خشقدم (٨٦٥—٨٧٢ هـ = ١٤٦١—١٤٦٧م) فالظاهر سيف الدين يلباى الملقب بالمجنون سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) فالظاهر تمربغا الرومى سنة ٨٧٢ هـ (ديسمبر ١٤٦٧ — يناير ١٤٦٨ م) وهكذا يبدو لنا كيف تعاقب سلاطين المماليك فى سرعة متناهية ، وكيف أن بعضهم لا يكاد يعتلى العرش أياما حتى يعزل ، مما يشهد على عدم الاستقرار ومدى الاضطراب الذى أصاب سلطنة المماليك فى ذلك العصر. بل إن أحد سلاطين المماليك ظل سلطانا مدى ليلة واحدة ، فنسمع أن خيربك اعتلى العرش سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ هـ) بعد عزل تمربغا ، وكان اعتلاؤه العرش فى المساء وعزله فى الصباح التالى ، مما جعل المعاصرين يطلقون عليه « سلطان ليلة ![2] » . ولم تستقر الأوضاع فى سلطنة المماليك بعد تلك الفترة القلقة إلا بقيام السلطان الأشرف قايتباى فى منصب السلطنة سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) .

ذلك أن السلطان الأشرف قايتباى ظل فى الحكم قرابة تسعة وعشرين

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٩ (طبعة كاليفورنيا) .
(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٨ — ٨٩ .

سنة (٨٧٢ — ٩٠١ هـ = ١٤٦٨ — ١٤٩٦ م) ، وهى مدة طويلة ، لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك عدا السلطان الناصر محمد بن قلاون. وقد أثبت السلطان قايتباى طوال حكمه أنه من أقدر السلاطين المماليك فى ميدان الحرب وأوسعهم خبرة بشئون العالم الخارجى وأكثرهم شجاعة وحكمة(١) .

وعلى الرغم من ثورات الجلبان فى عهد قايتباى ، وجشعهم فى الحصول على الأموال دون تقدير لظروف البلاد والأخطار التى هددتها فى ذلك الوقت ، فإن قايتباى استطاع أن يواجه فى جرأه وعزيمة المشاكل الكبرى التى هددت دولته . وكانت المشكلة الأولى التى واجهت دولة المماليك فى ذلك العصر من جانب الدول التركمانية التى هددت الأطراف الشمالية لدولة المماليك فى شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى ؛ وأهم هذه الدول دولة دلغادر ودولة رمضان ودولة قرمان ، ثم دولتى الشاه البيضاء والشاه السوداء(٢).

وقد رأينا كيف قام السلطان المؤيد شيخ بحملتين سنتى ٨٢١ ، ٨٢٢ هـ (١٤١٨ ، ١٤١٩) على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لارغام تلك الدويلات التركمانية على الخضوع لسلطنة المماليك . وإذا كانت هاتان الحملتان قد نجحتا فى إرهاب التركمان ، مما ترتب عليه هدوء العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك ، فان هذا الهدوء جاء مؤقتاً ، بدليل أن زعيم دولة الشاه البيضاء انتهز فرصة سوء التفاهم بين برسباى وشاه رخ حول مسألة كسوة الكعبة ، وأغار على حدود سلطنة المماليك ببلاد الشام . وقد رد برسباى على ذلك بإرسال حملة خربت الرها — سنة ٨٣٣ هـ (١٤٣٠م) — وكانت تابعة للشاه البيضاء — ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يقوم بعمل حاسم لتأديب التركمان . وربما

---

(١) Lane-Poole : op. cit., pp. 343-344.

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 590.

كان اختلال أحوال المماليك وما سببوه من اضطرابات منذ أواخر عهد برسباى دافعا لهدوء الموقف نسبيا بين التركمان من ناحية ، وسلطنة المماليك من ناحية أخرى ، حتى قيام قايتباى فى الحكم[1] .

على أن ازدياد نفوذ العثمانيين وتدخلهم فى شئون تلك الامارات التركمانية على حدود دولة المماليك ، جعل السلطان الأشرف قايتباى يحس بالخطر الجديد ويفكر فى وضع حد للتركمان حتى لايكونوا أداة لتغلغل النفوذ العثمانى فى أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال .

ولذلك قام السلطان قايتباى بإرسال عدة حملات ضد شاه سوار أمير دلغادر الذى كان يتمتع بتأييد السلطان محمد الفاتح العثمانى . وقد نجحت الحملة الأخيرة التى أرسلها قايتباى بقيادة الأمير يشبك سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م) فى إنزال الهزيمة بشاه سوار والاستيلاء على قلعة عينتاب وأذنه وطرسوس وأخيراً تم القبض على شاه سوار وأرسل إلى القاهرة ، فى حين قام القائد يشبك بتنظيم شئون إمارة دلغادر ، وعين عليها الأمير بوداق ، وهو أخو شاه سوار ، وكان الأول يعتمد على تأييد سلطنة المماليك فى حين اعتمد شاه سوار على تأييد السلطنة العثمانية . ولم تلبث أن عادت حملة يشبك إلى القاهرة سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) فاستقبلت استقبالا حافلا فى حين أمر قايتباى بشنق شاه سوار على باب زويلة .[2]

ولم تقتصر المتاعب التى واجهت سلطنة المماليك من جانب التركمان على ماأثاره أمراء دلغادر من فتن واعتداءات ، بل إن قبيلة الشاه البيضاء —

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٩ وما بعدها .
(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 590-594.

وصاحبها حسن الطويل — دأبت على الاغارة على أعمال حلب ، الأمر الذى جعل السلطان قايتباى يرسل حملة بقيادة يشبك سنة ٨٧٧هـ(١٤٧٣م) ضد حسن الطويل(١) . وعلى الرغم من أن هذه الحملة أحرزت إنتصاراعلى التركمان عند البيرة على نهر الفرات ، إلا أن يشبك انتهز فرصة الفوضى التى عمت إمارة الشاه البيضاء عقب وفاة أميرها حسن الطويل سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨م) وقام بحملة جديدة لإخضاع تلك الإمارة سنة ٨٨٥هـ(١٤٨٠م) ولكن حاكم الرها — وهو أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل — استطاع أن ينزل الهزيمة بالمماليك فى تلك السنة ، وأسر يشبك وقتله ، كما قتل كثيراً من أمراء المماليك(٢) . ويبدو أن ظروف قايتباى لم تساعده على الإنتقام لشرذه من تلك الكارثة ، فقنع بعقد الصلح مع دولة الشاه البيضاء بعد قليل .

وفى الوقت الذى حرص السلطان قايتباى على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال ، لم يهمل شئون رعاياه ودولته . حقيقة إنه تعسف فى جمع الأموال وفرض الضرائب وتطبيق سياسة الاحتكار ، ولكن أعماله تثبت لنا أنه استغل الأموال الطائلة التى جمعها فى إقامة المنشئات العديدة أو تجهيز الجيوش . ويعتبر مسجدا قايتباى بالقاهرة والوكالات التى أقامها من أجمل المنشآت التى تمتاز بفنها العربى الأصيل(٣) . هذا إلى شغف قايتباى بإصلاح آثار وترميم ومنشآت اسلافه ، كما تثبت ذلك الكتابات والنقوش العديدة المثبتة فى مدارس ذلك العصر ومساجده فضلا عن القلعة . وقد عرف عن قايتباى حب التنقل والأسفار ، نطاف بالشام وأعالى الفرات ومصر العليا

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٦ (تحقيق محمد مصطفى) .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٧١ (محمد مصطفى) .
(٣) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧٧ — ٧٨ ، ٨٢ — ٨٤ .

والدلتا ، بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وبيت المقدس[1]. وأينما ذهب كان يخلد إسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس وغيرها من المنشآت الحيوية . وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى القول بأنه لا يوجد سلطان آخر من سلاطين المماليك — عدا الناصر محمد بن قلاون — فعل ما فعله قايتباى من عناية بالفنون وخاصة فن العمارة[2].

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٢٩ وما بعدها (تحقيق محمد مصطفى)
(٢) Lane-Poole : op. cit., p. 344.

الفصل السادس

نهاية دولة المماليك

قانصوه الغورى :

ساءت أحوال مصر فى أواخر عصر السلطان قايتباى ، إذ ضاق الناس بكثرة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم ، كما انتشر الطاعون إنتشاراً خطيرا سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، على قول ابن اياس ، حتى إنه كان يموت بالقاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف نفس . ولم ينج المماليك أنفسهم من ذلك الوباء فماتت أعداد غفيرة منهم ، قدرها المؤرخون بثلثهم ، وكان من جملة الموتى زوجة السلطان وابنته . وزاد الموقف سوءا إنعدام الأقوات وانخفاض النيل وانتشار طاعون المواشى[1] .

وفى وسط تلك الظروف القاسية لم يتورع المماليك عن الوقوع فى منازعات مع بعضهم البعض سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٥ م) . أما السلطان قايتباى نفسه فقد استبد به المرض وتقدم به السن حتى جاوز الثمانين من عمره ، فلم يجد بدا من التنازل عن العرش لابنه محمد . ثم توفى بعد ذلك فى اليوم التالى مباشرة سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٦م)[2] .

ومن الواضح أن محمد بن قايتباى الذى تلقب بالناصر كان لا يقوى على

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ .

(٢) Wiet : op cit., p. 604.

الصمود فى وجه كبار الأمراء ، لاسيما وأنه كان صغيرا فى الرابعة من عمره . وقد اتخذ النزاع بين كبار الأمراء شكل تنافس حول الوصاية على السلطان الصغير ؛ على أساس أن هذه الوصاية تعتبر خطوة تمهيديه للتخلص من ذلك الطفل والفوز بمنصب السلطنة . وكان أن خرج الأمير قانصوه خمسمائه فائزا من تلك الجولة وبذلك تولى منصب الأتابكية واستبد بالسلطة[1] .

وإذا كان قانصوه خمسمائة قد استطاع عزل محمد بن قايتباى ليعلن نفسه سلطانا (سنة ٩٠٣ هـ = ١٤٩٧ م) ، وما كان اغناه عن هذه السلطنه ، على قول ابن اياس ، فإن خصوم قانصوه لم يلبثوا أن خلعوه وانتهى أمره بالقتل ، فى حين أعادوا الناصر محمد بن قايتباى مرة أخرى إلى السلطنه[2]. ولكن الناصر محمد لم يلبث أن استثار نفوز الناس بحماقته وطيشه وميله لسفك الدماء ، فى الوقت الذى استبد المماليك الجلبان بالأمور وعاثوا فسادا فى البلاد والعباد . وأخيرا ضاق الأمراء بإستبداد المماليك الجلبان وخضوع محمد بن قايتباى لرأيهم ، فقتلوا السلطان محمد سنة ٩٠٤هـ(١٤٩٨م) واختاروا شريكهم الظاهر قانصوه — وهو خال القتيل — ليتولى السلطنه. وهكذا تعاقب السلاطين بسرعة فى تلك الفترة المضطربة من تاريخ سلطنة المماليك ، فعزل الظاهر قانصوه ليتولى بدله الأشرف جانبلاط سنة ٩٠٥ هـ (يونيه سنة ١٥٠٠ م) ، ثم عزل وخنق هذا الأخير ليحل محله العادل طومان باى (الأول) سنة ٩٠٦ هـ (يناير سنة ١٥٠١ م) ، ولم يبق العادل طومان باى فى منصب السلطنة سوى بضعة أشهر حتى خنق وحل محله الأشرف قانصوه الغورى فى أبريل سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م) .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٣٩ وما بعدها (محمد مصطفى) .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

ولعل الميتة الوحشية التى تعرض لها سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم هى التى جعلت قانصوه الغورى يتهرب من منصب السلطنه عندما عرضه عليه الأمراء ، ويمتنع من ذلك ويبكى ، ولكنه قبل أخيرا ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله إذا أرادوا خلعه[1] . ولم يكن أصرار الأمراء على أختيار قانصوه الغورى لاعتقادهم فى أحقيته نظرا لكبر سنه ، وإنما لاعتقادهم أنه ضعيف يمكنهم التلاعب به وفق أهوائهم.

ولكن لم يكد السلطان الأشرف قانصوه الغورى يلى السلطنة حتى أثبت أنه رجل قوى صلب العود ، رغم أنه كان قد تجاوز الستين من عمره . ذلك أنه عمل فى سرعة على إعادة الأمن والاستقرار إلى العاصمة وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الامراء[2] . ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزانة الدولة . على أنه يؤخذ على السلطان الغورى أنه اتبع سياسة تعسفية فى أشباع خزانة الدولة ، فجمع ضرائب عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب على الاراضى والحوانيت والعقارات وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا إلى أنه تلاعب فى العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، وضاعف المكوس والرسوم الجمركية ، مما أنزل بالتجار على وجه الخصوص أضراراً بالغة[3] . وكانت النتيجة أن حقق الغورى أغراضه وحصل على ما كان يطمع فيه من أموال ولكن على حساب شعب محطم ، أثقلت كاهله الالتزامات والاحتكارات والضرائب ، وأقلقت مضاجعه الفتن والمنازعات بين أمراء

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤ وما بعدها (محمد مصطفى) .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٩ — ٩٠ (محمد مصطفى) .

المماليك وطوائفهم. ولم يشفع للسلطان الغورى لدى رعاياه أن ذلك السلطان شيد مسجداً ومدرسة فى الحى الذى نسب إليه فيما بعد، وهو حى الغورية؛ كما عنى بطريق الحج وحفر به بعض الآبار، فضلا عن عنايته بحفر الترع وتحصين الاسكندرية ورشيد، وإصلاح القلعة. هذا إلى أنه عرف عن السلطان الغورى عنايته بمماليكه فأكثر من أعدادهم عن طريق الشراء، وصرف كثيراً من الأموال على مظهر بلاطه وفخامته، وأصبحت مماليكه وخيوله وجواهره ومطبخه السلطانى مضرب الأمثال، كما اشتهرت مجالسه الأدبية التى ضمت الشعراء والادباء والعلماء[1].

الصدام بين المماليك والبرتغاليين :

ولم تحدث قلاقل ذات خطورة فى الفترة الأولى من حكم السلطان الغورى، إذا استثنينا بعض الفتن والثورات من جانب المماليك والعربان، وهذا النوع من الثورات كان مألوفاً فى ذلك العصر. ولم يصادف السلطان الغورى مشقة فى إخمادها. ولكن الخطر الكبير الذى ظهر فى ذلك العصر والذى هدد مصر فى كيانها وفى المورد الأول لثروتها وغناها أتى من ناحية الجنوب — أعنى من ناحية المدخل الجنوبى للبحر الاحمر؛ ثم من ناحية الشمال — أى من جانب العثمانيين.

والمعروف أن حركة المغول التوسعية أدت منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) إلى ضياع أهمية طرق التجارة الرئيسية المألوفة بين الشرق والغرب وبخاصة طريق الخليج الفارسى والطريق البرى المار بسمرقند؛ وبذلك لم يبق هناك طريق آمن بعيد عن عبث المغول سوى

(١) انظر كتاب (الكوكب الدرى فى مسائل الغورى) مخطوط، وعبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغورى.

طريق البحر الأحمر ومصر . وقد استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة: وفرضوا ضرائب مرتفعة على الغلات الآسيوية التى احتاجت إليها أوربا وحرصت على استيرادها من الشرق — وبخاصة التوابل . بل إن سلاطين المماليك فرضوا نظاماً احتكارياً قاسياً حتى أصبحت التوابل تباع للتجار الأوربيين فى الاسكندرية ودمياط بثمن يفوق أربعين مرة ثمنها المستوردة به من بلدان الشرق الأقصى[1] .

وكان أن ضاق التجار الأوربيون — فضلا عن المستهلك الأوربى — بذلك الوضع ، فبدأت الجهود لاكتشاف طريق آخر غير طريق مصر والمماليك يمكن الأوربيين من الحصول على متاجر الشرق . ولما كانت البندقية هى العميل الأول لدولة المماليك فى تجارة الشرق الأقصى فإنه كان من المنتظر أن تبدأ منافستها جنوة الجهود للبحث عن طريق جديد إلى الشرق . وفعلا استطاعت جنوة اكتشاف بعض أجزاء الساحل الغربى لأفريقية — فى مواجهة جزر كناريا — مما يعتبر مقدمة للجهود التى أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد[2]. وكان أن نجح بارثلميو دياز فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ، وأعقبه فاسكودى جاما الذى تمكن من الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول إفريقية سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) ؛ وبذلك حقق البرتغاليون نصراً عالميا جديداً ، واستطاعوا أن يوفروا للسوق الأوربية التوابل وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى بثمن يبلغ ربع الثمن الذى كانت تباع به فى الإسكندرية ودمياط .

وسرعان ما اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجىء فى طرق

---

(١) مركز مصر فى التجارة العالمية فى أواخر العصور الوسطى — بحث الدكتور سعيد عاشور ، نشر فى المجلة المصرية للعلوم السياسية (ديسمبر ١٩٦٢) .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحصار الاقتصادى على مصر زمن الحروب الصليبية ص١١٠ (بحث نشر فى المجلة المصرية للعلوم السياسية ، اكتوبر ١٩٦٢) .

التجارة العالمية ؛ إذ بدأ الاعراض عن شراء التوابل من السوق المصرية ؛ مما حرم سلاطين المماليك من المورد الأول الذى استمدوا منه أسباب قوتهم وعظمتهم . ولم تكن البندقية أقل تأثراً من سلطنة المماليك بما سببه لها اكتشاف البرتغاليين للطريق الجديد ، لأن معنى ذلك أن يحل البرتغاليون محل البنادقة فى الوساطة التجارية بين الشرق والغرب[1] . لذلك اتفقت مصالح البندقية مع مصالح سلطنة المماليك ، فحرض البنادقة السلطان الغورى على إرسال حملة إلى قاليقوط لطرد البرتغاليين من الهند . هذا فى الوقت الذى لجأ الغورى إلى أسلوب آخر هو تحريض الحكام المسلمين بالهند على طرد البرتغاليين ومحاربتهم . أما البندقية فقد دأبت من جانبها على تأليب القوى الأوربية ضد البرتغاليين وحثها على عدم التعامل معهم . على أن جميع جهود الغورى والبنادقة ذهبت مع الريح ، فلا الحكام المسلمون فى الهند تحركوا ضد البرتغاليين ولا الدول الأوربية قبلت أن تتخلى عن التعامل مع البرتغاليين الذين قاموا بتموين السوق الأوربية بحاجته من التوابل بسعر أرخص كثيراً من أسعار البنادقة[2] .

ولما وجد الغورى أن الغرب الأوربى لم يعبأ بتهديداته ، وأن جهود البندقية لم تفلح فى عرقلة طريق البرتغاليين ، صمم على القيام بعمل حاسم ضد البرتغاليين بعد أن أصبحت المعركة معركة حياة أو موت بالنسبة لسلطنة المماليك. ويمكننا أن ندرك مدى الانهيار المفاجىء فى دخل السلطان بعد أن أصبحت التوابل مكدسة فى الثغور المصرية لا تجد من يشتريها من التجار الأوربيين . لذلك أعد الغورى حملة بحرية ، كبيرة وأرسلها فى البحر الأحمر سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) بقيادة حسين الكردى نائب جدة . وكان أن استطاعت هذه الحملة أن تنزل الهزيمة بالبرتغاليين قرب الشواطىء الغربية للهند سنة ٩١٤هـ

---

(١) Heyd . Hist. du Commerce, T. 3, p. 320.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٤ ، ١٤٦ .

(١٥٠٨ م) . ولكن البرتغاليين انتقموا بسرعة لأنفسهم فحطموا الأسطول المصرى فى العام التالى سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩م) فى موقعة ديو البحرية[١] .

وإذا كان السلطان الغورى لم ييأس بعد موقعة ديو ، وإنما قام بعدة محاولات أخرى للقضاء على النفوذ البرتغالى فى الهند ، إلا أنه من الواضح أن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح من بدايتها . وهكذا ذبلت تجارة مصر مع الشرق الأقصى والغرب الأوربى جميعا ، وبذبول تلك التجارة ذبلت الدولة نفسها . وكان ذلك فى الوقت الذى بدأ يشتد خطر العثمانيين على دولة المماليك فى الشام ومصر .

العثمانيون والمماليك :

شهد القرن الرابع عشر تضخم نفوذ قوة جديدة فى الشرق الأدنى ، هى قوة الأتراك العثمانيين الذين كانوا يعيشون فى بداية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) فى إقليم خراسان ، ثم اضطروا تحت ضغط المغول إلى التحرك غربا حتى استقروا فى آسيا الصغرى . وقد أتاح انهيار سلطنة سلاجقة الروم بقونيه سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) فرصة طيبة للعثمانيين ، فأخذوا يتوسعون بسرعة على حساب الإمارات والقبائل التركية الكثيرة التى وجدت بآسيا الصغرى فى ذلك الوقت ، وعلى حساب الممتلكات والأراضى البيزنطية ، فاستولوا على بروسه سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) وعلى نيقيه سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) ، ثم عبروا إلى الشاطىء الأوربى واستولوا على غاليبولى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م)[٢] . وهكذا أخذت الدولة العثمانية الناشئة تتوسع توسعا آمنا سريعا على حساب الدولة البيزنطية من ناحية وعلى حساب القوى الإسلامية فى آسيا الصغرى من ناحية أخرى ، دون

---

(١) Wiet : op. cit., p. 618.

(٢) Gibbons : The Decline and Fall of the Roman Empire, pp. 101-103.

أن يعوق تقدمها عائق حتى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد).

على أن الدولة العثمانية تعرضت لضربة خطيرة كان من الممكن أن تقضى عليها قضاء نهائيا فى أوائل القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر للميلاد) ، عندما اجتاح تيمور لنك معظم آسيا الصغرى وأنزل هزيمة ساحقة بالجيوش العثمانية فى موقعة أنقره سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ووقع السلطان العثمانى بايزيد الأول نفسه أسيراً حيث مات فى الأسر فى العام التالى[١] . وكان الأمل ضعيفاً فى استطاعة الدولة العثمانية النهوض من تلك الكبوة ، ولكنها نهضت بسرعة ، وتمكن السلطان محمد الأول العثمانى من إحياء الدولة وربط أجزائها واستئناف سياسة التوسع من جديد . ولم يستطع الغرب الأوربى وقف توسع العثمانيين فى البلقان ، حتى سقطت القسطنطينية فى قبضة السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) وبذلك انتهت الدولة البيزنطية من صفحة التاريخ وحل سلاطين آل عثمان محل قياصرة الرومان فى مدينة الإمبراطور قسطنطين العظيم[٢] .

وفى خلال تلك الأحداث التى صحبت نمو الدولة العثمانية واتساعها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم يظهر فى الأفق ما يدل على احتمال حدوث صدام بين العثمانيين والمماليك فى مصر والشام. ولا نكون مبالغين إذا قررنا أن دولة المماليك أخذت تنظر بعين الارتياح إلى الانتصارات التى حققها العثمانيون المسلمون على حساب القوى الأوربية المسيحية فى البلقان ، بل إن السلطان إينال أمر بتزيين القاهرة سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) عندما وصلته الأخبار باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية[٣]. وهكذا أخذ المماليك ينظرون

---

(١) Cam. Med. Hist. vol. 4, 682-684.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٨٣ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ١٩٩ .

إلى كل نصر يحقيقه العثمانيون على أنه نصر الاسلام والمسلمين . وأدرك العثمانيون هذه الحقيقة فدأبوا كلما أحرزوا إنتصارا فى موقعة كبرى على إرسال بعض أسرى الأوروبيين إلى القاهرة ، ليشاركهم إخوانهم المسلمون فى مصر فرحة النصر. وفى الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك فى القاهرة على إرسال التهانى إلى الدولة العثمانيه كلما تولى سلطان جديد أو كلما أحرزت الجيوش العثمانية نصراً جديداً[1] .

غير أنه لم تكد السلطنة تنقل إلى خشقدم سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦١ م) حتى أخذت العلاقات بين دولتى المماليك والعثمانيين تتعكر . ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد قنعت عندئذ بما حققته من فتوح فى البلقان وأخذت تولى وجهها مرة أخرى صوب ما تبقى خارجا عن السيادة العثمانية من أمارات فى آسيا الصغرى . وكانت أهم هذه الأمارات إمارتا قرمان ودلغادر ، وهما إمارتان تركيتان مشمولتان بحماية سلطنة المماليك ، واعتمدت عليهما هذه السلطنة فى شئون الأمن والدفاع عن مصالحها فى شمال الشام والعراق[2] . والواقع أن الصدام بين المماليك والعثمانيين كان أمرا طبيعيا بين أكبر قوتين تتزعمان العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى واتخذتا الحرب والقتال أداة لسياستهما ، فصار لابد لاحدى هاتين القوتين من أن تنتصر على منافستها وتستأثر بزعامة المسلمين فى تلك المنطقة . لذلك اتخذ التنافس بين سلطان المماليك وسلطان العثمانين إمارتى قرمان ودلغادر ميدانا له ، وظهر ذلك بوضوح عندما توفى أميرا قرمان ودلغادر سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٥ م) إذ قامت الدولة العثمانية بمناصرة أميرين غير من قامت دولة المماليك بتأييدهما.

وإذا كانت العلاقات قد تحسنت بعد عهد خشقدم بين سلطنة المماليك

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور سنة ٨٥٧ هـ « صفحات لم تنشر » حققها ونشرها محمد مصطفى ؛ ص ١٤ .

(٢) Lane-Poole : op. cit., pp. 346-347.

وسلطنة العثمانيين فإن هذا التحسن لم يكن إلا فى ظاهر الأمور ، لأن أطماع الدولة العثمانية من ناحية ومخاوف دولة المماليك من ناحية أخرى ظلت قائمة. ولا أدل على ذلك من أن كل طرف من الطرفين حرص على إيواء الأمراء الخارجين على الطرف الآخر ، فرحبت سلطنة المماليك ببعض كبار الأمراء الفارين من القاهرة والشام ، ورحب السلطان قايتباى بأخ للسلطان بايزيد الثانى — اسمه جم — هارب من وجهه[1]. وقد حاول بايزيد الثانى أن يحرم سلطنة المماليك من انفرادها بحماية الحرمين مما يضفى عليها مكانة خاصة لا تتمتع بها دولة إسلامية أخرى ، فطلب السماح له بالقيام ببضعة إصلاحات فى مكة ولكن قايتباى رفض طلبه ، مثلما رفض سلاطين المماليك السابقين طلب تيمور لنك لكسوة الكعبة من قبل . وإزاء ذلك لم يسع بايزيد الثانى سوى أن يتحرش بسلطنة المماليك ، واتخذ إمارة دلغادر — الخارجة عن طاعة المماليك عندئذ — مسرحا لذلك التحرش[2].

على أنه مهما يكن من مصادمات بين المماليك والعثمانيين فى ذلك الدور[3] ، فإن الحرب الفعلية بين الطرفين لم تتخذ شكلا جديا خطيراً إلا فى عصر السلطان سليم الأول العثمانى من ناحية والسلطان قانصوه الغورى من ناحية أخرى .

وقد بدأ السلطان سليم الأول العثمانى بمحاربة اسماعيل الصفوى شاه إيران لتصفية ما بين الدولتين العثمانية والصفوية من مشاكل مذهبية وسياسية. وأدى انتصار العثمانيين على الصفويين سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) واستيلاء السلطان سليم الأول على الجزيرة والموصل وغيرها من الجهات ذات

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 598.

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٥ .

(٣) ابن إياس بدائع الزهور سنة ٨٧١ هـ وما بعدها ٥ ص ١٧٦ صفحات لم تنشر .

الروابط القديمة بسلطنة مصر منذ أيام الأيوبيين ، إلى تهيئة مزيد من الفرص لوقوع الصدام بين العثمانيين والمماليك . ثم كان أن قضى السلطان سليم سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) على إمارة دلغادر المشمولة بحماية سلطنة المماليك ، مما جعل الصدام بين الدولتين أمراً لامفر منه[١] .

ولم يستطع السلطان الغورى أن يظل ساكناً إزاء حوادث الاستفزاز العثمانى من ناحية ، والأخبار التى أخذت تترامى إلى مسامعه عن قرب هجوم العثمانيين على أراضى الدولة المماليكية من ناحية أخرى . لذلك أسرع الغورى إلى استرضاء المماليك الثائرين بسبب تأخر رواتبهم ، ثم أخذ يستعد للمعركة القادمة ، فاستدعى العسكر إلى ديوان الجيش وأعد آلات الحرب ، وأسرع بتحصين قلعة قايتباى فى الاسكندرية . وفى ذلك الجو المشحون بروح الحرب وصلت إلى القاهرة رسالة من خاير بك نائب حلب ملخصها أن السلطان مخدوع فيما لديه من أخبار بخصوص نوايا سليم وأن المقصود من الاستعدادات التى قام بها السلطان العثمانى محاربة الشاه إسماعيل الصفوى[٢] . وأهمية هذه الرسالة ترجع إلى أنها تكشف الستار عن دور الخيانة الذى حرص خاير بك على القيام به منذ ذلك الوقت والذى كان له أبعد الأثر فيما بعد فى الهزيمة التى حلت بالغورى .

ومهما يكن من أمر ، فإن الغورى لم ينخدع بتلك الرسالة ، وإنما عقد مجلساً حربياً لبحث الأمر مع أمرائه ، واستقر رأى الجميع على ضرورة المبادرة بإرسال حملة كبيرة إلى حلب إستعداداً للطوارىء ، على أن يكون السلطان الغورى نفسه على رأس تلك الحملة[٣] وهكذا لم ينتصف شهر مايو

---

(١) Wiet : op. cit., pp. 632-633.
وابن إياس ، بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٣٥ وما بعدها « محمد مصطفى » .

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢١٤ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٣٥ وما بعدها ، ج ٥ ص ٢٧ — ٣٨ .

سنة ١٥١٦ م (٩٢٢ هـ) إلا وكان الغورى قد تأهب للخروج على رأس جيشه إلى الشام . وفى مرحلة التأهب النهائى بالريدانية ، وصلت إلى الغورى رسالة من خاير بك تصحبها رسالة أخرى من السلطان سليم العثمانى تحوى كثيرا من عبارات الود والمحبة والرغبة فى التعايش السلمى مع سلطنة المماليك. وفى هذه الرسالة يخاطب السلطان سليم الغورى قائلا « أنت والدى وأسألك الدعاء[1] !! » .

ولكن هذه الخديعة لم تنطل على الغورى ، فخرج على رأس جيشه إلى الشام بعد أن أناب عنه فى السلطنة الأمير طومانباى .

ولم يكن السلطان الغورى مبالغا فى سوء ظنه بالعثمانيين عندما أرسل إليه السلطان سليم رسولين فى حلب يعرضان الصلح ، إذ أدرك الغورى أن « كل هذا حيل وخداع حتى يبطل همة السلطان عن القتال ويثنى عزمه عن ذلك » ، على قول ابن اياس . كذلك لم يكن الغورى مبالغا فى الحذر عندما استدعى — وهو بحلب — أمراءه جميعا وحلفهم على القرآن — فى حضرة الخليفة العباسى — بأنهم لن يخونوه فى ساعة الشدة . ذلك أن الأحداث السريعة أثبتت أن الغورى كان على حق فى جميع مخاوفه ، وإذا كان قد رد على رسالة سليم بالحسنى ، فإن السلطان العثمانى أساء استقبال رسول الغورى وصاح فيه « قل لاستاذك يلاقينا على مرج دابق[2] » ! .

وكان أن دارت المعركة فعلا عند مرج دابق ، فحارب المماليك بشجاعة نادرة ، حتى لقد فكر السلطان سليم العثمانى فى التقهقر لاعادة تنظيم صفوفه وفى تلك اللحظة الحرجة كشف خاير بك الخائن النقاب عن وجهه ، فأشاع

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٤٥ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٨ .

بين صفوف الجند أن السلطان الغورى يأمرهم بعدم التقدم لحين صدور أوامر أخرى ، ثم لم يلبث خاير بك أن انسحب من الميدان بعد أن أشاع أن السلطان الغورى خر قتيلا . وهكذا تفرقت صفوف المماليك وانهارت مقاومتهم ، وعبثا حاول الغورى — بعد فوات الأوان — أن يوقف تيار الفرار فصاح فى جنده المدبرين « ياأغوات الشجاعة ! صبر ساعة[1] »! وكان لهذه الصدمة وقعها فى قلب الشيخ ، فطلب الغورى ماء ليشرب « ثم أغمى عليه وسقط ميتا » من فوق فرسه . وقيل أن السلطان سليم قطع رأس الغورى وأرسلها إلى اسطنبول فى حين دفنت جثته عند حلب : « والصحيح أنه لم يعلم حاله[1] » .

طومان باى وسقوط دولة المماليك :

صارت كارثة مرج دابق مزدوجة بوفاة الغورى . ففرت فلول المماليك هاربة نحو دمشق فى طريقها إلى القاهرة . أما أهل القاهرة فقد وقع عليهم الخبر وقع الصاعقة لاسيما وأن أخبار هزيمة مرج دابق وصلت مصحوبة بأنباء زحف السلطان سليم العثمانى على بلاد الشام فى طريقة إلى مصر . وكان الموقف فى القاهرة يتطلب إجراء عاجلا سريعا ، فاختير طوماى باى سلطانا سنة ٩٢٢ هـ (اكتوبر سنة ١٥١٦ م) وتلقب بلقب الأشرف ، وهو آخر سلاطين المماليك فى مصر والشام[2] .

ومن الواضح أن السلطان الأشرف طومان باى ورث تركة مثقلة ، وتولى السلطنة فى ظرف لا يحسد عليه حاكم . وكان أقل ما ينتظره بعد أن

(١) ابن زنبل : ص ٣٠ .
(٢) ابن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ق ٢ ص ٢٤ «تحقيق محمد مصطفى»
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ح ٥ ص ١٠٣ .

ضحى وقبل منصب السلطنة فى تلك الظروف هو أن يجد تعاونا من أمراء المماليك ، ولكن خاب ظنه لأن المماليك كانوا قد وصلوا فى ذلك الدور إلى درجة من الانحلال أعمتهم عن رؤية الخطر المحيط بهم .

من ذلك أن طومان باى فكر فى الإسراع إلى بلاد الشام لملاقاة العثمانيين هناك قبل أن يتمكنوا من دخول مصر ، ولكن المماليك تعللوا بالأعذار وطالبوه بنفقات وأموال باهظة ليجيبوه إلى رغبته . ولما لم يجد طومان باى استجابة من المماليك فى تلك اللحظة الحرجة اضطر إلى أن يجمع من استطاع جمعه « من الزعر والصبيان والشطار والمغاربة »[1] ؛ وخرج إلى الريدانية فى طريقه لمقاتلة العثمانيين .

أما السلطان سليم العثمانى فكان قد استولى على حلب فى سهولة عقب موقعة مرج دابق ، ثم دخل دمشق بعد مفاوضات قصيرة ، وقضى بها نحو شهرين زحف بعدها تجاه حدود مصر . وفى الوقت الذى استولى السلطان سليم على غزة وبدأ يخترق الصحراء الشرقية فى طريقه إلى القاهرة ، أراد طومان باى الخروج لملاقاة العثمانيين فى تلك الصحراء وهم متعبون من مشقة الطريق ، ولكن أمراء المماليك رفضوا الأخذ برأيه اعتقاداً منهم أن خنادقهم ستعصمهم من الهزيمة[2] .

وفى معركة الريدانيه أظهر طومان باى شجاعة لا تقل عن شجاعة الغورى فى مرج دابق . ولكن فرداً واحداً مهما تبلغ إرادته وشجاعته لا يستطيع أن يتغلب على جيش متماسك كبير ، فحلت الهزيمة بالمماليك وفر طومانباى ليواصل المقاومة بين طرقات القاهرة وأحيائها ، حتى نجح فعلا فى إخراج سليم من القاهرة بعد أن دخلها . وهنا ظهرت عوامل الخيانة مرة أخرى

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١١٩ .
( ) ابن زنبل : ص ٤٧ — ٥٠ .

ليقضى الله أمراً مفعولا ، ففوجىء طومانباى أثناء جهوده الجبارة على ضفاف النيل بالجيزة بهجوم البدو والأعراب على مؤخرته ، مما اوقعه بين نارين ، فاضطر إلى التقهقر إلى قرب وردان حيث دارت معركة بين جيشه الصغير والعثمانيين [1] . وعندما انتصر عليه العثمانيون، فر طومانباى إلى أحد مشايخ الأعراب بمديرية البحيرة — واسمه حسن بن مرعى — طالباً حمايته ، ولكن هذا الشيخ نسى ما كان لطومانباى من فضل سابق عليه — إذ كان قد أخرجه من السجن أيام الغورى — فتنكر له وسلمه للعثمانيين .

ولما وقع طومانباى فى قبضة السلطان سليم، فرح السلطان العثمانى وصاح « الآن ملكنا مصر ! » [2] .

وتجمع المراجع على شجاعة طومانباى عندما وقف بين يدى السلطان سليم العثمانى يقول أنه لم يفعل غير ما أملاه عليه الواجب ، وأن الله تعالى أمر بالدفاع عن النفس ورد المعتدين . ولما عاتبه سليم لأنه لم يطعه من أول الأمر ، رد عليه طومان باى « الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا ؛ وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان . . . . » . وهكذا حتى سيق طومانباى إلى باب زويلة حيث شنق سنة ٩٢٣هـ (٢٣ أبريل سنة ١٥١٧م).

وقد وصف المؤرخ المعاصر ابن اياس اللحظات الأخيرة من حياة طومان باى وصفاً رائعاً، فقال أنه سيق من بولاق إلى باب زويلة «فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدرى مايصنع به . فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال

---

(١) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٢٦ .

(٢) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ١٣٢ .

ووقفت حوله العثمانية بالسيوف . فلما تحقق أنه سيشنق ، وقف على أقدامه على باب زويله ، وقال للناس الذين حوله (أقروا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات) . فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات، وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلى (أعمل شغلك) فلما وضعوا الخية فى رقبته ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على باب زويله . وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس وعلى رأسه شاياه جوخ أحمر وفوقها ملوطه بيضاء بأكمام كبار ، وفى رجله لباس خوخ أزرق .

فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف ، فإنه كان شاباً حسن الشكل،سنه نحو أربع وأربعين سنة، وكان شجاعاً وبطلا ، تصدى لقتال ابن عثمان وقتل منهم مالا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره ، ووقع منه فى الحرب أمور مالا تقع من الأبطال » .

هذا هو حكم التاريخ على بطل من أبطاله ، هو آخر سلاطين المماليك فى مصر والشام[1] .

---

(1) ابن زنبل ، ص ١٤١ — ١٤٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ح ٥ ص ٧٦ .

الفصل السابع

أحوال مصر فى عصر سلاطين المماليك

الحياة الإقتصادية :

أدرك سلاطين المماليك أهمية الزراعة للبلاد ، بوصفها عماد الثروة القومية، لذلك عنوا بها عناية فائقة فأنشأوا الجسور وشقوا الترع لتوفير مياه الرى الأراضى التى يتعذر وصول الماء إليها . ومن أهم السلاطين الذين عنوا بهذه الناحية السلطان الناصر محمد بن قلاون الذى عهد إلى بعض الأمراء بعمارة كافة جسور مصر فى الوجهين البحرى والقبلى والكشف عليها ، بل إن هذا السلطان أشرف بنفسه على إنشاء بعض الجسور ، فكان يخرج أحيانا مع المهندسين ليوجههم حتى يتم بناء الجسر[1] .

وقد قسمت أرض مصر الزراعية إلى أربعة وعشرين قيراطا اختص السلطان منها بأربعة قراريط، والأمراء بعشرة ، وما تبقى خصص للأجناد . وروعى فى ذلك التقسيم أن توزع الأرض على هيئة إقطاعات تتفاوت فى مساحتها ، وفى خصوبتها ومقدار ريعها . على أن زمام الأرض فك وعدل أكثر من مرة فى عصر المماليك بعد مسح الأراضى الزراعية فى البلاد، وهى العملية التى تعرف باسم الروك . وقد اشتهر فى تاريخ دولة المماليك الروك الذى تم فى عهد السلطان لاجين سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) والروك الذى تم فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م)[2] .

---

(١) النويرى ، نهاية الإرب ، ج ٣٩ ورقة ٩١ (مخطوط) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٤ .

وقام بفلاحة الأرض جمهرة الفلاحين الذين عاشوا فى حال من الفقر والحرمان لا يخفى على الباحث فى تاريخ ذلك العصر ؛ فالفلاح ظل فى ذلك العصر مربوطا إلى الأرض التى يفنى حياته فى خدمتها دون أن يتمتع بنصيب يذكر من خيراتها . وقد تعرض الفلاحون لكثير من العسف من جانب أمراء المماليك من ناحية ومن جانب الأعراب الذين طغوا عليهم من ناحية أخرى ، حتى « خرب معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد[1] » . وكانت الأرض تزرع مرة واحدة فى السنة عقب فيضان النيل ، لأن البلاد لم تعرف فى ذلك العصر غير رى الحياض ، كما أن الفلاح لم يعرف من وسائل الزراعة وأدواتها غير الوسائل والأدوات العتيقة التى عرفت منذ أيام الفراعنة .

وعلى ذلك فإنه يبدو أن محصول الأرض الزراعية فى مصر ازداد على عصر سلاطين المماليك نتيجة للعناية بمرافق الزراعة من جسور وترع ومقاييس النيل وغيرها[2] .

وفى عصر المماليك ارتقت الصناعة رقيا كبيراً حتى أصبحت مصنوعات ذلك العصر تكون فى مجموعها إنتاجا فنيا رائعاً تزدان به متاحف العالم اليوم . وحسبنا الأقمشة الفاخرة المصنوعة من الحرير والصوف والكتان والقطن التى صنعت منها الخلع السلطانية والفرش والستور والخيام . هذا عدا المصنوعات المعدنية التى تتمثل فى عدد كبير من الأوانى النحاسية والطاسات الدقيقة الصنع ذات النقوش والكتابات الجميلة .

وانتشرت فى ذلك العصر صناعة تكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة ، وشغف المعاصرون بالنحاس المكفت بحيث « لا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت[3] » . أما الزجاج فقد صنعت

---

(١) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٦ — ٤٠ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٧٥ .

(٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٥ (طبعة بولاق) .

منه أنواع جميلة بعضها من البللور الصخرى المحبب ، والبعض الآخر من الزجاج الملون المستخدم فى النوافذ . وكذلك الخزف الذى صنعت منه أوانى متقنة جميلة ، وكان بعضها يصنع بناء على توصية خاصة من السلاطين والأمراء ، ولذلك زينت برنوكهم[1] . ولم تكن الصناعات الخشبية أقل تقدما فى عصر المماليك ، إذ مازالت الأبواب والدكك والمشربيات وغيرها من المصنوعات الخشبية الباقية من ذلك العصر تشهد على دقة الصناعة وتقدم وسائلها ، وسنشير إلى ذلك مرة أخرى فيما بعد عند كلامنا عن الفنون فى ذلك العصر .

على أنه مهما يكن للزراعة والصناعة من أهمية فى عصر المماليك ، فإن جميع الشواهد تدل على أن التجارة كان لها المقام الأول فى النشاط الاقتصادى فى ذلك العصر ، وأنها كانت المصدر الأول للثروة الهائلة التى عبرت عن نفسها فى أعمال المماليك وحياتهم وماتركوه من آثار ومنشآت فخمة . ويرجع السبب فى النشاط التجارى الذى تميزت به مصر فى عصر المماليك إلى انسداد معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث عشر، بسبب حركة المغول التوسعية ؛ وبذلك لم يبق آمنا إلا طريق البحر الأحمر ومصر، مما جعل مصر تقوم فى ذلك العصر بدور الوسيط بين الشرق والغرب . وقد أدرك سلاطين المماليك ما يمكن أن تعود به عليهم التجارة الخارجية من ثروة، فاهتموا بتنشيطها وتأمين مسالكها وإنشاء المؤسسات اللازمة للتجار كالفنادق والخانات والوكالات والقياسر والأسواق وغيرها . كذلك حرصوا على التودد إلى قوى البحر الأحمر من ناحية ، وإلى التجار الأوربيين المترددين على الاسكندرية ودمياط من ناحية أخرى .

وقد أمر السلطان قلاون نوابه بالثغور أن يحسنوا معاملة التجار

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٣١٩ .

ويلاطفونهم ويترددون إليهم ولا يجبون منهم سوى الحقوق السلطانية[1] كذلك كتب السلطان قلاون منشوراً إلى التجار الذين يفدون إلى مصر من الشرق والغرب يصف لهم محاسن مصر ويغريهم على القدوم إليها بمتاجرهم ويعدهم بحسن المعاملة والإحسان إليهم[2] . ويفهم من المراجع المعاصرة أنه خصصت، لكل جالية من التجار الأوربيين فنادق خاصة بهم فى الثغور والمراكز التجارية الكبرى فى مصر ، ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث يتمتع التجار الأوربيون النازلين فيها بأكبر قسط من الحرية والتسهيلات[3] .

ولا أدل على النشاط التجارى فى عصر سلاطين المماليك من انتعاش ثغور مصر وموانيها ؛ مثل أسوان بالنسبة لتجارة النوبة ، وعيذاب بالنسبة لتجارة الصين والهند واليمن ، ودمياط والاسكندرية بالنسبة للتجارة مع القوى الأوربية، وخاصة المدن الإيطالية[4] .

ومايقال عن التجارة الخارجية يمكن تطبيقه على التجارة الداخلية ، إذ اشتهرت مدن مصر الكبرى بأسواقها الحافلة بالبضائع ، وأحكام الرقابة عليها من جانب المحتسبين لمنع التلاعب فى الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة[5] .

على أن الجشع سرعان مادفع سلاطين دولة المماليك الجراكسة إلى اتباع سياسة احتكارية عنيفة ، فاحتكروا تجارة التوابل والبخور، وبالغوا فى تحديد

---

(١) تاريخ ابن الفرات؛ ح ٧ ص ١٩٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ح ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

(٣) Kammerer : Le Régime et le Status des Etrangers en Egypte, pp. 17-20.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٩٠ .

(٥) المقريزى : المواعظ ح ٢ ص ٩٢، ابن الاخوه : معالم القربة ص ٨ .

أثمانها حتى بلغ ثمن الفلفل مثلا فى الاسكندرية أضعاف ثمنه فى الشرق الأقصى عشرين مرة. وقد بلغت سياسة الإحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ — ٨٤١ هـ = ١٤٢٢ — ١٤٣٨م) الذى أبطل التعامل بالنقد البندقى والفلورنسى وسك الدينار الأشرفى ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوربيين[١]. وأخيراً ضاق الأوربيون ذرعاً بسياسة سلاطين المماليك واحتكاراتهم، فجدوا فى البحث عن طريق آخر يمكنهم من الحصول على حاصلات الشرق بثمن معقول؛ ومازالوا يجدون حتى اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلاد) فكان ذلك إيذاناً بتدهور مركز مصر التجارى فى التجارة العالمية.

وأخيراً، فإننا نلاحظ عدم استقرار الحياة الاقتصادية فى عصر المماليك بسبب تلاعب السلاطين بالعملة[٢]، أو حدوث الفتن والمنازعات بين طوائف المماليك[٣]. هذا فضلا عن أن أهل مصر كانوا يعيشون تحت رحمة فيضان النيل، فإذا انخفض الفيضان حدثت أزمة اقتصادية فى البلاد وارتفعت الأسعار واشتد الجوع وربما انتشر الطاعون فى البلاد وسقط الموتى فى الطرقات دون أن يجدوا من يدفنهم[٤].

الحياة الاجتماعية :

اتصفت الحياة الاجتماعية فى مصر على عصر سلاطين المماليك بأنها كانت حياة صاخبة نشطة، مليئة بالحركة والحياة.. والمعروف أن المماليك أنفسهم عاشوا طبقة أرستقراطية يحكمون البلاد ويتمتعون بالجزء الأكبر من خيراتها دون أن يحاولوا الامتزاج بأهلها. وقد شهد الرحالة الأجانب

---

(١) Ahmed Darrag : L'Egypte sous le Regne de Barsbay, pp. 96-100.

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٠، المقريزى : السلوك ح ٢ ص ١٧ ؛ ح ٣ ص ٨٢.

(٣) ابو المحاسن : النجوم ح ٥ ص ٤٠١ (طبعة كاليفورنيا)، المقريزى : السلوك ح ٣ ص ١٦٤).

(٤) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨.

الذين زاروا مصر فى ذلك العصر بعظم ثروة أمراء المماليك وحياة الترف والنعيم التى عاشوا فى ظلها[1] . أما المصريون فقد استطاعت بعض فئاتهم — مثل المعممين والتجار — أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة فى المجتمع ومستوى لائق من المعيشة ، فى حين ظل غالب اهل البلاد من العوام والفلاحين يحيون حياة أقرب إلى البؤس والحرمان[2] .

وكانت القاهرة والمدن الكبرى تفيض بالنشاط فى عصر المماليك ، إذ عنى سلاطين المماليك بتجميلها ونظافتها ، وامتازت بأسواقها العديدة المليئة بأصناف البضائع والتى خضعت لرقابة المحتسب ، وهو « ذو رأى وصرامة وخشونة فى الدين »[3] .

كذلك اهتم سلاطين المماليك بإنشاء كثير من المنشآت الاجتماعية المتنوعة ، مثل الفنـــادق والخانات والوكالات والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها . وعلى الرغم مما كان يتعرض له أهالى القاهرة أحيانا من جراء عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى ، إلا أنهم عاشوا عيشة مرحة ، فحرصوا على الإقبال على وسائل التسلية ، والخروج إلى الحدائق العامة ، والرغبة فى سماع الموسيقى ، والغناء ، والتلهى بمشاهدة خيال الظل أو مشاهدة نطاح الكباش ومناقرة الديوك[4] .

وفى ذلك النشاط الحافل قامت المرأة بدور أعظم مما يظن البعض ، إذ تمتعت بقدر كاف من الاحترام ، مكنها من المشاركة فى الحياة العامة ،

---

(١) Schefer : Le voyage d'outremer, p. X

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٣٧ ، ٤٨ .

(٣) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٣٦ ، ج ٥ ص ٤١ (طبعة كاليفورنيا) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥٧٤ .

سواء بالخروج إلى الأسواق أو التردد على الحمامات أو طلب العلم بالمساجد[1].

وكذلك امتازت الحياة الاجتماعية فى مصر على عصر سلاطين المماليك بكثرة الأعياد الدينية والقومية، والمبالغة فى إحياء تلك الأعياد. ففى الأعياد ذات الصبغة الدينية كان الناس يتبادلون التهنئة ويقيمون الولائم ويتصدقون على الفقراء، ويبالغون فى اظهار السرور[2]. وربما جاءت هذه الأعياد مصحوبة ببعض المواكب — مثل الاحتفال بدوران المحمل — وعندئذ يخرج الناس من كل مكان للفرجة، ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بالحرير والحلى.

أما فى الاحتفالات القومية مثل الاحتفال بوفاء النيل أو تولية سلطان جديد، فكان السلطان عادة يشق القاهرة فى موكب حافل وقد فرشت الشوارع بشقق الحرير، وأقام الأمراء القلاع — وهى أقواس النصر — فى طريق السلطان. وتتضاعف مظاهر الفرح والبهجة إذا كان السلطان عائدا منتصرا من ميدان الحرب، إذ يبالغ الأمراء والناس فى الزينة؛ ويقوم نائب السلطنة «باحضار سائر مغانى العرب من أعمال مصر كلها[3]».

الحياة الدينية:

شهدت مصر فى عصر سلاطين المماليك نشاطا دينيا يسترعى الانتباه، وبخاصة بعد أن أصبحت قاعدة الخلافة العباسية ومقصد المسلمين جميعا فى المشرق والمغرب. وكانت مصر لا يزال يوجد بها أثر واضح للتشيع فى أوائل

---

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٢٧ — ١٤٠.
(٢) السخاوى: التبر المسبوك ص ١٣ — ١٤.
(٣) المقريزى: السلوك ح ١ ص ١٣٨.

عصر المماليك، على الرغم من الجهود التى بذلها صلاح الدين وخلفاؤه لتدعيم مذهب السنة عقب إسقاط الخلافة الفاطمية . ولكن سلاطين المماليك اتبعوا سياسة واضحة للقضاء على تلك الآثار الشيعية المتخلفة عن العصر الفاطمى فى مصر ، حتى خفت آثار التشيع بالبلاد فى صورة واضحة فى أواخر ذلك العصر[1]. من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧م) من تحريم أى مذهب عدا المذهب السنية الأربعة ، بحيث لاتقبل شهادة أحد ولا يرشح لوظائف القضاء أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس إلا إذا كان من أتباع أحد المذاهب السنية الأربعة[2] .

وخير مايدل على إتساع دائرة النشاط الدينى فى عصر سلاطين المماليك كثرة المنشآت الدينية التى أقيمت فى ذلك العصر . ومازالت القاهرة وكثير من المدن فى مصر والشام تمتلىء بالجوامع الجميلة الرائعة التى تنسب إلى سلاطين المماليك ، حتى لقد قدر خليل بن شاهين عدد المساجد بمصر والقاهرة على عصر سلاطين المماليك بأكثر من ألف مسجد[3] . وقلما نجد سلطانا من سلاطين المماليك لم يؤسس مسجداً أو أكثر ، بل يقال أن الناصر محمد وأمراءه شيدوا وحدهم ثمانية وعشرين مسجداً[4] . ولم تستخدم المساجد فى ذلك العصر فى العبـــادة فحسب ، بل استخدمت أيضاً كمدارس يقصدها المعلمون والمتعلمون .

على أن أهم ظاهرة اتصفت بها الحياة الدينية فى عصر المماليك كانت انتشار التصوف . ومن الثابت أنه وفد على مصر فى القرن السابع الهجرى

---

(١) محمد كامل حسين : التشيع فى الشعر المصرى فى عصر الأيوبيين والمماليك ص ٧٣- ٧٤

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٤ ص ١٦١ .

(٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .

(٤) زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

كثير من مشايخ الصوفية — معظمهم من المغرب والأندلس — مثل أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى والسيد أحمد البدوى — وهؤلاء وجدوا فى مصر تربة صالحة لنشر تعاليمهم ومذاهبهم[1]. ولم يلبث أن انقسم الصوفية إلى فرق، لكل فرقة شيخها وشعارها ، فازداد عدد المصريين الذين أقبلوا على هذا اللون الجديد من ألوان الحياة الدينية ، وأخذ السلاطين يتقربون إلى الله ببناء الخانقاوات ووقف الأوقاف عليها والعطف على الصوفية ومشايخهم . من ذلك ما نسمعه عن السلطان برقوق من أنه رتب المدرسة التى أنشأها بين القصرين عددا من الصوفية وقرر لهم مرتبات وفيرة[2] أما عامة الشعب المصرى فى عصر سلاطين المماليك فقد آمنوا بالصوفية إيمانا راسخا، فقصدوهم لمشاركتهم فى أذكارهم أو لقضاء حوائجهم . حتى وصفوا الصوفية بأنهم « ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء »[3] .

ولا شك فى أن ازدياد تيار التصوف فى مصر على عصر سلاطين المماليك كان له أثره الخطير فى الحياتين الاجتماعية والفكرية . وينادى بعض المفكرين بأن المتصوفة صبغوا القيم والمثل العليا بصفة الزهد، والرغبة عن الدنيا ومتاعها والإتجاه نحو الآخرة والعمل لها . وترتب على هذه الإتجاهات نشر روح الإستكانة والقناعة بالقليل والتذلل للحكام بين عامة الناس ، مما ظلت بقاياه فى نفوس الكثيرين أمداً طويلا .

الحياة العلمية :

ازدهرت الحركة العلمية فى مصر على عصر سلاطين المماليك إزدهاراً

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ح ٥ ص ٦٠٠ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) الذهبى : تاريخ الإسلام ج ٣٢ ص ٤١ — ٤٢ ، النويرى السكندرى : الالمام بالاعلام ح ٢ ص ٥١٧ — ٥١٨ .

واسعا ، فغدت البلاد محوراً لنشاط علمى متعدد الأطراف . ويرجع السبب فى ذلك إلى ماأصاب أنحاء العالم الإسلامى فى العراق على أيدى المغول وفى الأندلس على أيدى الصليبيين، فضلا عما أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدى الصليبيين والمغول جميعا . وفى وسط تلك الغمة التى ألمت بالوطن العربى منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلاد) لم يجد علماء المشرق والمغرب بلداً عربيا آمنا تطيب لهم فيه الحياة سوى مصر التى غدت مركزاً للخلافة العباسية ، « وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء »[1] .

والغريب أن المماليك — وهم من أصول غير عربية متعددة — كان لهم أثر واضح فى ازدهار النشاط العلمى فى مصر . من ذلك مانسمعه عن عن ولع بعض السلاطين مثل الظاهر بيبرس بسماع التاريخ[2] ، وحرص البعض الآخر — مثل الغورى — على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة وحضورها ، بل المشاركة فى المسائل العلمية التى تثار فى تلك المجالس[3] . أما أمراء المماليك ، فقد وجد منهم من اشتغل بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لاقراء الطلبة والتدريس لهم[4] .

وخير مايدل على ازدهار الحياة العلمية فى عصر المماليك ، هو عظم الثروة العلمية التى وصلتنا من ذلك العصر بالذات . وما زالت دور الكتب فى جميع أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التى ترجع إلى عصر سلاطين المماليك بمصر ، والتى تناولت معظم ألوان المعرفة : الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الدينية والطب والفلاحة والأدب والمعارف العامة . . . وغيرها .

---

(١) السيوطى ؛ حسن المحاضرة ح ٢ ص ٨٦ .

(٢) أبو المحاسن ؛ النجوم ح ٧ ص ١٨٢ .

(٣) عبد الوهاب عزام ، مجالس الغورى ص ٤٩ .

(٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٤٢ .

فإذا أضفنا إلى هذه المخطوطات النسبة الضئيلة التى طبعت من تراث العصر المماليكى ، والكتب التى فقدت ولم نعد نعرف عنها سوى أسماءها وأسماء مؤلفيها ، أدركنا أن مصر شهدت فى عصر المماليك نشاطا علميا فائقا لم تشهد مثله فى عصر آخر من تاريخها الوسيط .

ففى الأدب عرف عن سلاطين المماليك تقريبهم الأدباء ، هذا وإن كان يؤخذ على الأدب شعرا ونثرا ضعف اللغة الفصحى نتيجة الإختلاط بالأعاجم ، فضلا عن دخول كثير من الألفاظ العامية . وقد اشتهر من شعراء مصر فى ذلك العصر البوصيرى المصرى صاحب البردة وتعرف باسم « الكواكب الدرية فى مدح خير البرية » وهى فى ٦٢ بيتا ؛ وقد توفى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٦ م)(١) . وتوفى فى نفس هذه السنة سراج الدين الوراق وكان شاعرا كثير النظم صحيح المعانى عذب التورية عارفا بالبديع(٢) . أما شهاب الدين العزازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) فكان بزازا يعمل فى قيسارية جركس بالقاهرة ، وله ديوان فى خمسة أبواب ، وأجاد فى الموشحات وامتاز شعره بالظرف وخفة الروح(٣) . وهناك ابن نباته المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م) وقد نبغ فى النظم والنثر ، ومثله ابن أبى حجلة نزيل القاهرة الذى توفى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) ومن شعراء ذلك العصر من يرجع إلى أصل مماليكى مثل على بن سودون البشغاوى المتوفى سنة ٨٧٨ هـ (١٤٧٣م) . بل لقد كان السلطان قانصوه الغورى نفسه المتوفى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) شاعرا ، وله ديوان غير منشور حتى الآن(٤) .

أما الأدباء الذين اشتغلوا بالنثر فهم عديدون ، منهم القلقشندى المتوفى

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ح ١ ص ٢٤٥ ، ح ٢ ص ١٤٣ .
(٢) الكتبى ، فوات الوفيات ح ٢ ص ١٠٧ ، ابو المحاسن : النجوم ، ح ٨ ص ٨٣ .
(٣) الكتبى ، فوات الوفيات ح ٢ ص ٤٨ .
(٤) الكواكب السائرة ح ١ ص ٢٩٤ .

سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) وله كتب عديدة أهمها موسوعة صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، وشمس الدين النواجى المتوفى سنة ٨٥٩ هـ (١٤٥٥م)، وقد نسب إلى نواج إحدى قرى الغربية، وله كثير من الآثار الأدبية شعرا ونثرا، منها حلبة الكميت،وهو كتاب فى الخمر وما قيل فيها والندماء ومجالسهم وآدابهم . . . وختمه بفصل فى التوبة وذم الخمر[1] .

وفى ذلك العصر كثر الاشتغال باللغة وعلومها ، وظهر من علماء اللغة كثيرون على رأسهم ابن منظور المصرى المتوفى سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) وله كثير من المؤلفات،على رأسها لسان العرب ، المعجم الشهير[2] . كذلك اشتهر من علماء اللغة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) والدمامينى السكندرى المتوفى سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) .

على أن أبرز العلوم فى عصر سلاطين المماليك كان بحق علم التاريخ ، إذ ظهر فيه طائفة كبيرة من المؤرخين تركوا لنا تراثاً ضخماً . منهم من أصحاب السير ابن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) ، وقد كتب كتابا فى سيرة السلطان الظاهر بيبرس وآخر فى سيرة الأشرف خليل بن قلاون. وهناك أيضاً من كتاب السير ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤م) والقسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧ م) وغيرهم كثيرون[3] . ولم يقف الأمر عند حد النشاط فى كتابة السير الفردية بل ظهر فى عصر المماليك جماعة من المؤرخين وجهوا نشاطهم نحو تأليف كتب الطبقات مثل ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ، وقد توفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ؛ والادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) صاحب كتاب الطالع السعيد

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ح ١ ص ٣٣٠ .
(٢) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ح ٢ ص ٢٦٥ .
(٣) جرجى زيدان : تاريخ آدب اللغة العربية ح ٣ ص ١٧٠ .

الجامع لأسماء نجباء الصعيد، وابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨م) صاحب كتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة [١] ، وشمس الدين السخاوى المتوفى سنه ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م) صاحب كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، والسبكى صاحب كتاب طبقات الشافعية .

وهناك فريق من مؤرخى ذلك العصر اختاروا أن يؤلفوا كتبا عن بلد معين أو دولة بعينها مثل جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) صاحب كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، وابن دقماق المصرى المتوفى سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م)صاحب كتاب نزهة الأنام وكتاب الإنتصار بواسطة عقد الأمصار [٢] ، وتقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) صاحب كتاب المواعظ والاعتبار وكتاب السلوك ، وأبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) وهو من أصل مماليكى ومن كتبه النجوم الزاهرة والمنهل الصافى [٣] . . . وغيرهم كثيرون. أما أصحاب التواريخ العامة فلا يقلون عدداً ، منهم بيبرس المنصورى وهو أحد أمراء المماليك توفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ هـ) وله كتاب زبدة الفكرة ، وبدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) وله كتاب عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، وغيرهما خارج مصر كثيرون .

أما فى علوم الجغرافيا والسياسية والادارة فقد كتب شرف الدين بن الجيعان سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥ م) كتاب التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية ويشتمل على إحصاءات إدارية وخراجية عن أرض مصر . وكذلك كتب نجم الدين أحمد بن الرفعة المصرى الشافعى — محتسب القاهرة المتوفى سنة ٧١٠ هـ

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ح ١ ص ٢٠٦ .

(٢) شذرات الذهب ح ٧ ص ٨٠ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون المصريون فى القرن التاسع الهجرى .

(١٣١٠ م) كتاب « بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية[١] » . وكتب حسن بن عبد الله العباسى كتابا الملك المظفر السلطان بيبرس المنصورى ، واسمى كتابه آثار الأول فى تدبير الدول ، رتبه على أربعة أقسام : فى الضوابط والأصول وقواعد المملكة ، وفى أحوال الملك فى ذاته مع خواصه وخدمه ، وفى الأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته ، وفى الحروب وشروطها وما يتعلق بها برا وبحرا . ويحوى هذا الكتاب كثيراً من الفوائد السياسية والاجتماعية والإدارية .

وثمة ظاهرة امتازت بها الحياة الفكرية فى عصر سلاطين المماليك ، هى الاقبال الشديد على تأليف الموسوعات الضخمة، التى تحوى الموسوعة الواحدة منها كثيراً من المعلومات المتنوعة المتباينة . وبالإضافة إلى كتاب صبح الأعشى فى صناعة الأنشا للقلقشندى وهو الذى سبق أن أشرنا إليه ، هناك كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٢ ﻫ (١٣٣٢م) وهو موسوعة كبيرة تقع فى نيف وثلاثين مجلدا قسمها مؤلفها إلى خمسة فنون، الأول فى السماء والآثار العلوية، والثانى فى الإنسان وطبائعه، والثالث فى الحيوانات الأخرى، والرابع فى النبات على اختلاف أشكاله، والخامس — وهو أكبرها وأهمها — فى التاريخ[٢] . أما ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٨ ﻫ (١٣٤٧م) فقد كتب موسوعته الشهيرة مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار وتقع فى بضعة وعشرين مجلدا تناولت فنون الأدب والتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعى وغيرها . هذا فضلا عما كتبه السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ﻫ (١٥٠٥ م) وغيره من عديد المؤلفات التى يضيق البحث عن ذكرها كلها[٣] .

---

(١) السبكى ، طبقات الشافعية ح ٥ ص ١٧٧ .
(٢) السيوطى: حسن المحاضرة ح ١ ص ٣٢٠ .
(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ح٣ ص ٢٤٤ — ٢٥٠ .

وكان للعلوم الإسلامية نصيبها فى تلك الحركة الواسعة ، فظهر من كتب فى الفقه مثل خليل بن اسحق المالكى المصرى المتوفى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦م) وتقى الدين السبكى المتوفى سنه ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) ، كما ظهر من كتب فى التصوف مثل تاج الدين بن عطاء الاسكندرى المتوفى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م)

وأخيراً ، فقد كان للعلوم التطبيقية والطبيعية حظها من كتابات عصر سلاطين المماليك ، فوجد من العلماء من كتب فى الهندسة والنجوم والفلك ، مثل شهاب الدين بن طيبغا القاهرى المتوفى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م)، ووجد من كتب فى الزراعة والفلاحة مثل طيبغا الجركسى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ؛ واشتهر ممن كتب فى علم الحيوان كمال الدين محمد بن عيسى الدميرى المتوفى سنه ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) صاحب كتاب حياة الحيوان الكبرى ، وقد توسع فيه فى وصف كل حيوان وخصائصه، بالإضافة إلى ماجاء فى الحديث والاشعار والأمثال بشأنه، مما جعل قيمته الأدبية والتاريخية لا تقل عن قيمته العلمية البحته[1] .

وثمة مظهر آخر هام يعبر عن ازدهار الحياة العلمية فى عصر سلاطين المماليك ، هو العناية بإنشاء المؤسسات التعليمية من مدارس ومكاتب وغيرها . أما المدارس فكانت بمثابة معاهد التعليم العالى — أشبه بالجامعات اليوم — يخصص لكل مدرسة منها المدرسون وتلحق بها خزانة كتب كبيرة ، ويؤمها الطلاب لتحصيل العلم والمعرفة[2] . وقد حرص سلاطين المماليك على محاكات سلاطين الأيوبيين فى إنشاء عدد كبير من المدارس مثل المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر بيبرس والمدرسة الناصرية التى أنشأها الناصر محمد بن قلاون ، وعينوا لتلك المدارس المدرسين والمعيدين

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ح ١ ص ٢٠٧ ، الضوء اللامع للسخاوى ح ١٠ رقم ٢٠٤

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ح ١ ص ٤٦٧ ، ح ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧

والموظفين ، ووقفوا عليها الأوقاف الغنية لتضمن للطلاب والمدرسين قدراً من الحياة الهادئة تجعلهم ينصرفون إلى الاشتغال بالعلم آمنين مطمئنين [1] .

وإذا كان التعليم العالى قد وجد قسطاً كافياً من العناية فى المدارس ، فإن التعليم الابتدائى نهضت به المكاتب التى أنشأ عدد كبير منها فى عصر سلاطين المماليك . ويبدو أن الغرض الأول من انشاء المكاتب فى ذلك العصر كان تعليم الايتام المسلمين ، الأمر الذى دفع طلاب الثواب إلى انشاء مزيد من المكاتب، وحبس الاوقاف عليها للعناية بأمر الايتام وتعليمهم وتوزيع الغذاء والكساء عليهم[2] . وقد خصص لكل مكتب مؤدب يساعده عريف، ويقوم المؤدب وعريفه بتعليم الصغار الكتابة وتحفيظهم القرآن . ولما كانت مهمة تعليم الصغار وتربيتهم مهمة شاقة عسيرة، لذلك اشترطت فى المؤدب والعريف شروط دقيقة خاصة ، منها العقل والدين وحسن الخلق والبعد عن القسوة والعنف[3] .

الإدارة ونظم الحكم والقضاء :

تزعم دولة المماليك سلطان لم يتول الحكم نتيجة لحق شرعى موروث، وإنما رشحته قوته ومواهبه وكثرة مماليكه لتولى ذلك المنصب . فإذا توفى السلطان القائم أتيحت الفرصة لأقوى الأمراء أن يخلفه فى الحكم . وربما رأى ذلك الأمير أن الظروف غير مواتية وأن هناك من زملائه الأمراء من ينافسه، فيلجأ فى تلك الحالة إلى تعيين ابن السلطان المتوفى مكان أبيه ، لا إعتقاداً من المماليك فى أحقية ذلك الابن ، ولكن كحل مؤقت حتى

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٣٤١ ب وما بعدها

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٣

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٠ — ١٥٢

ينجلى الموقف ، وعندئذ يسهل على أقوى الأمراء عزله واعتلاء عرش السلطنة بدله .

ومع أن سلطان المماليك تمتع بنفوذ واسع فى الدولة ، وبخاصة فيما يتعلق ببعض الأمراء وملأ المناصب الكبرى فى الدولة وتوزيع الاقطاعات ؛ إلا أنه لم يستغن فى أحوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة فى مهام الأمور ، وبخاصة فى المسائل المتعلقة بشن الحرب أو عقد السلم. ولذلك وجد فى عصر المماليك مجلس المشورة الذى كان يعقد برآسة السلطان أو من يقوم بالوصاية عليه ، وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسى والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرين أميراً . هذا مع ملاحظة أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ، وإنما ترك ذلك لرغبة السلطان ومشيئته[1] .

وقد وجد إلى جانب سلطان المماليك عدد من كبار الموظفين ، مهمتهم مساعدته فى شئون الحكم والإدارة . وعلى رأس هؤلاء الموظفين الكبار يمكننا أن نعدد : —

١ — نواب السلطنة : وجد نائب للسلطان بالقاهرة، هو مساعد السلطان الأيمن فى تصريف شئون الدولة ، ويشترك معه فى توزيع الإقطاعات ومنح ألقاب الإمارة . وإذا كان هذا النائب ينوب عن السلطان فى حضوره صار لقبه « نائب الحضرة » أما إذا كان لا يجوز له أن ينوب عن السلطان إلا فى غيبته ، فيكون لقبه « نائب الغيبة » وهو أقل درجة من الأول .

وقد وجد للسلطان نواب فى البلاد الشامية — فى دمشق وحلب

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ ؛ القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦—١٧

وطرابلس وحماه وصفد والكرك . وأعلى هؤلاء درجة هو نائب دمشق الذى أطلق عليه « نائب الشام »[1] .

٢ — الأتابك ؛ وهو القائد العام للجيش المماليكى ، وقد أتاحت له وظيفته التمتع بنفوذ كبير فى الدولة .

٣ — الوزير ، وقد تضاءلت وظيفته فى عصر المماليك نتيجة لوجود نائب السلطنة ، بحيث لم تتعد اختصاصاته تنفيذ تعليمات السلطان ونائب السلطنة والأشراف على شئون الدولة المالية .

أما الإدارة المحلية فى المدن والأقاليم فقد تولى الإشراف عليها عدد كبير من الولاة اختيروا دائماً من بين الأمراء . وهناك مدينة واحدة فى مصر — وهى مدينة الإسكندرية — عين لها نائب سلطنة سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥م). ويبدو أن الخطر الصليبى الذى تمثل فى حملة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الإسكندرية فى تلك السنة كان له أثر فى ذلك الإجراء الإدارى . أما القاهرة فكان لها وال يشرف على شئونها ويتعقب المفسدين فيها ويحمى أهلها من الأشرار والعابثين ، وبالجملة فقد كان منصبه يشبه منصب محافظ القاهرة اليوم . كذلك وجد فى الوجهين البحرى والقبلى ولاة قاموا بحكم الأقاليم والأعمال . وكان عددهم عشرة فى الوجه البحرى وثمانية فى الوجه القبلى . وفى عصر دولة المماليك الجراكسة وجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى مهمته الإشراف على جميع الولاة والعمال الذين يقومون بإدارة شئون الوجه التابع له[2] .

وقد اعتمد هذا الجهاز الادارى الضخم على مجموعة من الدواوين الكبيرة .

---

(١) العمرى ، التعريف ص ٦٥ — ٦٦ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ح ٤ ص ١٦ — ١٧.

(٢) القلقشندى صبح الأعشى ح ٤ ص ٦٤

التى ضمت عدداً ضخما من الموظفين لإدارة مرافق الدولة المتنوعة . وأهم هذه الدواوين هى : —

١ — ديوان الجيش . ومهمته الإشراف على طوائف الجند ، وتوزيع الاقطاعات عليهم .

٢ — ديوان الانشاء ، ومهمته تلقى الرسائل المختلفة التى ترد إلى السلطان وإبلاغها إليه وإعداد الردود عليها ، وكانت تتبع هذا الديوان إدارة البريد ، وهى إدارة ضخمة فى عصر المماليك تولت شئون البريد البرى والجوى[١].

٣ — ديوان الأحباس ، أى الأوقاف ؛ ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من مساجد ، ومدارس وزوايا . . . كما يشرف على الأراضى والعقارات المحبوس عليها .

٤ — ديوان النظر ، وقد اختص بمراقبة حسابات الدولة ، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين . وكان جانب من هذه المرتبات يصرف نقدا فى حين صرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع[٢] . . .

أما عن شئون القضاء والعدالة ، فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيراً من اهتمامهم وعنايتهم . وكان أهم تطور حدث فى النظام القضائى فى عصر المماليك هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ﻫ (١٢٦٥م) من تعيين أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، بعد ان كان الوضع منذ أيام صلاح الدين أن يقتصر ذلك المنصب على قاضى قضاة واحد

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ص ١٠٤ وما بعدها ، ح ١ ص ١١٥

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٣٥٢

هو الشافعى[1] . وقد قام القضاة فى ذلك العصر بدور هام فى المجتمع إذ امتدت اختصاصاتهم إلى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية . وكانت جلسات المحاكم تعقد فى دور القضاء ، فإن لم توجد فإنها تعقــد عادة فى المساجد .

وقد وجدت محكمة عليا تعقد فى دار العدل برئاسة السلطان وعرفت باسم محكمة المظالم ، ومهمتها النظر فى القضايا التى اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة أو التى يستأنفها أصحابها أمام السلطان بعد أن يحكم فيها القضاء العادى ، أو تلك التى تنشأ بين الحكام والمحكومين. أما رجال الجيش ، فكان لهم « قضاة العسكر » ؛ وهم مختصون بشئون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون فى القضايا الناشبة بين العسكر والمدنيين ، وقد جرت العادة أن يصحب قضاة العسكر السلطان فى أسفاره[2] .

الجيش والبحرية :

إذا حاول أن يعثر الباحث على صفة بارزة لدولة سلاطين المماليك فى مصر فلن يجد خيراً من أن يصف هذه الدولة بأنها دولة إقطاعية حربية. فطبيعة المماليك ونظامهم والرغبة فى اقتنائهم نبعت من فكرة أساسية واحدة هى تكوين فئة من المحاربين الأشداء وإعدادهم ليكونوا درعا حاميا لأساتذتهم الذين قاموا بشرائهم وتعهدوهم بالتربية . ولا يكاد المملوك يدرك سن البلوغ حتى يشرع فى تعليمه فنون الحرب ، من « الرمى بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية[3] » وعندما ينتهى المملوك من هذه المرحلة

---

(١) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ح ٤ ص ٣٦ .

(٣) المقريزى : السلوك ح ٢ ص ٥٢٤ .

التعليمية ينقل إلى الخدمة ويمر بأدوار هارتبة بعد رتبة حتى يصير من الأمراء[1].

وهو فى أول الأمر يتقاضى جامكية — أى مصروفا — يتدرج من ثلاثة دنانير إلى خمسة إلى سبعة إلى عشرة ، ولكنه بعد ذلك ينقل من الجامكيات إلى الاقطاعات وإلى أمرة العشرات ثم إلى الطبلخانات ، ومنهم من ينقل إلى تقدمة الألوف وإمرة المئين . وهو إذا كان مملوكا فإن إقطاعه يتراوح بين زمام قرية وزمام نصف قرية ، أما إذا أصبح أميراً فإن إقطاعه يتراوح بين زمام قرية وعشر قرى[2] .

وتولى السلطان بنفسه توزيع الإقطاعات فى معظم الحالات ، فإذا تقدم إليه المملوك ، سأله عن إسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذه الذى اشتراه من تاجره ، وصفاته حتى أصبح فارسا[3] . فإذا وقع اختيار السلطان عليه ليمنحه إقطاعا ، أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة تسمى المثال تحدد حدود إقطاعه ، ثم تخرج الوثيقة النهائية للاقطاع من ديوان الإنشاء . وعلى هذا فقد كان الإقطاع فى عصر المماليك يرتبط إرتباطا قويا متينا بديوان الجيش ، حتى لقد أطلق على هذا الديوان إسم ديوان الإقطاع. وعبر القلقشندى عن ديوان الجيش بأنه « مظنة الإقطاع » أى سجله ومركزه ، فقال ما نصه « إعلم أن مظنة الإقطاعات هو ديوان الجيش دون ديوان الإنشا ، وما يكتب فيه من ديوان الإنشا هو فرع ما يكتب من ديوان الجيش[4] » . وهكذا ارتبط الجيش بفكرة الإقطاع فى عصر المماليك ، الأمر الذى جعلنا نختار صفة الإقطاع الحربى لنصف بها تلك الدولة .

وإذا كان ديوان الجيش يشرف على شئون الجيش فى عصر المماليك ،

---

(١) المقريزى : المواعظ ، ح ٣ ص ٣٤٧ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ح ٤ ص ٥٠ ، .Paliak :, Feudalism in Egypt
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ح ٩ ص ٥١ — ٥٢ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ح ١٣ ص ١٥٣

فإنه روعى أن يكون على رأس هذا الديوان ناظرا على درجة كبيرة من الكفاية، يعاونه مجموعة من كبار الموظفين الأكفاء، أهمهم صاحب ديوان الجيش وينوب عن ناظر الجيش فى حالة غيابه، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد مرتبات الجند وحفظ بيان بها فى سجلاته، فى حين يقوم بصرف هذه المرتبات للجند موظف ثالث يطلق عليه لقب مستوفى الرزق. وجميع هؤلاء الموظفين روعى فيهم الكفاية المتناهية، واختير لمساعدتهم مجموعة من الكتاب والشهود من ذوى الخبرة(٢).

وقد تكون الجيش فى عصر سلاطين المماليك من ثلاث فرق أساسية، الفرقة الأولى عبارة عن طائفة المماليك السلطانية — أى مماليك السلطان القائم بالحكم، وقد وصفهم القلقشندى بأنهم «أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدراً وأشدهم قرباً وأوفرهم إقطاعا، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة»(٣) والفرقة الثانية تشمل طائفة مماليك الأمراء، أى الذين اشتراهم الأمراء المحيطون بالسلطان، كل حسب درجته ورتبته، وتعهدوهم بالرعاية، ومن هؤلاء كانت تتكون الوحدات الحربية التى ترافق السلطان فى حروبه، وكل وحدة تتألف من أمير على رأس مماليكه. وأخيراً تأتى الفرقة الثالثة وهم طائفة أجناد الحلقة، وهم مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم الذين احترفوا الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة لا يتغير بتغير السلطان، ويشرف على كل ألف منهم وقت الحرب أمير مائة مقدم الف، أى أمير له الحق فى امتلاك وشراء مائة مملوك لنفسه ويقود فى وقت الحرب ألف جندى من أجناد الحلقة(٣).

وإذا نحن تكلمنا عن الجيش فى عصر سلاطين المماليك، فإنه ينبغى أن

---

(١) الخالدى : المقصد الرفيع، ص ١٣٦ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ .
(٣) العمرى، مسالك الأبصار، ج ٥ ص ٢٦٦، والمرجع السابق.

نتذكر أمجاد ذلك العصر ، ونضع نصب أعيننا الإنتصارات التى حققتها الجيوش المماليكية فى مختلف الجبهات . وحسب الجيش فى عصر سلاطين المماليك أنه طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ، وأنزل الهزيمة بالتتار فى عين جالوت ، ووقف بالمرصاد لكل محاولة من جانبهم للعدوان على الشام ، ودمر مملكة أرمينية الصغرى فى قيليقية ، وغزا بلاد النوبة وأخضع مملكتها . ومن البديهى أن جيشا من الجيوش لا يستطيع تحقيق هذه المكاسب الضخمة إلا إذا توافر له من الإمكانيات وحسن النظام ودقة التدريب ما ساعده على ذلك .

ونجد فعلا فى المصادر المعاصرة كثيراً من الأوصاف التى تعطى صورة واضحة لدقة تنظيم الجيش المماليكى ، فالسلطان لا يقدم على حرب عادة إلا بعد إستشارة « مجلس الجيش » الذى يضم كبار الأمراء فضلا عن الخليفة وقضاة القضاء الأربعة . فإذا تقررت الحرب جمع الجند وأقسموا يمين الطاعة والولاء للسلطان ، وعندئذ تفتح السلاح خاناة أبوابها لتوزيع السلاح على المحاربين . أما عن نظام الجيش وقت المعركة فكان يقوم على أساس ترتيب الجند على هيئة صفوف متراصة تكون أقسام الجيش الثلاثة – وهى القلب والميمنة والميسرة – فضلا عن المقدمة ، ويكون القائد العام للحملة عادة فى قلب الجيش ، وربما فى مقدمته ليستثير روح الإقدام والشجاعة فى الجند . وكانت الطبول والموسيقى جزءاً أساسياً فى الجيش المماليكى ، فكانت تحمل على عشرين بغلا ، ويعتمد عليها فى تنظيم الحركة وإعطاء الإشارات ببدء القتال . . .[1] هذا فضلا عن الأعلام والرايات التى كانت تتقدم الجيش ويلتف حولها كل قسم من أقسامه .

وأخيراً ، فانه يلاحظ أن المماليك كانوا فرسانا قبل كل شىء ، واعتمد

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٥ .

نظامهم بصفة أساسية على الفروسية . لذلك كان الجيش المماليكى يتألف أساساً من الفرسان ، الأمر الذى جعلهم يهتمون بالخيول اهتماما بالغا ، ويعينون كبار الموظفين للإشراف عليها وعلى أدواتها وعددها كاللجم والسروج وغيرها ، فضلا عن الانفاق بسخاء على الاصطبلات الخاصة بالخيل .

ولكن ليس معنى تغلب صفة الفروسية على المماليك أنهم أهملوا جانب البحر والأسطول . وحسب دولة المماليك أن المؤرخين المعاصرين وصفوها بأنها دولة البرين والبحرين ، بمعنى أنها ملكت بر مصر وبر الشام ، وأطلت على البحرين الأبيض والأحمر .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن أية دولة تقوم فى أرض مصر لابد وأن ترعى شئون الأسطول لتؤمن نفسها وتحمى شواطئها الطويلة الممتدة شمالا وشرقا .

وإذا كان سلاطين بنى أيوب قد أهملوا شأن الأسطول بعد صلاح الدين — كما سبق أن أوضحنا فى الباب السابق — فإن الظروف التى قامت فيها دولة المماليك جاءت نتيجة مباشرة لحملة لويس التاسع على مصر فى أواسط القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد)، وهى حملة بحرية أتت عن طريق البحر ، واعتمدت على البحر فى الاحتفاظ بصلاتها بالقوى المسيحية المظاهرة لها . والمماليك هم أول من أنزل الهزيمة بلويس التاسع وجنوده فى المنصورة ثم فى فارسكور ، الأمر الذى أكسبهم مكانة ساعدتهم فى القضاء على دولة سادتهم بنى أيوب وإقامة دولة تحمل إسمهم فى التاريخ . لذلك كان من الطبيعى أن يدرك سلاطين المماليك الأوائل — وهم الذين شاركوا فى محاربة لويس التاسع أيام أن كانوا مجرد أمراء — خطورة الأسطول بالنسبة لأمن العباد وسلامة البلاد .

وهكذا ما كاد السلطان الظاهر بيبرس يرتقى دست السلطنة حتى « نظر

فى أمر الشوانى الحربية واستدعى رجال الأسطول . . . ومنع الناس من التصرف فى الأخشاب وتقدم بعمارة الشوانى فى ثغرى الاسكندرية ودمياط وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بمصر ويرتب مايجب ترتيبه من عمل الشوانى ومصالحها . واستدعى شوانى الثغور إلى مصر ، فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد ، فإنها كانت عدة كثيرة . . . »[1]

وسرعان ماصدق ظن بيبرس ، إذ أخذت دولة المماليك فى مصر والشام تحس إحساساً شديداً بالضغط البحرى الذى تمارسه مملكة لوزجنان الصليبية فى قبرس ، سواء من ناحية مساعدة البقايا الصليبية بالشام أو من ناحية قطع الطريق على السفن الإسلامية فى عرض البحر[2] . وماكاد بيبرس يطمأن إلى قوة أسطوله حتى عزم على تأديب قبرس وملوكها ، فأرسل إليها حملة عدتها سبع عشرة سفينة كبيرة بقيادة الرئيس البحرى ابن حسون . غير أن ريحا عاتية هبت على السفن المماليكية قرب شواطىء قبرس فحطمت منها أحد عشر شينيا . وعندما أرسل ملك قبرس يعيب على بيبرس انكسار سفنه، رد عليه بيبرس برسالة طويلة جاء فيها « أنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول » ؛ وفى هذه الإشارة إعتراف صريح بأن أساس قوة دولة المماليك فرسانها وجيوشها البرية لا أساطيلها البحرية[3].

ومع ذلك فإن بيبرس لم يهمل شأن الأسطول وإنما عاود الكرة وسعى بسرعة لتعويض الخسارة ، فأمر بإنشاء عشرين شينيا « وأحضر خمسة شوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر ، ولزم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم فى مدة شهر المحرم سنة سبعين وستمائه إلى أن تنجزت ..[4] »

(١) المقريزى : المواعظ ح ٢ ص ١٩٤ .
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٩
(٤) المقريزى : المواعظ، ح ٢ ص ١٩٤ .

ولاشك فى أن الأسطول المماليكى كان له دور كبير فى مساندة القوات البرية التى قامت بتطهير بلاد الشام من آخر البقايا الصليبية ، وخاصة أن هذه البقايا الكبرى — وهى انطاكية وطرابلس وعكا — كانت كلها موانى بحرية . وإذا كان السلطان الأشرف خليل بن قلاون هو صاحب الفضل فى الاستيلاء على آخر هذه البقايا وهى مدينة عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ، فإن ذلك جعل الأشرف أكثر إحساساً بأهمية الأسطول لدولته . لذلك لم يكن عجيبا أن يهتم السلطان الأشرف خليل اهتماما خاصا بأمر الأسطول « فنزل إلى (دار) الصناعة واستدعى الرئيس ، وهيأ جميع ما تحتاج إليه الشوانى ، حتى كملت عدتها نحو ستين شونة وشحنها بالعدد وآلات الحرب ورتب بها عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح ... »[1] .

وثمة حقيقة كبرى ، هى أن طرد الصليبيين نهائيا من الشام فى أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ضاعف من أهمية العامل البحرى فى شرق البحر المتوسط . لأنه جعل الحروب الصليبية تتحول من معارك برية إلى معارك بحرية . ذلك أن البابوية لم تجد وسيلة للإنتقام من سلطنة المماليك سوى تهديدها فى نشاطها التجارى ، فاستغلت موقع جزيرة قبرس فى قطع الطريق على السفن التجارية الأيطالية التى رفض أصحابها الإذعان لتعاليم البابوية واستمروا يواصلون نشاطهم التجارى مع سلطنة المماليك[2] . هذا إلى أن ملك قبرس قام سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) بحملة صليبية جريئة على الاسكندرية دمر فيها المدينة وآتى من أعمال الوحشية ما استثار نفوس المسلمين جميعاً[3] . وهكذا تحولت الحروب الصليبية فى القرنين الثامن

---

(١) المرجع السابق : ص ١٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ح ٢ ص ١١٩٢ وما بعدها .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٥٧ وما بعدها .

والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) إلى حروب بحرية ، وخاصة بعد أن دخلت رودس فى حلبة هذه الحروب ودأب الفرسان الاسبتارية برودس على تهديد دولة المماليك وتجارتها فى البحر[1] .

وهنا قام الأسطول المماليكى بعمل خالد فى التاريخ ، إذ أرسل السلطان الأشرف برسباى ثلاث حملات سنة ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ هـ (١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦ م) لغزو قبرس ، ونجح فعلا فى اخضاع الجزيرة فى الحملة الأخيرة وتم أسر ملكها جانوس ، وعاد الأسطول المماليكى بحمل مئات الأسرى وعلى رأسهم الملك نفسه حيث تم استعراضهم فى شوارع القاهرة[2] .

وبعد قبرس جاء دور رودس ، فأرسل السلطان جقمق ثلاث حملات بحرية ضد رودس سنة ٨٤٤ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ هـ (١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤م) . ونجح فى تأديبها وإن لم يستطع إخضاعها لسلطنة المماليك كما حدث فى حالة قبرس[3] .

وهكذا ظل الأسطول فى عصر سلاطين المماليك يقوم بدوره كاملا فى الدفاع عن البلاد ومواجهة الأعداء حتى نهاية تلك الدولة . وفى أواخر عصر المماليك ظهر خطر البرتغاليين واضحا على الشرق بعد أن وصلوا إلى الهند عن طريق الطواف حول أفريقية ، الأمر الذى مكنهم من تهديد البلاد الإسلامية فى جنوب آسيا وعند مدخل البحر الأحمر، فضلا عن تهديد سلطنة المماليك فى أعز ماتمتلك ، أعنى احتكار التجارة بين الشرق والغرب . وفى المعركة الحتمية بين المماليك والبرتغاليين ، أدرك السلطان قانصوه الغورى

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٢٣٢ وما بعدها.

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٤ وما بعدها.

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٦٩ وما بعدها .

أنها معركة البقاء، ففزع إلى الأسطول يحاول تدعيمه فى البحر الأحمر، حيث بنى عشرين سفينة كبيرة زودت بالمكاحل النحاسية والحديدية وأخذت دار الصناعة فى مصر تصنع السفن لتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الإبل حيث يجرى تجميعها وتركيبها على شاطىء البحر الأحمر . وكان ذلك فى المحرم سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) عندما قام الغورى بزيارة السويس لمشاهدة هذه السفن واستعراضها ، حتى قيل أن نفقات بناء الأسطول فى البحر الأحمر تجاوزت أربعمائة ألف دينار . ولكن عوامل الضعف التى أخذت تنخر فى عظام دولة المماليك بعديد أجهزتها لم يسلم منها الأسطول ، فلم يستطع الأسطول المماليكى الصمود أمام البرتغاليين فى موقعة ديو البحرية سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) وحلت به الهزيمة ، وعاد أمير البحر حسين الكردى إلى مصر « مع فلول أسطوله »[١].

هذا عن النشاط البحرى فى عصر سلاطين المماليك ، أما أنواع السفن التى استخدمت فى العصور الوسطى فى الأساطيل الإسلامية فعديدة ، كل نوع منها مخصص لغرض معين . ونكتفى بالإشارة السريعة إلى أهم أنواع السفن، وهى الشوانى والحراريق والطرادات والأغربة والبطس والمسطحات .

أما الشوانى ومفردها شينى فكانت أكثر السفن استعمالا فى الأساطيل الإسلامية، وهى عبارة عن سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع ، تستعمل للدفاع والهجوم ، وتجهز أيام الحرب بالسلاح والمقاتلة الذين يبلغ عددهم مائة وخمسين ، ويجذف الشينى بمائة مجذاف[٢] .

أما الحراريق أو الحراقات ومفردها حراقة ، فهى سفن حربية كبيرة تقل

---

(١) حقائق الأخبار عن دولة البحار ج ٢ ص ٣٦ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ ، عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الإسلامى ص ٤

فى حجمها عن الشوانى، سميت حراريق لأنه كان بها مرامى النيران مثل النار الأغريقية وغيرها ، وكانت تلقى النـــار منها على سفن العدو وأهدافه فتحرقها[1] .

وكانت الطرادات ومفردها طراد ، سفن صغيرة سريعة الكر والفر على عباب البحر ، وتستخدم عادة فى حمل الخيول فيحمل الطراد الواحد ما يتراوح بين أربعين وثمانين فرسا[2] .

أما الأغربة ومفردها غراب فسميت كذلك لأن رأسها يشبه رأس الغراب أو الطائر وتمثل فى الماء الطير فى الهواء . والغراب يحمل الغزاة ويسير بعدد من المجاديف يبلغ مائة وثمانين مجدافا ، ومن خصائصه أنه كان مزودا بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقا تلون بالأساليب البرية[3] .

ثم تأتى البطس ومفردها بطسة ، وهى سفن كبيرة الحجم ، تسير الواحدة بعدد من الأشرعة يبلغ أربعين شراعا ، وهى أشبه بالناقلات الضخمة فتتسع الواحدة لعدد من الجنـــد يصل إلى سبعمائة ، فضلا عن المحاربين والأسلحة والذخيرة والغلال والميرة . ولها أسطح عالية وطبقات متعددة[4] .

أما المسطحات ومفردها مسطح ، فنوع من أكبر سفن الأسطول الإسلامى ، سميت كذلك لأن لها سطح ، وهى كبيرة الحجم تشبه البطسة

---

(١) جميل خانكى : البحرية المصرية ص ١٠٣١.

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٩ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٣٠ .

(٤) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٣٣١.

كانت تسير وقت الحرب خلف السفن الأخرى خشية أن تصادف السفن الأخرى منطقة ضحلة المياه يصعب فيها العمل فعندئذ يمكن المسطحات أن تتدارك الأمر لأن غاطسها قليل العمق فى الماء[1] .

الفنون :

فإذا انتقلنا إلى الفنون فى عصر سلاطين المماليك وجدنا ذلك العصر بمثابة العصر الذهبى لكثير من الفنون فى مصر الإسلامية . وليس من الصعب علينا تفسير هذه الحقيقة ، إذ اشتهر عصر سلاطين المماليك بالثروة والمال نتيجة الدور الذى قامت به تلك الدولة فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب . ومع المال والثروة يكون البذخ والرغبة فى التأنق والتفنن واقتناء التحف . هذا إلى أن الفنان لا يقنع بالجهد البسيط فى عمله ، وإنما يبالغ وهو مطمئن تماماً إلى أنه سيجد من التقدير وحسن الأجر مايحفزه إلى بذل مزيد من الجهد والعناية .

ففى العمارة تشهد عمائر العصر المماليكى التى تزدان بها القاهرة اليوم من مساجد ومدارس وأضرحة وسبل وحمامات وبيمارستانات وغيرها على الذوق الجميل والرغبة فى الإبداع والتفنن . وحسبنا لفته إلى مدرسة (جامع) السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون ، بتصميمه العجيب وقبته العظيمة وأبوابه الفخمة وإيواناته العالية وزخارفه الدقيقة . . . حسبنا لفته إلى هذا البناء بالذات لنأخذ فكرة عن مدى تقدم فن العمارة فى عصر سلاطين المماليك[2] .

ومايقال عن هذه المدرسة يمكن قوله بصورة أو أخرى عن المدافن

---

(١) Dozy : Supp. Dict. Ar

(٢) زكي محمد حسن . فنون الإسلام ، ص ٧٣ .

المماليكية مثل مدفن برقوق ومدفن قايتباى بالصحراء الشرقية بالقاهرة ومجمع قلاوون الذى يشمل قبة ومدرسة وبيمارستان ، وحمام بشتاك الذى لم يبق منه إلا مدخله المكسو بالرخام الملون ، وقصر قوصون خلف مدرسة السلطان الناصر حسن ، ووكالة الأمير قوصون وغيرها من بقايا وآثار ذلك العصر . وامتازت العمارة فى ذلك العصر بالعناية بواجهات المساجد وجمال ورشاقة مآذنها وزخرفة الأرضيات والوزرات بالرخام الملون ، وبالسقوف المذهبة . . . مما أضفى عليها روعة وبهاءاً .

أما فن النحت ، فقد استطاع الفنانون فى العصر المماليكى ابتكار أشكال فى النحت على الخشب أكثر اتقاناً مما كان عليه الوضع فى العصر الأيوبى ، فابتكر فنانو عصر المماليك أشكالا جديدة من المراوح النخيلية ووحدات من الزخارف النباتية ، كما شاعت فى ذلك العصر الزخارف الهندسية المكونة من حشوات صغيرة تتألف غالباً من أشكال سداسية الأضلاع تنتظم حول شكل نجمى فى الوسط . واستخدمت فى الحفر أخشاب مختلفة الألوان ، طعمت أحياناً بالأبنوس والعظم(1) . ويشهد على رقى فن النحت على الخشب فى عصر المماليك عديد المنابر الرائعة فى مختلف المساجد التى ترجع إلى ذلك العصر . كذلك ازدهرت فى ذلك العصر صناعة الشبكيات أو المشربيات الخاصة بالنوافذ ووجهات البيوت ، وهى من الخشب المخروط . هذا فضلا عن التحف الدقيقة المصنوعة من الخشب مثل الدكك والكراسى والصناديق وغيرها .

ولم يكن النحت على الرخام والجص أقل روعة من النحت على الخشب إذ تشهد المنابر الرخامية ، والأفاريز المنقوشة ، والألواح الرخامية فى الأسبلة ، والشبابيك المصنوعة من الحجر المفرغ ، تشهد كلها بما فيها من نقوش منحوتة

---

(1) ديماند : الفنون الإسلامية ص ١٣٢ .

على مهارة الفنان فى عصر المماليك . وكذلك كان النحت على العاج، إذ تحوى المتاحف العالمية تحفاً عديدة من العاج ترجع إلى عصر سلاطين المماليك ، ومعظمها اقتصرت الزخرفة فيه على الأشكال النباتية والهندسية . هذا وإن كان العاج قد استخدم على وجه الخصوص فى التطعيم والترصيع ، ولاسيما حشوات المنابر وفى قطع الأثاث(١) .

أما صناعة المعادن ، فقد بلغت شأواً بعيداً فى عصر سلاطين المماليك ، وامتازت التحف المعدنية التى ترجع إلى ذلك العصر بصفات خاصة وطابع مميز يجعل من السهل تمييزها. ذلك أنها جمعت بين الزخارف النباتية التقليدية وزخارف جديدة شاع استخدامها فى ذلك العصر ، مثل رسم أزواج من الطيور مرتبة داخل معينات ، كما يبدو على أبريق جميل يرجع إلى عصر السلطان الناصر محمد ، ومحفوظ فى متحف المتروبوليتان(٢) . كذلك يرجع إلى عصر المماليك عدد من الأبواب الجميلة المصفحة بالنحاس فى زخارف تؤلف الأطباق النجمية التى امتاز بها ذلك العصر وازدهرت فى عصر سلاطين المماليك صناعة التكفيت ، أى تطعيم النحاس بالذهب والفضة ، فذكر المقريزى أنه لاتكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت .

أما صناعة الزجاج المطلى بالمينا فقد بلغت أوجها فى مصر والشام على عصر سلاطين المماليك ، إذ شاع استخدام الموضوعات الآدمية والحيوانية والنباتية، فضلا عن الكتابة على الأوانى الزجاجية التى صنعت فى ذلك العصر. ومازالت الكؤوس والأباريق والقوارير والمشكايات الباقيه من ذلك العصر تعتبر من أجمل ماتزدان به المتاحف العالمية ؛ ومن أمثلتها دورق من الزجاج

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥٠٤

(٢) ديماند : الفنون الإسلامية ص ١٥٥

المموه بالمينا محفوظ فى متحف برلين ، والميناعليه متعددة الألوان بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، وعليه تذهيب مازال محتفظاً بريقه ، وعلى رقبته كتابة بالخط الثلث الجميل[1] .

ومايقال عن الزجاج يمكن تطبيقه على الخزف. ومعظم الأوانى الخزفية التى ترجع إلى ذلك العصر من النوع المرسومة زخارفه تحت طلاء شفاف، كما يزين بعض الأوانى المماليكية زخارف من الكتابة العربية على أرضية منقطعة ومنتظمة فى أشرطة أو داخل فصوص. وتوجد فى متحف المترو بوليتان مجموعة من الأوانى تمثل الخزف المماليكى فى القرن الرابع عشر ، وتتكون زخرفتها الأساسية من كتابات عربية تتضمن تمنيات طيبة لصاحب التحفة[2]

وقد وصلت إلينا أسماء بعض الخزفيين الذين عملوا فى إنتاج الخزف ذى الزخارف المنقوشة تحت الدهان ، مثل غيبى التوريزى — وهو كما يتضح من أسمه إيرانى الأصل نزح إلى القاهرة ، وغزال ، والأستاذ المصرى ، وغيرهم ممن وجدنا أسماءهم على منتجات ذلك العصر . وثمة ملاحظة أخرى هى أن الفخار المطلى بالمينا كان يستعمل بكثرة فى بيوت الأمراء ، ولذا امتازت زخارفه بالرنوك أو الشارات التى اتخذها أولئك الأمراء علامة لكل منهم[3] .

أما صناعة المنسوجات فى عصر المماليك فقد احتفظت بمستواها الراقى. وتمتاز الزخارف المطرزة من عصر سلاطين المماليك بخطوطها المتكسرة المتعرجة بسبب الأسلوب الصناعى المتبع فى صناعتها ، وهو عبارة عن غرز متتابعة متدرجة كالسلم ، يطلق عليها أحيانا اسم غرزه هلباين . وظلت

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٠١
(٢) ديماند : الفنون الإسلامية ص ٢٢٠
(٣) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٣٢٦

الأقمشة المطبوعة تستخدم فى عصر المماليك ، وكانت رسومها السائدة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر هى الأشكال المسننة والتفريعات المزهرة ذات الألوان المتباينة[1] . ويوجد فى دار الآثار العربية بالقاهرة قطعة من الحرير ، قوام زخرفتها شريطان من الكتابة النسخية المماليكية ، تتكرر فيها عبارة «عز لمولانا السلطان الملك الناصر» وبين هذين الشريطين شريط ثالث فيه رسوم شجيرات مورقة يفصل كل شجيرة منها عن الأخرى رسم فهد يطارد غزالا .

---

(١) ديماند : الفنون الإسلامية ص ٢٥٧

الفصل الثامن

بلاد الشام فى عصر سلاطين المماليك

امتداد نفوذ المماليك إلى الشام :

رأينا عند كلامنا على قيام دولة المماليك ، كيف أن بنى أيوب لم يرضوا عما فعله المماليك فى مصر من قتل توران شاه واغتصاب حكم مصر من أصحابها الشرعيين من بنى أيوب . وقد حاول الملك الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق غزو مصر والقضاء على المماليك سنة ١٢٥٠ ، ولكن أقطاى هزمهم عند غزه . وعندما تكررت المحاولة فى نفس العام ، أنزل أيبك هزيمة كبرى بالجيوش الأيوبية عند العباسة قرب الصالحية[١] .

والواقع أنه لم يخفف من حدة الصراع فى ذلك الدور بين الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر سوى اشتداد خطر التتار بزعامة هولاكو على الوطن العربى فى الشرق الأدنى . وكانت الخلافة العباسية فى بغداد أشد إحساسا بذلك الخطر ، بحكم تطرف العراق نحو الشرق ، فأسرع الخليفة العباسى بإصلاح ذات البين بين الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر ، حتى تم الصلح بين الطرفين فى ابريل سنة ١٢٥٣ . وبمقتضى ذلك الصلح تم الاتفاق على أن يكون لسلطنة المماليك نهر الأردن بما فى ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل ، فى حين تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين[٢] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٧٢ — ٣٧٤ ؟
أبو الفدا : المختصر ؟ ج ٣ ص ١٨٤ .
(٢) المقريزى: السلوك ؟ ج ١ ص ٣٨٥ .

وترجع أهمية ذلك الصلح إلى أنه جاء بمثابة اعتراف رسمى من الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف الأيوبى بدولة المماليك . وليس معنى ذلك أن الأيوبيين رضوا عن حقيقة قيام دولة المماليك على حساب جزء من ممتلكات بنى أيوب ؛ بل ظل الأيوبيون رغم صلح سنة ١٢٥٣ فى حالة قلق وعدم رضى ، بدليل أنهم انتهزوا فرصة هرب بعض زعماء البحرية إلى الشام عقب مقتل أقطاى وقاموا بمحاولة جديدة لهدم دولة المماليك والاستيلاء على مصر سنة ١٢٥٥[١] . ومرة أخرى أسرع الخليفة العباسى إلى التوفيق بين الطرفين ، وتجديد الصلح بين الناصر يوسف والمعز أيبك . هذا وإن كان زعماء البحرية بالشام قد حرضوا الملك المغيث عمر الأيوبى فى الكرك على مهاجمة مصر ، ولكن المحاولتين اللتين قام بهما المغيث عمر سنتى ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ باءتا بالفشل[٢] .

ثم كان أن حدث ما توقعته الخلافة العباسية ، فاجتاح التتار العراق وسقطت بغداد فى أيديهم سنة ١٢٥٨ ، و بعد ذلك جاء دور الشام ومصر . وفى تلك الأزمة التى ألمت بالوطن العربى فى الشرق الأدنى أظهر الأيوبيون تخاذلا واضحا ، فأرسل الناصر يوسف ابنه العزيز إلى هولاكو يطلب منه مساعدته فى القضاء على دولة المماليك وفتح مصر . حقيقة إن الناصر يوسف عاد فأحس بخطر التتار على ممتلكاته فى بلاد الشام ؛ ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ، فنجح هولاكو فى امتلاك حلب ودمشق ، وزحف التتار جنوبا فى فلسطين صوب مصر[٣] .

ومن المعروف أن الوظيفة الأولى لأى حاكم أو أية حكومة هى توفير الأمن

---

(١) أبو الفدا : المختصر ؛ جـ ٣ ص ١٩٠ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٩ ؛
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤١٩ .

والسلام والاستقرار للرعايا وحمايتهم من الأخطار الخارجية والداخلية التى قد يتعرضون لها . فإذا فشل الحاكم أو فشلت الحكومة فى تحقيق ذلك الغرض ، فقدت أهميتها التى قامت من أجلها ، و بدت فى نظر الشعب فى صورة غير شرعية ؛ فلا داعى لتقديم الولاء والطاعة لحاكم ليس أهلا للنهوض بالمهمة الأساسية التى رشحته الأحداث لها . ومعنى ذلك أنه إذا كان ملوك البيت الأيوبى بالشام قد نادوا دائما بأنهم ورثة صلاح الدين وأنهم هم أصحاب الحق الشرعى فى حكم مصر والشام ، فإن هذه الدعوى لم يعد لها سند واضح بعد أن عجز الأيوبيون عن دفع خطر التتار ، فسقطت بلاد الشام مدينة بعد أخرى فى قبضة رجال هولاكو ؛ بل لقد انضم بعض ملوك بنى أيوب إلى صفوف التتار وعاونوهم فى زحفهم . وتروى لنا المراجع أن حلب لم تكد تسقط فى أيدى التتار حتى أسرع الأشرف موسى الأيوبى صاحب حمص إلى حلب ليقدم فروض الطاعة لهولاكو ، فى حين فر الملك المنصور صاحب حماه إلى مصر ومعه حريمه وأولاده تاركا حماه وشأنها[1] . أما الناصر يوسف فقد فر من دمشق إلى غزة عن طريق نابلس بنية الهروب إلى مصر « وترك دمشق خالية[2] » ! ولكن الناصر يوسف لم يلبث أن وقع فى قبضة التتار فعفا عنه هولاكو ووعده بإعطائه حكومة الشام بعد أن يستولى التتار على مصر ، فاستمر الناصر يوسف تابعا لهم « و بقى معهم فى ذل وهوان إلى أن قتل[3] » . كذلك وقع الملك السعيد — ابن الملك العزيز عثمان الأيوبى — فى قبضة هولاكو الذى ولاه على الصبيبة و بانياس . ولم يخجل الملك السعيد بعد ذلك من معاونة التتار ومصاحبتهم « فصار معهم وأعلن الفسق

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٣ ؛
أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٢٣ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧ .

والفجور وسفك دماء المسلمين ... »[1] .

ولاشك فى أن ذلك السلوك الشائن الذى سلكه ملوك الأيوبيين فى الشام جاء بمثابة فصل الختام لدولتهم ، وإعلانا لتنازلهم عن حقوقهم فى الملك بعد أن تقاعسوا عن حماية ذلك الملك . وصار منطق الأحداث يحتم أن تدول دولة بنى أيوب ليرثهم فى ملكهم إما التتار وإما المماليك ، حسبما تقرره المعركة المنتظرة بين هاتين القوتين[2] .

وفى الوقت الذى أثبتت الاحداث ضعف الأيوبيين وعجزهم عن حماية المسلمين فى بلاد الشام من خطر التتار ، إذا بالمماليك يظهرون على المسرح لينزلوا بالتتار ضربة كبرى فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وبذلك ظهر المماليك فى صورة القوة الكبرى فى الشرق الأدنى التى استطاعت أن تحمى كيان أهل مصر والشام من ذلك الخطر الوثنى الرهيب . ولاشك فى أن فشل الأيوبيين فى صد خطر التتار ، ونجاح المماليك فى القضاء على ذلك الخطر ، جاء بمثابة فصل الخطاب بين المماليك والأيوبيين ، وخاتمة لحركة التنافس بين هاتين القوتين على مسرح الشام ، بعد أن صار من الواضح أن قوة الايوبيين المتداعية لن تستطيع بحال الصمود فى وجه قهرة التتار .

وكان أن استطاعت جيوش المماليك بعد عين جالوت إجلاء التتار عن دمشق وحماه وحلب ومطاردتهم حتى أطراف بلاد الشام . ومعنى ذلك أن نفوذ المماليك امتد إلى بلاد الشام فجأة بعد عين جالوت ، فأناب السلطان المظفر قطز الأمير سنجر الحلبى فى دمشق . وإذا كان المظفر قطز قد أقر بعض ملوك بنى أيوب فى حكم بلاد الشام — مثل الأشرف موسى صاحب حمص والملك المنصور

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ؛
القريزى السلوك ج ١ ص ٤٢٠ .

(2) Grousset : Hist des Croisades, III, pp. 586—587.

صاحب حماه — فإن هؤلاء الملوك الأيوبيين تغير وضعهم وأصبحوا تابعين لسلطان المماليك فى مصر [1] . ولم يبق من ملوك الأيوبيين بالشام من ظل خارجا عن نفوذ سلطنة المماليك سوى الملك المغيث عمر صاحب الكرك والشوبك ، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦١ من نوابه من تسلم الشوبك من الملك المغيث ، كما قبض على الملك المغيث نفسه سنة ١٢٦٣ واعتقله فى قلعة الجبل وعين أحد أمرائه نائبا للكرك [2] .

و إذا كان المماليك قد ظهروا فى صورة ورثة الأيوبيين فى حكم مصر والشام؛ فإن معنى ذلك أن المماليك لم يرثوا الأيوبيين فى ملكهم العريض فحسب ، بل أيضا فى سياستهم الخاصة بالجهاد . هذا بالإضافة إلى أن المماليك كانت عندهم عقدة كبيرة من ناحية أصلهم غير الحر ، فضلا عن اغتصابهم الحكم من أصحابه الشرعيين وهم الأيوبيون ، ولذلك حرص المماليك منذ أن استقرت لهم الأوضاع فى مصر والشام على أن يظهروا أمام أهل مصر والشام فى صورة حماة المسلمين وزعمائهم فى حركة الجهاد ضد الصليبيين . ولم يلبث سلاطين المماليك أن استأنفوا سياسة الأيوبيين ، بحيث أنه لم يكد يمضى على قيام دولة المماليك نحوا من أربعين سنة حتى تم طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، و بذلك أصبحت لا توجد قوة تهيمن على بلاد الشام غير قوة المماليك .

ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استولى على قيسارية سنة ١٢٦٥ ، ثم استولى على أرسوف بعد قليل وعلى صفد فى العام التالى [3] . ولم يلبث أن أخذ يتابع انتصاراته فى سرعة مذهلة ، فاستولى على طبرية وعلى قلعة يافا سنة ١٢٦٨ ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٧ ؟

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٤١٣ (مخطوط) .

(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ١٣٢ ، ١٤٨ .

ثم على الشقيف ، حتى توج انتصاراته على الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية — كبرى المدن الصليبية فى شمال الشام — فى مايو سنة ١٢٦٨ [(١)] .

ولم يكن خلفاء بيبرس من سلاطين المماليك أقل حماسة لمحاربة الصليبيين ، فاستطاع السلطان المنصور قلاوون الاستيلاء على طرابلس سنة ١٢٨٩ ، وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عكا وصيدا وصور وعثليث . وقد استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاون على عكا سنة ١٢٩١ ، ولم تكد تنتهى تلك السنة حتى استسلمت آخر البقايا الصليبية بالشام وبذلك تم طرد الصليبيين نهائيا من تلك البلاد [(٢)] .

وبتطهير بلاد الشام من التتار والصليبيين جميعا ، استقرت الأمور نسبيا للمماليك فى بلاد الشام كما أن تلك البلاد دخلت دورا جديدا فى تاريخها يتناسب وأهميتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية من ناحية ، فضلا عن أهميتها بوصفها إقليما هاما من الإقليمين الكبيرين اللذين تألفت منهما دولة المماليك من ناحية أخرى .

التقسيم الإدارى لبلاد الشام فى عصر المماليك :

قسم المماليك بلاد الشام من الناحية الإدارية إلى ستة أقسام تسمى نيابات ؛ تخضع للحكومة المركزية فى القاهرة . أما هذه النيابات فهى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صفد ونيابة الكرك . ويبدو أن هذا التقسيم فى حد ذاته كان ضروريا لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام الجغرافية حتى أن معظم تلك النيابات التى نراها فى بلاد الشام على عصر سلاطين المماليك، إنما كانت فى حقيقة أمرها أقساما إدارية واضحة فى العصور السابقة ، بل لقد وصل

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ح ٢ ص ١١٤٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ؛ حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

بعضها فعلا — قبل عصر المماليك — إلى درجة الدول المستقلة ، مثل طرابلس ودمشق وحلب .[1] على أنه ينبغى من باب الدقة التاريخية أن نشير إلى أثر عصر الحروب الصليبية بالذات فى إبراز أهمية بعض أقاليم الشام ، مما تطلب جعلها نيابات ؛ وذلك مثل نيابة الكرك ذات الموقع الهام على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام والحجاز ، مما جعلها تقوم بدور خطير بالنسبة لمواصلات المسلمين على عصر الحروب الصليبية .

وثمة ملحوظة أخرى هى أن تلك النيابات الست لم تنشأ فى وقت واحد أو سنة واحدة ، لأن طبيعة انتشار النفوذ المماليكى على بلاد الشام اتصفت بالتدرج ، الأمر الذى جعل ظهور التقسيم الإدارى لبلاد الشام فى عصر المماليك يأتى على مراحل . من ذلك أن تاريخ إنشاء نيابتى دمشق وحلب يأتى سنة ١٢٦٠ عقب هزيمة التتار فى عين جالوت مباشرة . أما حماه — فكما سبق أن ذكرنا — اختار المماليك عقب عين جالوت أن يبقوا على الأيوبيين فيها ، فعفا السلطان قطز عن الملك المنصور الثانى الأيوبى صاحب حماه وأقره على حكمها [٢] ؛ وبذلك لم تصبح حماه نيابة فى عصر المماليك إلا سنة ١٣٤١ ، أى بعد وفاة المؤيد على آخر ملوكها من بنى أيوب . وأما نيابة الكرك فيبدأ تاريخها فى عصر المماليك سنة ١٢٦٣ على عهد السلطان بيبرس أيضا ، ومثلها نيابة صفد التى ترجع إلى سنة ١٢٦٦ . أما نيابة طرابلس فترجع نشأتها إلى عهد السلطان قلاون الذى استولى على تلك المدينة من الصليبيين سنة ١٢٨٩ [٣] .

---

(1) Demombynes ; La Syrie a l'epoque des Mamelouks, p. 106.

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٣٣ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ ؛
أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٢١ .

ولما كانت كل من هذه النيابات الشامية لها وضعها الخاص ، وتمتد لتشمل مساحة كبيرة ، ويتبعها من الناحية الإدارية عدد من المدن أو الموانى أو القلاع الهامة ؛ فإنه روعى أن تقسم كل نيابة منها إلى أقسام إدارية صغيرة هى التى أطلق عليها القلقشندى اسم « النيابات الصغار » [1] . ولكى تتضح صورة كل نيابة من هذه النيابات فى عصر المماليك يحسن تناولها بكلمة موجزة : —

أولا : نيابة دمشق : ، وهى كبرى نيابات الشام فى عصر المماليك ، حتى أطلق عليها القلقشندى اسم « نيابة الشام » أو « مملكة الشام » ؛ ووصفها بأنها « أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها فى الرتبة » [2] . وقاعدة هذه النيابة مدينة دمشق التى اختصها سلاطين المماليك بعنايتهم وأقاموا فيها كثيرا من المنشآت . من ذلك ما يقال من أن الظاهر بيبرس جدد شرفات قلعة دمشق ورءوس أبراجها التى كان التتار قد هدموها ، و بنى فيها حماما ، كما جدد مشهد زين العابدين رضى الله عنه بجامع دمشق ، وأمر بترخيم الحائط الشمالى وتجديد باب البريد وفرشه بالبلاط . هذا كله عدا القصر الأبلق الذى شيده بيبرس بالميدان فى دمشق ، وما حوله من العمائر [3] .

وكان يتولى أمر مدينة دمشق والى ينظر فى شئون المدينة ويتحدث فى أمر الشرطة ، فى حين كان يتولى أمر ضواحى دمشق — وهو الإقليم الذى يعرف باسم البر — والى آخر [4] . وكان يتبع نيابة دمشق عدة نيابات صغرى وولايات . أما النيابات الصغرى فأهمها غزة والقدس وصرخد وعجلون و بعلبك وحمص ومصياف والرحبة ؛ مع ملاحظة أن غزة صارت أحيانا نيابة قائمة بنفسها

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٢ ص ٦ .
(٢) المرجع السابق : جـ ٤ ص ١٨٠ ، ١٨٤ .
(٣) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات — ترجمة بيبرس .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨٧ .

فى القرن الرابع عشر [١] . وأما ولايات نيابة دمشق فعديدة أهمها الرملة و بيسان والبقاع و بيروت وصيدا وقارا وغيرها .

ثانيا : نيابة حلب ؛ وكانت تتمتع هى الأخرى بأهمية خاصة فى عصر المماليك نظراً لخطورة موقعها على الأطراف الشمالية لدولة المماليك مما جعلها محورا لكثير من أحداث العلاقات المضطربة بين المماليك من ناحية وجيرانهم مثل التتار والتركمان والعثمانيين من ناحية أخرى . لذلك اشتملت نيابة حلب على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل فى بقية نيابات الشام ؛ ومن هذه النيابات الصغرى التابعة لنيابة حلب نيابة قلعة الروم أو قلعة المسلمين غربى الفرات فى مواجهة البيرة ، ونيابات الكختا وكركر و بهسنى وسميساط وعينتاب ودربساك والراوندان و بغراس والقصير والشغر و بكاس . هذا فضلا عن عدد آخر من النيابات الصغرى كانت تقع خارج حدود الشام ولكنها تتبع نيابة حلب بحكم ملكية دولة المماليك لها . ومعظم هذه النيابات الصغرى الأخيرة كانت داخل بلاد الأرمن ، مثل ملطية و دبركى ودرنده والأبلستين و إياس وطرسوس وأذنه وغيرها [٢] .

أما ولايات النيابة الحلبية فأهمها بر حلب وكفر طاب وعزاز وتل باشر ومنبج وتيزين والباب و بزاعا وأنطاكية [٣] .

ثالثا : نيابة طرابلس ؛ وكانت تشمل من النيابات الصغرى نيابة حصن الأكراد و نيابة حصن عكار و نيابة بلاطنس و نيابة صهيون ونيابة اللاذقية ؛ هذا فضلا عن ست نيابات صغرى أخرى أسماها القلقشندى « نيابات قلاع

(1) Demombynes ; op. cit., p. 174 &
ابن فضل الله العمرى : التعريف ص ١٧٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣٠ .

الدعوة » ؛ أى أنها كانت مراكز جماعة الاسماعيلية الباطنية ، وهى نيابة الرصافة ونيابة الخوابى ونيابة القدموس ونيابة الـكهف ، ونيابة المنيقة ونيابة القلعة .

أما الولايات التابعة لنيابة طرابلس فعددها ست هى : أنطرطوس ، وجبة المنيطرة ، والظنين ، و بشرية ؛ وجبلة وأنفة [1] .

رابعا : نيابة حماه ؛ ومركز هذه الولاية مدينة حماه ، ولا يتبعها نيابات صغرى ، و إنما يتبعها ثلاث ولايات هى : ولاية بر حماه ، وولاية بارين ، وولاية المعرة [2] .

خامسا : نيابة صفد ؛ وهى المدينة الحصينة التى ترتفع عن سطح البحر نحوا من ألف وستمائة قدم ، والتى جدد بيبرس قلعتها بعد أن استولى عليها من الصليبيين . وليس لهذه النيابة نيابات صغرى — مثل نيابة حماه — و إنما تتبعها إحدى عشرة ولاية هى ولاية بر صفد ، وولاية الناصرة وولاية طبرية ، وولاية تبنين وهونين وولاية عثليث وولاية عكا ، وولاية صور وولاية الشاغور وولاية الإقليم ، وولاية الشقيف ، وولاية جينين [3]

سادسا : نيابة الـكرك ، وليس لها نيابات صغرى هى الأخرى و إنما تتبعها أربع ولايات هى ولاية بر الـكرك ، وولاية الشوبك ، وولاية زغر ، وولاية مُعان [4] .

* * *

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٥ــ٢٣٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٠ — ٢٤١ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

وبعد ، فهذا عرض سريع لنيابات الشام فى عصر المماليك . أما عن أنظمة الحكم فى تلك النيابات ، فأول ما يلاحظ عليها أن كلا منها كانت صورة مصغره لسلطنة المماليك الكبرى فى مصر ، حتى لقد أطلق القلقشندى على تلك النيابات اسم « الممالك الشامية » وقال إن « كل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة مضاهية المملكة المستقلة ».

ولتفصيل ذلك نقول إن كل نائب من حكام النيابات الشامية كان فى حقيقة أمره « سلطانا مختصرا » ، مع تبعيته لسلطان مصر ؛ فكان لكل نائب حاشيته ومماليكه وأتباعه ، وأطلق عليه أحيانا اسم « ملك الأمراء » لقيامه مقام السلطان فى التصرف وقيام الأمراء على خدمته كخدمة السلطان(١).

وكان لكل نائب من نواب الشام بيوت خدمة مثل بيوت خدمة السلطان ، كالشراب خاناه ، والفراش خاناه ، والزرد خاناه ، والطبلخاناه . . . وغيرها . واحتوت بيوت نواب الشام على وظائف مثل وظائف بيوت السلطان ، مثل رأس نوبة وأمير مجلس وأمير أخور وأمير جاندار ... وغير ذلك . كذلك كان لكل نيابة من النيابات الشامية وزير يتمتع بما يتمتع به الوزير فى مصر ؛ هذا وإن لم يسمح للوزير فى نيابات الشام بلقب وزير إلا إذا كانت قد سبقت له ولاية الوزارة بمصر ، أما إذا لم يكن قد سبق له تولى منصب الوزارة فى مصر ، فإنه كان يلقب بلقب « ناظر النظار » (٢)

كذلك كان فى كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، مثلما كان الحال تماماً فى مصر منذ أيام الظاهر بيبرس . هذا فضلا عن الوظائف الأخرى المتعددة التي وجدت فى كل نيابة من نيابات الشام والتى كان

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٥ ص ٤٥٥ :
(٢) المرجع السابق حـ ٥ ص ٤٦٥ .

بعضها يتعلق بأرباب السيوف والبعض الآخر يتعلق بأرباب القلم ، والقسم الثالث يشمل الوظائف الدينية .

أما الدواوين التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام ، فكان أهمها ديوان الإنشاء وديوان النظر وديوان الجيش . وقد اختص ديوان الإنشاء بجميع المراسلات التي ترد إلى النائب أو تصدر منه . ولقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر . ويبدو أن كاتب السر في النيابات الشامية كان يقوم أيضا بمهمة التجسس على النائب لحساب السلطان ، ويطلع الأخير على ما قد يخفيه النائب عنه [1] . وأما ديوان النظر فكان يمثل الإدارة المالية في النيابة ، بحيث له الإشراف التام على المصروفات والإيرادات . وأما ديوان الجيش ، فكان يشرف على جيش النيابة وتوزيع الاقطاعات وترتيب الجوامك الخاصة بالمماليك . ومن الثابت أن أراضي الشام قد مسحت وقسمت من جديد سنة ١٣١٣م ؛ وهذا ما يسمى « الروك الناصري ببلاد الشام » نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون . أما عن عدد الجند ببلاد الشام فقد ذكره خليل بن شاهين الظاهري على الوجه التالي : —

١٥٫٠٠٠	أجناد الحلقة بدمشق ومماليك الكافل والأمراء
٨٫٠٠٠	أجناد الحلقة بحلب ومماليك الكافل والأمراء
٥٫٠٠٠	أجناد الحلقة بطرابلس ومماليك الكافل والأمراء
٢٫٠٠٠	أجناد الحلقة بصفد ومماليك الكافل والأمراء
١٫٠٠٠	أجناد الحلقة بحماه ومماليك الكافل والأمراء

على أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وإنما تعرضت للتغيير والتبديل في عصر المماليك ، وكذلك عدد الإقطاعات وتوزيعها ببلاد الشام [2] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ — ١٠٦ .
ويلاحظ أن خليل بن شاهين أغفل ذكر عدد الأجناد بنيابة الكرك .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لكافة النيابات الشامية فى عصر المماليك ؛ فإننا نحب أن نؤكد مرة أخرى أن نائب دمشق بالذات تمتع بأهمية خاصة فاقت أهمية بقية النواب فى النيابات الشامية الأخرى ؛ حتى لقد قال القلقشندى عن نائب دمشق إنه « قائم بدمشق مقام السلطان فى أكثر الأمور المتعلقة بنيابته ، ويكتب عنه التواقيع الكريمة ، ويكتب عنه المربعات بتعيين إقطاعات الجند ، وتجهز إلى الأبواب الشريفة فيشملها الخط السلطانى الشريف »[١]

ومن الواضح أن تلك المكانة الضخمة التى تمتع بها نائب دمشق فى عصر المماليك كان من الممكن أن تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه ، كما حدث فى بعض الحالات . لذلك حرص سلاطين المماليك على فرض رقابة خفية على نوابهم فى الشام عامة وفى دمشق خاصة ؛ فكان السلطان يحرص أحيانا على التدخل فى شئونهم لإشعارهم بوجوده . هـــذا إلى أن السلطان لم يكتف بأن يكون صاحب ديوان الإنشاء عينا له على النائب ؛ وإنما كان السلطان أيضا يجعل من نائب القلعة أو الحصن الموجود فى الإقليم عينا له على النائب ، ويقاومه إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان[٢]. ولهذا السبب كان لنائب القلعة أجنادا مقيمين معه ولا يتصلون بدار النيابة فى المدينة[٣] .

والواقع أنه على الرغم مما تمتع به نواب النيابات الشامية من سلطان ونفوذ كبير ، إلا أنهم كانوا قبل كل شىء تابعين لسلطنة المماليك فى القاهرة ، وبالتالى فإنهم لم يكونوا مطلقى التصرف فى كثير من النواحى . من ذلك أن سلطان

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٨٤ .

(2) Demombynes ; op. cit., p. 108.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٨٥ ؟

العمرى : التعريف ص ١٤٨ .

المماليك احتفظ بحقه فى شغل الوظائف الكبرى بالنيابات الشامية ؛ فكان النواب يعيشون فى وظائف أرباب السيوف من إمرة عشرة فما دونها ، فى حين كان التعيين فى الوظائف من إمرة طبلخاناه فما فوقها من حق السلطان . أما وظائف أرباب القلم فكان النواب لا يعينون إلا صغار الموظفين مثل كتاب الدرج ، فى حين كان السلطان يعين كبار الموظفين مثل الوزارة وكتابة السر ونظر الجيش ونظر المال وغيرها . كذلك فى الوظائف الدينية كان من حق السلطان وحده أن يعين كبار الموظفين ـ مثل قضاة القضاة ـ ؛ فى حين ترك للنواب تعيين صغار الموظفين ، كالذين يقومون بالخطابة فى الجوامع الصغيرة [1] .

وهكذا ظل سلطان المماليك هو القوة الكبرى التى تسيطر على مصر والشام وتشرف إشرافا تاما على سـير الأمور فى مختلف أرجاء الدولة المماليكية الواسعة .

المجتمع الشامى فى عصر المماليك :

كان أهل الشام فى عصر المماليك لا يختلفون عن أهل مصر من حيث أنهم مغلوبون على أمرهم ، يخضعون لارستقراطية حاكمة استأثرت بالحكم وبالوظائف ، وحرمتهم من المشاركة مشاركة ذات قيمة فى أمر من أمور بلادهم . وهكذا كان المماليك فى بلاد الشام هم أصحاب السيادة والطبقة المسيطرة ذات النفوذ والسلطان ، فى حين خضع أصحاب البلاد الأصليين من أهل الشام للأمر الواقع ، ورضوا بما فعله المماليك بهم .

وقد انقسم أهل بلاد الشام الأصليون إلى حضر وبدو ، فالحضر هم أهالى المـدن والقرى الشامية ، وقد اشتغلوا بالنشاط الاقتصادى من صناعة وتجارة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ح ١٢ ص ٦ — ٧ .

وزراعة ، وكان كل ما يطمعون فيه هو أن يلى أمرهم نائب عادل من المماليك يحسن معاملتهم ولا يحرمهم حقوقهم . ومن الواضح أن النشاط الاقتصادى الذى نهض به الحضر من أهل الشام تطلب نوعا من الاستقرار والهدوء ، مما جعلهم يجنحون إلى مسالمة المماليك ولا يحاولون الخروج عن طاعتهم أو المشاركة فى الثورات التى اعتاد أن يقوم بها بعض نواب الشام بين حين وآخر ، وبخاصة عند قيام سلطان جديد فى مصر .

أما البدو ، فقد تألفوا من العشائر المنتشرة فى بادية الشام ، وكان لكل عشيرة أفخاذها وبطونها . وعلى رأس تلك العشائر كان « آل فضل » من ربيعة، الذين امتدت منازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة ، بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبى نهر الفرات[1] . ومن الواضح أن آل فضل اضطروا – بحكم موقع منازلهم – إلى توزيع ولائهم بين القوى العديدة التى تقاسمت السلطان فى شمال العراق والشام . ومن ذلك ما نسمعه عن زعيمهم عيسى بن مهنا الذى دأب على مناصرة التتار حينا والمماليك أحيانا ، حتى ضاق السلطان الناصر محمد بن قلاون ذرعا بآل فضل وطردهم ليحل محلهم إخوتهم من « آل على » ؛ ولكن الناصر محمد عاد فعفا عن آل فضل وردهم إلى بلادهم واقطاعاتهم[2] .

ويلاحظ أنه إذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف دولة المماليك بالشام قد لجأت أحيانا إلى الخروج عن سلطان الدولة ؛ فإنه وجد قسم آخر من تلك العشائر انتشرت فى داخلية بلاد الشام ، وهذه كانت أكثر ارتباطا بشعور الولاء للدولة وخضوعا لسلطانها . ومن هذه العشائر آل مرة فى حوران وآل على

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٠٦ .

فى المرج والغوطة حول دمشق ؛ وغيرهم كثيرون[١] . وقد حاول سلاطين المماليك إدخال عشائر البدو ببلاد الشام فى النظام الاقطاعى ، فأضفوا على زعماء تلك العشائر ألقاب الإمارة وأقطعوهم الإقطاعات ، وفرضوا عليهم التزامات معينة أهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب . ولكن عشائر البدو أنفت الخضوع لذلك النوع من التنظيمات الحكومية التى تفقدها كثيرا من حريتها ، فأخذت ما فى النظام من مميزات ، وفى الوقت نفسه تخلصت مما فيه من التزامات .

وبالإضافة إلى العصبيات العنصرية التى وجدت ببلاد الشام على عصر سلاطين المماليك ـ مثل الأكراد والتركمان والأرمن ـ ؛ فإنه وجدت ببلاد الشام فى ذلك العصر عصبيات عديدة مذهبية ودينية كان لها دور كبير فى الأحداث التى شهدتها بلاد الشام . ونستطيع أن نلخص أهم هذه الطوائف أو العصبيات فيما يلى : ـ

أولا : الكسروانيون : وهم أهل جبل (جبال) كسروان وكانوا من النصيرية والعلويين والمتأولة[٢] . ويبدو من خلال ماذكرته المراجع أن الكسروانيين وقفوا موقفاً عدائياً من المماليك ، وبخاصة أثناء الصراع بين هؤلاء الأخيرين والصليبيين بالشام . من ذلك ما حدث أثناء حصار السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس سنة ١٢٨٩ ، إذ خف الكسروانيون لنجدة بوهيموند السابع أمير طرابلس . وقد أغضب ذلك السلطان قلاوون ، فزحف المماليك على جبل كسروان لتأديب أهله ونجحوا فى كسر شوكتهم[٣] . وعندما استولى السلطان

(١) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ٢٠٨ — ٢١٠ .
(2) Lammens ; La Syrie, 2, p. 16.
(٣) محمد كرد على : خطط الشام حـ ٢ ص ١٢٦ .

الأشرف خليل على عكا وغيرها من البقايا الصليبية بالشام ، لجأ بعض الصليبيين إلى جبل كسروان وحاولوا استثارة أهله ضد سلطنة المماليك ، فبادر السلطان الأشرف خليل بإرسال حملة في بداية سنة ١٢٩٢ بقيادة الأمير بدر الدين بيدرا؛ ولكن الكسروانيين أنزلوا الهزيمة بالعسكر المماليكي في تلك الواقعة ، الأمر الذي زاد من نفوذ الكسروانيين وبطشهم[1] . وفي سنة ١٣٠٠ ــ أي في سلطنة الناصر محمد بن قلاون الثانية ــ سار أقوش الأفرم من دمشق إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عن موقفهم من دولة المماليك ، بعد أن كان « ضررهم اشتد » . وقد تحصن الكسروانيون بجبلهم المنيع ، واجتمعوا ــ نحو اثني عشر ألف رام ــ لقتال المماليك ، فاستمر القتال بينهم وبين المماليك ستة أيام ألقى الكسروانيون بعدها السلاح ونادوا « الأمان » . وكان أن فرض عليهم أقوش (أقش) الأفرم مبلغ مائة ألف درهم جبوها بعد أن تعهدوا بالطاعة[2] .

وثمة أهمية أخرى لتلك الحملة هي أن التنوخيين عاونوا جيش الأفرم ، الأمر الذي أثار العداء بين الكسروانيين والتنوخيين .وقد أرسل الأمير الأفرم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بأن يصلحوا شئونهم مع التنوخيين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم أصحاب الأراضي والإقطاعات ،ولكن الكسروانيين رفضوا تلك الدعوة . ونتيجة لذلك خرج الأمير أقوش الأفرم في جيش كبير بلغ خمسين ألفا من الرجال سنة ١٣٠٥ (٧٠٥ هـ) ، فهاجم الكسروانيين « وخرب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم بعدما قاتلهم أحد عشر يوما ... وملك الجبل عنوة ، ووضع فيهم السيف وأسر ستمائة رجل ، وغنمت العساكر منهم مالا عظيما ... »[3] . وقد ساعد الأفرم في جهوده لإخضاع الكسروانيين

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٠
(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٩٠٢ — ٩٠٣ .
(٣) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١٥ .

الأمير اسندمر نائب طرابلس ، الذى تذكر عنه المراجع مبالغته فى التنكيل بالكسروانيين وقتلهم[1] . ويبدو أن حملات الأمير أقوش الأفرم على جبال الكسروانيين نجحت فى إخضاعهم والقضاء على كيانهم وعصبيتهم ، فيروى المقريزى أن السلطان الناصر محمد أقطع « جبال كسروان بعد فتحها » لبعض أمراء المماليك ، فذهبوا إليها « فزرعها لهم الجبلية ورفعت أيدى الرفضة عنها »[2] .

ثانياً : التنوخيون ؛ وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية وانتشروا فى جهات متفرقة من لبنان، وظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حينا والمسلمين أحيانا؛ كما تأرجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من أيو بيين وتتار من ناحية أخرى . وكان من أشهر عشائر التنوخيين جماعة البحتريين ، الذين غضب عليهم السلطان الظاهر بيبرس بسبب تقلبهم ، فاعتقل بعض زعمائهم فى مصر ورفض أن يطلق سراحهم حتى ينتهى من حروبه ، حتى إذا ما تم للسلطان بيبرس فتح أنطاكية أطلق سراحهم . ومع ذلك فقد ظل بيبرس يتشكك فى ولاء البحتريين ، حتى أرسل ضدهم حملة قوية اجتاحت بلادهم وعاقبتهم فى عنف[3] . وبعد بيبرس لجأ السلطان قلاون إلى اضطهاد البحتريين ، فصادر إقطاعاتهم ووزعها على حامية طرابلس من المماليك . وسرعان ما أدرك البحتريون عاقبة عنادهم فعادوا إلى الولاء لدولة المماليك،وعندئذ ردت إليهم الدولة إقطاعاتهم وعهدت إليهم بحراسة بيروت وشواطئها؛ وكان ذلك سنة ١٢٩١ على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون . كذلك ساعد البحتريون المماليك فى قتال غازان خان

---

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٢ — ٣٣ ؟
أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٧٠٥ هـ
(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٦٠ .
(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٧٥ .

تتار فارس ، وذلك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون[١] .

وثمة فريق آخر من التنوخيين ، هم الارسلانيون ومركزهم قرب بيروت وكانوا موالين لدولة المماليك ؛ واشتهروا بمواقفهم ضد الصليبيين ، الأمر الذى جعلهم يظفرون برضاء سلاطين المماليك[٢] .

ثالثا : بنومعن أو المعنيون ؛ وقد بدأ ظهورهم فى القرن الثانى عشر ، حين ندبهم أمراء السلاجقة لقتال الصليبيين على الساحل السورى ، فأبلوا فى ذلك بلاء حسنا ؛ كوفئوا عليه بمنحهم إقليم الشوف ، وقد حالفوا آقرباءهم التنوخيين فى الغرب والشهابيين فى وادى التيم[٣] .

رابعا : الشهابيون الدروز ؛ وكانت منازلهم فى وادى التيم منذ سنة ١١٧٣ واشتركوا بنجاح فى قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة أثناء إغاراتهم على بلاد الشام فى عهد السلطان المنصور قلاون سنة ١٢٨١ . وقد حالف الشهابيون بنى معن وأصهروا إليهم .

خامساً : المتأولة ؛ وهم فرقة من غلاة الشيعة ، كانت زعامتهم فى الجهات الشمالية من لبنان لبنى حمادة. ويبدو أن التنافس كان قويا بينهم وبين الشهابيين الدروز حول الزعامة على لبنان[٤] . وقد حنق المماليك على المتأولة بسبب شذوذهم المذهبى ، مما جعلهم يتعرضون لبعض الاضطهاد فى ذلك العصر .

سادسا : النصيرية أو العلويون ؛ وقد عاشوا فى شبه عزلة فى القسم الشمالى من جبل لبنان تحت زعامة شيوخهم[٥] .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإدارى لسورية فى العصر العثمانى ص ١٣٦ .
(٢) الشدياق : أخبار الأعيان فى جبل لبنان ص ١٧٤
(٣) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الادارى ص ١٣٦ .
(4) Lammens : op. cit., vol. 2, p. 13.
(5) Demombynes : op. cit., p. 227.

سابعا : الإسماعيلية؛ وكانوا يعرفون أيضا باسم الباطنية؛ وكانت لهم قلاع عديدة أهمها مصياف (أو مصياب) والقدموس والكهف والخوابي والمنيقة والرصافة . وقد قام الإسماعيلية الباطنية بدور مشهور في تاريخ بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية[1] ؛ ولم يتورعوا عن اغتيال كثير من الشخصيات الإسلامية والصليبية سواء . ولم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شذوذهم المذهبي من ناحية، ثم بسبب موقفهم المائع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى . لذلك فرض السلطان الظاهر بيبرس ضرائب باهظة على الهدايا التي اعتاد أن يبعث بها الصليبيون إلى شيخ الباطنية ، وذلك « إفساداً لنواميس الإسماعيلية وتعجيزاً لمن اكتفى شرهم بالهدية[2] » . ثم إن السلطان الظاهر بيبرس لاحظ أن طائفة الإسماعيلية لجأت — عندما أخذ نفوذها يضعف في بلاد الشام — إلى دفع الأموال للصليبيين ، وبخاصة الاسبتارية في حصن الأكراد . لذلك انتهز السلطان فرصة الصلح الذي عقده مع الاسبتارية سنة ١٢٦٧ واشترط عليهم الامتناع عن أخذ الجزية التي كان يدفعها لهم الإسماعيلية الباطنية . ويروي المقريزي أن رسل الإسماعيلية وفدوا على السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧ ومعهم جملة من الذهب وقالوا « هذا المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين لينفق في المجاهدين[3] » .

على أنه يبدو أن الإسماعيلية ببلاد الشام لم يلبثوا أن ضاقوا بالجزية التي كانوا يدفعونها للسلطان الظاهر بيبرس ، بدليل أن نجم الدين حسون بن الشعراني مقدم الإسماعيلية ببلاد الشام أرسل مبعوثا إلى السلطان سنة ١٢٦٩ يطلب منه إنقاص المال الذي كان يحمله الإسماعيلية إلى بيت المال . وفي ذلك الوقت كانت العلاقة سيئة بين السلطان وأحد زعماء الإسماعيلية — وهو صارم الدين مبارك

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٩ ص ٥٥٠ وما بعدها .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٠٧ .

ابن الرضى صاحب العليقة ـ فتوسط صارم الدين للسلطان حتى رضى عنه بيبرس، وعندئذ قلده زعامة الإسماعيلية بدلا من نجم الدين الشعرانى . وكان أن توجه صارم الدين إلى مصياف — المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام — حيث أخذ يباشر مهام منصبه[1] .

ويدل ذلك على مدى ما صار لسلاطين المماليك من هيمنة على الإسماعيلية ببلاد الشام على عهد بيبرس . بل إن السلطان بيبرس اشترط على الإسماعيلية أن تكون مصياف و بلادها للسلطان، وأرسل صحبة صارم الدين نائبا عن السلطان بمصياف . ولم يكن صعبا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصون الإسماعيلية ببلاد الشام واحدا بعد آخر ، حتى استولى عليها جميعا (١٢٧٠ — ١٢٧٣) ؛ وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام ، وأقطعهم السلطان بدلا من قلاعهم الشامية بعض الجهات فى مصر ليعيشوا فيها[2] .

ثورات الشام فى عصر المماليك :

لم تكن الشام فى عصر المماليك مجرد إقليم من أقاليم الدولة ، وإنما كانت أهم من ذلك بكثير . لقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذى بدونه يتعذر على دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها ، والثبات فى وجه الأخطار الأسيوية الضخمة التى هددت تلك الدولة ، حينا من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين، وأحيانا من جانب الأرمن والتركمان ثم العثمانيين . وهكذا أدرك سلاطين المماليك منذ أن أقاموا دولتهم فى مصر أنه لا بقاء لهم ولا دولتهم إلا فى ظل وحدة تربط بين الشام ومصر تحت حكمهم ، وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التى يمكن

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٢ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠٨ .

أن تؤثر فى كيانهم ، فضلا عن مراقبة الطرق الرئيسية التى سلكها الأعداء فى تهديدهم لمصر والشام فى العصور الوسطى .

وإذا كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشـــام نظرة خاصة ، فوضعوا لها تقسيما إداريا يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، فإننا نلاحظ فى نفس الوقت أن نواب الشام وأمراء المماليك فى تلك البـــلاد أدركوا أهميتهم ، واستغلوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أخرى فى محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين . وكثيرا ما أحس أمراء المماليك فى الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات فى وجه السلاطين فى مصر ، بل لقد طالب بعض أمراء الشام بالسلطنة لأنفسهم معتمدين على ما عرف عن المماليك من بغض للنظام الوراثى وإيمان بأن الملك للأقوى . ولم ير بعض أمراء الشام — عندما استفحل النزاع أحيانا بينهم وبين سلاطين المماليك — مانعا من الاتصال بأعداء الدولة من تتار وعثمانيين ، مما عرض دولة المماليك لـكثير من الأخطار . هذا كله فضلا عما نلمسه فى عصر المماليك من فرار كثير من خصوم السلاطين ومنافسيهم من مصر إلى الشام ، حيث يجدون ملاذا ويعملون على تأليب الأعداء وإثارة المتاعب فى وجه السلاطين .

ومع قيام سلطنة المماليك عند منتصف القرن الثالث عشر انطلق أول صوت للمعارضة من دمشق ، حيث رفض المماليك الأكراد (القيمرية) أن يقسموا يمين الولاء للسلطان شجر الدر ، كما امتنع الأمير جمال الدين يغمور ـ نائب السلطنة بدمشق — عن الاعتراف بشجر الدر . وكان من الطبيعى أن ينضم أولئك المتمردون إلى جانب الملك الناصر يوسف الأيوبى ، مما سبب لسلطنة المماليك فى مصر كثيرا من المتاعب فى دورها الأول ، ولم يخفف من حدة هذه المتاعب ، سوى الأصوات التى ارتفعت للمطالبة بتوحيد الـكلمة فى وجه خطر التتار[1] .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها

على أنه حدث فى ذلك الدور — وقبل أن يواجه المماليك خطر التتار — أن انقسم المماليك فى مصر على أنفسهم ، فلجأ السلطان أيبك إلى قتل أقطاى زعيم المماليك البحرية ، مما جعل هؤلاء يفرون إلى الشام وعلى رأسهم من زعمائهم بيبرس وقلاون وسنقر و بيسرى وغيرهم من الأمراء . وقد ظل زعماء البحرية فى الشام ثلاث سنوات (١٢٥٤ — ١٢٥٧) يسببون للتاعب لسلطنة المماليك فى مصر ؛ حتى كان سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ١٢٥٨ وظهور خطر التتار فى صورة جدية على الشام ومصر ؛ وعندئذ دخل البحرية فى طاعة السلطان قطز ليواجهوا جميعا الخطر الجديد [١]

والواقع إن سيادة سلطنة المماليك لم تمتد على بلاد الشام إلا بعد موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ كما سبق أن رأينا . ومنذ تلك السنة أصبحت المتاعب التى صادفها سلاطين المماليك فى بـلاد الشام لا تأتى من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين فحسب ، بل أيضا من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام . من ذلك أن الأمير علم الدين سنجر الحلبى نائب دمشق ثار فى وجه بيبرس سنة ١٢٦٠ ، أى بعد شهر واحد من توليته السلطنة ، بل إن الأمير سنجر طالب لنفسه بمنصب السلطنة ، فتلقب بالملك المجاهد ووضع اسمه على النقود ودعا لنفسه فى خطبة الجمعة ، وصار يركب فى دمشق بشعار السلطنة [٢] . ولـكن الظاهر بيبرس أخمد حركة الأمير سنجر عن طريق الحيلة ، وذلك بعد أن حرض أمراء الشام فانفضوا عن سنجر وقاوموه ، ثم قبض عليه بعد ذلك . كذلك ثار الأمير شمس الدين أقوش البرلى ووطد مركزه فى حلب ، ولـكن السلطان الظاهر أخمد حركته [٣] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الـكروب ج ٢ ورقه ٣٩٤ (مخطوط) .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٩ .
(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١١ .

ولم تكن المتاعب التى صادفها بيبرس فى بلاد الشام فى ذلك الدور التأسيسى لدولته كلها ناشئة من جانب أمراء المماليك ، وإنما ظل بعض بقايا ملوك بنى أيوب يشكلون خطرا على سلطان دولة المماليك . من ذلك أن الملك المغيث عمر الأيوبى صاحب الكرك استعان بجموع الأكراد الفارين من وجه التتار وأخذ يغير على الشوبك وغيرها من المناطق القريبة التابعة لسلطنة المماليك . ولم يهدأ بيبرس إلا بعد أن قبض على المغيث عمر سنة ١٢٦٢ واعتقله بقلعة الجبل إلى أن قتل بعد ذلك (١) .

ولما اعتلى المنصور قلاون دست السلطنة سنة ١٢٧٩ ، خرج عليه شمس الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته ؛ بل إنه دعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل وخطب له فى الجامع الأموى . وفى أثناء النزاع بين السلطان قلاون والأمير سنقر لم ير الأخير حرجا فى الاتصال بالتتار ، فاتصل بخان مغول فارس — وهو أبغا بن هولاكو — وحرضه على مهاجمة بلاد الشام ، ثم انتهى الأمر بفرار الأمير سنقر إلى صهيون (٢) . ولم تنته المتاعب التى واجها السلطان قلاون فى بلاد الشام عند ذلك الحد ، إذ حدث سنة ١٢٨١ ، والسلطان قلاون مشغول بمحاربة الصليبيين ، أن دبر الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار مؤامرة لاغتيال السلطان (٣) . ولم يتردد المتآمرون فى الاتصال بالصليبيين ، ولكن المنصور قلاون علم بالمؤامرة فى الوقت المناسب فأحبطها وأعدم زعماءها وفر عدد كبير من أتباعهم إلى صهيون ليلحقوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر (٤) .

---

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢ ورقة ٢٣٠ — ٢٣١ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ؛ ج ٢٩ ورقة ١٧٠ أ
(٣) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٨ ب

والملاحظ أنه لم تحدث اضطرابات فى الشام عقب وفاة السلطان قلاون وقيام ابنه الأشرف خليل فى السلطنة سنة ١٢٩٠ ، أو عقب مقتل الأشرف خليل وقيام أخيه الناصر محمد بن قلاون فى السلطنة سنة ١٢٩٣ . وفى الفترة المضطربة التى أعقبت وفاة المنصور قلاون وامتدت حتى قيام الناصر محمد فى السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، شهدت بلاد الشام بعض الأحداث . من ذلك أن السلطان كتبغا الذى اغتصب السلطنة سنة ١٢٩٤ زار بلاد الشام حيث عزل الأمير عز الدين أيبك الحموى نائب دمشق وعين بدله الأمير سيف الدين أغرلو العادلى . ولم يكد السلطان كتبغا يعود إلى مصر حتى عزله حسام الدين لاجين وولى السلطنة بدله سنة ١٢٩٦ ، وعندئذ هرب كتبغا إلى دمشق(١) .

وقد لجأ السلطان المنصور لاجين إلى تعيين الأمير سيف الدين قبجق نائبا بالشام، كما أرسل السلطان السابق الناصر محمد بن قلاون إلى الكرك ليأمن خطره(٢) . غير أن السلطان لاجين أوغر صدور أمراء مصر والشام عليه بسبب سياسته، فخرج عليه الأمير قفجق بالشام (قبجق) ، ثم رحل قفجق إلى بلاد التتار حيث رحب بهم غازان محمود (٣) .

ولم يلبث أن عاد السلطان الناصر محمد إلى عرشه سنة ١٢٩٨ ليضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار، الأمر الذى جعل الناصر محمد يتظاهر بالخروج إلى الحجاز ، حتى إذا بلغ الكرك أعلن تنازله عن السلطنة . وإزاء إصرار الناصر محمد على رغبته ، اختار الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطانا سنة ١٣٠٨ . غير أن أمراء الشام لم يرضوا جميعا بحكم السلطان الجديد ، فأقسم بعضهم يمين الولاء

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٣ ، ٦٤ ؟
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨١٩ — ٨٢٢ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ورقة ٣١٥ .
(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ٤٠

لبيبرس الجاشنكير ، فى حين راسل البعض الآخر الناصر محمد وأفهموه أنهم على ولائهم له .

وزاد الموقف فى بلاد الشام تعقيدا ، أن بيبرس الجاشنكير أخذ يضيق الخناق على الناصر محمد بالكرك ؛ الأمر الذى جعل الأخير يكتب إلى نواب الشام يذكرهم بأنهم مماليك أبيه وأنه طالما أحسن إليهم، فلا أقل من أن يساعدوه فى استعادة عرشه وإلا فإنه سيلجأ إلى التتار ويطلب مساعدتهم . وبفضل مساعدة أمراء الشام تمكن الناصر محمد من العمل لاستعادة عرشه ، فسار إلى دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا طيبا ، وأقيمت له الخطبة وقدم له أمراء الشام فروض الولاء[1] . وبعد ذلك عاد الناصر محمد إلى مصر حيث اعتلى دست السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ .

وكان أن عين الناصر محمد الأمير قراسنقر المنصورى نيابة السلطنة بالشام ، فأغضب ذلك المماليك الأشرفية لاتهامهم الأمير قراسنقر هذا بالمشاركة فى قتل السلطان الأشرف خليل . وقد أحس الأمير قراسنقر بأن المماليك الأشرفية يوغرون صدر السلطان الناصر ضده ، فاتفق مع بعض أمراء الشام ـ مثل الأمير أقوش الأفرم نائب طرابلس ـ إلى بلاد التتار ، حيث رحب بهم أولجاتيو إيلخان التتار فى فارس[2] .

ولم يلبث أن عين السلطان الناصر الأمير تنكز الحسامى الناصرى نيابة الشام سنة ١٣١٢ ، ثم ولاه جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حماه وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه . ولم يلبث أن ازداد نفوذ تنكز فى الدولة ، وبخاصة بعد أن ارتبط مع السلطان الناصر محمد برباط المصاهرة ؛ ويروى أبو المحاسن أن

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ — ٢٦٥ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣١ — ٣٢ .

تنكز طلب من السلطان عزل يلبغا نائب حلب فعزله على الفور[1]. غير أن الناصر محمد لم يلبث أن أوجس خيفة من ازدياد نفوذ تنكز، فحقد عليه وعزله وتخلص منه وأحل محله فى نيابة الشام الأمير ألطنبغا الصالحى[2].

وإذا كانت سلطنة الناصر محمد الثالثة قد امتازت بطول المدة الزمنية (١٣٠٩ — ١٣٤١) والاستقرار النسبى فى أوضاع الدولة الداخلية، فإن عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده شهد كثيرا من التقلبات والفتن فى مصر والشام جميعا. من ذلك أنه حدث فى عهد الملك الصالح صلاح الدين (١٣٥١ - ١٣٥٤)، أن خرج عن طاعته معظم نواب الشام مثل نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه ونائب صفد. وبذلك لم يبق على طاعة السلطان سوى أرغون الكاملى نائب دمشق الذى اضطر إلى الهرب إلى غزة، فاستولى بيبغا أرس نائب حلب على دمشق، حتى نجح السلطان فى القضاء على الفتنة[3].

وفى عهد المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى (١٣٦١ - ١٣٦٣) أعلن الأمير بيدمر الخوارزمى نائب دمشق العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة، وشاركه فى حركته جماعة من نواب الشام؛ فخرج السلطان إلى الشام سنة ١٣٦١ وقبض على بيدمر وأرسله مقيدا إلى الإسكندرية وعين اثنين من أمرائه نوابا على دمشق وحلب ثم رجع إلى القاهرة[4].

وفى عهد المنصور على بن الأشرف شعبان (١٣٧٦ - ١٣٨١) خرج الأمير بيدمر نائب دمشق عن الطاعة مرة أخرى ولكن نائب قلعة دمشق تمكن من القبض عليه[5].

---

(١) المرجع السابق ج ٩ ص ١٢٩.
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٤٥ — ١٤٧.
(٣) المرجع السابق ج ١٠ ص ٢٧١ — ٢٧٧
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١١ (بولاق).
(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥١٣ — ٥١٤.

وقد استمرت بلاد الشام فى عصر دولة المماليك الجراكسة مسرحا لكثير من الثورات والحركات التى قام بها بعض الأمراء ضد السلطنة . ففى الأحداث التى أدت إلى انتقال الحكم من المماليك الترك إلى المماليك الجراكسة ، نسمع كيف ثار الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذى سبق لليلبغاوية إبعاده إليها ، وإن كانت الأمور قد هدأت بسرعة فى الشام سنة ١٣٧٧ . وفى النزاع الذى دب سنة ١٣٧٧ بين الأميرين برقوق وبركة من ناحية وطشتمر من ناحية أخرى ، لجأ برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بنقل أنصاره إلى وظائف النيابة بالشام .

ثم كان نجاح برقوق فى القضاء على سلطنة الترك وإقامة دعائم دولة المماليك البرجية سنة ١٣٨٢ ، ليجعل بلاد الشام مسرحا جديداً للنزاع بين الترك والجراكسة ، إذ ثار ألطنبغا التركى نائب أبلستين ضد برقوق سنة ١٣٨٢ ، وإن كان نواب الشام لم يؤيدوه فى ثورته مما اضطره إلى الفرار إلى بلاد التتار[(١)]. ويفهم من المراجع أن الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب وقف موقفا عدائيامن برقوق ، فحرص على الاحتفاظ بصداقةسولى بن دلغادر التركمانى — وهو ألد أعداء دولة البرجية — مما جعل برقوق يعزل يلبغا نائب حلب سنة ١٣٨٥[(٢)]. غير أن برقوقلم يكد يفرغمن أمر يلبغا حتى سمع بمؤامرة جديدة فىدمشق سنة١٣٨٦[(٣)]. وفى الوقت نفسه أخذ منطاش نائب ملطية يجمع عناصر المقاومة ضد برقوق ، الأمر الذى جعل الأخير يعيد يلبغا الناصرى إلى نيابة حلب ليتخذه أداة فى محاربة منطاش . على أن يلبغا الناصرى لم يقف موقفا حاسما من منطاش ، الأمر الذى دعم نفوذ الأخير وزاد من خطورة حركته[(٤)] .

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٩ .
(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٤٧٠ .
(٤) العينى: عقد الجمان ج ٢٤ ق ٢ ورقة ٣٢٨ .

ولم يلبث الأمير يلبغا الناصرى أن أعلن ثورته علنا على السلطان فى حلب ، فاستمال منطاش إليه ، وسيطر على شمال الشام . وفى ذلك الوقت جاءت الأخبار إلى السلطان برقوق من دمشق بأن بعض الأمراء الترك فى الشام هاجموا طرابلس وقتلوا من فيها من أمراء موالين لبرقوق[1] . وهكذا لم تكد تنتهى سنة ١٣٨٩ حتى كانت معظم مدن الشام — فيما عدا دمشق و بعلبك والكرك — قد دخلت فى طاعة يلبغا الناصرى . وقد بادر السلطان برقوق بإرسال جيش إلى دمشق لمحاربة يلبغا الناصرى ، ولكن الهزيمة حلت بجيش السلطان قرب دمشق ، مما مكن يلبغا الناصرى من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها [2]

وهكذا غدت بلاد الشام فى ذلك الدور مسرحا لنزاع مرير ، هو فى حقيقة أمره صراع بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة حول السلطنة . أما يلبغا الناصرى ، فإنه لم يضع الوقت ، و إنما زحف إلى غزة ومنها دخل أرض مصر إلى الصالحية ، الأمر الذى جعل برقوق مضطرا إلى التنازل عن السلطنة ؛ فنفى إلى الكرك سنة ١٣٨٩[3] .

غير أن برقوق استغل وجوده فى بلاد الشام ليجمع الأنصار ، فى الوقت الذى اشتد النزاع فى مصر بين يلبغا الناصرى ومنطاش . ولم يلبث أن خرج برقوق من الكرك إلى دمشق . وقوى مركز برقوق فى حصاره لدمشق انضمام الأمير كشبغا الحموى نائب حلب إليه ، الأمر الذى جعل برقوق يطمئن إلى جبهته الشمالية ، و يترك حصار دمشق ليتفرغ لمواجهة الجيش الكبير الذى خرج من مصر بقيادة منطاش لمحاربته . وفى المعركة التى دارت بين الطرفين سنة ١٣٩٠

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٧٥ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

تغلب برقوق و إن لم يستطع دخول دمشق ، فزحف على مصر ليدخل القاهرة ويسترد عرشه[1]. وسرعان ما استطاع برقوق بعد ذلك توطيد نفوذه بالشام ، و إن كان ذلك لم يتم إلا بعد أن غدت بلاد الشام مسرحا لصراع مرير بين يلبغا الناصرى ومنطاش سنة ١٣٩١ ، مما أثر تأثيراً سيئاً فى أوضاعها الاقتصادية[2].

وإذا كانت الأمور قد استقرت نسبياً فى بلاد الشام فى أواخر عهد برقوق، فإن ثورة الأمراء لم تلبث أن تجددت بعد وفاته . من ذلك مانسمعه عن ثورة الأمير تنم نائب الشام فى عهد السلطان فرج بن برقوق سنة ١٤٠٠ ؛ وانضم إليه فى ثورته نواب صفد وطرابلس وحماه وحلب[3]. وقد استطاع السلطان إخماد هذه الثورة ؛ ولكن ذلك الانتصار لم يكن معناه استقرار الأمور فى بلاد الشام ، إذ حدث بعد قليل أن تعرضت بلاد الشام لغزو التتار بزعامة تيمورلنك، الذى أباد جيش المماليك عند حلب سنة ١٤٠٠ واستولى على حلب ، ثم أنزل الهزيمة بالسلطان فرج عند دمشق فى أواخر سنة ١٤٠٠ ودخل دمشق نفسها[4]. والمعروف أن تيمورلنك جمع مهرة صناع وأرباب الحرف فى الشام ورحلهم إلى سمرقند ، مما أضر بحضارة الشام ضررا بليغا .

واستمرت أحوال بلاد الشام فى اضطراب بعد الصلح مع تيمورلنك والمماليك ، إذ ثار نائب غزة ونائب طرابلس ضد السلطان فرج سنة ١٤٠٥ . وفى عهد السلطنة الثانية للسلطان فرج ثار نائب حلب الأمير جكم سنة ١٤٠٧ وأعلن سلطنته وتلقب بالملك العادل، وضرب السكة باسمه ولم يكد يقتل جكم بعد

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ، ؟
المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٦٣٤ — ٦٣٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٣١٩ — ٣٢٤ (بولاق)

(٤) ابن عربشاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور ص ٩٨ وما بعدها

شهرين حتى انضم نوروز نائب الشام إلى شيخ نائب طرابلس واستبدا ببلاد الشام ، بل لقد زحفا على مصر سنة ١٤٠٨ . وقد حلت الهزيمة بالسلطان فرج قرب دمشق سنة ١٤١٢ ، ثم قبض عليه وقتل بعد قليل[1].

وهكذا ظلت بلاد الشام مسرحا لكثير من الفتن والمؤامرات والثورات طوال عصر المماليك. وقد درس الأستاذ جاستون فييت تراجم أربعة وسبعين نائبا لنيابة دمشق فى عصر المماليك ، فتبين له أن تسعة وعشرين منهم خرجوا على السلطنة وأعلنوا الثورة ، واستطاع اثنان منهم — هما لاجين وشيخ — أن يصلا إلى السلطنة ؛ وتمكن إثنان من الهرب إلى خارج الدولة ، وحصل خمسة على عفو السلاطين ، وسجن خمسة ثم أفرج عنهم ، فى حين أعدم خمسة عشر[2]. هذا فى دمشق فقط وهى إحدى نيابات الشام !

أثر نيابات الشام فى أحوال دولة المماليك :

أما عن نصيب نواب الشام فى سياسة دولة المماليك العامة ، فيلاحظ أنهم كانوا قوة يخشاها السلاطين فى مصر ؛ حتى أن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان عليه أن يفكر فى مدى إخلاص نواب الشام له . ولعل هذا هو السر فيما لجأ إليه سلاطين المماليك من كثرة تغيير نواب الشام بين حين وآخر وبخاصة فى أوائل حكم كل سلطان .

ولا أدل على قوة نواب الشام ومدى إدراك سلاطين المماليك لخطورتهم ، من أن السلطان بيبرس الجاشنكير لم يتمالك نفسه من الفرح عندما حلف له نواب الشام عقب توليته السلطنة سنة ١٣٠٨ وقال : « الآن تم لى الملك ! »[3]

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(2) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire p. 56.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٢ .

ثم إن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان يحرص بمجرد اعتلائه دست السلطنة ، على أن يرسل خبر سلطنته إلى الشام ليطمئن إلى أن نواب الشام وأمراءها جميعا يؤيدونه .

وهناك أربع حالات فى دولة المماليك الترك اشترك فيها أمراء الشام مع بعض أمراء مصر فى خلع أربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء الموالين لهم . وأول هؤلاء السلاطين هو بركة خان بن بيبرس ، وسبب خلعه قيام خلاف بينه و بين أمراء الشام ومصر . ويقال إن بركة خان كان بالشام سنة ١٢٧٨ عندما علم بمؤامرة أمراء الشام ضده ، فأرسل إليهم ملتمسا منهم العفو متلطفا إليهم بأنواع الخضوع[١] . ولكن الأمراء لم يهتموا بكلامه وساروا إلى مصر ليعملوا على خلعه ، وعندئذ رحل بركة خان عن دمشق قاصدا مصر حيث حاصره الأمراء حتى اضطروه إلى التنازل عن السلطنة . ويقول النويرى إن بركة خان أرسل إلى الأمراء أثناء الحصار « وسألهم أن يكون الشام بكماله لهم ، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه »[٢] .

أما السلطان الثانى الذى خلع عن السلطنة عندما غضب عليه أمراء الشام فهو كتبغا (١٢٩٤ — ١٢٩٦) ، الذى استثار أمراء الشام عندما عزل الأمير أيبك الحموى نائب دمشق وعين بدله مملوكه أغرلو العادلى ، فضلا عن أنه لم يمنح أمراء الشام الإقطاعات والهدايا عند زيارته الشام لأول مرة ، ، كما جرت بذلك عادة السلاطين فى عصر المماليك[٣] .

وأما السلطان الثالث الذى خلع عن السلطنة بسبب غضب أمراء الشام عليه ، فهو بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ — ١٣٠٩) الذى لم يرض عنه نواب

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ٦٨ (مخطوط)
(٢) النويرى نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٢٦ ا .
(٣) تاريخ ابن الوردى ج ٣ ص ٢٤٠ .

الشام وكاتبوا الناصر محمد فى الكرك يخبرونه بتأييدهم له حتى يسترد ملكه[1] . وكان أن خرج الناصر محمد من الكرك إلى دمشق — كما سبق أن ذكرنا — « فخرجت عساكر دمشق إلى طاعته وتلقوه » ؛ وبفضل هذه المعونة تمكن الناصر محمد من استعادة عرشه سنة ١٣٠٩[2] .

وأخيرا فإن السلطان الرابع الذى خلع بسبب قيام أمراء الشام ضده هو علاء الدين كجك بن الناصر محمد سنة ١٣٤١ ؛ وقد تسلطن بعده أخوه أحمد[3] .

ومهما يكن من أمر ، فإن قيام بعض الحركات فى الشام لمساندة سلطان أو عزل آخر لا ينبغى أن تجعلنا ننسى إطلاقا المساعدات القيمة التى أمدت بها نيابات الشام مصر فى أوقات الحرج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين والتتار. ولا شك فى أن الملاحظة الهامة التى يخرج بها الدارس لتاريخ عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام هى أن أمراء المماليك ـ فى مصر والشام ـ كانوا غالبا ما يتناسون ما بينهم من خلافات لمواجهة الأخطار الخارجية ؛ وأن وحدة مصر والشام كانت ضرورة حتمية لمواجهة خطر الأعداء الذين هددوا كيان العروبة فى الشرق الأدنى فى ذلك العصر.

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤١ .
(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٨
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢١ وما بعدها

الفصل التاسع

العلاقات الخارجية

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام سنة ١٢٥٠ أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ؛ فنظر إليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال ؛ في حين نظرت إليها القوى الأخرى - خارج المحيطين العربي والإسلامي - نظرة خوف واحترام. وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت الوطن العربي في الشرق الأدنى في شجاعة وبأس ، فحمت الشام ومصر من خطر التتار ، وطردت الصليبيين كلية من أرض الشام ، بل لاحقتهم في مراكزهم القريبة مثل أرمينية الصغرى وقبرص ورودس . هذا فضلا عن أن نجاح سلاطين المماليك في إحياء الخلافة العباسية في مصر - بعد سقوطها في بغداد - جعل لهم ولدولتهم مكانة مرموقة في العالم الإسلامي أجمع ، إذ جعلهم يبدون في صورة الزعماء الحقيقيين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتها .

وهكذا غدت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قبلة الأصدقاء والأعداء جميعا ؛ الأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها ، والأعداء يبغون ملاطفتها ومسالمتها ، أو مهادنتها اتقاء لبطشها . وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقا في ذلك العصر ، ليجعل التجار والسفراء يترددون على مصر بين فينة وأخرى ، يبغون عقد اتفاقية تجارية أو إلغاء مكس أو تخفيف ضريبة . وبذلك شهدت القاهرة نشاطا دبلوماسيا ضخما في عصر المماليك ، وصارت مركزا لشبكة واسعة من العلاقات

الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة ، بحيث أننا لا نبالغ إذا قلنا إن ديوان الإنشاء فى عصر المماليك غدا يمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع فى ذلك العصر . ولا أقل من تتبع هذا النشاط بإلقاء نظرة سريعة على العلاقات بين سلطنة المماليك فى مصر والشام من ناحية وأهم الدول التى ربطتها بها علاقات دبلوماسية من ناحية أخرى [1] .

المماليك ومغول القفجاق :

عندما قسم جنكزخان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعة قرب بحر قزوين وفى حوض نهر الفولجا من نصيب جوجى ابن جنكزخان، فأقام هناك دولة عرفت باسم دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبى الذى اشتهرت به مخيماتها . ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التتار ، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام ؛ الأمر الذى ترتب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين مغول القفجاق والقوى الإسلامية المجاورة وبخاصة دولة المماليك من ناحية ؛ وازدياد العداء والتنافس بين مغول القفجاق و بقية طوائف المغول الوثنيين و بخاصة مغول فارس من ناحية أخرى .

وفى موجة العداء بين سلطنة المماليك فى مصر وتتار فارس ، كان طبيعياً أن يزداد التقارب بين المماليك وتتار القفجاق المسلمين من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكد يعلم بإسلام بركة خان حتى كتب إليه « يغريه بقتال هولاكو و يرغبه فى ذلك» [2] . ثم إن الظاهر بيبرس أخذ يكرم وفود المغول الوافدين على

---

(١) استبعدنا من هذه الدراسة الدول التى لم تربطها بدولة المماليك سوى علاقات حربية واضحة مثل مغول فارس وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس وغيرها ؛ وقد سبق الكلام عما كان بين دولة المماليك وتلك الدول من علاقات يغلب عليها الطابع الحربى.

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٦٥ .

بلاده من القبيلة الذهبية ، وكان بعض هــؤلاء خاضعين لهولاكو ففروا إلى الشام عندما لمسوا العداء المستحكم بين زعيمهم بركة خان وحاكمهم هولاكو[1].

ولم يلبث أن وفد على مصر سنــة ١٢٦٣ رسل بركة خان يحملون رسالة للسلطان بيبرس جاء فيها « فليعلم السلطان أننى حاربت (هولاكو) الذى من لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الإسلام لأنه باغى والباغى كافر بالله ورسوله[2] ... » وكان أن رد الظاهر بيبرس على بركة خان برسالة طويلة جمع فيها « من الترغيب والاستمالة والإغراء على هولاكو وإظهار الميل إليه... »[3]. ولم يكتف بيبرس بتلك الرسالة ، وإنما أمر بالدعاء لبركة خان ـ بعد الدعاء للسلطان على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة ، كما أرسل صحبة الرسل هدية ثمينة للملك بركة ، من جملتها فيل وزرافة . ويقال إن رسل بيبرس قوبلوا بالحفاوة البالغة فى بلاد بركة خان ، وحكوا عند عودتهم إلى مصر أن لــكل أمير وأميرة فى بلاط بركة خان إماما ومؤذنا خاصاً ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس[4] .

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩ ؟
القريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨ .
(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ .
(٣) ابن واصل . مفرج الــكروب ج ٢ ص ٤٢٢ (مخطوط) .
(٤) توماس أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ٢٦٠ .
ويلاحظ أن بعض الــكتاب ذكروا أن الظاهر بيبرس تزوج من ابنة بركة خان ملك القفجاق (انظر مثلا جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، ص ١٠٦) ؛ وأخذوا هذا الرأى عن :

Lane—Poole : op. cit., p. 266.

ولــكن هذا الرأى يبدو لنا خاطئا ، إذ لا يوجد فى المراجع المعاصرة أدنى إشارة إلى ارتباط الظاهر بيبرس بملك القفجاق بركة خان بصلة المصاهرة. وربما كان سبب ذلك الخطأ الذى وقع فيه لين بول ومن أخذ عنه ، أن المراجع عندما ذكرت زوجات الظاهر بيبرس قالت إن أولى زوجاته هى ابنة حسام الدين بركة خان التترى وأنها كانت خوند الــكبرى فى حريم بيبرس وأم ولده وولى عهده السعيد بركة خان . ولــكن الأمير حسام الدين بركة خان غير بركة خان ملك

ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقة بين الظاهر بيبرس فى مصر و بركة خان ملك مغول القفجاق لم تكن مجرد علاقة شخصية بين رجلين و إنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وأحستا بخطر واحد مشترك هو خطر مغول فارس . وهكذا لم تؤد وفاة بركة خان سنة ١٢٦٧ ، إلى انقطاع صلات الود بين مغول القفجاق ودولة المماليك ، إذ تبودلت السفارات والكتب بين بيبرس ومنكوتمر — خليفة بركة خان — بقصد توجيه القوى ضد مغول فارس وزعيمهم أبغا[1] . واستمرت هذه السياسة نافذة بعد بيبرس ، إذ حدث سنة ١٣٠٤ أن أرسل طقطاى ملك القفجاق سفارة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون تحمل هدية ورسالة خلاصتها استعداده لمشاركته فى محاربة غازان ايلخان مغول فارس ؛ فأجابه الناصر محمد بأن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه أولجاتيو رضى بالصلح[2] .

وقد أراد السلطان الناصر محمد بن قلاون أن يدعم الصلات بين دولتى المماليك والقفجاق ، فواصل إرسال الرسل والهدايا إلى أزبك خان ؛ بل لقد أرسل سفارة سنة ١٣١٦ إلى أزبك خان ليطلب الزواج من « بعض الجهات الجنكزية » أى أميرة من بيت جنكزخان ، وذلك توثيقاً لصلات الود بين سلطنة المماليك ومغول القفجاق . ولكن يقال إن رجال أزبك خان تمنعوا فى أول الأمر ، واشتطوا « فى طلب المهر وطول المدة وكثرة الشروط[3] » ؛ الأمر الذى جعل السلطان الناصر محمد يعدل مؤقتاً عن ذلك المشروع حتى عاد أزبك خان إلى

= القفجاق ، ولا يعدو الأمر مجرد تشابه فى الاسم أوجد ذلك الخلط (المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٤٠ — ٦٤٤) .

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٥٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ؛ جـ ٢ ص ٧ ؟
محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ٢١٨ .

(٣) النويرى نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٣٧ ؟
المقريزى : السلوك ؛ ج ٢ ص ٢٠٤ .

تلبية رغبة السلطان الناصر فقال « قد جهزت لأخى السلطان للملك الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجنكزخانى » . وفى سنة ١٣٢٠ وصلت الأميرة التترية واسمها دلنبية — ويقال طولونية — إلى الإسكندرية عن طريق البحر فاستقبلت أحسن استقبال ، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام (١) .

وهكذا استمرت العلاقات أقوى ما تكون صفاء بين سلطنة المماليك فى مصر ودولة مغول القفجاق . ويفهم مما ذكره القلقشندى أن المراسلات استمرت بين السلطان الحسن ابن الناصر محمد وجانى بك ابن أزبك ، وأن جانى بك كان يخاطب فى رسائل المماليك بعبارات التشريف والتقدير والمبالغة فى الاحترام (٢) .
ويبدو أن انحلال إيلخانية مغول فارس بعد ذلك قلل من إحساس كل من مغول القفجاق والمماليك فى مصر والشام بذلك الخطر المشترك . هذا إلى أن دولة مغول القفجاق نفسها أخذت فى الانحلال والضعف البطىء ، فى الوقت الذى شغلت سلطنة المماليك بأعداء جدد مما أضعف صلاتها مع مغول القفجاق .

المماليك والدول الإسلامية فى آسيا :

حرصت مصر فى عصر المماليك على بسط نفوذها السياسى والدينى على الحجاز ، أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين . وكان شرفاً عظيماً ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى صورة حامى الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . ومنذ قيام سلطنة المماليك فى مصر ، وسلاطين المماليك يبدون اهتماما خاصا بالحجاز وعناية كبرى بشئونه . ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية على رعاية الحرم النبوى وإرسال

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

الكسوة إلى الحجاز[١] ؛ وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذ المماليك السياسي على الحجاز . ومن ذلك ما يقال من أن السلطان الظاهر بيبرس إنما قصد بإحياء الخلافة العباسية فى مصر ، أن يستغل هذه القوة الجديدة فى بسط سيادته على الحجاز مثلما كان الحال أيام الأيوبيين[٢] .

والواقع إن الخلافات بين أشراف الحجاز هى التى أتاحت فرصة طيبة لسلاطين المماليك لتحقيق أغراضهم . ذلك أنه حدث سنة ١٢٦٦ أن قدم إلى مصر الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة ليشكو إلى السلطان بيبرس من أن الشريف جماز أمير المدينة حرمه من المشاركة فى الإمرة التى كانت مناصفة بين أبيه ووالد جماز . وهكذا وجد السلطان فرصة طيبة للتدخل ، فكتب إلى جماز يطلب منه تسليم بدر الدين نصف الإمرة ، وتسلم الشريف بدر الدين تقليدا بذلك من بيبرس ، « فامتثل جماز » .

ثم حدث سنة ١٢٦٨ أن وقع خلاف فى مكة بين الشريف نجم الدين أبى نمى و بين عمه وشريكه فى إمارة مكة الشريف بهاء الدين إدريس . وقد انتهز السلطان بيبرس تلك الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيد سلطانه عليهما جميعا ، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة بشرط ألا يجمعوا من أحد مكوسا وألا يمنع أحد من زيارة البيت وألا يتعرض لتاجر . وأهم من هذا كله ، فإن السلطان بيبرس اشترط على أميرى مكة أن يخطب باسمه فى الحرم والمشاعر ، وأن تضرب السكة باسمه ، مما يضمن له سيادة سياسية فعلية على الحجاز . و بعد أن وافق أميرا مكة على كل ذلك ، كتب لهما بيبرس تقليداً بالإمارة وسلمت لنوابهما أوقاف الحرم التى بمصر والشام[١] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٥ .
(2) Van Berchem ; Titres Califiens pp. 286—292.
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٦٠ ، ٥٧٩ .

ولم يبق بعد ذلك أمام بيبرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى . وكان أن نفذ بيبرس عزمه سنة ١٢٦٩ (٦٦٧ هـ) فزار المدينة ، وغسل الكعبة بيديه . وانتهز تلك الفرصة ليعين أحد أمرائه — وهو الأمير شمس الدين مروان — نائبا عنه فى مكة « ليكون الحل والعقد على يديه »[١]. على أنه يتضح من خلال أحداث زيارة بيبرس للحجاز أن العلاقة بينه و بين أشراف الحجاز لم تكن على ما يرام ، بدليل أن أميرى المدينة جماز ومالك رفضا مقابلة السلطان بيبرس « وفرا منه » ؛ مما يشهد على أن أمراء الحجاز أحسوا بثقل وطأة حكم بيبرس عليهم[٢].

ولم تستقر الأوضاع لدولة المماليك فى الحجاز بعد عهد بيبرس ، إذ استمرت الخلافات بين الأشراف فى مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة فى وجه دولة المماليك. من ذلك ماحدث فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون من استنجاد الشريف منصور ضد ابن أخيه ماجد بن مقبل الذى انتزع منه إمارة المدينة ؛ فأرسل السلطان الناصر محمد بعضا من جنده لمعاونة الشريف منصور[٣].

أما فى مكة فقد علت الشكوى من الأخوين حميضة وأسد الدين رميثة ، مما جعل السلطان الناصر محمد يرسل حملة سنة ١٣١٤ لإحلال أخيهما أبى الغيث محلهما فى الحكم[٤]. ولم يكتف أمراء مكة بالاستعانة بسلطنة المماليك فى مصر لفض ما بينهم من منازعات ، بل بلغ الأمر ببعضهم أن فر إلى أولجاتيو إيلخان

---

(١) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٥٥١ (مخطوط) ؟
النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥١ — ٥٢ (مخطوط) .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٨٠ — ٥٨٢ .
(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ١١٨ .
(٤) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٧٣ .

المغول فى فارس لطلب النجدة منه [١] . وهكذا ظلت مكة مسرحا لمنازعات عديدة الأمر الذى جعل سلاطين المماليك يرسلون بين حين وآخر بعض القوات إلى هناك لإقرار الأمور أو لمناصرة أمير على آخر . هذا إلى أن سلاطين المماليك كثيراً ما قصدوا الحجاز لأداء فريضة الحج ، وعندئذ كانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك لبحث المشاكل التى يعانى منها أهل الحرمين ، وتوزيع القمح والغلال على المحتاجين ، فضلا عن إقرار الأمن والنظام بالأراضى المقدسة [٢] .

أما بلاد اليمن فقد ارتبط حكامها من بنى رسول بعلاقات الود مع سلاطين المماليك فى مصر . ويفهم من المراجع أن عدة سفارات أتت من اليمن تحمل الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧٥ (٦٦٦ هـ ، ٦٦٩ هـ ، ٦٧٤ هـ) ومن هذه الهدايا التحف والفيلة والحيوانات والطيور . وكان السلطان الظاهر بيبرس يحسن استقبال تلك السفارات ويرد على تلك الهدايا بأحسن منها [٣] .

ويبدو أن ملوك اليمن من بنى رسول كانوا يخشون سطوة سلاطين المماليك فى مصر ، لأنه كان من المفروض أن تظل بلاد اليمن تابعة لمصر منذ أن فتحها تورانشاه أخو صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٧٣ . هذا إلى أن قيام الخلافة العباسية فى مصر جعل لسلاطين المماليك نوعا من الولاية على بقية ملوك العالم الإسلامى ، وبخاصة البلاد التى ورد ذكرها فى التقليد الذى منحه الخليفة المستنصر بالله العباسى للسلطان الظاهر بيبرس ، وهى « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية ». ولعل هذا هو السر فى حرص ملوك بنى

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٩ ؟
Howorth : Hist. of the Mongols, III, p. 572.

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٩٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٣ ، ٥٩٥ ، ٦٢١ .

رسول باليمن على علاقاتهم الودية مع سلاطين المماليك فى مصر ، فأرسل المظفر شمس الدين على سفارة سنة ١٢٨١ إلى السلطان المنصور قلاون تحمل هدية قيمة من العنبر والعود والصينى وغيرها . وقد ألح ذلك الوفد فى الحصول على أمان من السلطان قلاون لملك اليمن ، فلبى السلطان رغبتهم وأعطاهم أمانا نص فيه على ألا « تناله منـــا مضرة مدى الدهر وأعمارنا ، مادام ملازما لشروط مودتنا .. »[٢] .

وفى الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك فى مصر على إرسال الرسل إلى اليمن ليذيعوا على أهلها ما أحرزه سلاطين مصر من انتصارات باهرة رفعت شأن الإسلام والمسلمين . من ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاون أرسل أحد أمرائه إلى اليمن ليبشر بانتصاره على التتار فى موقعة مرج الصفر ســنة ١٣٠٢[١] .

على أنه حدث سنة ١٣٠٣ أن تولى ملك اليمن المؤيد هزبر الدين داود ، الذى لم يتبع سياسة أسلافه من ملوك اليمن فى التودد إلى سلاطين مصر ، بل على العكس ضايق التجار المصريين وامتنع عن إرسال المال المقرر إلى مصر . لذلك أرسل إليه كل من السلطان الناصر محمد والخليفة المستكفى بالله ينذرونه ويهددونه؛ بل لقد أخذ الناصر محمد يعد العدة لإرسال قوة حربية لتأديب صاحب اليمن ، لولا اضطراب الأحوال الداخلية فى مصر مما حال دون تنفيذ ذلك المشروع[١] .

على أن الأمور لم تلبث أن انتظمت بين سلطنة المماليك من ناحية وملوك اليمن من ناحية أخرى . ومن الثابت أن المنـــازعات بين أمراء اليمن بعضهم

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٢٣ (مخطوط).

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ١٣٠ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٣ — ٣٨ .

وبعض من جهة ، أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهــة أخرى ، أتاحت لسلاطين المماليك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر فى شئون اليمن وادعاء هيمنتهم على ملوكها . من ذلك أن الملك المجاهد سيف الدين طلب من السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ أن يمده بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور الذى سيطر على معظم أنحاء اليمن ، فأمده السلطان الناصر محمد بحملة كبيرة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب[١] . وهـكذا ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء لسلاطين المماليك فى مصر ويحرصون على إرضائهم مما حقق لأولئك السلاطين سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وثمة دولة إسلامية أخرى فى آسيا ربطتها بسلطنة المماليك علاقات المودة والصداقة ، هى دولة هندستان . وقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دهلى (١٣٢٥ — ١٣٥١) فى توطيد دعائم دولته عن طريق التوسع على حساب الصين وخرسان من جهة ، ومحالفة سلطنة المماليك فى مصر بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمغول فارس من جهة أخرى[٢] . ولهذا الغرض أرسل محمد بن تغلق فى أوائل حكمه سفارة مزودة بالهدايا الثمينة ، وإن كانت هذه السفارة لم تصل إلى مصر بسبب مادب بين أعضائها من نزاع ، مما مكن الملك المجاهد صاحب اليمن من الاستيلاء على ما معهم من هدايا . ولما سمع محمد بن تغلق بما حدث لسفارته الأولى ، عاد وأرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٣١ يطلب معونته ضد المغول[٣] .

ثم إن محمد بن تغلق لم يكتف بالسعى لكسب تأييد السلطان الناصر

---

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ٢ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(2) Lane—Poole : Med. India under Mohammedan Rule, pp. 116—120.

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون ص ١٤٠ — ١٤١ .

محمد ، بل حاول أيضا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسى بالقاهرة ، فأجابه الخليفة المستكفى بالله العباسى إلى رغبته . وقد حرص فيروز شاه الثالث — الذى خلف محمد بن تغلق فى الحكم سنة ١٣٥١ — على اتباع نفس السياسة ، فطلب تعويضا من الخليفة العباسى ، وأرسله له الخليفة المعتضد بالله سنة ١٣٥٦[1] .

وهكذا يتضح لنا كيف أن سلطنة المماليك أيام ذروة مجدها حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقا يخطبون ودها و يسعون لكسب تأييدها .

سلطنة المماليك والدول الإسلامية فى شمال أفريقية :

أما الدول الإسلامية بشمال إفريقية فقد ربطتها بسلطنة المماليك فى مصر علاقات قوية أدت إليها رابطة الجوار والإسلام من جهة، ورابطة الخلافة من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذى هدد العالم الإسلامى من جانب الغرب الأوربى من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج نظرا لأن مصر تقع على الطريق الرئيسى الذى يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة .

وكانت مشكلة الخلافة سببا من أسباب فتور العلاقات فى وقت ما بين سلطنة المماليك فى مصر و بنى حفص فى تونس (١٢٢٨ ـ ١٥٧٣) . ذلك أن ملوك بنى حفص لم يطلبوا من الخليفة العباسى فى بغداد تفويضا بالحكم مثل غيرهم من غالبية الحكام المسلمين ، مما يشير إلى شىء أضمروه فى نفوسهم . ولم يلبث أن ظهر ذلك الشىء عندما اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحفصى الملقب بالمنتصر (١٢٤٩ ـ ١٢٧٦) لقب الخلافة والإمامة ، وتلقب بلقب « المستنصر بالله

(1) Allan : The Cambridge Shorter Hist. of India, p. 246.

المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين »[1] . و بذلك كان أسبق ملوك شمال أفريقية ـ بعد الموحدين ـ إلى اتخاذ لقب أمير المؤمنين .

وتشير المراجع إلى أن الذى شجع الحفصيين على الإقدام على تلك الخطوة كان شريف مكة أبو نمى بن الحسن ، الذى أسرع بالاعتراف بسيادة الحفصيين على مكة[2] . ولم تكن سفارة أبى نمى هى الوحيدة التى وصلت إلى تونس ، وإنما أعقبتها أيضا سفارتان إحداهما من سلطان بنى مرين والأخرى من ملك التكرور .

ولم يمض على اتخاذ أبى عبد الله الحفصى لقب الخلافة مدة طويلة حتى قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة ١٢٦٠ ، مما أوجد نوعا من الضغينة بين سلطنة المماليك فى مصر وملوك الحفصيين فى تونس . والواقع إن سلطنة المماليك فى مصر حاولت دائما أن تقلل من شأن خلافة الحفصيين ، بدليل ما ذكره العمرى من أن ملك «تونس يخاطب بأمير المؤمنين فى بلاده»[3] . كذلك شكك القلقشندى فى دعوى انتساب الحفصيين لقريش ، وقال إنهم ليسوا من العرب فى شىء ، وحقر من شأنهم وشأن خلافتهم[4] . أما المؤرخ أبو المحاسن فقد بلغ من تحقيره للحفصيين وخلافتهم أن قال ما نصه « وفيها (٦٥٢ هـ) وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء إنسان على إفريقية وادعى أنه خليفة وتلقب بالمستنصر ... »[5]

---

(1) Van Berchem : Titres Califien, p. 292.

(٢) القيروانى : المونس فى أخبار افريقية وتونس ، ص ١٢٨ .

(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٧٧

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢ .

ويبدو لنا موقف سلطنة المماليك فى مصر من الحفصيين فى المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء ، إذ ليس فى هذه المكاتبات ما يشير إلى اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين . ولم يحاول سلاطين المماليك تلقيب الحفصيين بلقب أمير المؤمنين ، وإنما لقبوهم فقط بلقب « أمير المسلمين » وهو لقب دون الأول فى المرتبة ولا يعنى أنه خليفة شرعى على المسلمين ، وإنما هو مجرد حاكم أو أمير من أمراء المسلمين يعمل تحت لواء الخلافة [1] . وليس فى القلقشندى سوى رسالة واحدة بعث بها الظاهر برقوق إلى أحد ملوك الحفصيين لقبه فيها بلقب «أمير المؤمنين» ؛ وربما كانت عبارة المؤمنين فيها تحريفا عن المسلمين نتيجة لخطأ النساخ ، أو ربما كان سوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين فى القاهرة وسلاطين المماليك عندئذ سببا دفع الظاهر برقوق إلى الاعتراف بالخلافة الحفصية نكاية فى الخلافة العباسية .

على أن مشكلة الخلافة بين المماليك والحفصيين لم تصل إلى درجة من الحدة تحول دون تكاتف القوتين لمواجهة الخطر الكبير الذى هدد العالم الإسلامى عندئذ من جانب الصليبيين . من ذلك أن أخبار حملة لويس التاسع على تونس سنة ١٢٧٠ أثارت اهتمام السلطان بيبرس ، فأخذ يستعد بسرعة لدفع عادية الصليبيين عن تونس ، بل يقال إن السلطان الظاهر بيبرس بادر بإرسال رسول إلى فرنسا لتحذير لويس التاسع من عاقبة مشروعة ، وذلك بمجرد وصول أخبار استعدادات لويس التاسع إلى مصر [2] . وعند نزول القوات الصليبية فى تونس بادر السلطان الظاهر بيبرس بإرسال رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره بأنه سيرسل إليه ما يستطيع من عسكر ، كما طلب من عربان برقة المبادرة بمساعدة

(1) Van Berchem : Titres Califiens, p. 261.

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ص ٢٩١ .

المستنصر الحفصى . هذا إلى أن بيبرس أمر بحفر الآبار فى الصحراء الغربية ليعتمد عليها جنوده فى طريقهم لنجدة تونس [1] .

على أن السلطان بيبرس لم يكد يمضى فى استعداداته حتى جاءت الأخبار بموت لويس التاسع فى تونس وفشل حملته ، الأمر الذى جعل بيبرس يوقف استعداداته الحربية لمساعدة تونس ويرسل البشائر إلى سائر بلدان المسلمين ابتهاجا بالخلاص من ذلك الخطر [2] . ومع ذلك فإن السلطان بيبرس لم يفته أن يتخذ تلك الحملة الصليبية وسيلة للتشنيع على المستنصر الحفصى والحط من شأنه . ويروى المقريزى أن رسول صاحب تونس قدم إلى مصر سنة ١٢٧١ يحمل هدية وكتابا للسلطان الظاهر بيبرس ، ولكن بيبرس استاء من أسلوب المخاطبة وظن أن صاحب تونس تعمد عدم مخاطبة سلطان مصر بما يستحقه من تقدير . لذلك تعمد السلطان بيبرس من ناحيته أن يفرق هدية صاحب تونس على الأمراء دون أن يحتفظ لنفسه بنصيب منها ، كما رد على ملك الحفصيين مستقبحا تظاهره بالمنكرات واستخدامه الفرنج ، فضلا عن تقاعسه فى الجهاد وعدم خروجه لمقاتلة الصليبيين عندما هاجموا بلاده . ويروى المقريزى أن السلطان بيبرس قال للمستنصر الحفصى « مثلك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين [3] » .

* * *

هذا عن العلاقة بين سلطنة المماليك ودولة الحفصيين فى تونس ؛ أما عن علاقة المماليك ببقية بلاد المغرب الإسلامى - مثل بنى زيان فى تلمسان وبنى مرين فى فاس - فيلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقة بين سلطنة المماليك وبنى مرين فى فاس ، فى الوقت الذى ساءت العلاقات بين بنى زيان وبنى مرين .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٠

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٤ .

(٣) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٦٠١ .

والواقع إن الزيانيين تطلعوا في أول الأمر إلى سلاطين المماليك للحصول على تأييدهم ضد أطماع بنى مرين ؛ ولكن سلاطين المماليك فى مصر كانوا على درجة من بعد النظر جعلتهم يدركون أن بنى مرين هم أضخم قوة فى بلاد المغرب، فحرصوا على إظهار الود نحوهم واكتساب صداقتهم ؛ الأمر الذى أدى إلى نفور بنى زيان من سلطنة المماليك . وليست هناك بداية محددة لذلك النفور ، وإن كانت المراجع تشير إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاون أرسل سفارة سنة ١٣٠٥ إلى أبى يعقوب يوسف المرينى ، ومع السفارة هدية جليلة . وبعد أن لقيت السفارة من بنى مرين كل ترحاب وحفاوة ، تعرضت وهى فى طريق عودتها إلى مصر لعدوان الأعراب فى تلمسان ، على الرغم من أن أعضاء السفارة كانوا قد طلبوا من بنى زيان فى تلمسان حمايتهم فى أراضيهم [1] . وكان أن غضب السلطان الناصر محمد بن قلاون لما أتاه صاحب تلمسان -وهو عندئذ أبو حمو موسى (١٣٠٧ — ١٣١٨)- فأرسل يعتب عليه ويؤنبه ، كما بعث له بهدية صغيرة تحقيرا لشأنه . وقد رد التلمسانى على السلطان الناصر محمد محتجا ، كما رفض قبول الهدية [2] . وعلى الرغم من أن أبا تاشفين عبد الرحمن بن موسى التلمسانى حاول أن يصلح الأمور بعد ذلك مع سلطنة المماليك ، وأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ معبرا عن حسن نواياه ويوضح له أن سبب استياء أسلافه هو « ميلكم إلى غيرنا » (يقصد بنى مرين) [3] ؛ فإن دعوته لم تجد ترحيبا من سلطنة المماليك . ولم يلبث بنو مرين أن بسطوا سيادتهم على تلمسان سنة ١٣٣٧ ، وكتب أبو الحسن على المرينى رسالة إلى السلطان الناصر محمد يخبره بما تم على يديه من فتوح ، فرد عليه السلطان الناصر مؤيدا ومهنئا [4] .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٥٠ (مخطوط) .

(٢) ابن خلدون العبر ج ٧ ص ٣٢٧ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٨٦

(٤) المرجع السابق ج ٨ ص ٨٧ — ٩٩ ؟ ج ٧ ص ٣٩٥ — ٤٠٧ .

وهكذا يبدو لنا كيف نظر سلاطين المماليك فى مصر إلى بنى مرين نظرة احترام و إجلال ، بوصفهم أكبر قوة فى المغرب العربى ، فضلاعن دورهم البارز فى حماية الإسلام بالمغرب وجهاد المسيحيين بأسبانيا [1] .

والواقع إن مظاهر العلاقات الوثيقة التى ربطت مصر بالمغرب العربى فى أواخر العصور الوسطى بوجه عام وفى عصر سلاطين المماليك بوجه خاص ، عديدة ومتنوعة. ومن هذه المظاهر حرص سلاطين المماليك على إرسال البشائر إلى المغرب كلما أحرزوا انتصارا على أعداء المسلمين فى الشرق ، مثل التتار أو الصليبيين . ولا يخفى علينا أن ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلطنة المماليك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامى ضد الأخطار التى هددته من جهة المشرق . وهناك فى المراجع ما يشير إلى أن ملوك المغرب كانوا يقفون موقف المترقب عندما دهم خطر التتار المشرق العربى على أيام هولاكو ثم تيمورلنك، وأنهم كانوا يسارعون إلى تهنئة المماليك عقب كل انتصار أحرزوه على خصومهم [2]

كذلك كانت مصر فى عصر سلاطين المماليك ملجأ لكثير من المغاربة اللاجئين إليها فراراً من حكام بلادهم . ولم يقتصر الأمر على الأمراء المغاربة الفارين من بلادهم ، و إنما تعدى ذلك إلى هجرة بعض أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر يلتمسون فيها العلم والرزق . وكان بعض أولئك المغاربة من الفقراء والصوفية ، فتركوا أثراً عميقا فى أحوال مصر الاجتماعية نتيجة لما ترتب على مجيئهم من انتشار حركة التصوف فيها . ولا يخفى علينا أن مرور ركب الحجاج المغاربة بمصر فى طريقهم إلى الحجاز أو إلى بلادهم بعد إداء فريضة الحج

---

(١) العمرى : التعريف ص ١٦ — ٣٣ .

(١) النويرى . نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٧ ؟

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩ — ٨٤ ، ١٠٣ ج ٧ ص ٤٠٧—٤١١

كان فرصة طيبة لإطلاع نسبة كبيرة من أهل المغرب على أوضاع مصر : ولا شك فى أن تلك العلاقات الطيبة بين مصر والمغرب مهدت لانتعاش التبادل التجارى والثقافى بين الطرفين . أما عن النشاط التجارى فثمة إشارات فى المراجع إلى أن مصر كانت تستورد من المغرب الخيول والزيوت وتصدر إليه المنسوجات الحريرية والكتانية. وقد روى ابن خلدون أنه أتى إلى مصر سنة ١٣٨٢ على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة [١] ، كما ذكر فى موضع آخر « إن تجار المغاربة إلى المشرق ثروتهم بعيدة لبعد الشقة وغلو أسعار بضائعهم»[٢]. وأما عن التبادل الثقافى فالمعروف أن مصر في عصر المماليك « صارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء » كما وصفها السيوطى[٣]. لذلك قصدها فى ذلك العصر كثير من المغاربة لطلب العلم ، فضلاء العلماء المغاربة الذين حظوا بعطف سلاطين المماليك وسمحوا لهم بالتدريس فى الأزهر [٤] . وعلى رأس هؤلاء العلماء يذكر التاريخ اسم ابن خلدون الذى أتى إلى مصر لائذاً بها سنه ١٣٨٢ ، وظل يواصل نشاطه العلمى فى التأليف والتدريس حتى وفاته فى مصر سنة ١٤٠٥ . أما ابن بطوطة ــ الرحالة المغربى الشهير ــ فقد وفد على مصر فى عهد السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٤ ، وسجل إعجابه بها ووصفه لما شاهده بين ربوعها فى رحلته المعروفة .

وهكذ تدل جميع الشواهد على تنوع الصلات وقوتها بين مصر فى عصر المماليك والمغرب العربى ، مما ترك أثرا كبيرا فى التاريخ ويعتبر شاهدا قوياً على وحدة التاريخ العربى .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٤٥١ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٩٤ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦.
(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ح ٣ ص ٣٦١ — ٣٦٢ ؟ ج ٤ ص ٣٢٧.

العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربي :

أما دول السودان الغربي ، فلم تقم بينها و بين سلطنة المماليك فى مصر علاقات سياسية قوية مباشرة وذلك لبعد الشقة بين الطرفين . وليس معنى ذلك انعدام الصلات بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ، فقد كانت هناك صلات قوية ، ولكنها كانت أكثر وضوحا فى نواحى الحج والتجارة والجوانب الثقافية .

والواقع إن الحج ظل يمثل أقوى الروابط التى ربطت سلطنة المماليك بدول السودان الغربى ، حيث أن سكان تلك النواحى اعتادوا فى طريقهم إلى الحجاز أن يسلكوا الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات ، وهو يبدأ من مدينة غات نفسها و ينتهى عند الأهرام[1] . فإذا وصل حجاج السودان الغربى إلى مصر فإنهم اعتادوا أن يقضوا فيها وقتا حتى يتهيأ ركب الحجاج والمحمل إلى مكة . ولاشك فى أن تلك المدة التى كانوا يقضونها فى مصر أثناء طريقهم إلى الحجاز ، كانت فرصة طيبة يتصلون فيها بالمصريين و يتصل المصريون بهم و يتعرف كل طرف على الآخر .

وأول من مر بمصر فى طريقة إلى الحجاز من ملوك مالى والتكرور هو منساولى الذى حج أيام السلطان الظاهر بيبرس[2] . وتخبرنا المراجع أن ثمة وفداً من الحجاج التكاررة وفد بعد ذلك إلى مصر سنة ١٣٢٣ ، وكان يتألف من عشرة آلاف تكرورى على رأسهم منساموسى[3] . وقد أحاط ذلك الملك نفسه

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٣٤

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣ . ويذكر القلقشندى أن منسا معناها السلطان وولى معناها علىّ .

(٣) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ج ٢ س ٢٧٥ .

بمظاهر الترف ، وأخذ ينفق فى مصر عن سعة استرعت نظر المعاصرين ، وقدم هدايا جليلة للسلطان الناصر محمد قلاون من بينها حمل جليل من الذهب المعدنى الخام . أما السلطان الناصر محمد فقد أكرمه و بعث إليه و إلى أفراد حاشيته بالخلع والسيوف وغيرها ، كما أمده بالخيول والجمال والمؤونة ليتمكن من مواصلة سفره إلى الحجاز[1] .

ولم يلبث سلاطين مالى أن أدركوا أهمية الحصول على تقليد من الخلافة العباسية بالقاهرة فى توطيد نفوذهم . من ذلك أن محمد أبو بكر سلطان مالى انتهز فرصة مروره بمصر سنة ١٤٩٤ فى طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ورأى أن يدعم ملكه و يكسبه صبغة شرعية ، فطلب من الخليفة العباسى تقليدا بتفو يضه حكم بلاده ، ومنحه الخليفة ما أراد . و يقال إنه عند وصوله إلى مكة ، نادى به شريف مكة « سلطانا وخليفة بأرض التكرور ، وأن كل من خالفه فقد خالف الله ورسوله[2] » .

و يبدو أن نفوذ مصر السياسى صار معترفا به فى تلك الجهات منذ أواخر القرن الرابع عشر ، إذ حاول ملوك الكانم الحصول على تأييد شرعى لحكمهم من سلطنة المماليك[3] .هـذا مع ملاحظة أن ملوك السودان الغربى ظلوا فى نظر سلاطين المماليك فى مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقية ، بدليل أن الفريق الأول كانوا يخاطبون فى المكاتبات السلطانية الصادرة عن ديوان الإنشاء بلقب « الجناب الكريم العالى » فى حين أن الفريق الثانى كانوا يخاطبون بلقب «المقام العالى[4]».

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار ص ٩٤٣ ، ٩٥٤ — ٩٥٥ .

(٢) محمد كعت التنبكتى : تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص ١٢ — ١٣ .

(3) Ziada : Foreign Relations, p. 113.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧ .

والواقع إن المراسلات المتبادلة بين سلاطين المماليك فى مصر وملوك السودان الغربى تلقى ضوءا هاماً على العلاقة بين الطرفين ، وتدل على مدى عناية دولة المماليك بتعرف أحوال تلك البلاد من ناحية ، ومدى اهتمام بلاد السودان الغربى بأخبار دولة المماليك من ناحية أخرى وما تتعرض له من أحداث وبخاصة من جهة التتار . ويستشف من كلام العمرى أنه يأسف لعدم العناية عناية تامة بأحوال التكرور الذين تربطهم بمصر روابط الإسلام ، ويطالب بمزيد من الاهتمام بأخبارهم[1].

ولا شك فى أن روابط الإسلام بين مصر ودول غرب إفريقية أدت إلى نمو الروابط العلمية والثقافية بين الطرفين . من ذلك ما يقال من أن السلطان منسا موسى انتهز فرصة وجوده فى مصر فابتاع جملة من الكتب ليوفر لأهل بلاده جانبا من الثقافة الإسلامية[2]. كذلك يقال إن جامعة تنبكتو الدينية التى أنشئت حوالى سنة ١٣٣٥ حاولت دائما أن تحتذى أساليب الأزهر فى التعليم . ويبدو أن بعض المصريين من العلماء وغيرهم استقروا فى السودان الغربى ، بدليل ما يذكره ابن بطوطة من أنه عندما مرض فى مدينة مالى لم يسعفه بالعلاج إلا أحد الأطباء المصريين[3] .

ومن جهة أخرى ، فإن بعض طوائف من بلاد التكرور أقامت فى مصر لطلب العلم والدراسة على مشايخ العصر المبرزين أمثال ابن جوزى وأبى حيان وغيرهما[4] . وقد نبغ من التكاررة فى مصر صبيح بن عبد الله التكرورى الملقب بالكلوتاتى الذى اشتغل بتدريس الحديث فى دمشق حيث مات سنة ١٣٣٠[5] .

---

(1) Demombynes : Masalik Alabsar, Intr; IX.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ٧ ص ٢ .

(٥) ابن حجر الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٥ .

كذلك ابتنى تجار التكاررة بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق[1]؛ وأصبحت هذه المدرسة المالكية مركزاً لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور، حتى أن الخيرين من أهل تلك البلاد اعتادوا أن يبعثوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات[2]. ولا يخفى علينا أن كثيراً من التكاررة فى مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر، وهؤلاء كان لهم نصيب من عطف سلاطين المماليك، إذ يروى المقريزى أن السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس «عمل للتكاررة خوان حضره كثير من أهل الخير»[3].

وأخيراً، فإنه لا يخفى علينا أن التجارة كانت تمثل رباطاً قوياً دعم العلاقات بين دولة المماليك ودول السودان الغربى. وسنتكلم عن النشاط التجارى بين الجانبين فى مكان آخر من هذا الكتاب، ولذلك نكتفى بالإشارة هنا أن الأمر لم يقتصر فى عصر المماليك على مجىء التجار التكاررة إلى مصر يحملون حاصلات السودان، وإنما تعدى ذلك إلى تردد بعض التجار المصريين على بلاد الكانم والتكرور، الأمر الذى قوى الصلات بين دولة المماليك ودول السودان الغربى.

العلاقة بين سلطنة المماليك والحبشة:

أما عن العلاقة بين سلطنة المماليك والحبشة فكانت من نوع آخر. ذلك أن الحبشة دولة مسيحية تتبع كنيستها الكنيسة المرقسية بالإسكندرية؛ ثم إنها كانت بعيدة عن مصر لا تربطها بها حدود مباشرة مما حال دون وقوع

---

(١) سميت بهذا الاسم لأن علم الدين ابن رشيق هو الذى أشرف على بنائها قبيل منتصف القرن السابع الهجرى؛ وهو أيضاً أول من درس بها.

(٢) المقريزى المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٦٥.

(٣) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٦٤٩.

صدام مباشر بين القوتين ، مثلما حدث بين مصر ومملكة النوبة المسيحية فى عصر المماليك ، أو بين سلطنة المماليك من ناحية والقوى الصليبية القريبة فى الشام وأرمينية الصغرى وقبرص ورودس من ناحية أخرى .

والواقع أنه منذ أن تأكدت تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية فى أوائل العصور الوسطى ، والعادة جرت بأن تستورد الحبشة مطارنتها من مصر ؛ فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين أحداها لحاكم مصر والأخرى لبطرك الإسكندرية طالباً تعيين من يشغل كرسى المطرانية فى الحبشة . كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعاياه [1]. وعند وصول هاتين الرسالتين والمال ، يتصل بطرك الاسكندرية بالسلطان أو الحاكم فى مصر ويستأذنه فى رسامة أحد الرهبان الأكفاء ليشغل كرسى مطران الحبشة .

وهكذا وجد عامل دينى قوى ربط بين الحبشة وسلطنة المماليك ، وحقق قدراً كبيراً من الاتصالات بين الدولتين . ويفهم من المراجع أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، ولكن هذه السفارة تأخرت فى العودة بسبب الحروب الداخلية التى كانت دائرة هناك حول العرش ، الأمر الذى أغضب بيبرس . وقد أحس ملك الحبشة بغضب سلطان مصر ، فلم يجرؤ على طلب مطران منه مباشرة ، وإنما اتصل بسلطان اليمن وطلب وساطته لكى يصدر بيبرس أوامره إلى البطرك غبريال الثالث ليبعث إلى الحبشة «مطرانا رجلا جيدا عالما لا يحب ذهبا ولا فضة » . ونخرج من رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس بنتيجتين أولاهما أنه اشترط فى المطران أن « لا يحب ذهبا ولا فضة » مما يفهم منه أن بعض المطارنة

(1) Coulbeaux : Hist. Politque et Religieuse de l'Abysinie, T. I, p. 179.

البحر المتوسط

برقة
عكا
حلب
حماه
حمص
دمشق
الموصل
بغداد
الإسكندرية
دمياط
رشيد
القاهرة
بيت المقدس
الكرك
أيلة
القلزم
مصر
أسوان
عيذاب
وادي حلفا
سواكن
ينبع
المدينة
مكة
جدة
دنقلة (القديمة)
سناره
علوه

دولة المماليك
في أقصى اتساعها

المصريين الذين كانوا يوفدون إلى الحبشة أظهروا تكالبا على المال ؛ وثانيهما أن ملك الحبشة حرص على أن يحشو رسالته لسلطان مصر بعبارات الملق والزلفى ، ومن ذلك قوله « ... وهذه الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر ، ويهلك الله عدوه ... »[1]

ومع ذلك فإنه يبدو أن العلاقة استمرت سيئة بين السلطان الظاهر بيبرس وملك الحبشة ، فامتنع بيبرس عن إرسال المطران المطلوب ، مما دفع الحبشة إلى استحضار مطرانا سوريا من بلاد الشام[2] .

غير أن الأحباش لم يرتاحوا للمطارنة السوريان ، فكتب ملك الحبشة يجبأصيون (صهيون) إلى السلطان المنصور قلاون يعتذر له ويسأله «إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصارى والمسلمين » . كذلك كتب ملك الحبشة إلى بطرك الاسكندرية يقول له « وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم ، ولأجل محبتنا فى بطركية مصر ماخليناهم عندنا أساقفة وطردناهم »[3] .

وقد تكررت رسائل ملك الحبشة إلى السلطان قلاون بعد ذلك ، وكلها رسائل مليئة بالتوسلات والتضرعات ، حتى أنه قال فى إحدى رسائله « ... اسمع ياسلطان مصر — نصرك الله — : إعطى البطرك الدستور يبعث لى أسقفا ، فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم ... »[4] . وكان أن استجاب السلطان المنصور قلاون لرجاء ملك الحبشة فسمح بترسيم المطران المطلوب وسفره إلى الحبشة .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٤٦ (مخطوط) .
(2) Coulbeaux : op. cit., T. I, pp. 288—290.
(٣) محي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ١٧٠ — ١٧٣ .
(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

ومن هذا يبدو أن علاقة كنيسة الحبشة بالكنيسة المرقصية بالاسكندرية كانت سببا فى اتصالات دائمة بين دولة المماليك والحبشة . وجدير بالذكر أن سلاطين المماليك فى مصر كانوا يرتابون أحيانا فى العلاقة بين بطاركة الإسكندرية وملوك الحبشة ؛ ولهذا أصروا أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق سلطنة المماليك نفسها وليس اتصـــالا مباشرا . ويدل ذلك على أن بعض سلاطين المماليك أخذوا عهداً على بطرك النصارى بأن « لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ولاظاهراً ولا باطنا، ولا يولى أحداً فى بلاد الحبشة ولاقسيسا ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابته . . . » [1] . كذلك كان سلاطين المماليك يوجهون دائما النصح إلى بطرك النصارى فى مصر بأن « يتوقى مايأتيه سراً من تلقاء الحبشة » [2]. ولا شك فى أن تلك المخاوف التى سادت سلاطين المماليك فى مصر من الاتصالات بين بطرك مصر وملوك الحبشة إنما كانت أمرا طبيعياً فى عصر الحروب الصليبية ، وهو العصر الذى طفح بروح التعصب الدينى من ناحية والذى ظهرت فيه دولة المماليك فى صورة القوة الإسلامية الكبرى التى تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين من ناحية أخرى .

على أن موضوع تعيين مطران للحبشة من قبل بطرك الإسكندرية لم يكن السبب الوحيد للاتصال بين سلطنة المماليك ودولة الحبشة. ذلك أنه ثمة مظهر آخر للعلاقات بين الطرفين ارتبط بمرور الحجاج الأحباش بمصر وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس . والمعروف أن الأحباش كانت لهم جالية كبيرة مقيمة فى بيت المقدس ، كما كان لهم دير كبير فى تلك المدينة المقدسة اتخذوه مقرا لهم . وقد اعتاد ملوك الحبشة إرسال الهدايا والهبات إلى رهبان ذلك الدير ، فضلا عن التماس كرم سلاطين المماليك فى رعاية أولئك الرهبان . من ذلك ما جاء فى رسالة ملك

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٢١٠ .

(٢) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٤٨ .

الحبشة يجبا صيون (١٢٨٤ ـ ١٢٩٣) إلى السلطان المنصور قلاون ؛ من أن ذلك الملك أرسل ثوبا ومائة شمعة « وسأل إنفاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف، ويوصى عليهم بألا يمنعوا من دخول الهياكل »[١]. كذلك أرسل ملك الحبشة المذكور إلى رهبان دير الأحباش فى بيت المقدس يقول لهم « سلام عليكم يارهبان الحبوش الذين صبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام ، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ، ومائة شمعة ، وثيابى وهو زنارى الذى تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان .. فعرفونى بوصول هذا ، واكتبوا أسمـــاءهم ، واذكرونى فى صلواتكم بدعواتكم[٢] ... » .

ويبدو أن جموع الحجاج الأحباش الذين كانوا يمرون بمصر فى طريقهم إلى بيت المقدس بلغوا درجة من الكثرة تطلبت نوعا من دوام الاتصال بين ملوك الحبشة من ناحية وسلاطين مصر من ناحية أخرى، لإعفاء أولئك الحجاج من رسوم المرور . وقد ذكر ألفارى أنه شاهد قافلة تضم نحوا من ثلثمائه من حجاج الأحباش تمر بالأراضى المصرية قرب شواطىء البحر الأحمر فى طريقهم إلى بيت المقدس[٣] .

والمتواتر فى المراجع أن السلطان صلاح الدين الأيوبى شمل دير الأحباش برعايته عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، ولذلك دأب ملوك الحبشة فى عصر المماليك على إرسال السفارات والكتب لسلاطين المماليك ، راجين أن يشملوا حجاج الأحباش بعطفهم ولا يمنعوهم من زيارة كنيسة القيامة

---

(١) محي الدين بن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ص ١٧٠

(٢) المرجع السابق ص ١٧٣ .

(3) Alvarez : Portugeuse Embassy, pp. 243—244.

بالقدس [1] .

والواقع إن وجود جالية كبيرة من الأحباش مقيمة إقامة دائمة في بيت المقدس، ووجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة ، أمر له أهميته من حيث إطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولا بأول . ولم تغب عن البابوية وأصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوربا فكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية الكبرى — وهي الحبشة — في محاربة المسلمين ، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائيا من الشام في أواخر القرن الثالث عشر [2] . ومن الثابت أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين . وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استثارة ملوك الحبشة ، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرس من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥ . كذلك فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ — ١٤٢٩) في غزو مصر ، وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرس وأسروا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦ . وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوربا مباحثات في هذا الشأن ، ولكنها باءت بالفشل [3] . كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتجويع مصر ، وهي الفكرة التي ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أرغونه والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى [4] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢ .
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٩ .
(٣) المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٤ ؟
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٦٣٧ — ٦٤٠ (طبعة كاليفورنيا)
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٣ — ١٢١٤ .

العلاقة بين سلطنة المماليك ودول التركمان :

عاشت على الأطراف الشمالية لدولة المماليك جماعات من شعوب متنوعة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان ، وهؤلاء جميعاً ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حيناً والثورة والعدوان أحياناً ، وفقما أملته الظروف الخاصة والعامة التى أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى وشعوبها منذ منتصف القرن الثالث عشر .

وقد عرف عن التركمان بالذات أنهم ساهموا بنصيب بارز فى حركة الجهاد ضد الصليبيين منذ وقت مبكر ، فعملوا جنوداً فى جيوش أتابكة السلاجقة ثم فى جيوش الأيوبيين فالمماليك . على أنه بصرف النظر عن تلك الأعداد من التركمان الذين عملوا جنداً مرتزقة فى جيوش المماليك ، فإن التركمان أقاموا لأنفسهم دولاً أو دويلات على أطراف آسيا الصغرى و بلاد النهرين ، اشتهرت منها دولة بنى دلغادر ودولة بنى رمضان ودولة بنى قرمان ودولة الشاه البيضاء ودولة الشاه السوداء. وكان المفروض أن تكون هذه الدول التركمانية تابعة لسلطنة المماليك فى مصر والشام ، ولكن الحاصل فعلا هو أنها لم تظل على ولائها للمماليك ، و إنما دأبت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك بل ومهاجمة أراضيها ، مما سبب لدولة المماليك كثيراً من المتاعب على حدودها الشمالية .

وقد اشتد تهديد الدول التركمانية لسلطنة المماليك فى القرن الخامس عشر ، عندما كثرت القلاقل والفتن داخل دولة المماليك وظهر ضعف هذه الدولة وعجزها عن الاحتفاظ بهيبتها والدفاع عن كيانها ضد الأخطار الخارجية التى هددتها ، و بخاصة من جهة تيمورلنك . وكان أن أحس السلطان المؤيد شيخ بخطر التركمان ورأى ضرورة تأديبهم فقام بحملتين ضدهم سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ ،

ولكنهم أعلنوا ثورتهم من جديد عقب عودة السلطان ، فأرسل السلطان المؤيد شيخ ابنه إبراهيم على رأس حملة كبرى سنة ١٤١٩ ؛ فوصلت هذه الحملة إلى قونية ، وخرب ابراهيم بلاد التركمان ثم عاد محملا بالغنائم.(١)

ولم يغفر التركمان لسلطنة المماليك ما حل ببلادهم من تخريب وتدمير ، فقام عثمان قرايلوك زعيم الشاه البيضاء بمهاجمة خرتبرت سنة ١٤٢٩ كما أوغل داخل حدود دولة المماليك . ويبدو أن قرايلوك أقدم على مهاجمة دولة المماليك بتحريض من شاه رخ ابن تيمورلنك ، الأمر الذى جعل السلطان الأشرف برسباى يبادر بإرسال حملة خربت الرها — التابعة للشاه البيضاء — وأسرت حاكمها هابيل بن عثمان قرايلوك(٢) .

وقد بلغ من استخفاف عثمان قرايلوك زعيم الشاه البيضاء بسلطنة المماليك أنه أرسل إلى السلطان برسباى سنة ١٤٣٣ سفارة تحمل هدية تشمل مرآة وخروف وخلعة . وكان أن فهم برسباى ما يعنيه قرايلوك من تلك الهدية ، إذ يرمز الخروف إلى السلطان والمرآة إلى أن السلطان وأمراءه كالنساء ، فى حين تشير الخلعة إلى أن برسباى تابع لقرايلوك . ولم يستطع السلطان برسباى أن يخفى غضبه فأمر بذبح الخروف أمام الرسل وألبس الخلعة لأحد المهزليين فرقص بها فى حضرة السلطان وحطم المرآة ، ثم صرف رسل قرايلوك بعد أن أهانهم وقص أذناب خيولهم وقال لهم « قولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات » ؛ فكان ذلك إعلانا للحرب(٣) .

ومع أن الحرب التى شنها برسباى ضد قرايلوك سنة ١٤٣٣ انتهت بصلح سريع تعهد فيه زعيم الشاه البيضاء بأن يكون تابعا مخلصا لسلطان المماليك ؛ إلا

---

(1) Wiet : op cit., pp. 546—547.

(٢) إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٩ — ٢٠

أن قرايلوك كان ينكث دائما بوعوده ، الأمر الذى سبب للسلطان برسباى متاعب كثيرة . ولم يلبث برسباى أن انتهز فرصة استحكام الخلاف بين دولتى الشاه البيضاء والشاه السوداء وأعلن تأييده للأخيرة . وقد انتهى ذلك النزاع بتغلب دولة الشاه السوداء فتمكن زعيمها من هزيمة قرايلوك وقتله ، وعندئذ أرسل رأسه إلى السلطان برسباى سنة ١٤٣٥ فعلقها السلطان على باب زويلة وأمر بإقامة الزينات فى القاهرة ابتهاجا بالخلاص من ألد خصومه[1] .

وفى سنة ١٤٣٨ اعتلى دست سلطنة المماليك السلطان جقمق الذى اتصف عهده بهدوء العلاقات مع التركمان فصاهر أمراء دلغادر ، وتدخل سنة ١٤٤٩ فى النزاع بين أبناء عثمان قرايلوك الذين دب فيما بينهم الخلاف ، وفر أحدهم وهو الأمير قاسم إلى السلطان جقمق فنصره وساعده[2]. كذلك يروى السخاوى أن تركمان الشاه السوداء خطبوا ود السلطان جقمق وأرسلوا له هدية ثمينة سنة ١٤٥١ ، فقبلها السلطان وأكرم الرسل ورد على الهدية بأحسن منها[3] . وفى العام التالى ـــ أى سنة ١٤٥٢ ـــ أرسل أوزون حسن ـ أمير الشاه البيضاء ـ مفاتيح آمد إلى السلطان جقمق بعد أن انتزع تلك المدينة من أخية جهانكير المعادى لسلطنة المماليك ، فشكره جقمق ورد إليه المفاتيح[4] .

على أنه يلاحظ منذ منتصف القرن الخامس عشر ازدياد المتاعب التى سببتها دول التركمان لسلطنة المماليك وذلك بسبب ظهور قوة العثمانيين وتدخلهم فى شئون الإمارات التركمانية من ناحية وفى العلاقات بينهم و بين سلطنه المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٥٤ أن اعتدى السلطان محمد الفاتح

(1) Wiet : op. cit., p. 565.

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

العثمانى على إمارة دلغادر ، فأرسل أميرها ابراهيم بن قرمان مستنجدا بالسلطان إينال « فما اكترث السلطان بذلك » بسبب صلة الصداقة بين الدولة العثمانية وسلطنة المماليك عندئذ . ويبدو أن موقف إينال السلبى من أمير قرمان — وهو مشمول بالحماية المماليكية — أثار إبراهيم بن قرمان فخرج على سلطنة المماليك ، الأمر الذى جعل السلطان إينال يبادر بإرسال حملتين ضده حتى تم القضاء على تلك الفتنة[1] .

ولم يلبث أن اتخذ التنافس بين سلطنة المماليك من ناحية وسلطنة العثمانيين من ناحية أخرى شكل مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على الحدود بين دولتى المماليك والعثمانيين . من ذلك أنه حدث نزاع سنة ١٤٦٦ فى إمارة دلغادر بين شاه سوار وأخيه بوداق ، فناصر السلطان محمد الفاتح شاه سوار وناصرت سلطنة المماليك أخاه بوداق . وكان أن انتصر شاه سوار على أخيه فخطب له فى العاصمة أبلستين وأخذ يهاجم أطراف دولة المماليك ، الأمر الذى أثار السلطان قايتباى وجعله يرسل حملة سنة ١٤٦٧ لتأديب شاه سوار . ولكن جيش قايتباى « انكسر كسرة شنيعة »[2] . ولم تفلح الحملة التى أرسلها قايتباى فى العام التالى ضد سوار ، إذ منيت بنفس المصير من الفشل والهزيمة .

ويبدو أن سوار تمادى فى الاستخفاف بدولة المماليك والعبث بحدودها ، فضلا عن أنه اعتدى على الدول التركمانية المحالفة لسلطنة المماليك مثل دولة بنى رمضان . لذلك لم يستطع السلطان الأشرف قايتباى السكوت عن ذلك التهديد الخطير لهيبة دولة المماليك ، فأرسل حملة كبرى ضد سوار سنة ١٤٧ بقيادة الأمير يشبك الدوادار . وقد زود قايتباى قائد هذه الحملة بسلطات استثنائية واسعة ليوفر

---

(١) ابن إياس : صفحات لم تنشر ص ٢٣ ، ٤٧ (نشر محمد مصطفى) .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢ (نشر محمد مصطفى) .

له إمكانيات النصر، «ففوض إليه السلطان أمور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد، وجعل له الولاية والعزل فى جميع أحوال المملكة ...»[1]. وفعلا انتصر الأمير يشبك على شاه سوار واستولى منه على قلعة عينتاب، كما استرد منه أذنه وطرسوس، حتى اضطر سوار إلى الاستسلام سنة ١٤٧١. ولم يلبث أن عاد يشبك إلى مصر منتصرا ومعه سوار مقيدا فى الأغلال، وذلك بعد أن عين بوداق أميرا على إمارة دلغادر بدلا من أخيه سوار.

ومع ذلك، فإن سلطنة المماليك استمرت تعانى كثيرا من المتاعب من جانب إمارة دلغادر، لا سيما بعد أن خلف علاء الدولة أخاه بوداق فى حكم الإمارة سنة ١٤٨٠. ذلك أن علاء الدولة وقع تحت تأثير العثمانيين وتحريضهم وإن كان تفوق الجيوش المماليكية على الجيوش العثمانية فى ذلك الدور قد جعل علاء الدولة يلتزم جانب الحرص فى معاملاته مع دولة المماليك و يتودد إليها.

أما أوزون حسن - أو حسن الطويل - زعيم قبيلة الشاه البيضاء، فقد استغل المتاعب التى سببها شاه سوار لدولة المماليك وأغار على إقليم حلب كما وصلت جيوشه إلى الرها؛ و بعد سقوط سوار حاول إثارة أخيه بوداق ضد سلطنة المماليك لذلك بادر السلطان قايتباى بإرسال حملة بقيادة يشبك الدوادار ضد حسن الطويل سنة ١٤٧٢[2]. على أنه رغم الانتصارات الجزئية التى حققها المماليك على حسن الطويل، فإن دولة الشاه البيضاء لم تخضع فى سهولة، ولا سيما وأن الأمير خليل الذى خلف أباه حسن الطويل فى حكم الشاه البيضاء سنة ١٤٧٨ لم يكن أقل عنادا. وقد حدث فى الحروب التى شنها الأمير يشبك فى شمال الشام والعراق فى ذلك الدور أن أسر يشبك نفسه وقتل سنة ١٤٨٠. ولما سمع السلطان قايتباى

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٥٩ (نشر محمد مصطفى).
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٠، ٨٦ (نشر محمد مصطفى).

ذلك الخبر «اضطربت أحواله وماجت القاهرة عن آخرها وكان يوما مهولا»[1]. وقد بادر السلطان قايتباى بإرسال حملة للانتقام بقيادة الأمير أزبك ، ولكن دولة الشاه البيضاء بادرت بالإعتذار عما سلف ، ومن ثم هدأت العلاقات بين سلطنة المماليك وتلك الدولة إلى أن التهم الأتراك العثمانيون دول التركمان ودولة المماليك جميعا .

المماليك والعثمانيون :

أما العلاقة بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين فقد بدأت أتم ما تكون صفاء، لاسيما وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها فى الدور الأول من حركتها التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة ، وبخاصة الدولة البيزنطية ، وهو أمر قوبل بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى . وزاد من ذلك الشعور الودى المتبادل بين المماليك والعثمانيين تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك مما حتم ضرورة الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر .

وثمة إشارة فى المراجع إلى أن السلطان مراد الأول العثمانى أرسل سنة ١٣٨٨ سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من تحركات تيمورلنك من تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية [2] . وإذا كان السلطان برقوق قد أكرم وفادة رسل السلطان العثمانى ، وأظهر استعداده للتضامن معه لصد خطر تيمورلنك ألا أنه لم يستطع أن يخفى مخاوفه من أطماع العثمانيين وخطورتهم على مستقبل دولته ، فقال « إنى لا أخاف منه (تيمورلنك) فإن

(١) ابن إياس : بدائع الزهور حـ ٣ ص ١٧٤ (نشر محمد مصطفى) ؛

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦ .

كل أحد يساعدنى عليه ، وإنما أخاف من ابن عثمان ! » [١] .

ولم تلبث الأحداث أن أثبتت صدق ظن برقوق إذ أغار بايزيد الأول العثمانى على قيصرية سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذى كان مشمولا بحماية دولة المماليك . هذا وإن كان تخوف بايزيد من خطر تيمورلنك الذى أخذ يزداد اقترابا من حدود دولته قد جعله يسارع إلى إصلاح الأمور مع السلطان برقوق فاعتذر له عما حدث وأرسل له هدية ثمينة [٢] . ويبدو أن بايزيد العثمانى لم يجد له حليفاً قوياً يساعده فى دفع خطر تيمورلنك سوى دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان برقوق يحذره من ذلك الخطر ويقول إنه وضع تحت تصرفه مائتى ألف فارس ليستعين بهم فى محاربة تيمورلنك ؛ فضلا عن أنه طلب من السلطان برقوق أن يرسل إليه طبيبا « حاذقافى صنعة الطب » ليداويه . وقد قابل برقوق كل تلك العروض فى حذر ، فشكر السلطان العثمانى واحتفى برسله وأوفد إليه الطبيب شمس الدين محمد بن صغير ومعـــه من الأدوية والعقاقير ما يكفى لعلاجه [٣] .

وثمة مظهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين فى ذلك الدور بدولة المماليك فى مصر هو طلب بايزيد العثمانى تفويضاً شرعيا بالسلطنة من الخليفة العباسى بالقاهرة سنة ١٣٩٤ . ومع أن سلطنة المماليك وقفت موقف المتحفظ من ذلك الطلب ، إلا أن بايزيد أرسل إلى تيمورلنك حوالى سنة١٣٩٩ يذكره بأن الخلافة العباسية مازالت قائمة فى مصر وبأن هذه القوة الكبيرة

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ورقة ٣٨٥ .
(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الاسلام ورقة ٦٩
(٣) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٧٠٨ ؟
الخطيب : نزهة النفوس ورقة ٤٥.

كفيلة بردعه إذا حاول العدوان [1] . ومن جهة أخرى فإن السلطان بايزيد حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على الأوربيين فى موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتى أسير [٢] .

على أن تلك العلاقة الطيبة بين سلطنة العثمانيين وسلطنة المماليك أضعفت من شأنها أطماع العثمانيين . وكان ذلك فى مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق عندما أغار بايزيد العثمانى على أطراف دولة المماليك واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارندة [٣] . ولا شك فى أن ذلك العدوان كان كافيا فى حد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بنى عثمان ؛ هذا وإن كان خطر تيمور لنك ظل يدفع العثمانيين دفعا إلى الاحتفاظ بود المماليك ، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محالفة السلطان فرج لإقامة جبهة متحدة فى وجهه تيمورلنك ؛ ولكن كبار الأمراء فى مصر رفضوا محالفة ابن عثمان وأرسلوا إليه يذكرونه بعدوانه على ملطية . وهكذا أتيحت الفرصة لتيمورلنك لكى ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين فى الشرق الأدنى على انفراد فزحف على دولة المماليك وأنزل الهزيمة بجيوشها قرب دمشق فى أواخر سنة ١٤٠٠ ، كما أوقع بالسلطان بايزيد وأنزل به كارثة أنقرة سنة ١٤٠٢ .

على أن وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتفكك دولته أتاح فرصة لدولتى المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التى أنزلها بهما تيمور لنك . وكان أن تجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلطنة المماليكية ، فأرسل السلطان

(1) D'Ohsson : Tableau de l'Empire Othoman, VI, p. 223& Arnold : The Caliphate, p. 106.

(٢) ابن قاضى شهبة . ذيل تاريخ الاسلام ج ٣ ورقة ١٢٣ ، ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ١٤ ٤ .

(٣) العينى . عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٧٨ .

مراد الثانى العثمانى سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ لتهنئة السلطان الأشرف برسباى بالسلطنة ، ومعها هدية . وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان المماليك لم تصل إلى السلطان العثمانى بسبب وقوعها فى أيدى قراصنة البحر من الأوربيين[1] . ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثانى من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباى سنة ١٤٢٦ ، وقد أقامت هذه السفارة فى القاهرة لحين شهدت مجىء ثالث حملات السلطان برسباى على قبرس سنة ١٤٢٧ ، وهى الحملة التى نجحت فى غزو الجزيرة وأسر ملكها جانوس وزجنان . ويبدو أن أخبار هذا النصر الذى أحرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثانى العثمانى ، فبادر فى العام التالى — ١٤٢٨ — بإرسال خمسين أسيراً مسيحياً أوربيا هدية للسلطان برسباى[1] .

وعندما ارتقى جقمق دست سلطنة المماليك (١٤٣٨ — ١٤٥٣) ازدادت أواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والمماليكية ، فتبودلت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثانى العثمانى وجقمق ، وحرص السلطان مراد الثانى على أن يبعث إلى مصر عدة من أسرى انتصاره على الحلف الأوربى عند فارنا سنة ١٤٤٤ . وقد استمرت هذه السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثانى والسلطان إينال ، فاحتفلت القاهرة احتفالا رائعا بسقوط القسطنطينية فى قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فزينت الأسواق والحارات وأوقدت الشموع فى الشوارع والمآذن ودقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام[3] .

غير أنه لم يكد يتم للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على البلقان ، حتى عادوا يوجهون بصرهم تجاه الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التى ما زالت

---

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢٠٠ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٠

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٢ .

خروج قبضتهم فى آسيا الصغرى . والمعروف أن الإمارات التركمانية القائمة فى آسيا الصغرى وشرقيها ـ وأهمها إمارة قرمان وإمارة دلغادر ـ كانت مشمولة بالحماية المماليكية ؛ فأنذر تطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على تلك الإمارات بصدام مقبل بين العثمانيين والمماليك . وقد اتخذ الصدام بين العثمانيين والمماليك فى ذلك الدور الأول شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم فى الإمارات التركمانية ، فتساعد سلطنة العثمانيين أميراً منافسا للأمير الذى تؤيده سلطنة المماليك ، مما أوجد حالة من الصدام غير المباشر بين العثمانيين والمماليك . وازدادت العلاقة توتراً بين سلطنتى المماليك والعثمانيين عندما رحب السلطان قايتباى بأخ صغير للسلطان بايزيد الثانى العثمانى اسمه جم ، وكان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التى اعتـــاد كل سلطان عثمانى أن يدبرها للتخلص من منافسيه[1] .

ولم يلبث التنافس بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين أن اكتسب شكلا سافرا ، فأخذ السلطان بايزيد يمد يد العون للأمير علاء الدولة أمير دلغادر الخارج على سلطنة المماليك ١٤٨٣ ، وساعـده بجنود عثمانية فى الإغارة على نيابة ملطية التابعة للمماليك فى آسيا الصغرى . ولم تفلح جهود السلطان قايتباى فى إصلاح العلاقات بين دولتى المماليك والعثمانيين ؛ بل لقد أخذت جموع من العثمانيين تهاجم حدود الشام دون سابق إنذار . وإذا كانت جيوش المماليك قـد أحرزت عدة انتصارات فى الجبهة الشمالية فى أواخر القرن الخامس عشر ، فإن هذه الانتصارات لم يكن لها نتيجة سوى إيغار صدر السلطان العثمانى وتحريك الرغبة فى الانتقام عنده .

وعندما توفى السلطان قايتباى سنة ١٤٩٦ ، أرسل ابنه محمـد ـ الذى ولى

---

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين ص ٢٠٣ — ٢٠٤

السلطنة بعده ـ رسولا اسمه خاير بك إلى السلطان بايزيد الثانى ليعلمه بنبأ سلطنته. وخاير بك هذا هو صاحب دور الخيانة الذى سبقت الإشارة إليه عند الكلام عن سقوط دولة المماليك؛ وربما رجعت الخيوط الأولى لمؤامراته وخيانته إلى ذلك الوقت الذى أوفده فيه محمد بن قايتباى إلى القسطنطينية. وفى الوقت الذى اضطربت أحوال سلطنة المماليك فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر نتيجة لثورة المماليك والأمراء وكثرة تغيير السلاطين والتخلص منهم بالقتل أو العزل؛ كانت السلطنة العثمانية تستعد استعدادا جديا للمعركة الفاصلة التى ستحدد مستقبل الزعامة السياسية على العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى. وقد سبق أن رأينا كيف استطاع السلطان سليم الأول العثمانى إسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ ثم موقعة الريدانية سنة ١٥١٧.

المماليك والدولة البيزنطية:

أثبت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة على اكتساب الحلفاء فى الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديدا مباشرا فى مصر والشام. وهكذا حالف المماليك مغول القفجاق ليضربوا بهم مغول فارس الذين طالما هددوا بلاد الشام. ولكن مغول فارس لم يكونوا الخطر الوحيد الذى هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم فى بلاد الشام؛ وإنما كان هناك الخطر الصليبى ما زال قائما عند قيام دولة المماليك ليمثل خطرا حقيقيا لا يستهان به.

وكان طبيعيا أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين، مثلما حالفوا أعداء مغول فارس، فلم تكد سلطنة المماليك تقف على قدميها فى عهد الظاهر بيبرس حتى أخذت تسعى للتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية، وهى العدو التقليدى للصليبيين بالشام منذ قيام الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر. ولم تلبث أن توطدت

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والامبراطور ميخائيل باليولوجس ، فأرسل الإمبراطور إلى سلطان المماليك يطلب منه إيفاد بطرك من الملكانيين ليرعى شئون الطائفة الملكانية فى دولته . وكان أن استجاب بيبرس لرغبة الامبراطور فأرسل إليه سنة ١٢٦٢ . الرشيد الكحال ـ وهو أحد رجال المذهب الملكانى ـ صحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودى . وهناك فى القسطنطينية احتفى الامبراطور البيزنطى بالسفارة المماليكية ، وأطلع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذى كان الصليبيون قد هدموه فى الحملة الصليبية الرابعة والذى شرع الإمبراطور فى تجديده[1] . وكان أن أسهم بيبرس فى تعمير مسجد القسطنطينية فأرسل إليه « الحصر العبدانى والقناديل المذهبة والسطور المرقومة ، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والمسك وماء الورد[2] » .

ومع أن الأمير أقوش المسعودى عاد من القسطنطينية يحمل هدايا الامبراطور البيزنطى للسلطان الظاهر ؛ إلا أن الأخير استاء عندما علم أن الامبراطور عاق رسله أثناء سفرهم سنة ١٢٦٤ عبر بلاده إلى بركة خان زعيم مغول القفجاق . وقد غضب بيبرس لذلك الأمر وجمع رجال الدين ليشهدهم على أن الامبراطور البيزنطى « خالف الأيمان » . على أن الامبراطور ميخائيل باليولوجس لم يلبث أن استدرك غلطته فى سرعة ، فأطلق رسل بيبرس وسمح لهم بالسفر إلى بركة خان وفى الوقت نفسه ، بادر بإرسال الهدايا إلى بيبرس ليسترضيه[3] .

وقد استمرت العلاقات الودية بين سلطنة المماليك والامبراطورية البيزنطية بعد عهد بيبرس ؛ إذ تروى المراجع أن السلطان المنصور قلاون أرسل إلى

---

(١) العينى : عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٤٨١ ؟
محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٠
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٧١ — ٤٧٢ .
(٣) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٥١٤ ، ٥٣٧ .

الامبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الأمير ناصر الدين الجزرى و بطرك الأقباط حنا السابع ؛ وحملت تلك السفارة رسالة تفيد الامبراطور باعتلاء السلطان قلاون دست السلطنة ورغبته فى الإبقاء على مودة الامبراطور وصداقته . وكان أن أجاب الامبراطور ميخائيل الثامن على السلطان قلاون مؤكدا حرصه على الصداقة بين الدولتين و يطلب منه أن يبعث إليه يمينا يتمسك بهـا فأرسل إليه قلاون من حلفه على ذلك اليمين[1] .

ولم تتغير سياسة الدولة البيزنطية تجاه سلطنة المماليك فى مصر عندما اعتلى عرش الدولة الامبراطور أندرونيق الثانى سنة ١٢٨٢ ، إذ بادر هذا الامبراطور الجديد بإرسال هدية إلى السلطان قلاون تشتمل حملا من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط، فسر قلاون بتلك الهدية سرورا كبيرا وغمر الرسل بالعطايا[2] .

والمعروف أن سلطنة المماليك بلغت أقصى درجات النفوذ والسلطان على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون . وكان طبيعيا أن يـكون للدولة البيزنطية نصيب كبير من النشاط الخارجى الضخم الذى ميز دولة المماليك فى ذلك العصر . و يقال إن الإمبراطور البيزنطى أندرونيق الثانى أرسل سفارة إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٥ تحمل هدية له وتسأله إعادة كنيسة المصلبة فى بيت المقدس إلى أصحابها، وكان المسلمون قد حولوا هذه الـكنيسة إلى مسجد فى عهد السلطان بيبرس[3] . على أنه يبدو أن الناصر محمد لم يستجب فى سرعة لتلك الرغبة فـكرر الإمبراطور رجاءه بعد ذلك بعدة سنوات ؛ وعندئذ أعاد الناصر محمد تلك الـكنيسة إلى المسيحيين بعد أن أفتى علماء المسلمين بأنه لا يجوز اغتصابها ، كما استجاب السلطان الناصر محمد لرغبة الإمبراطور البيزنطى فى التسامح مع أهل الـكتاب

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفـكرة ج ٩ ، ص ١٢٣ — ١٢٤ .
(٢) النويرى نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٥
(٣) المرجع السابق ج ٣٠ ورقة ٢٨ .

وسمح لهم بانشاء عدة كنائس فى دولته[1] . و يبدو أن الإمبراطور البيزنطى ارتاح لاستجابة السلطان الناصر محمد له ، فأرسل له هدية ثمنية من الجوخ والأطلس وغير ذلك من التحف الجميلة [2] .

والملاحظ أن الإمبراطور أندرونيق الثانى بالذات أظهر حرصا شديداً على صداقة دولة المماليك ، فاستمر فى إرسال الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بين حين وآخر . ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعمل حسابا فى ذلك الدور لازدياد نفوذ الدول التركمانية فى آسيا الصغرى مما شكل خطراً جديدا عليها ، لذلك سعى الإمبراطور البيزنطى لعمل تحالف مع سلطنة المماليك ضد التركمان[3] . ولاأدل على حرص الإمبراطور البيزنطى أندرونيق الثانى على مسالمة سلطنة المماليك ، من أنه رفض المشاركة فى تنفيذ المشروع الصليبي الذى وضعه أحد دعاة الحروب الصليبية من البنادقة — واسمه مارينو سانودو — وهو المشروع الذى استهدف خنق دولة المماليك اقتصاديا تمهيدا لاحتلالها حربيا ثم الاستيلاء على الأراضى المقدسة بالشام [4] .

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين المماليكية والبيزنطية قائمة فى عصر أولاد السلطان الناصر محمد وأحفاده . من ذلك ما تشير إليه المراجع من أن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة إلى مصر سنة ١٣٦٩ لإزالة الأثر السيء الذى تركته حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ [5] .

وكان أن قامت دولة المماليك الجراكسة سنة ١٣٨٢ ، فاستأنفت علاقاتها

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٣ ص ١٩٥ .
(٢) المرجع السابق : ج ٣ ص ٢٢٩ .
(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ٢٦١ .
(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٨ ، ١١٩٩ .
(٥) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٦٦ (مخطوط) .

الخارجية على نفس الأسس التى اتبعتها دولة المماليك البحرية. ويقال إن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة سنة ١٣٨٥ إلى السلطان الظاهر برقوق تحمل إليه الهدايا وتطلب منه أن يكون للبيزنطيين قنصل بالاسكندرية أسوة بالبنادقة ؛ فأجاب السلطان الإمبراطور البيزنطى إلى طلبه [1] . على أن الملاحظ هو أن الإمبراطورية البيزنطية أخذت تتعرض لضغط شديد من جانب العثمانيين منذ أواخر القرن الرابع عشر ، وعندئذ ضعف نشاطها الخارجى وبات واضحا أن تلك الدولة تسير فى طريقها إلى الموت البطىء . ولم يكن بوسع الأباطرة البيزنطيين الاعتماد على مساعدة سلطنة المماليك أو تأييدها ضد العثمانيين لأن المسلمين جميعا — داخل دولة المماليك وخارجها — كانوا ينظرون إلى توسع العثمانيين على حساب القوى المسيحية فى شرق أوربا نظرة ارتياح ويعتبرون الفتوحات العثمانية جزءا من حركة الجهاد الدينى فى ذلك الدور الأخير من العصور الوسطى . وهكذا حتى جاءت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، فاحتفل السلطان إينال بذلك الحدث احتفالا كبيرا « ودقت البشائر بالقلعة » وزينت القاهرة ابتهاجا بسقوط عاصمة الروم ، وأرسل إينال إلى محمد الفاتح العثمانى « يهنئه بهذا الفتح العظيم » [2] .

سلطنة المماليك والقوى الأوربية :

وأخيراً ، فإن سلطنة المماليك ربطتها صلات عديدة — تجارية أو عدائية — مع بعض القوى الأوربية وبخاصة فى حوض البحر المتوسط . ولم يكن منتظراً من سلطنة المماليك — وهى إحدى قوى البحر المتوسط وذات السيطرة

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ورقة ٢٢٣ .
(٢) ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٥ (نشر محمد مصطفى) .

على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسى فى الحروب الصليبية فى أواخر العصور الوسطى — لم يكن منتظرا من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية فى البحر المتوسط .

* * *

والمعروف أن صقلية ربطتها بحكام مصر من بنى أيوب علاقات ودية كانت أبرز أركانها الصداقة بين الإمبراطور فردريك الثانى والسلطان الكامل الأيوبى ، وهى الصداقة التى استمرت قائمة بعد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ ، واتخذت صورة هدايا وسفارات متبادلة بين الجانبين . ولا أدل على استمرار عرى هذه الصداقه من أن الإمبراطور فردريك الثانى لجأ إلى تحذير السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بخروج لويس التاسع على رأس حملته الصليبية لمهاجمة دمياط سنة ١٢٤٨ — ١٢٤٩ [١] . ويبدو أن سقوط دولة الأيوبيين لم يغير من تلك الصداقة بين ملوك صقلية وسلاطين مصر ، إذ حرص مانفرد ابن فردريك الثانى على مصادقة سلاطين المماليك ، كما حرص سلاطين المماليك على الاحتفاظ بعلاقة الود التى ربطت مصر بمملكة الصقليتين . من ذلك ما تشير إليه المراجع من تبادل الهدايا بين مانفرد ملك الصقليتين والسلطان الظاهر بيبرس ؛ حتى أن بيبرس أرسل سنة ١٢٦١ وفدا برآسة المؤرخ جمال الدين ابن واصل إلى ملك صقلية [٢] . وكان وفد بيبرس يحمل هدية جليلة إلى مانفرد منها بعض الزراف و بعض أسرى عين جالوت من التتار . وقد رد مانفرد على تلك السفارة بسفارة مشابهة تحمل الهدايا إلى السلطان بيبرس [٣] . وليس هناك ما يشير إلى تغير هذه العلاقة بين ملوك صقلية وسلاطين المماليك بعد عهد

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٥ .

(2) Lane—Poole : op. cit., p. 266 & Enc. of Islam.

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٢ .

ما نفرد و إنما استمرت العلاقات الودية بين الطرفين قائمة في عهد البيت الأنجوى الذى تولى حكم صقلية منذ سنة ١٢٦٦. و يشير المقريزى إلى أن شارل الأنجوى ملك صقلية أرسل إلى الظاهر بيبرس هدية وكتابا على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه « بأن مخدومه أمره أن يكون أمرُ الملك الظاهر نافذا في بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه » [1] . ويبدو أن الغرض من هذا الكتاب كان عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك ومملكة صقلية [2] .

* * *

أما الجمهوريات الإيطالية التجارية ـ و بخاصة البندقية وجنوا ـ فقد ربطتها بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ؛ فكان لكل جمهورية قنصل في المدن والموانى الكبرى يرعى مصالحها . ولم يكن منتظرا من الجمهوريات الإيطالية أن تضحى بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبى العام ، ولذلك نسمع أن البندقية بالذات اهتزت لنبأ إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرص على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ وأرسلت رسلها إلى السلطان شعبان في إبريل سنة ١٣٦٦ تؤكد له أن السفن التى أغارت على الإسكندرية لاتمت إلى البندقية بصلة ، وأن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه [3] .

وكان الجنوية لايقلون عن البنادقة حرصا على مصالحهم التجارية في مصر واستياء مما فعله ملك قبرص بالإسكندرية ؛ بعد أن تأثرت تجارتهم نتيجة لذلك مع جميع البلدان الإسلامية . من ذلك مايرويه النويرى السكندرى من أن البنادقة والجنوية قصدوا بلاد العراق براً بعد واقعة الإسكندرية للتجارة كعادتهم ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥١٣ .

(2) Lane—Poole : op. cit., p. 266.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٧١ .

فنعهم السلطان أويس من دخول بغداد والمتاجرة بها وقال لهم « أرجعوا أولا إلى سلطان مصر واستدركوا ما أفسدتم فى الاسكندرية ، وأتونى بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته وحينئذ تبيعون ببلدى وتبتاعون منه »[1]. وهكذا ألح البنادقه والجنوية فى الصلح على الملك بطرس لوزجنان من ناحية وعلى سلطان المماليك من ناحية أخرى ؛ و بفضل وساطتهم تم الصلح بين الطرفين فى ديسمبر سنة ١٣٧٠ ؛ وعندئذ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرس والبندقية وجنوا من ناحية ومصر والشام من ناحية أخرى ، وأخذت سفن الفرنجة تفد إلى الاسكندرية بكثرة « واطمأنت الناس ومافات فات»[2]

والمعروف أن التنافس التجارى بين البندقية وجنوا انتهى فى القرن الرابع عشر بتفوق البنادقة الذين احتكروا معظم النشاط التجارى فى البحر المتوسط . ولم يرض الجنوية عن ذلك الوضع فأخذوا يغيرون على موانى وشواطىء دولة المماليك الجراكسة ، وشاركهم فى تلك الإغارات بعض قراصنة القطلان والروادسة والقبارسة . ويبدو أن إغارات الجنوية على شواطىء مصر والشام اشتدت فى عهدى السلطان برقوق وابنه فرج ، فهاجموا صيدا و بيروت ورشيد ودمياط ، الأمر الذى جعل السلطان برقوق يهتم بتدعيم قوته البحرية فى البحر المتوسط لدفع خطر القراصنة عن شواطىء دولته من ناحية وتأديب الجنوية من ناحية أخرى . وقد حدثت عدة اشتباكات قرب دمياط بين الأسطول المماليكى والسفن الجنوية سنة ١٣٨٥ ، انتهت بهزيمة الجنوية وأسر بعضهم[3].

---

(١) النويرى : الإلمام بالاعلام ج ٢ ورقة ٨٢ (مخطوط) .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٢ &
النويرى : الإلمام ج ٢ ورقة ٢٨٣ ب

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر ح ١ ورقة ٢٢٤ &
المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ .

وعلى الرغم من أن الجنوية أسرعوا إلى مصالحة السلطان برقوق سنة ١٣٨٦، إلا أنهم عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة والاعتداء على سفن المسلمين فى شرق البحر المتوسط . من ذلك أن بعض سفن تابعة للسلطان برقوق كانت قادمة إلى مصر وعليها شحنة من الرقيق الجراكسة ، فضلا عن أخت السلطان برقوق نفسه و بعض أقاربه ، ولكن الجنوية أغاروا على تلك السفن وأسروا من فيها ؛ الأمر الذى أغضب برقوق وجعله ينتقم من التجار والقناصل الأجانب فى دولته [1] . ومرة أخرى عاد الجنوية إلى طلب الصلح ، فأطلقوا سراح الأسرى وأرسلوا هدية إلى السلطان برقوق سنة ١٣٨٨ [2]

وهكذا استمرت العلاقة بين سلطنة المماليك وجمهورية جنوا تتأرجح بين الصلح حينا والعداء والحرب أحيانا . وقد حدث سنة ١٤٠١ — على عهد السلطان فرج بن برقوق — أن أغار بعض القراصنة من الجنوية على طرابلس واستولوا على سفينتين كانتا فى طريقهما إلى مصر تحملان قدرا كبيراً من البضائع [3] و بعد ذلك بعامين أعد حاكم جنوا قوة بحرية كبيرة واعتزم ضرب الاسكندرية ؛ ولكن حملته سنة ١٤٠٣ باءت بالفشل بسبب الاحتياطات التى اتخذها السلطان فرج . ولم يستطع الجنوية بعد ذلك إعادة العلاقات الصافية بينهم و بين سلطنة المماليك [4] . وزاد من سوء العلاقات بين جنوا ودولة المماليك فى أواخر القرن الخامس عشر أن جنوا مدت أطماعها إلى جزيرة قبرس واستولت على ميناء فاماجوستا فعلا فى الوقت الذى كانت جزيرة قبرس تخضع لحماية سلطنة المماليك منذ

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ق ١ ص ٣٣ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٧٤ .

(٣) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الاسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥ .

(4) Piloti : L'Egypt au Commencement du Quinzieme Siecle, pp. 89—90.

أن فتحها السلطان برسباى سنة ١٤٢٦[١].

و يبدو أن سوء العلاقات بين سلطنة المماليك وجنوا فى ذلك الدور هو الذى دفع الجنوية بالذات إلى البحث عن طريق آخر — غير طريق دولة المماليك — يوصل إلى الهند . وقد نجح الجنوية إلى كشف بعض أجزاء الساحل الغربى لإفريقية فى مواجهة جزر كناريا ، مما يعتبر مقدمة للجهود التى أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد[٢].

* * *

و إذا كانت الجمهوريات الايطالية قد اضطرتها ظروفها التجارية وما كان بينها من مشاحنات إلى الدخول فى منازعات أحيانا مع دولة المماليك ؛ فإن الوضع اختلف بالنسبة لدول أسبانيا المسيحية مثل أرغونة وقشتاله وأشبيلية . و يبدو أن حرص الدول المسيحية فى أسبانيا على عدم وصول نجدات من دولة المماليك المسلمين فى أسبانيا جعل ملوك تلك الدول يسالمون سلاطين المماليك . من ذلك أن جيمس الأول ملك أرغونه تودد إلى السلطان بيبرس و بادله الهدايا . وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين مملكة أرغونة من ناحية ودولة المماليك من ناحية أخرى ؛ فأرسل جيمس الثانى ملك أرغونة (١٢٩١ — ١٣٢٧) عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يسأله تسهيل مهمة الحجاج الذين يذهبون لزيارة بيت المقدس ، وكذلك يطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق رعاية تجار كل بلد فى البلد الآخر . وكانت طلبات ملك أرغونة تجاب كلها لدى سلطنة المماليك مما ساعد على بقاء العلاقة طيبة بين الطرفين[١].

---

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص١٢٥ — ١٢٦ .

(2) Beazley : Note Book of Middle Ages, p. 156,

(3) Atiya : Egypt and Aragon. pp. 60—62.

كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين السلطان المنصور قلاون من ناحية وألفونس العاشر صاحب قشتاله[1]. أما أشبيلية فيروى النويرى أن صاحبها ألفونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته، فرد عليه بيبرس بإرسال سفارة تحمل هدايا جليلة. وقد قوبلت سفارة بيبرس بالحفاوة والإكرام فى اشبيلية، وعند انتهاء مهمتها أعد لها صاحب أشبيلية سفينة حملتها إلى الاسكندرية[2].

وجدير بالذكر أن القوى الغربية التى طالما ناصبت سلطنة المماليك العداء بسبب السياسة الصليبية كانت أحياناً تلجأ إلى مسالمة المماليك رغبة فى التخفيف عن أهل الذمة فى مصر أو طمعاً فى تحقيق سياسة الصليبيين فى السيطرة على الأماكن المقدسة عن طريق مسالمة المماليك وكسب ودهم. من ذلك أن البابا حنا الثانى والعشرين اشترك مع ملك فرنسا شارل الرابع فى إرسال سفارة إلى القاهرة سنة ١٣٢٧ تطلب من السلطان الناصر محمد بن قلاون معاملة المسيحيين فى دولته برفق، حتى يمكن أن يلقى المسلمون نفس المعاملة فى غرب أوربا؛ «وأنه مهما عمل معهم (مع المسيحيين) بمصر والشام عاملوا من عندهم من المسلمين بمثله»[3]. كذلك أرسل فيلب السادس ملك فرنسا سفارة ضخمة تألفت من مائة وعشرين رجلا إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٠، ومع السفارة كتاب يلتمس فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين.

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٩.

(٢) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ورقة ٢٢٧.

(٣) المقريزى: السلوك ج ٢ ص ٢٨٧.

ولكن السلطان الناصر غضب لذلك الطلب وأهان سفراء ملك فرنسا وأمر بردهم إلى بلادهم [1].

* * *

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لسلطنة المماليك ، حتى أن بلاط سلاطين المماليك غدا مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق والغرب جميعاً .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٠٤ .

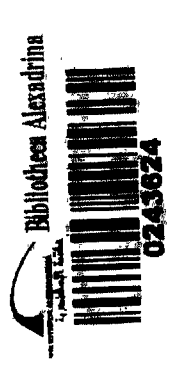











Bibliotheca Alexandrina
0243624